

The Balkan Story



الجزء الرابع
من
ملحمة القفقاس



NOVEL

محي الدين قندور

الشركس

قصة البلقان

(مأساة الشابسوغ)



الجزء الرابع
من

ملحمة القفقاس



الشركس/ قصة البلقان / رواية
محيي الدين قندور / مؤلف من الأردن
الطبعة الأولى، 2006
حقوق الطبع محفوظة



المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي:
بيروت، الصنايع، بناية عيد بن سالم،
ص. ب: 5460 – 11، العنوان البرقي: موكيّالي،
هاتفاكس: 751438 /752308

التوزيع في الأردن:
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان، ص. ب: 9157، هاتف: 5605432، هاتفاكس: 5685501
E-mail: mkayyali@nets.com.jo

تصميم الغلاف والإشراف الفني:
محمود الوزني
لوحة الغلاف:
م.م. غورلوف/ روسيا
الصف الضوئيّ:
سمير اليوسف
ترجمة:
محمد أزوقه

ISBN 953-36-832-5

صدر للمؤلف

محيي الدين عزت قندور

في الرواية

- عملية اختطاف الطائرة
- الصدع
- سيوف الشيشان
- كازبك
- المؤامرة الثلاثية
- قصة البلقان
- الثورة
- الأسطورة
- تحالفات خطرة
- ضياع في بلاد الشيشان

دراسات

- المريدية، دراسة الحروب القفقاسية (1819-185)

بسم الله الرحمن الرحيم

الشركس....

هو العرض المتسلسل تاريخياً للشعوب الشركسية في المنافي: تاريخ وضع في قالب قصصي. إنه استمرار لثلاثية "كافكاز" من قبل المؤلف نفسه، والتي كشفت للآلاف من قرائها الصراع المأساوي الذي استمر مائة سنة لأمة أعتدي عليها وأخرجت من ديارها: أجبرت على ترك أراضي أجدادها والمعيشة كمنفيين في بلاد أجنبية.

***

مهدي

إلى شعب الشابسوغ النبيل....

الذي كان أكثر من عانى كنتيجة للخروج الشركسي المأساوي من القفقاس خلال القرن التاسع عشر.

شكر واعتراف

كل عمل تاريخي، وخاصة الرواية التاريخية، هي جهد تعاوني ينطوي على البحث والمقارنة الدائمة لمواد المصادر الأرشيفية والمقابلات.

يتم توظيف خدمات العديد من الناس لتحقيق الدقة المعقولة والموضوعية لمثل تلك المساعي.

إنني أرغب في توجيه الشكر إلى مثل هذين الشخصين بشكل خاص على تعاونهم ومساعدتهم. زميلتي فرانسيس كينيت ورفيقي في بلاد البلقان، إيمري زاجادي.

كالعادة، قامت فرانسيس بمقارنة جميع المواد باجتهاد ودأب بحثاً عن العلاقة التاريخية وتحملت الكثير من الجدل من أجل الحقيقة. لقد كانت إسهاماتها لا تقدر بثمن.

غامر معي إيمري. رفيقي المتعدد اللغات / الباحث القادم من صوفيا، إلى المناطق الفقراء من بلغاريا والجبل الأسود، في محاولة لإعادة استكشاف المنطقة وتخطيط الطريق التي سلكها اللاجئون الشراكسة، مخاطراً في بعض الأحيان بالقبض عليه في الصراع البلقاني الحالي. سوف أذكر باعتزاز ذكريات مغامراته بسيارته اللادا في مرتفعات الجبل الأسود، وكذلك حكاياته البلغارية التي تثير الذهن. أشكر كليكما.

كذلك أرغب في توجيه الشكر إلى جميع أصدقائي البلغار وأبناء الجبل الأسود الجدد الذين كثيراً ما استجوبوني حول السبب في الكتابة عن الماضي بينما يحدث الكثير جداً الآن في البلقان مما يستحق الكتابة عنه. آمل أن يتفهموا حقيقة أن الماضي يكرر نفسه، في صراع البلقان الحالي. كذلك آمل أن يفهموا عندما يقرأوا هذه الرواية، ما يدفع الإنسان إلى تسجيل تاريخ شعبه.

***

مقدمة

آمل، أن يكون هذا الكتاب،العمل الأول في ثلاثية سوف تسمى "الشراكسة". إنها متابعة لثلاثية "الكافكاز". الأصلية واستمرار لقصة الشعب الشركسي بعد هجرتهم المأساوية من القفقاس عام 1864.

بعد الاستسلام لروسيا القيصرية (عام 1864) وحتى عام 1870، تم تهجير قرابة مليوني شركسي إلى تركيا العثمانية عن طريق موانئ البحر الأسود. من بين هذه القبائل، صدرت الأوامر لشعب الشابسوغ القادم من القفقاس الغربي (قرابة 250 ألفاً منهم) من قبل السلطات العثمانية، للتوجه إلى فارنا ومصب نهر الدانوب على الشواطئ الغربية للبحر الأسود بدون أن تطأ أقدامهم التراب التركي على الإطلاق. بعد ذلك تم نقلهم على عبَّارات نهرية خطرة في قوافل، مع حدوث العديد من الكوارث التي أبلغ عنها، صعوداً في نهر الدانوب إلى بلغاريا وصربيا حيث تم توطينهم على طول الخطوط الأمامية للإمبراطورية العثمانية، حيث يواجهون الثوار الصرب والبلغار...

أجبرت السلطات العثمانية البلغار المحليين على بناء المنازل لهم: أضطر بعضهم إلى التخلي عن بيوتهم لإسكان أولئك اللاجئين المسلمين في بلادهم. فصار طبيعياً أن يتسبب هذا الإجراء في كراهية عميقة متجذرة ضد الشراكسة في البلقان – ولا زالت أصداء هذه الكراهية موجودة بين البلغار والصرب حتى يومنا هذا تحديداً.

فور إعادة إسكان الشراكسة، قام الجيش العثماني بتجنيد جميع الذكور الشراكسة الذين تتراوح أعمارهم بين الرابعة عشرة والأربعين عاماً، بين صفوفه للخدمة في المناطق المضطربة للإمبراطورية. عندما بدأ البلغار يتحركون طلباً للاستقلال أوائل

عام 1877 – مدعومين من روسيا، رومانيا وبلاد الصرب- وجدت القرى الشركسية نفسها متمركزة وسط الفئات المتقاتلة. باتوا مكشوفين بدون أية حماية تذكر: وهم على الغالب من الأطفال، النساء والرجال المسنين كمدافعين، وقد عانوا كثيراً على أيدي الثوار المحليين. وبدأت حقبة رهيبة من التطهير العرقي.

حدث العديد من الفظاعات والفظاعات المضادة في السنوات 1878/1876 بين قوات "الباش بوزوق" التركية وقوات "الكوميتاس" البلغارية. وعانت القرى الشركسية على أيدي قوات الجانبين. أحرقت مستوطنات بكاملها وقتل سكانها. استمر القتل العشوائي والنهب بدون أي وازع لمدة تسعة أشهر خلال الحروب البلقانية، مما أدى إلى إبادة معظم الشراكسة الشابسوغ غير المحميين...

يقدر أنه من بين المئتين وخمسين ألف من اللاجئين الذين أعيد توطينهم في دول البلِقان. لم ينج سوى خمسين ألفاً من شراكسة الشابسوغ، وقد هلك حوالي مئتي ألف منهم.

تمكن الناجون من العثور على طريق لهم للعودة إلى تركيا الآسيوية وأعيد توطينهم، في إقليم سيواس وعلى شواطئ البحر الأسود. تخلف من هؤلاء عدد صغير، ويشغل المتحدرون منهم القرى الشركسية القليلة في صربيا والبوسنة. من المشكوك فيه أن ينجو هؤلاء بأرواحهم في النزاع البلقاني الحالي.

هنالك مجموعة صغيرة، تبلغ زهاء حمولة قاربين، نقلت إلى فلسطين من ميناء سبيك على البحر الأدرياتيكي ونزلت على اليابسة في عكا صيف عام 1878. إن هذا الكتاب هو إعادة بناء لقصة الصعوبات التي عانت منها هذه المجموعة في بلاد البلقان: خلال المسيرة الطويلة من بلغاريا نزولاً إلى شواطئ الأدرياتيك ورسوهم في نهاية المطاف على سواحل فلسطين.

استقر هؤلاء اللاجئون الشابسوغ في قريتين في فلسطين (كفركما والريحانية). وارتحلت البقية، البالغة حوالي ثلاثين عائلة، إلى شرق الأردن حيث استقرت بين خرائب مدينة فيلادلفيا الرومانية، التي تشكل العاصمة عمان حالياً. هؤلاء كانوا أول المهاجرين الشراكسة إلى ما أصبح يعرف فيما بعد بالمملكة الأردنية الهاشمية.

إن قصة هذا الكتاب مستوحاة من أحداث تاريخية فعلية. هناك القليل مما هو معروف، وأقل حتى من ذلك مما هو مكتوب عن مصير الشراكسة الذين ظلوا في دول البلقان لأنهم كانوا في الغالب ينظر إليهم على أنهم أتراك من قبل العثمانيين ومعظم الصحف الأوروبية. لقد كانت التقارير الدبلوماسية لوزارة الخارجية البريطانية التابعة لتلك الحقبة، و "أرشيف الدولة" الألماني اللذين تعرفا عليهم على أنهم "شراكسة" في الغالب الأعم. (وثائق وزارة الخارجية). وهم بهذه الصفة مختلفون عن المنتمين إلى العرق التركي. تمثل قصتهم في البلقان، على قصرها، حلقة أخرى في الإبادة العرقية المحزنة لهذا الشعب، وعليه فأنه يتوجب التعريف بها حتى يكون هناك فهم أفضل لتاريخه.

من المهم، حتى يمكن فهم القضايا المعاصرة، الاضطرابات ونفسية بعض الشخصيات العثمانية في روايتنا، تفهم القضايا السياسية للإمبراطورية العثمانية، في هذه الحقبة.

لقد كانت الفترة الواقعة بين تموز عام 1875 وكانون الأول عام 1878 مثيرة لأشد أنواع الاهتمام في تاريخ الإمبراطورية العثمانية. فقد بدأ العصيان في البوسنة والهرسك في تموز من عام 1875 بحماس عارم. ثم انتشر عام 1876 إلى بلاد الصرب والجبل الأسود وصولاً إلى بلغاريا. وقامت الحرب الروسية – التركية عامي 1877-1878.

خلال هذه الحقبة الملأى بالأحداث، وصل إلى السلطة مصلح متوقد الذكاء في شخص مدحت باشا (في العاشر من أيار عام 1876). جاء بعد رشيد علي وفؤاد باشا، وقد عرفت عنه إدارته المتميزة لبلغاريا (1861-1869) ولبغداد (1869-1873).

رسم مدحت باشا خططاً لتأسيس دولة وطنية ووضعها قيد التنفيذ، تضم المسيحيين ضمن الجنسية العثمانية الجديدة. في الثلاثين من أيار عام 1876 قام مدحت باشا وشركاؤه بإقالة السلطان عبد العزيز ونادوا بابن أخيه، مراد الخامس، سلطاناً. تم يوم الخامس عشر من حزيران اغتيال العديد من أعضاء الحكومة القديمة الفاسدة من قبل ضابط شركسي. وبرز مدحت باشا بشخصية القائد الأعلى للحزب الإصلاحي. يوم الحادي والثلاثين من نفس العام الحافل بالأحداث، أقيل مراد الخامس بحجة الجنون ونودي بعبد الحميد الثاني سلطاناً. تبع ذلك إعلان الدستور والمطالبة به من قبل مدحت باشا في الثالث والعشرين من كانون الأول عام 1876.

وقد نادى الدستور بعدم قابلية الإمبراطورية العثمانية للتقسيم، وبحرية الفرد، حرية الضمير، وحرية الصحافة: عدم إمكانية عزل القضاة وبحكومة برلمانية مؤسسة على التمثيل النيابي العام. بعد ستة أسابيع من إعلان الدستور (أي في الخامس من شباط 1877) أقيل مدحت باشا وتم نفيه من قبل السلطان.

افتتح أول برلمان تركي يوم التاسع عشر من آذار وقام بجهد جدي لتنفيذ مهمته، لكنه سرعان ما تم تعليقه من قبل السلطان، الذي سمح للدستور بأن يصبح لاغياً وفرغ نفسه لإعادة تأسيس سلطته المطلقة.

جرت محاكمة مدحت باشا ومشاركيه على مقتل السلطان عبد العزيز عام 1881 وإدانتهم. ولم ينقذهم من الإعدام إلا تدخل الحكومة البريطانية.

لقد أضفت بضع صفحات من المصادر الأوروبية الرئيسة إلى نهاية هذه الرواية، لأولئك الذين يرغبون في إلقاء نظرة أكثر تفحصاً للنواحي التاريخية من هذه الرواية.

محيي الدين عزت قندور

25 أيار، 1995

الفصل الأول

بلغاريا

ربيع عام 1877

خرج أصلان بك، العقيد في الجيش العثماني من الأحراش الكائنة عند مدخل الوادي "ها! إننا نقترب!" قال لمساعده. فهنا بدت أول إشارة إلى إمكانية القتال منذ مغادرتهم للعاصمه. رغم إنه كان جندياً متمرساً، إلا أنه أحسَّ بنبضه وقد بدأ يتسارع.

تسرب خيط رفيع من الدخان نحو السماء. بدا نذيراً بالخطر في يوم صافٍ بارد مثل هذا. فهل هو نشاط للثوار؟ أحسّ جواده باهتمامه وانطلق في عدو غريزي.

"هل هذه هي وجهتنا، أيها العقيد؟" نخز مساعده تيمور فرسه الرمادية إلى الأمام بجانبه. انبلج وجه الصبي الذي لوحته الشمس عن ابتسامة براقة: فإن أصلان لم يحس بمثل هذا "الفرح بالحياة" المشوب بانعدام الاهتمام لمرأى "حادثة" منذ وقت طويل جداً.

قال أصلان "يبدو الأمر هكذا"، بدون أن يغير سرعته" إنني مندهش لأنني لم أشاهد المتاعب قبل هذا. ابق قريباً مني. فربما يكون هناك قناصة".

جذب تيمور عنان فرسه ليخفف من سرعتها "حاضر يا سيدي".

منذ اليوم الأول لخروجه راكباً من استنبول باتجاه هذا الجزء من بلغاريا، ظل أصلان مدركاً للشائعات، الصور الرهيبة للمذبحة، الاغتصاب والنهب التي انتشرت بشكل واسع، في الأمكنة الراقية والوضيعة في أرجاء العاصمة على حد سواء. لقد جاء القسم الأسوأ من الأزمة في السنة الماضية، لكن كانت التقارير ما تزال تتسرب من خلال "السيراسكريات". وزارة الحربية، عن ثورات في

"الرايات" البلغارية – القرى المسيحية- ليس على نفس نطاق العام الفائت، ولكنها ما زالت تسبب الغضب.

كذلك كانت "روايات شهود العيان" حول الأعمال الوحشية التي ارتكبت أثناء قيام جنود السلطان بقمع هذه الأعمال الثورية منتشرة بنفس المقدار.

طبعاً، كان يعرف أن استنبول مشهورة بكونها مركزاً للمبالغة والشائعات المضادة – لكن، لا دخان بدون نار!

كانت الحرب ما تزال مستعرة حتى الشتاء الماضي في مركزه السابق، الأناضول، في مناطق جبلية معزولة: لقد كان يجري خوضها بين محترفين، الروس والقوزاق من جهة، والقوات التركية العثمانية المسلحة من جهة أخرى. بصراحة، كان أصلان متوجساً. فهو يكره حروب الاستنزاف – التي تشمل المدنيين. فقد شهد أكثر مما ينبغي من ذلك النوع في أيامه الماضية.. كما أن عليه الاعتناء بالشاب تيمور. فإن الصبي يعتقد أنه قوي وجاهز كلياً، لكنه لم تكن لديه أية فكرة عما يعنيه فعلاً "إخضاع عصيان ما".

"تلك نار لعينة كبيرة".

ألقى أصلان بنظرة إلى رفيقه تيمور، رأى في ملامحه الفتية خليطاً من المشاعر. أما فهو فلم يشعر بشيء.

مسحت عيناه الخبيرتان تضاريس المنطقة ولاحظ موقع المعسكر التركي، راضياً عنه. كانت ألسنة اللهب خارجة من مكان ما في مزرعة راياه كبيرة، من الواضح أنه تم الاستيلاء عليها لتحويلها إلى مقر قيادة السرية – ظهر أنها كرم بلغاري، "باغلا". كانت واقعة على الضفة الشمالية لنهر ماريتسا، متسلقة منحدراً واسعاً، عند نقطة يضيق فيها الوادي الذي يشكل رافداً يروي سلسلة من الحقول اليانعة: وقفت بقايا شجيرات الكرمة المحترقة، محاذية لطريق العربات الرئيسة، عبارة عن مجرد جذوع مبثورة ملتوية حيث كانت تقف صفوف الدوالي المشذبة بعناية. بينما بدت حقول

الحنطة غير الناضجة وقد طالها الدمار خلف الضفة اليسرى للنهر، إلى الجنوب. وكانت قمم جبال رودوبي الزرقاء تقطع الامتداد السهلي في المدى.

يفترض في هذه المقاطعة المحصورة خلف وادي الماريتسا أن تشكل منظراً ريفياً رعوياً مثالياً، وليس صورة ناطقة بالخراب والإهمال.

اقتربا أكثر. تصاعدت رائحة مرة كريهة في سحابات مختمرة من داخل العزبة الريفية المحاطة بسور عالٍ. تمشى خارج البوابات الرئيسة خفيران تركيان بعصبية جيئة وذهاباً حتى يتمكنا من الحصول على لمحة عما يجري في الداخل من بين القضبان الحديدية المسننة.

ألقى الخفيران لمحة سريعة على زي أصلان الذي يدل على كونه عقيداً. فوقفا في حالة تأهب، فتحا البوابة، وأديا التحية بينما اندفع الاثنان إلى الداخل.

"أحرقوه!"

سيطر اصلان على الابتسامة التي بدأت تنبسط على وجهه. كيف يمكنه أن يفشل في تمييز النبرة القاطعة المتغطرسة لذلك الصوت الآمر؟ أبطأ فرسه إلى مشيه متهادية ليتجنب التدخل حتى توقفا على مبعدة مئتي ياردة من المشهد. لم يكن أصلان في موقع يستطيع منه أن يشاهد القائد التركي مباشرة. ثار فضول تيمور لكنه لم يعلق.

وقف العقيد في الجيش العثماني، أورهان أتاكوي، مسترخياً على شرفة قصر المزارع صانع النبيذ. اصطفت ثلة من المشاة الأتراك على مسافة بضعة ياردات أمامه تنتظر أوامره. كان النقيب، قائد الثلة يتعرق ويرتعش في نفس الوقت، من إحساسه بالحرارة بسبب الاهتياج، والبرد بسبب الخوف. ارتعشت يداه وهو

يشد ياقته الضيقة عليه. دفعه الطمع إلى محاولة أخيرة للتعقل: إتخذ خطوة أقرب إلى العقيد أورهان.

"ن-نحرقه؟ سامحني يا سيدي، ولكن - هل ذلك ضروري حتماً؟" همس بأسلوب من يسعى إلى الحظوة "أعني، بإمكاننا أن نبيع محتويات القبو بهامش ربحي مجزي..." كانت ارتعاشاته ورفات عينيه رجاءاً أخيراً يائساً لأورهان مفاده أنه سيكون هناك شيء ما لكل شخص - بما فيهم شخصه. وهي خطة شائعة ومعروفة.

لمح أورهان العقيد أصلان، من فوق رأس النقيب المرتعش "ها! جئت في وقتك!" صاح وهو يشير بيديه، وكأنما يقول أن هذه المشكلة الصغيرة لن يستغرق حلها دقيقة.

صرخ في قائد الثلة "إن أوامرك واضحة! أخضع هذا الإقليم وطهِّر القرى من العصاة! هل تعتقد أن إبقاء مخزون كبير من العرق، النبيذ والمشروبات الكحولية في موقع إقامة جنودك هو الإجراء الصحيح؟ أيها القذر القميء! أيها الغبي الكافر!"

التمعت عينا أورهان بشراسة، وهو يبحث عن عيني أصلان كأنما يقول له."سوف نريهم، أليس كذلك، يا أصلان؟"

تحرك نازلاً الدرجات بسرعة نحو الساحة بدون أن يضيف كلمة واحدة، تناول مصباحاً ترتعش لهبته من يدي عريف مرتجف واقف في نهاية صف الثلة.

قفز أورهان إلى الأمام، وألقى بالنور على سقف "الخان" ذي الأخشاب الشديدة الجفاف. اشتعل سقف الأغصان الجافة على الفور. ردد أورهان كلمات "الحمد لله!" بسرعة وتكرار المنتصر، وهو يحدق في النار المتفرقعة بنشوة متعصبة.

أدرك اصلان بالضبط ما يفعله أورهان. لقد كان تأثير إجرائه المتطرف هذا واضحاً للعيان. وقف طابور المجندين ذوي الثياب

القذرة، المهملين، في حالة تأهب قصوى، كالحيوانات، عيونهم موجهة إلى الأمام لكنها تجاهد للحصول على لمحة من اللهيب المستعر. بدت الثلة من الرجال وكأنها لا تجرؤ على التنفس، وقد تعلقت أرواحهم بكل حركة يأتي بها أورهان أتاكوي.

لقد ظل أورهان متطرفاً على الدوام...

كانت الرسالة واضحة: ليس من خير يرتجى من العصيان، ولا مفر من خضوع الإقليم كله لحكم السلطان العثماني الإلهي. كان كلا العقيدين، أصلان وأورهان يعرفان أن هؤلاء الجنود قد جاءوا للقتال بإخلاص ولكن بغير حماس كثير.

النار على السقف؟ إن أورهان قمين بأن يوقد النار في بطونهم بدون تأخير.

ترجل أصلان، متبوعاً بتيمور في إشارة للطاعة المطلقة. استند أصلان بطريقة مسترخية إلى عربة، يراقب رفيقه القديم في القتال وهو يستغل الدراما إلى آخر قطرة فيها.

قال أورهان، وقد استدار نحو الضابط المسؤول وخفض صوته إلى صرخة غريبة باعثة على الرهبة بإمكان الجميع أن يسمعوها. "أيها النقيب، من حسن الحظ أن تصادف سفري من خلال هذا الإقليم. إن "ضيافتك" كريمة حقاً". فحّ فيه "لكن يتوجب عليك أن لا تسمح لرجالك بأن يشطح بهم الخيال وتزعج عقولهم. عليك أن تجعلهم يقاتلون وكأن الذي يحدث مكتوب من القدر، مكتوب ومقدر سلفاً. يجب أن لا يكون هناك أي انعدام للانضباط. لا سكر، لا جني للأرباح، ولا مبادرة من أي نوع. فهل أوضحت نفسي لك بشكل كامل مطلق؟"

غمغم القائد بإجابة ما، مدركاً كل الإدراك أنه كان يمكن إجراء محاكمة عسكرية له لو أن العقيد اعتبر كلماته رشوة خالصة. لقد كان يتم منحه فرصة أخيرة. بدون أية كلمات إضافية، استدار قائد السرية دورة كاملة ورفع سيفه.

"احرقوا جميع الزرائب! فجروا أبواب القبو! أنت، إلى اليسار هناك، خذ الجياد وأدفع بها عبر الكروم!".

ارتفعت صرخة تشجيع عظيمة، وبدأ المجندون الأتراك صغار السن، الجائعون في حملة تخريب مجنونة. سرعان ما اختفى أكبر مخزن للنبيذ في كتلة هادرة من اللهيب.

في الداخل، مزّق تقطيع الأطواق المعدنية للبراميل أجواز الفضاء كأنه طلقات البنادق. ركب بعض المجندين الخيل التي تجر عربات المدافع خلال الكروم الواقعة خلف الأبنية، يدوسون بها صفوفاً طويلة من الدوالي. وحدهن بضع نساء كبيرات السن، هن موظفات سابقات لدى صاحب المزرعة الغائب، ركعن في زاوية من الساحة، وقد رفعن مراييلهن وغطين بها وجوههن.

"حسناً، إليك ذلك الأمر، يا تيمور، كيف تفرض النظام.. حسب فلسفة العقيد أورهان أتاكوي، من لواء فرسان الأناضول السادس سابقاً. لن يبق شيء إلا الوحل والأخشاب المحترقة بعد بضع ساعات".

قال تيمور "نعم، يا سيدي" وهو غير واثق على الإطلاق مما إذا كان أصلان يعلق بشيء من السخرية – وما إذا كانت سخريته موافقة أو غير موافقة، تحديداً.

في نهاية الأمر، قفز أورهان أتاكوي نحو عتبات البيت الريفي الكبير لتحيتهما. "أمر طيب أن أراك! ما الذي أخرك! يا أصلان! تعال وانظر إلى مقاطعتي!" كان منظره يشكل صورة مؤثرة، يداه على خصره، حذاؤه الطويل يدق على الشرفة، مثل زعيم سارق يؤكد ملكية قصره.

مازحه أصلان "أنت تعني ما بقي منها"

كان البيت الفخم القديم مبنياً على النمط البلغاري النموذجي بشرفته الخشبية، المخزن العلوي المعلق، والشبابيك ذات

المصاريع. كان نصف مدمر لكنه لا يزال بناءً أنيقاً. مرَّ أصلان وتيمور راكبين بمعظم أثاثه، الذي كان قد أخرج إلى الساحة لإفساح المجال للعسكر الأتراك. بدا الوضع وكأن المراتب العسكرية الدنيا قد تم إسكانها في البوايك، زرائب المزارع، أكواخ الأجراء المبعثرة حول المزرعة، بينما قام الضابط بمصادرة البيت واعتباره مقر نومهم.

عقد العقيد أورهان أتاكوي ذراعيه ببطء فوق صدره الذي يرتدي عليه زياً عسكرياً ضيقاً مزرراً، وتظاهر بأنه يتجاهل حالة أصلان التي أرهقها السفر. استدار يراقب بمنتهى الرضى والاقتناع بينما انهار مخزن النبيذ بكامله فجأة متهاوياً على نفسه بانفجار مذهل وعرض مشابه للمفرقعات الاحتفالية من الشرر والرماد المتصاعد. في مكان ما وسط الدخان والاضطراب، كان القائد البدين القصير يصيح بأوامره على مزيج الرعاع المكون من المجندين والمتطوعين غير النظاميين. كانوا يضربون الأبنية الخارجية بالبلطات والمذاري لتنزيل التبن والقش عن سقوف مرابط الحيوانات بشيء من الفوضى، في مجهود يقصد منه منع "ألسنة" اللهيب من الانتشار نحو البيت الرئيس.

"كان يتوجب على الأحمق اللعين أن يدرك الوضع قبل أن أصل إلى هنا". قال أورهان بازدراء.

"واضح أن مستأجر "الراياه". قد هرب. تخيل لو أن مخزون أقبيته وصل إلى أيدي الثوار!" ألقى بنظرة جانبية "أو أن المحتويات أصبحت في "متناول" أيدي جنودنا المستجدين".

"أنت محق يا أورهان" لم يقتنع أصلان، ربما يحب صديقه أن يوحي إليه بأنه يتقيد كلياً بالإجراءات العسكرية، وأنه مسلم متعصب. لكن الحقيقة هي أن تدمير مخزون من النبيذ البلغاري، وبهذه الطريقة يدمر مصدر رزق أحد المسيحيين، يسبب له أقصى

قدر من السرور. فقد شاهده أصلان يخوض في مثل هذه الأعمال كثيراً من قبل.

علق أورهان بقوله "كهفان من الخمر المعتقة المعبأة في قوارير، إضافة إلى تسعة وأربعين برميلاً من "النبيذ العادي" من محصول الموسم الغائت، وكمية هائلة من العرق. "وهو يشدد بلهجة فرنسية راقية على الكلمات الملائمة. كان العرق هو السم المحلي المفضل من قبل الفلاحين والجنود.

"بالمناسبة. تهانينا"

عاين أورهان ميداليات حملة الأناضول البراقة (كان هناك العديد جداً منها) على صدر أصلان، والنجوم التي تزين ياقته مشيرة إلى رتبته الجديدة "عقيد كامل الرتبة. ليس أمراً سيئاً..."

ابتسم أصلان "ليس أمراً سيئاً بالنسبة إلى شركسي" ذلك هو المعنى غير المصرح به في مديح أورهان الباهت.

كان هناك شيء ما في تعبير أورهان سبب له القلق. لقد ظل التنافس قائماً بينهما على الدوام – وقد استخدماه كحافز لسيرتهما الذاتية في الأناضول. كانا مرتاحين له. لكن عدم اهتمام أورهان المدروس بدا وكأنه يوحي بوجود شعور أعمق، غير مريح، قائماً بينهما. إيماءة إلى العداء – وحتى الحسد. لم يكن أصلان متأكداً.

بدأ أحدهم يسعل بأسلوب إجباري جاف متقطع إلى جانبه. نظر أصلان خلفه ليشاهد مساعده تيمور يسحب عناني جواديهما، مذكراً إياه بأنهما بحاجة إلى الاغتسال وبعض الطعام، وإن استنشاق الأدخنة المشبعة بالكحول لا يتفق مع مفهومه عن المرح.

صرخ أورهان باثنين من الجنود المتعرقين فتم اصطحاب تيمور إلى حيث يستريح ويستعيد نشاطه.

قال أورهان بمرح "هل تدخن؟ هل ترغب بسيجارة؟"

ابتسم أصلان وتناول واحدة. لقد خاضا الحروب، هو وأورهان أتاكوي. على نفس الجهة، يقاتلان الروس في الأناضول. ومع ذلك فلم يكن لدى أحدهما سوى الاحترام المهني تجاه اعتمادية الآخر تحت حرارة نيران المعارك، وتشاركا في ذكريات بعض من القتال الشرس، في قارص، في أرضروم، وفي أمكنة تعيسة أخرى على حدود السلطان الشرقية في آسيا، كان الالتقاء مرة أخرى على هذه الشاكلة، في بلد آخر، على الرغم من المسافة عن أي اشتباك على خط جبهة أمامي، يحمل قليلاً من الغرابة. فقد أبرز هذا الأمر الفارق الأساسي بينهما، كرجلين.

كان أورهان ضئيل البنية، غير طويل القامة، لكنه لا يعرف الرحمة في إخلاصه: من المحتمل أن يقرأ الأشعار الصوفية بنفس الحماس الذي يدرس فيه توزيع الجنود على ضوء شمعة في مهجع للجنود أثناء هبوب عاصفة في مكان ما من الأناضول. لم يكن صديقاً مقرباً أبداً، لكن أصلان عرف فيه الشجاعة (أو التهور) بنفس الدرجة التي يتمتع بها هو، وأنه يحمل نفس الميل إلى عدم التحدث عن ماضيه.

استنتج أصلان أن الأتراك بشكل عام، لم يكونوا يحبون قلة الكلام: وأن أورهان استثناء مرحب به. فقد كان باستطاعة كليهما أن يمضيا ساعات في صمت مطبق، يفعلان ما يتوجب فعله. نشأ بين الاثنين نوع من البساطة والثقة التي لا يتسرب إليها الشك عندما كان كلاهما نقيباً صغير السن في الحملات الأناضولية. بين جنود طيبين، يرقى إلى نمط من الميثاق بينهما، حتى ولو تم نسيانه بسهولة مع تغير الظروف. فقد افترقا فقط عندما حصل أورهان على الترقية قبله.

استفسر أصلان "اين التقينا آخر مرة، يا أورهان؟". عرف كلاهما أن الموقع كان معقلاً جبلياً بائساً منعزلاً قريباً من قارص. "يبدو لي أنه مبادلة منصفة..." حدق أصلان في الداخل بإيحاء نحو الداخل المريح للقصر البلغاري. قاد أورهان الطريق إلى الداخل.

الغرف الرئيسة تؤدي مباشرة إلى الابتعاد عن الشرفة، واحدة بعد الأخرى، بدون وجود قاعة وصل داخلية أو ممر. يحتمل أن يتم إحراق البيت وتسويته بالأرض عندما يتحرك الجيش باتجاه الغرب. أزيلت السجاجيد وجرى تكويمها فوق الصناديق: مالت حوامل الشموع النحاسية إلى الجانب، حيث جرى تعليق الفوانيس التي يصرفها الجيش فوقها من أجل الكفاءة الملائمة. جرى تشليح المكان من الأيقونات، حارقات الزيت، وكل الإضافات المعتادة لأسر "راياه"، ولا شك أن هذا الإجراء تم بناءً على أوامر أورهان. "إن وصولك مناسب تماماً من حيث التوقيت. سوف أكون سعيداً بالاستمرار في طريقي" قال أصلان وهو يزرر ياقته، بدون أن يكلف نفسه بالرد على تعليق أصلان حول مقر إقامته المريح. "هيا بنا. تناول فنجاناً من القهوة وبعض الطعام قبل أن نتوجه مبتعدين".

كان أصلان مستعداً لهذا الأمر. فقد تعمد أورهان مغادرة القسطنطينية قبله بأسبوع، مع خطة واضحة بأن يستبقه في المسير. لا شك في أنه ربما قضى أسبوعاً مرضياً وهو يفتش الريف بحثاً عن أفضل الخيول وأطيب الصيد قبل وصول أصلان واستمرارهما في الرحلة سوية باتجاه الغرب.

كان كلاهما يحمل تكليفاته الجديدة من السيراسكريات - مناصب قيادية على الحدود الغربية المهددة.

كان جزء من أوامرهما ينطوي على تكليف بالاستطلاع وإرسال التقارير حول تقدم "القوات الفارضة للسلام". بينما هما يقومان بالرحلة خلال بلغاريا نحو الحدود مع صربيا.

داخل الصالون المركزي الواسع، كان هناك خادم ينتظرهما بالمرطبات وطبق من الحلويات.

قال أصلان "ذلك القائد هو شخص يبدو عليه التذبذب. سوف يكون سعيداً برؤيتنا نغادر. إن وجود عقيد واحد أمر سيء بما

يكفي -لكن اثنين- يمكنك أن ترى مدى صعوبة الأمر على الرجل المسكين".

"شخص مسكين مثل مؤخرتي. كنت سآمر بإعدامه لو كان يوجد أي شخص بما يكفي من الخبرة ليأخذ مكانه" قال أورهان بازدراء.

راقب خادمه وهو يصب القهوة، وعبس عندما سكب الصبي قطرة سميكة على صينية الفضة.

لوَّح أورهان بيده في حركة رافضة باتجاه التخريب الجاري في الخارج "هذا ليس عملاً من أعمال الجنود. إنه يتسم بالفوضى. أعطني طابوراً من القوزاق في أي يوم – وليس مجموعة من الرعاع يحملون بنادق بدائية تعبأ من الفوهات ومسدسات صدئة. لا يبدو على الوطنيين في هذه المناطق أنهم يدركون بان جهودهم غير مجدية بقدر ذبابة على ظهر جاموس".

سخر منه أصلان قائلاً "إيجاز العقيد أورهان أتاكوي الشديد الاختصار عن الثورة البلغارية" وهو يتناول واحدة أخرى من سجائر أورهان الملفوفة بعناية فائقة. "أعتقد أن ما ستلاقيه بعد هذا هو القوزاقيين، إذا كان ذلك هو ما تريده. قوزاق الدون – على وجه التحديد." أضاف أصلان. كان نبرته تنم عن التعب. لا تعبر عن السرور بل مجرد الرضى الواجم لكونه قد قتل العديد من مثل هؤلاء الرجال فيما مضى، وأنه قانع بأداء واجبه وقتل الكثير والمزيد منهم.

رفع أورهان رأسه. كان يتضايق على الدوام لكون أصلان أطول منه برأس كامل على الأقل. رجل وسيم الهيئة، بعينين زرقاوين صافيتين، مع أن وجهه كان مليئاً بالخطوط وحتى أن حركاته يعتريها قليل من التيبس. كانا في نفس العمر – في حوالي الثلاثين. كان أورهان يفاخر نفسه على أنه يتمتع بلياقة أفضل –

حتماً هو أقل إرهاقاً ذهنياً من زميله الضابط. "طبعاً. ذلك يفسر أمر نقلك. لقد كان أخوتك الشراكسة نشطين جداً في أقاليمنا الغربية".

فودئ أصلان "تقول إخوتي الشراكسة؟" قلما كان أورهان يشير إلى أصوله. فقد ظلا على الدوام مجرد ضابطين من قوات السلطان، يحملان نفس الأهداف، نفس الولاءات. فقد كان أورهان من الأتراك الأقحاح "العصمليّ" - بينما هو من شعب الشابسوغ، إحدى القبائل الشركسية التي طردت من القفقاس، جنوب روسيا، من قبل القوزاق العاملين في خدمة القيصر الروسي.

لم يكن لدى أصلان خيار فيمن يخدمه. فقد تم تجنيده تماماً مثل المساكين الآخرين الذين يتعرقون في الساحة خارجاً، بمجرد أن وطأت قدماه الأرض التركية.

لقد توقف منذ مدة طويلة، عن طرح الأسئلة: فهو يقاتل لمجرد البقاء على قيد الحياة. كل ما أراده هو العثور على بقايا شعبه، الشابسوغ - إذا استطاع ذلك، إذا تمكن على الإطلاق من الخروج من هذه الفوضى الدامية. وذلك هو السبب الحقيقي لوجوده في بلغاريا. للعثور على والديه المسنين... أو أي خبر عنهما. فقد افترقوا في القفقاس في الماضي، في "كافكازه" الحبيبة، عندما سيقت عائلته إلى جانب الآلاف من الشراكسة الشابسوغ والبزادوغ الآخرين من قبل الجنود القوزاق التابعين للجنرال فيليا مينوف إلى البحر الأسود وأجبرت على الهجرة.

أمر مؤكد، أن القوزاق كانوا أشد أعدائه خطراً. لقد حاربهم الشابسوغ سنوات طويلة، في محاولة للتمسك بأرضهم الأصلية. لقد حدث كل ذلك في حياة أخرى، في القفقاس، قبل زمن طويل جداً. لقد كان أشد تعباً من أن تكون له ذكريات الآن. وقد كانت كل تلك الذكريات مدفونة داخله بأعمق من أن تصبح مادة للمزاح مع أورهان.

قرر أصلان بصمت، أن الأفضل هو إبقاءه سعيداً، الانتظار، المراقبة، ومعرفة ما يدور داخل رأسه المتعصب.

كرر بطريقة مرحة "آه نعم، نحن "الأخوة الشراكسة" شكلنا قتلة جيدين للقوزاق".

سأله أورهان مقاطعاً "هل قرأت أوامرك؟ إلى أين جرى انتدابك؟"

"إلى الشمال قليلاً من نيس".

بدا على أورهان السرور بشكل واضح "ها! لقد جرى تعييني في نوفي ساد".

"هكذا إذن. أنت على الخط الأمامي للجبهة وأنا في مكان ما خلفها" قال أصلان، وقد عادت المنافسة القديمة المتبسطة بينهما لتفرض نفسها.

"هكذا تماماً يا صديقي. هكذا تماماً. لكنني أتوقع أن هناك سبب وجيه. فإن السيراسكريات لا ترسل ضابطاً قد تم الإنعام عليه بالأوسمة حديثاً إلى نقطتها الساخنة الحالية ثم تضحي به في مهمة كتابية ما. لقد خدم الشراكسة من أمثالك الإمبراطورية جيداً. أنا واثق من وجود أسلوب نمطي في جنونها." وعلى أية حال، فقد بدا عليه الاقتناع بامتيازه الحالي إلى حد بعيد. نهض أورهان واقفاً على قدميه بهمة نشيطة: "هل أنت جاهز للتحرك؟" كان حذاؤه الطويل يلتمع: زيه العسكري مثالياً، وقد هذب شاربه بشكل جميل وشعره الأسود مضخماً بالكريم.

أنهض أصلان نفسه عن الأريكة بتثاقل. "في أية لحظة تجهز أنت فيها، أيها العقيد".

على الرغم من عدم انتظام هيئته، فقد كان يبدو ضابطاً في كل بوصة من كيانه، بينما لم ينجح أورهان إلا في الظهور بمظهر رسمي في كل الأوقات.

وجد أصلان مساعده تيمور جاهزاً وينتظر. كان قد حذر الشاب من شخصية العقيد أتاكوي الحريصة على الشكليات، والاحتمال القائم في أن يصر، كمسألة مبدأ، على السير بسرعة نحو فيليبوليس، وهي مدينة حامية رئيسة للجنود العثمانيين في هذا الإقليم. وأنه سوف يتجاهل كلياً حقيقة أنه هو، أورهان، الذي أرسل بنفسه ملاحظة إلى أصلان، يطلب منه فيها المجيء إلى هذا الكرم للالتقاء، وهكذا تسبب في تحويلة مدتها بضع ساعات عن طريقهما.

لكن أورهان كان يمتلك نقاطه الطيبة. فقد وقفت ركوبة نشيطة جديدة مخصصة لأصلان تحت شجرة صفصاف وصلت إليها النار التي أحرقت القبو وأحرقت جزءاً منها، وقد تم سرجها وتجهيزها من قبل المساعد.

إن أورهان خبير محنك بالخيل -فالجواد الرمادي الأرقش هدية رائعة. وسرَّ أصلان به أيما سرور. "أفضل التهاني مني على ترقيتك، يا صديقي العزيز أصلان". ضحك أورهان بصوت مرتفع، ضرب بيده على ظهر أصلان مداعباً واستدار ليرتقي صهوة جواده الكميت البالغ الجمال.

ضحك أصلان "هل هذا الجواد محرر من أحد "إخوتي الشراكسة" أو بواسطتهم، يا أورهان؟"

أطلق أورهان جواده في مسيرة متمهلة مريحة قائلاً "لا تلق أية أسئلة..." واستمرا في طريقهما.

تراجع تيمور إلى الخلف - لأن الممر الضيق الذي أهملت صيانته لم يكن يسمح بمسير أكثر من فارسين متجاورين. ألغيت طريقه العدو الشركسية، بسبب وجود العقيد التركي راكباً إلى جوار سيده.

ألقى أصلان نظرة حواليه إلى الأكواخ البالية التي كان قد أهمل النظر إليها في عجالته أثناء القدوم، حيث تجمهر الفلاحون تحت مآوي مرتجلة من الأغصان والخرق التي يهزها الهواء، وقد

فرشوا ممتلكاتهم في الخارج في انعكاس مثير للشفقة لترتيباتهم المنزلية المعتادة. ما كان قد ظهر وكأنه وادٍ خصيب أثناء القدوم، أثبت الآن أنه موقع مهمل، قذر، حيث أصبحت "أكواخ" الفلاحين، أكواماً محطمة من الطين وروث البقر، مكشوفة ومهجورة، وكأنما صار جهد إعادة البناء أكثر مما يقدر عليه أصحاب "الرايا". كانت الكلاب التي تكاد تهلك جوعاً تعرج في مسيرها عبر الحقول غير المحروثة باحثة عن أي شيء تأكله. كانت الإشارة الوحيدة على أي نشاط هي مجموعة بعيدة من النساء المرتديات معاطف وأغطية رأس خشنة، يقمن بقطع ممر لهن خلال حقل من الذرة الهندية حيث نمت الأعشاب الضارة بلا سيطرة.

أدرك أصلان ما تعنيه محاولة إبقاء الأرض معطاءة عندما تكون معرضة للهجمات بشكل متواصل. فقد نشأ في مثل هذا الوضع في القفقاس. شعر جزء منه بالتعاطف مع هؤلاء الفلاحين اليائسين، لكن الأوامر هي الأوامر.

عادوا إلى سلوك طريق العربات الرئيسة المتجهة إلى فيليبوليس، راكبين بثبات باتجاه الغرب بدون أية أحداث لساعات عديدة. شاهد أصلان ورفيقيه نفس ملامح الإهمال والهجر وفتور الهمة على مدى الطريق كله. كان الوقت بداية الصيف، إلا أن انطباعه الطاغي ظل دوماً عن الطين، الأرض البكر، التعفن –لا إشارة إلى الخضرة. لا رجال، لا سلام، لا محاصيل، تمت زراعتها في الربيع.

تجاوز الثلاثي في وقت لاحق من ذلك النهار جماعة من الرعاة البلغار في ستراتهم الثقلية المخيطة من اللباد وأربطة الساق الملتفة. كانوا يقودون بغالهم وجيادهم إلى بيوتهم بسرعة وتصميم. ظهر أنهم "مرافقين"، وبدقة أكثر، مسوقين، من قبل مجموعة من "الضابطية" شرطة القرى، ذوي الأزياء الرمادية. بعد استفسار مختصر، تحقق العقيد أورهان من أنهم كانوا قد ذهبوا إلى القسطنطينية بأغنامهم، لإجراءات بيعها ودفع الضرائب للسلطان،

وأنه يجري الآن سوقهم عائدين إلى موطنهم. بسبب انعدام الأمن كلياً في الإقليم، فقد تولت فرق متتالية من "الضابطية" إيصالهم من موقع إلى موقع على امتداد الطرق التي يعرف أنها موبوءة باللصوص النهابين أو العصاة.

"حسناً، ربما يكون ذلك صحيحاً، لكن هؤلاء الجندرمة ربما يتواجدون هنا للتأكد من أن أياً من أرباح بيع الأغنام لا يجري تسليمه إلى الثوار لشراء المزيد من الأسلحة." قال أصلان.

وافقه أورهان "يمكن الاستدلال من وجوه أولئك البائسين الحزينة بسهولة على أنهم متعاطفون مع الثوار".

استدرك أصلان "لا بد وأنه صعب على هؤلاء الرجال أن يدفعوا الضرائب مرغمين. فهم يبدون بالكاد قادرين على جني ما يكفي لإبقاء الأرواح داخل الأجساد، ناهيك عن الاستغناء عن شيء من النقد".

ألقى أورهان إليه بنظرة حادة، وأجابه "أنهم غير مجبرين على القتال – فلماذا لا يدفعون مقابل حمايتنا لهم؟"

اكتفى أصلان بالصمت. بعد ذلك ببعض الوقت، داهمتهم قوة صغيرة من ميليشيا المتطوعين، المسلحين تسليحاً ثقيلاً بالبنادق الطويلة، سيوف الياتاغان، والمسدسات القصيرة. اضطر أصلان وأورهان إلى الابتعاد جانباً للسماح لهم بالمرور.

غمغم أورهان "أمر مشين"، ولكن لم يظهر عليه أنه قد غضب أو أهين كثيراً. كان بعض الخيالة يرتدون الأزياء الفلاحية البلغارية بدلاً من البناطيل الفضفاضة والسترات القصيرة- ربما لخلط الأمر على كمائن الثوار.

أجبرت خيلاؤهم أصلان على إعادة التفكير برعاة الأغنام وحماية الشرطة لهم.

استدار نحو تيمور، وشرح شيئاً عن الوضع، هؤلاء هم "الباشي - بوزوق" المرهوبون". مشيراً بيده. "إنهم في الغالب مزارعون أتراك محليون يحملون ضغائن ضد الفلاحين البلغار المسيحيين. إذا خرج هؤلاء الناس عن القانون وقاموا بتصفية حساباتهم الشخصية كلياً، فإن ذلك لا يخدم قضيتنا".

اعترض أورهان "إنهم مدافعون عن الإيمان" بكلام غير منطقي عندما يصدر عن شخص متمسك مثله بالنظام "ألا تقول ذلك عنهم، يا أصلان؟ ساسعى أيضاً إلى الانتقام. لو أنني رأيت المسيحيين البدناء يستولون على أرضي".

مرة أخرى، عبس أورهان غير موافق - ليس لمجرد أن أصلان كان يتكلم بصراحة مباشرة أكثر بكثير مما يجب إلى ضابط صغير الرتبة -مجرد مساعد- ولكن أيضاً لأنه كان ينتقد القوات التركية التطوعية التي تدافع عما يراه كمصالح مشروعة. شعر أصلان بالضيق من تحامله.

"آه، طبعاً، ولكن أنت من بين كل الناس لا بد وأن تلمس الحاجة إلى انتظام أفضل، حتماً".

قال أورهان "الحاجة تضطرنا" بطريقة غامضة، ثم لكز جواده بمهمازيه لحثه على الإسراع. قرر أصلان أن لا يتابع بحث تلك النقطة لأنها ستؤدي حتماً إلى جدال. فقد حدث الأمر مرات عديدة على الجبهة الشرقية. وظل أورهان مضطراً راغما على أن تكون الكلمة الأخيرة له.

كان الوقت متأخراً في النهار حين وصلوا إلى فيليبوليس، وهي بلدة بيضاء متمددة فوق سبعة تلال، ذات سقوف قرميدية حمراء وبضعة قباب لامعة لكنائس يونانية وبيزنطية تشكل تبايناً جذاباً للمآذن البيضاء النحيلة للمساجد العديدة. كانت تعرض كل المؤشرات الجارية "للتقدم". بمعنى آخر، تمت زراعة الشارع

الرئيس بصفوف من الأشجار كما أقيمت حديقة عامة صغيرة وتم تمديد صنبور ماء في مركز البلدة.

كانت هناك مجموعة من "الضابطية"، الجندرمة المحلية، متواجدة حول مدخل مبنى البلدية، يلفون بأيديهم ويدخنون السجائر التي أصبحت علانية الآن. جلست مجموعات متعددة من الأتراك في مداخل مقهيين ملاصقين يدخنون التشيبوك القديم ويرشفون من أكوابهم المحلاة، وكأنما ليس هناك ما يدعو إلى القلق أو الاضطراب فيما جاورهم، وكأنهم لم يتعرضوا للمتاعب لأشهر.

استدار أصلان ليعلق "يمكنك دائماً تمييز المدينة –الحامية".

أجابه تيمور "وكيف ذلك يا سيدي؟" حريصاً على التعلم كالعهد به.

"هذا المكان يعج بالتجار والوسطاء، الذين يجهزون خطوط التموين ويملأون جيوبهم بالمال في الأثناء" زم أورهان شفتيه. أضطر في هذه المرة إلى الموافقة، لكنه ظل غير موافق على تساهل أصلان مع معاونه الأدنى رتبة.

أحسّ أصلان بانزعاجه "بالمناسبة يا أورهان. هذا الشاب هنا"

"الملازم تيمور..."

"هو معاوني. هل سمعتني أتحدث عن كازبك في إحدى المرات؟"

"لقد كان "أسد القفقاس" أليس كذلك؟" أشار أورهان إلى اللقب وكأنما هو إحدى حكايات أصلان في المعسكرات المؤقتة.

"لقد قابلته عندما كنت مجرد طفل صغير" تكلم أصلان باحترام، وكأنما يتجاهل الاستخفاف في نبرة صوت زميله.

"لقد تشارك هو وأبي في حملات عديدة في القفقاس، في الأيام الخوالي... هذا الشاب هو قريب لكازبك، في الحقيقة هو حفيد شقيقه أنور".

"شركسي آخر! كان يجب أن أخمن. عالم صغير، أليس كذلك، يا تيمور؟"

شرح تيمور عن نفسه، وقد تسلح بالشجاعة، لكونه قد وجه إليه الكلام "عندما هاجرت عائلتي إلى تركيا، تطوعت". تكلم بكبرياء "تم إرسالي إلى الأناضول في شهر شباط. جرى نقلي إلى نفس لواء العقيد أصلان"

تكلم أصلان بخشونة، مقاطعاً رواية تيمور "نحن الشراكسة نعثر على بعضنا البعض دائماً".

اكتفى تيمور بالإيماء برأسه، وقد فهم المغزى، وتأخر إلى الخلف.

ألقى العقيد أورهان بنظرة فاحصة إلى الفتى. لا شك في أنهم جنس شديد الوسامة، هؤلاء الجبليون. أكثر وسامة من التتار الذين فروا بدورهم كلاجئين من الأقاليم الروسية.

لكن ذلك لم يغير حقيقة أنه تصعب السيطرة عليهم، وأنهم بشكل عام أكثر إخلاصاً لقبائلهم من إخلاصهم للسلطان، في رأيه. طبيعي أنه لم يكن قد اعترف بهذا الرأي لأصلان من قبل مطلقاً، لكن الأمر كان يصبح أكثر وضوحاً له طيلة الوقت. فهذا "اللقاء" بين أصلان والفتى، تيمور: مثال نموذجي. انتصار الولاءات القديمة على الالتزامات الجديدة. فإن الفتى يحتمل أن يكون مسلماً متساهلاً بقدر قائده. وهو يمتلك الدليل: ألم يتعلم قائد العصاة البلغار، جورجي بنكوفسكي، البطل العظيم لدى هؤلاء "الكوميتاس" المثيرين للقلاقل، لغته التركية وتكتيكاته العسكرية على السواء أثناء خدمته في لواء شركسي؟ إن الخائن اللعين يتحدث اللغة الروسية

بطلاقة أيضاً. مثال نموذجي، أن يتعلم مثل تلك المهارات المفيدة بوجود الشراكسة حوله.

لا يمكن الدفاع عن الإمبراطورية العثمانية بواسطة "المرتزقة" إذا كان مقدراً لها أن تحقق مشروعها المقدس... مهما كانوا شجعاناً، مهما كانوا واسعي الحيلة، ومهما كان عدد الأوسمة التي يكسبونها... فإن تركيا بحاجة إلى الإنقاذ من قبل الأتراك لصالح الأتراك.

انطلق صوت المؤذن، وكأنه صدى لأفكاره، عالياً صافياً في الشوارع المزدانة بالأشجار لبلدة فيليبوليس.

حث الخيالة الثلاثة جيادهم من أجل الوصول إلى مقر قيادة الحامية على الطرف الغربي من البلدة قبل أن يطبق الظلام.

لكن ليس قبل أن يطلق تيمور صرخة متحشرجة، وكأنه قد شاهد شيئاً لا يمكن تخيله على الإطلاق. تابع أصلان اتجاه تحديق تيمور. كانوا في هذا الوقت قد وصلوا لمحاذاة تجمع سكاني صغير – بالكاد يشكل قرية – واضح أنها تجمع بلغاري مسيحي. كان معظم المساكن قد أحرق حتى سوّي بالأرض، لكن بيتاً أو اثنين منها كانا في مرحلة إعادة البناء. وكان جمع من الفلاحين يعمل بالتناوب، يمررون العوارض الخشبية رفعاً إلى رجلين يعملان على السقف. كانا عاريين حتى الخصر والعرق يلتمع على جسديهما، رغم أن الطقس كان قد بدأ يبترد من حرارة النهار.

لم يكن ذلك ما صدم تيمور الشاب. فعلى مسافة غير بعيدة من ذلك المشروع– ما بين الممر الضيق الذي يسلكه الضباط الثلاثة في هذه اللحظة، والقرية الصغيرة – كان هنالك قبر جماعي جرى تحضيره على عجل، وقد صفت الجثث متوازية في خندق تحت ظلال خميلة قاحلة. لم تكن هناك أية روائح تذكر وعليه فإن القبر لم يكن حديثاً – لكنه جديد ومملوء بعجالة بما يكفي لأن يلمح تيمور العظام نانئة من الغطاء الترابي الخفيف.

جاء صوت أصلان وحشياً متعمداً "حافظ على سرعتك معنا أيها الصبي... لقد رأيت الموت قبل هذا". وكان مضطراً لهذه القسوة.

أدرك أصلان تماماً ما كان يدور في خلد الفتى. طبيعي أنهم جميعاً شاهدوا رؤوساً مقطوعة من قبل، ولكن ليس في مثل هذا المحيط الأسري المسترخي. لم تكن جافة وفارغة الأعين، كما هي هذه. لا تبدو الرؤوس المتدحرجة في حمأة المعركة إنسانية جداً. فهي تكاد تكون أشياء، حوادث تسببها الحروب. غريب كيف استعادت هذه الوجوه الميتة منذ زمن طويل إنسانيتها بحسرة رهيبة، ساكنة.

ركب أصلان جواده موجهاً عينيه إلى الأمام. كما فعل أورهان. وقف تيمور في ركابيه إذ اضطر إلى اللحاق بهما. نظر إلى الخلف مرة أخرى. فإن مثل هذه الصورة التي تختلط فيها البربرية بالوضع الطبيعي، ببناء البيوت... ملاصقة لموقع المذبحة، قد هزته إلى أعماق كيانه. الرؤوس- لا، الجماجم -لا، بل الرؤوس، كادت تصرخ بعينه الداخلية، أعاد نفسه إلى الواقع الحاضر بصدمة من القرف.

بالنسبة إلى أصلان، فهذه هي الحرب: ليس كما يعرفها تيمور، ولكنها حرب يتم خوضها بهدوء، حرب غادرة، مخادعة، بدون تخطيط، وحتى هذه اللحظة، بدون أية غاية واضحة.

سعت الخيول بشدة، وكأنما أدركت أن نهاية الرحلة قد أزفت. كان أصلان مرهقاً بحدة. كان مجرد الإرهاق هو الذي جعل هذه المنطقة من بلغاريا تبدو له فجأة - على هذا القدر من الفوضى. غير جذابة، شعثاء، متأخرة، خرافية...

على مسافة قريبة من الحامية. كان باستطاعتهم في هذه اللحظة مشاهدة متاريس الحصن مشتعلة بالتذبذب النمطي المنتظم في الظلام الذي بدأ يتجمع. على يسارهم، مروا أثناء اقترابهم،

بخرائب كنيسة بلغارية منعزلة. ظهر جدارها الوحيد الذي بقي واقفاً مثل شبح في بياضه تحت ضوء القمر. كانت الرسومات الزيتية على جدارها الداخلي قد شوهت بفظاظة بسحبات غليظة من فراشي مغمسة بالقار. بين الركام في الداخل، قام بضعة من الفلاحين المرتدين المعاطِف السوداء يبحثون بغير حماس عن – ماذا؟ صلبان من الذهب، جواهر؟ المزيد من الجثث؟ رأى أصلان أن تيمور يهم بالسؤال فأخرسه بتكشيرة. استمر الثلاثة في المسير متلفعين بأفكارهم الخاصة،وقد انحنوا فوق جيادهم السابحة في لجة من التعرق.

كان كل شيء يسير بسرعة منظمة داخل الحامية. اصطفت الخطوط الطويلة من أصحاب العرائض خارج مكتب القائد في البرج الكائن بأقصى الجنوب. تحركت الطرابيش الحمراء وطواقي "الخيبي" الخضراء المائلة إلى الرمادي صعوداً ونزولاً بين العمائم البيضاء التي يرتديها المدنيون. طرقعت حوافر مطايا الفرسان عبر الساحة في طريقها نحو المبيت الليلي في الإسطبلات. لمح تيمور كل هذا من خلال قوس البوابة.

ندت عن الشحاذين والباعة ضجة مفاجئة بينما قام الخيالة الثلاثة بتقديم أوراقهم وأمروا بالتوجه إلى مكتب القائد من قبل الحرس المناوب.

"انطلق يا تيمور. اعثر على الغرف المخصصة لنا وجهز الفراش". تكلم أصلان بقدر أكبر من النعومة، وأدى تيمور التحية قبل أن يترجل. وكان هذا أمراً جيداً، فهو بحاجة إلى يديه الاثنتين للتمسك بسرجه. فقد كانت ساقاه واهنتين ومخدرتين حتماً بعد ذلك الركوب الطويل.

اختفى أصلان بصحبة أورهان داخل برج القائد. أصلان، صديقه، بطله، حاميه.

أحسّ تيمور بالغضب على كونه يحن إلى بيته ويعاني من انعدام الأصدقاء بذلك القدر – كان يناهز العشرين من عمره وكان ذلك اكتشافاً غير مريح، أن يدرك بأن ستة أشهر من القتال في الأناضول لم تكن كافية تماماً لأن تحوله إلى رجل.

تردد أصلان عند قاعدة الدرج الصاعدة إلى البرج. نظر إلى الخلف، باحثاً عبر الجموع عن لمحة لقريبه الشاب. ندم في هذه اللحظة على خشونته، لكن الرحلة أعادت ذكريات مؤلمة بالنسبة له هو أيضاً – ذكريات عن شاطئ آخر، في القفقاس، ممتلئ بالجثث، تهب عليه ستارة من الرمال وتحط في سكون على الأجسام التي ما تزال دافئة، مثل غشاء من الغبار يحول كل أشكال الحياة إلى العفن.

ماذا بحق الجحيم يفعل في هذه الأرض التي تخلى عنها الحق سبحانه وتعالى؟ لماذا لم يصادف أية قرية شركسية في هذه الرحلة؟ أين هم كل أقاربه – ولماذا يخالجه أقوى شعور بأن أورهان، حليفه منذ وقت طويل، لا يتعامل معه بمنتهى الانفتاح والصراحة، على الرغم من هديته الكريمة المتمثلة في جواد كريم حسن التدريب.

***

الفصل الثاني

ظلت ماجده على الدوام تريد أن تركض عندما تعبر مارة بالخنازير. فرغم أنها تعيش في هذه الجيرة لأكثر من سبع سنوات، فإن الرائحة المنبعثة من حظائرها كانت تسبب لها القرف. كل المزارعين البلغار يربونهم: لم يكونوا معروفين في الوطن القديم في الشابسوغ، إلا بشكل بري. وقد عملت الرائحة الكريهة والزعيق كتذكير يومي بالتغيير الذي طرأ على وضعها – فكأنما كانت تلك الحيوانات نفسها تحتقرها.

لكن إلقاء التحية على زوجة جارها كل صباح وبعد ظهر كل يوم بينما هي عائدة من الحقول، أصبحت مسألة ذات أهمية – فهي محاولة لإلقاء كلمة مهذبة أو اثنتين.

كانت المرأة في هذا اليوم متكئة بذراعيها الضخمتين على سياج الأغصان أثناء مرور ماجده، وقد رسمت على وجهها ابتسامة لا يخطئ من يراها أنها تنم عن الانتصار.

قالت بلغة تركية ركيكة، وهي تغمغم من خلال أسنانها الملطخة بالسواد "لقد أخبرتك بأننا سنكسب، فقد وافق فؤاد باشا على إعادة حقل الذرة إلينا. إذا لم تكوني قادرة على فلاحته، فنحن حتماً قادرون وسنفعل. ما هي الفائدة من ترك الأرض المعطاءة لتصبح بوراً؟"

اعترضت ماجده "ولكننا نفعل ما نقدر عليه، أرجوك، امنحينا بضعة أسابيع أخرى إضافية".

"وما الفائدة؟ كلا. سنباشر العمل غداً. لو أن رجالكم لم يذهبوا ليسرقوا الجياد ما كان هذا ليحصل! كسالى لا يصلحون لشيء...."

سحبت ماجده نفساً عميقاً "أنت تعرفين أن رجالنا قد سيقوا للجيش. أنت تعرفين ذلك."

"آه نعم، ومن الذي تعتقدين أنه يدفع الفيء عن رواتب الجنود؟ نحن الرايات نقوم بذلك!"

ودفعت بأصبعها في صدرها الذي يرتدي صدرية سوداء، وبعد ذلك دفعت أصبعها في اتجاه ماجده، كأنما كل شيء كان خطأها الشخصي. لقد كانت بذيئة اللسان، امرأة الخنازير هذه، وكانت في كل يوم تبصق نفس ديباجة الكراهية والتحامل.

ظلت ماجده تقف ثابتة وتتركها لتنهي مقولتها. فعلى الرغم من كراهية المرأة لجيرانها الشراكسة، إلا أن حبها للثرثرة والنميمة كان يطغى عليها، وكثيراً ما كان لديها خبرٌ ما يشكل فائدة لماجده.

استمرت المرأة في الثرثرة "لا يمكنك أن تحصلي على الأمرين – فإما أن تأخذي الأرض، أو تعيشي من تعبنا.. ولكن ليس الأمرين معاً، أيتها المرأة الشركسية! إنك تتمادين كثيراً، أنت وأبناء جنسك. أقول لك، لقد تعرض كاتب فؤاد باشا للسلب على الطريق العام في الليلة الماضية! فقد أخذ شخص ما منه كيس الضرائب، وجواده وحذاءه! والآن، من الذي تعتقدين أنه يحب سرقة أحذية الفروسية."

أحجمت ماجده بصعوبة عن التلفظ بكلمة حادة. فقد كانت هناك أوقات خدمها فيها قليل من التواضع الذليل خدمة جيدة. فإذا هي سمحت لسيدة الخنازير أن تظن بأن لديها اليد العليا، فهي سوف تستمر في تسريب المعلومات.

"حسناً، لم يفعلها أحد من قريتنا، يا زاخارييفا، يمكنني أن أؤكد لك ذلك... أتمنى لك نهاراً طيباً، يا زاخارييفا.."

أمسكت ماجده بعربة اليد ودفعتها بقوة فوق الممر المليء بالحفر، متجهة إلى بيتها قبل أن تضطر إلى الاستماع للمزيد من إهانات جارتها.

عدّلت المرأة من وضع الشال الأزرق على رأسها كأنما تقول "ها قد هزمتها بقولي هذا".

وعادت إلى خنازيرها. لاحق زعيقها ماجده كأنه ضحكات ساخرة. دفعت بتعب صاعدة الممر الضيق باتجاه "الخان" الصغير الذي تتقاسمه مع عائلتها – أي عائلتها المتبناة. فقد مات كل أهلها.

كان حماها، العجوز حطوط، يستريح على الشرفة، يعرض نفسه للشمس قليلاً لعله يخفف من آلام جسده. لم تكن حياة العمل الشاق وحدها التي تجعل عظامه تؤلمه، لكنها الصدمات والضربات القوية الكثيرة جداً. أدركت ماجده على الفور ما سيقوله عن أخبار المرأة صاحبة الخنازير. "يا نيسًّا، يا كنَّتي، لا تغضبي إلى هذه الدرجة. تقبلي إرادة الله، وبعدها لن تعاني."

حسناً، ربما يقول ذلك، لكن حتى عظامه نفسها تتوتر لشدة الغضب. فقد كان يكره كونه عجوزاً، وأن يضطر إلى ترك جميع القرارات لها.

هي غاضبة بالطبع. ففي كل مرة يحدث فيها أي أمر سيء في هذا الجزء من الغابة، فهو ينسب إلى الشراكسة على الدوام.

أعلنت بمرارة "لقد صادر فؤاد باشا الحقل منا كعقاب لنا"، عندما أخبرته الحكاية. "إنه لم يكلف نفسه حتى عناء الكشف عمن سرقه!"

"حسناً، ماذا تتوقعين.." نفض حطوط العجوز كتفيه، وأغمض عينيه مرة أخرى.

"إنه كسول، عديم الفائدة، إن موهبته الوحيدة هي حشو جيوبه. لن أفاجأ إذا ما علمت أنه جعل بعض "الباشي بوزوق" يسرقون المال لحسابه".

شعرت ماجده بالغيظ من قدريته لكنها حبست لسانها. فقد اتحد الاحترام، الذي سرعان ما تبعه الإدراك، بأن غضبها قد أثاره

حقيقة جيرانها "الرايا" والرسميون الأتراك (المتجسدين في القائمقام فؤاد باشا). لقد كان العالم كله يقف ضدهم. حسناً، سرعان ما لن يتبقى لهم أي شخص ليعاقبوه، لأنهم سيهلكون جوعاً كلهم.

قالت ماجده، وهي تقوم بإحضار بندقيتها وإعادة تعبئة جرابها بملح البارود "أتمنى لو أن اللصوص كانوا شراكسة، أتمنى لو أنهم شقوا حلقه". سوف تضطر إلى الذهاب للتشاور مع حليمه، نائبتها في القيادة.

غطى العجوز حطوط أذنيه. لقد كان مقاتلاً من الشابسوغ. ولم يكن قريباً بشكل حقيقي من أية امرأة في حياته قبلاً. لقد ظل على احترامه لزوجته، كما يفترض فيه، لكنه لم يحيا حياة عائلية مطلقاً. فقد أمضى معظم أوقاته بعيداً عن بيته في جبال القفقاس، مع جيوش الثوار تحت قيادة منصور بك أو خيري أوغلو شامز بك، يقاتل بضراوة لحماية أرضه من أجل أطفاله. وهو الآن هنا، منفي ومعتمد على هذه المرأة الناحلة. لقد كان الأمر خطأ كله، لكن لم يكن هناك ما بوسعه أن يفعله إلا أن يساعدها. يجعلها تستمر في المسير، وإلا فإنهما هالكين. فقط لو أنه كان يمتلك القوة....

أجفلت ماجده وقفز قلبها بين أضلاعها. فقد جاء حماها من خلفها. ربت على كتفها بقبضته المتورمة الملتوية في إيماءة نشاز، نصف حانية، نصف مؤنبة.

"يا نيسًا. لا تغضبي. إن نساء الأديغه لا يستسلمن لمثل هذه العواطف. لأنها لن توصلك إلى أي مكان."

شاهدته من خلال أصابعها، يفرك قبضتيه المقفلتين ببعضهما، وقد علت محياه تكشيرة عميقة. كان يفكر بالكيفية التي يستطيع بها أن يساعد. ارتعشت أصابع ماجده وهي تحشو بندقيتها القديمة، حتى أطبقت يدا حطوط العجوز على يديها.

"دعيني أفعل". كان ذلك العمل صعباً عليه لأنه لم يعد قادراً على بسط أصابعه. لكن سنوات التدريب أكسبته المهارة. "ها أنت،

يا نيسًا" وأعاد إليها مذخر فوهة البندقية. (فقد كانت هذه غنيمته الموثوقة التي كسبها من مواجهة مع قوزاقي منذ سنوات طويلة) وقال لها العجوز حطوط بكبرياء "إذا لاحقت غايتك دون كلل، فإنك ستكونين قد أديت واجبك".

يا له من رجل مسن مسكين، فكرت ماجده، فإن القدرة على الحركة كانت تصبح أصعب وأسوأ بالتدريج. لكن الكلام لم يكن سهلاً عليه أبداً. فهو لم يكن لديه سوى أمثاله الشركسية ليواسيها بها.

استطرد ببطء "من الصعب علي أن أقول لك هذه الأشياء، يفترض في أن أكون قادراً على الدفاع عن زوجتي، عن ابنتي، وعنك يا نيسًا. أنني ألعن هذا الجسد الواهن!" وضرب على ركبته بقبضتيه العاجزتين.

أحسَت ماجده بالإشفاق عليه. لقد كان حزنه في الحقيقة أشد بكثير من حزنها. بعد كل ما قاتل من أجله –أن ينتهي به الأمر هنا، على هذا الشريط من الأرض إلى جانب نهر غريب، محاطاً بالكفار والأجانب.

"أنا آسفة، يا تحمادا. إنني خجلة من نفسي. لقد زال عني الغضب. سوف أسيطر على مشاعري".

نهضت واقفة، وأحنت رأسها قليلاً على شكل إيماءة احترام.

"دعني أحضر لك قليلاً من الماء" كان القيام بالأعمال يساعد دائماً على تهدئتها. أحضرت له ملء فنجان من دلو مغطى، معلق إلى جانب باب "الخان".

"تفضل هذا. أتمنى لو كان هذا عصيراً، ألا تتمنى ذلك؟ عصير مشمش...؟"

وافقها بقوله "أو شريحة من الشمام. لقد كانت حماتك معتادة على تحضير إبريق منه مضافاً إليه النعناع..."

"أين هي زهره؟ هل هي نائمة؟"

عاد حطوط العجوز إلى العبوس، غير مصغ إليها. "ما الذي حدث لتلك الصينية المصنوعة من الفضة ومعها الكؤوس الزجاجية.. لقد كانت مغرمة بها بشدة".

عاد بخياله إلى الشابسوغ مرة أخرى، جالساً في أيكة ظليلة مع الوجهاء... بينما تقوم زوجته زهره بجلب صواني العصير الحلوة الطعم من داخل البيت، وتضعها على "الأنا" (وهي الطاولة ذات الأرجل الثلاثة) المحملة بالمآكل اللذيذة. كان بإمكان ماجده أن تتخيل ذلك كله، فقد كان لديها أقارب مسنون يحيون بهذه الطريقة في الماضي – في بلاد الشابسوغ

"أبتاه..."

"ما الأمر يا نيسّا؟"

كررت سؤالها "تحمادا، أين هي زهره؟"

قال بضيق "وكيف لي أن أعرف؟ إنها تقوم بأعمال النساء – لديها واجبات يتحتم عليها القيام بها! هيا اذهبي أيتها الفتاة!"

غادرته ماجده وتفقدت جانب التلة. بكل تأكيد، فهناك فوق المنحدر،كانت زهره تقوم بجمع الحطب اللازم وقد علقت على ظهرها بندقية. نادتها ماجده، وأشارت زهره بما يفيد أنها ستنزل إليها بعد هنيهة. إجراء مأمون إلى حد ما. لقد كانت تحاول، شأنها في ذلك شأن ماجده، أن تبقي الأفكار السلبية بعيداً عنها باللجوء إلى الحركة المستمرة. فقد كانت كلتاهما مشتاقتين إلى كاظم أكثر مما تستطيعان البوح به. فهو لزهره الابن البكر، ولماجده الرجل الذي أنقذ حياتها. أحياناً، وبينما ماجده وزهره تعملان سوية، فإن إحداهما أو الأخرى تتوقف فجأة، وتسحب نفساً عميقاً، أو تطلق تنهيدة. ثم تنظر إحداهما إلى الأخرى وتعرفان أن الفكرة قد ضربت ضربتها المفاجئة مرة أخرى – بأنه لن يعود أبداً.

أعادت ماجده ملء فنجان حطوط العجوز وأخذت الدلو عائدة به إلى ظل الكوخ. فهي تعلم أن النقاش معه لا يفيد عندما يكون غارقاً في أحلام اليقظة. لأن السلام الوحيد الذي ينعم به هو عندما يلجأ إلى حضن تأملاته، ولم يكن بوسعها أن تحرمه منها.

ستدفئه الشمس. استطاعت هي الأخرى أن تحس بالراحة التي تهبها الشمس بالرغم منها. لقد كان مساءً جميلاً، ما زال يحتفظ بدفئه الذي يدغدغ الأحاسيس، حيث تحوّم اليعاسيب عند ضفة النهر فوق أجمات السوسن ذات اللون الأصفر الفاقع، بينما تحول لون السماء الصافية من الأزرق الصافي إلى البنفسجي الزاهي حيث تلامس الصخور العالية، وعند قدميها، كان نهر النيسافا يهدر مزبداً في اندفاعة براقة فوق الصخور عند منتصف مجراه.

كان كاظم سيحب مثل هذا المنظر. فهو مزارع حاذق وهذه الضفة النهرية ذات تربة خصيبة. كم هو مختلف، ذلك النهر الآخر.

كانت ماجده متعلقة بمركب كبير – واحد من "السفن الأكفان" العديدة التي كان قارب قطر يسحبها صاعداً بها نهر الدانوب، قادماً من موانئ البحر الأسود المزدحمة، ومحملاً بأكثر من طاقة استيعابه بالمهاجرين الشراكسة. كانت هذه السفن البالغ عددها سبعة أو ثمانية في كل مرة، ذات القعور المنبسطة والتي تفوح منها الروائح النتنة، تتأرجح ثم تميل، وهي تصدر صريرها المخيف فوق التيارات المتعاكسة الخطرة. لن تنسى أبداً الليلة التي انقطعت فيها كوابل المركب الذي خلفها – المركب نفسه الذي يقل والديها بعد أن تم دفعهما إليه بخشونة، مما ترك مصيرها لأن يتم دفعها إلى المركب الواقع أمامه، وكأنها كومة خشنة من بعض المواد الخام. أغمضت عينيها، وهي تعاود مشاهدة ذلك الرعب الذي لا يمكن تخيله، بينما كانت الأجساد تسقط وهي ترتعش وتتخبط في النهر المزبد تحتها، بينما تضرب سطحه الأمطار والرياح، ولا أحد يعاود الطفو حتى يمكن إنقاذه، من شدة جذب التيار السفلي للنهر.

كان هناك مركبان آخران مربوطان خلف المركب الذي انقطع كيبله، اصطدما ببعضهما وانقلبا إلى داخل النهر المعتم الذي يمور غضباً، بكل من فيهما من مئات الشراكسة.

سحبت ماجده نفساً عميقاً. تركت الخضار والعربة التي دفعتها عائدة بها من الحقل، في الساحة. لم يكن هناك ما يكفي لإطعام خمس عائلات. ستحضر شقيقة زوجها ساكنات قريباً وتوزع الخضار بأفضل ما يمكنها. كان ذلك جزءاً من نظامهم- يتعاونون فيما بينهم قدر استطاعتهم.

لقد ساعدها كاظم. فقد منعها من إلقاء نفسها في الماء في تلك الليلة، لشدة اليأس. أصبح مفهوماً منذ تلك اللحظة أنها ستبقى مع كاظم وأبويه. لأنها فقدت كل شخص آخر.

جرى إنزالهم على اليابسة في أعالي النهر، ثم أجبروا على المسير إلى بلغاريا، حشروا في خيام ببلدة نيس إلى أن تم تجهيز قراهم. توفي العديد من أفرادهم.

كثيراً ما كانت ماجده تستعيد في ذاكرتها تسلسل هذه الأحداث أثناء تأديتها لأعمالها المنزلية. أو بالأحرى، كانت هذه الأفكار تحضر إلى عينِ عقلها بدون استدعاء، لأن المأساة برمتها أصبحت جزءاً من دمها، جزءاً من لحمها، وشيئاً من دقات قلبها، في كل الأوقات.

لقد كان حزنها هو اللعاب المرّ على لسانها، الألم في ظهرها، الألم في صدرها، الدمعة المتأرجحة في عينيها عندما لم تكن الريح تهب لتجلدها بلسعة تشابه الملح.

بعد ذلك جرى تجنيد الرجال إجبارياً. تزوجها كاظم في عجالة طاغية، من باب الاحترام، من باب الشعور بالواجب، حتى يجعل لها موقعاً محترماً لدى عائلته، حتى يستطيعوا كعائلة أن يعتنوا ببعضهم بعضاً أثناء إرساله بعيداً.

هل كان ذلك الدافع هو الشعور بالواجب! أم هل كان حباً؟ كانت تحلم بأنه كان الحب.

لم يعد كاظم على الإطلاق، لذلك لم تتح لهما الفرصة للعثور على الحقيقة. لكن ماجده استمرت في حبها له، سنة بعد الأخرى، كأنه قد عاش معها، كما يعيش الزوج الذي يحترم زواجه وزوجته، طيلة الوقت.

كان حقل الخضار على بعد مسيرة ساعة. لم يكن بإمكان النساء حمايته طيلة الوقت، وتبعاً لذلك، فقد كان المحصول يسرق على الدوام. كانت ماجده تعمد أحياناً إلى وضع إشارة خفية على الصفوف التي اجتثت منها حبات اللفت هي عبارة عن تشكيل معين من الحجارة الصغيرة. وفي كل مرة تنزل فيها إلى الحقل لتعزقه، فقد كانت الحجارة تختفي بكل تأكيد، ويحصل شخص آخر على قدر مليئة باليخنة من تعبها.

ماذا كان كاظم سيفعل؟ كانت ماجده تخوض للحظات عزيزة في تخيل حميم لصوت زوجها المتوفى، وهو يقترح نظاماً للحراس الليليين، كان سيقول "يجب على جميع الرجال أن يتناوبوا"، ولأنها كانت نقطة منطقية جداً، فإن جميع أرباب الأسر سيوافقون. تنهدت ماجده. فلم يكن لديهم أحد. لا رجال. فإن كاظم ميت بالتأكيد – لقد تلقوا خطاباً رسمياً. وكان الآخرون مفقودين للقوات المسلحة – أو ميتين أيضاً، حسب معلوماتهم. كانت القلة التي تركت في القرية من الطاعنين في السن أو الصغار جداً– مثل توأمي حليمة، أزرات وتامبي، اللذين لا يزيد عمرهما عن عشرة أعوام. كان لدى جارة أخرى هي رسميه ابن أكبر قليلاً –يكاد يكون رجلاً في سن الثانية عشرة– لكن إسماعيل المسكين بالكاد تعافى من إصابة بالحمى، ولم يكن في حالة لائقة صحياً لقضاء الليالي نائماً في الحقول المفتوحة، الحقيقة هي أنهم كان لديهم ما يكاد يكفي من الناس لحراسة القرية، ناهيك عن حماية الحقول البعيدة.

انطلقت لتفقد الدوريات بمحاذاة الظهير الصخري للقرية. كان بيتها، الذي تشترك فيه مع العجوز حطوط وحماتها زهره، أول خان في الصف، عند دخولك إلى القرية. كانت هناك سلسلتين متصلتين، إحداهما فوق الأخرى، وتحوي كل واحدة حفنة من البيوت، مبنية كيفما اتفق على أكثر البقع انبساطاً في السلسلتين: شكلت هذه البيوت المجتمع "العلوي" و "السفلي" من الشابسوغ – ليس أكثر من أربعين روحاً في المجموع ألقي بها هناك مع قلة من الأسر البلغارية المسيحية الأصلية.

سارت غرباً باتجاه الشمس الغاربة سالكة الممر الضيق الذي يمر أمام القرية مؤدياً إلى بيت أقرب جاراتها، رسميه. كان الممر موحشاً، والمسير فيه عسيراً. فإذا أمطرت السماء، فإن الريح والبلل كانا يأتيانها بقوة من قلب الوادي. كان ضابط الهجرة الذي يمثل السلطان، حسن أفندي قد أمر ببناء أكواخهم متباعدة أكثر مما كانوا هم يحبون. ربما لأن ضفة النهر المنحدرة لم تكن عريضة جداً ولا تحوي الكثير من الأمكنة الصالحة، للبناء المتجاور، ولكن ربما أيضاً في حالة هوجم أحد البيوت، فإن البيت التالي سيكون آمناً إلى درجة يمكنه فيها إطلاق الإنذار لبقية السكان.

كانت مهمة بناء المساكن قد أنيطت ببعض عمال "الراياه" (ومن ضمنهم ابن صاحبة الخنازير المجاورة) وقد أدوها بأسوأ ما يمكنهم أداءها بدون إثارة الاعتراض. سجل حسين أفندي القرية على خريطة باسم "تيبيليك" (خمسة) وهو بالكاد يشكل إسماً: فهو يعني "قرية التلال" ببساطة، واحدة من سلسلة قرى أقيمت على عجل لإيواء المهاجرين الشراكسة على مدى الإقليم الواقع تحت إشرافه – إلى الشرق من نيس، على الضفاف الشمالية لنهر النيسافا، منطوية تحت سلسلة أقل ارتفاعاً من جبال بلانينا. إلى الشمال تقع رومانيا، وإلى الغرب صربيا، أما بلغاريا فهي بلغاريا. والخنازير في الوسط... ساد شعور بالاغتراب من هذه الأسلوب

في المعيشة، بدلاً من الحلقة المغلقة بإحكام. آمنين في مرح جبلي، كما كانوا يعيشون في وطنهم بالشابسوغ.

"الوطن!" لم يعد لمكان كهذا وجود الآن. لم يعد هناك أي مكان آمن بعد الآن. خاصة وأن حسن أفندي قد غادر المنطقة الآن وتخلى عنهم لأجل "العناية العطوفة" للقائد العثماني المحلي، التركي الأصل أو "القائمقام"، فؤاد باشا.

كانت رسميه تقوم برثي الثياب عندما وصلت إليها ماجده. كانت رسميه في نفس عمرها، تحمل ملامح طفلة، وتحمل سمات المرض، تماماً مثل ابنها. وعلى أية حال، فقد كانت تخيط مثل أميرة، وكانت تتولى إخاطة وغسيل بياضات اللاتي يترتب عليهن القيام بالأعمال الشاقة في غياب الرجال.

"هل كل شيء على ما يرام معك يا رسميه؟"

"نعم يا ماجده."

"وهل صحة إسماعيل في تحسن؟"

"نعم يا ماجده".

"حسناً. سأمضي في طريقي إلى حليمه إذن".

"نعم يا ماجده.. أنت في غاية الطيبة، أشكرك." كانت رسميه تنظر إلى ماجده نظرة احترام وتبجيل وكأنها أنثى عجائبية من طراز خاص، تتمتع بقوى متفوقة بشكل كبير على القوى التي تمنح لبنات جنسها عادة.

كانت ماجده تجد الأمر مسلياً، سخيفاً – لكنه أيضاً محرج بعض الشيء.

"إلى اللقاء يا إسماعيل.. ربما ستكون غداً قادراً بما يكفي للقيام بواجب الحراسة مرة أخرى!" كانت ماجده تحب أن تشجع الصبي. تعامله معاملة الرجل، على الرغم من ضعفه الجسدي. إن علته

تكمن في صدره: كثيراً، ما كان يعجز عن التنفس، ابتسم الصبي متعباً، ثم تكور وأدار ظهره.

قال بصوت ناعس يشوبه الصفير "أشكرك، يا خالة ماجده، سوف أحاول".

قبّلت ماجده صديقتها رسميه "لم لا تسمحين لسوسا بأن تتمشى معي بعض الطريق؟ ستكون في أمان".

كانت سوسا يتيمة – فقد ماتت عائلتها في وباء الكوليرا الذي اجتاح الوادي المجاور برمته. كانت أمها قد حضرت متهالكة إلى هذه القرية ومعها سوسا الصغيرة، باحثة عن الملاذ. وانهارت عند مفترق الطرق. جرى دفنها سراً ثم أخذن الطفلة، بدون أن يبلغن السلطات بموت أمها. كانت رسميه تحب صحبة الفتاة الصغيرة لمجرد المؤانسة.

كانت قرية تيبيليك خمسة مليئة بالأطفال المشردين واللقطاء، مثل الكثير من المستوطنات الشركسية في هذه الأنحاء.

"سوسا، بإمكانك أن تذهبي مع ماجده لغاية التوأمين، ولكن بعد ذلك يجب عليك أن تعودي أدراجك مباشرة". حذرتها رسميه.

مدت سوسا جدائلها بصورة مستقيمة، ومسَّدت مريلتها، ثم رفعت يدها لماجده. لقد كانت منذ الآن تتصرف وكأنها ابنة حقيقية لرسميه، بارعة في كل حركاتها: ومثل بقية الأطفال، فقد جرى تعليمها بأن لا تذهب إلى أي مكان لوحدها. إذا لم يكن الوضع آمناً. انطلقت كل من ماجده وسوسا، مرة أخرى، سائرتين باتجاه الغروب فوق الممر.

إحدى ميزات مستوطنتهم كانت منعتها. فقد كان نهر النيسافا يجري نزولاً في الأسفل إلى يسارهما: ويرتفع التل بحدة خلف الخانات العلوية ذات المساطب المستوية. يستطيع المرء، من هذا

الممر، أن يكشف لمسافة ميل على الأقل في الاتجاهين الشرقي والغربي.

في الأيام الغابرة، كان مكاناً جيداً للدفاع عن المجرى الضيق للنيسافا. أما الآن فإن موقعها المتميز يمنح القرويين الوقت الكافي للتفرق مبتعدين من أجل سلامتهم بين النتوءات الصخرية، داخل الكهوف، فوق الصخور، إذا دعت الحاجة، إلى القرية الشركسية التالية. لقد حدثت عدة مرات في السنين القليلة الماضية اضطروا فيها إلى مثل ذلك التصرف.

وبشكل خاص في السنة الماضية، فقد كانت الجبال تعج "بالكوميتاس" البلغارية التي يتجول أفرادها باحثين عن المسلمين لذبحهم. ولولا أنجول، لكانوا قتلوا منذ زمن طويل عن بكرة أبيهم..

في الواقع، فكرت ماجده، أن عدم مرور أنجول عليهم ليخبرهم عن هذا الأمر المغضب الأخير، شيء مستغرب. ظلت ماجده تأمل أن يكون كل شيء على ما يرام بالنسبة لحليفها السري... كان أنجول زارتوف حرفياً – حائكاً بلغارياً. وكان شقيقه تيودور "بابا" – قساً لقرية "راياه"، وكان متحمساً لقضية الثوار بقدر حماس أي بلغاري.

وقد شاهدت ماجده، في تلك الشهور المضطربة من السنة الماضية "البابا تيودور" عدة مرات وهو يهاجم على مدى الريف مع عصابته من ثوار "الكوميتاس"،بلحيته المتطايرة، وصدره الذي يحمل أحزمة الرصاص المتقاطعة، في تضارب واضح مع أثوابه السوداء، وسلاسله المقدسة وسبحاته. لكن انجول كان مختلفاً. فقد كان يمد جميع النساء القرويات في هذه الأنحاء بالقماش الصوفي – فهنَ بالنسبة له زبونات كلهن، سواء كن مسلمات، شركسيات أم مسيحيات. ربما جعلته مهنته أكثر قدرة على رؤية الإنسانية المشتركة بين الناس. هو مسيحي بالطبع، لكنه من الطراز الأكثر لطافة – فهو غير مستعد لأن يؤذي أحداً، ولا حتى مسلم "ملحد"

وهكذا فقد كان يتعلل في مناسبات عديدة بأنه يقوم بتسليم القماش، لكي يحذر ماجده من أن هناك متاعب يجري التحضير لها. وقتها كانت ماجده وعصبتها الصغيرة تقوم بتحزيم أمتعتها وتترك القرية مهجورة، إلى أن تنقضي المتاعب، ويعودوا إلى الظهور مرة أخرى، غير متضررين.

لقد تطورت مشاعر انجول إلى الاحترام، ونوع من المودة، تجاه ماجده والنساء الشركسيات الأخريات المهجورات، اللاتي استطعن أن يتدبرن أمورهن بشكل جيد بالنظر إلى عدم وجود رجال للدفاع عنهن. كان يعطيهن أسعاراً طيبة.. كانت أحياناً تقلق من احتمال شعوره بالمودة نحوها بشكل خاص، وهو أمر لا يمكن استمراره. فهي ليست فقط شركسية، وغير قادرة على التفكير بمثل هذا الجنون، ولكنها ستظل في قرارة نفهسا، وأعماق قلبها، متزوجة من كاظم على الدوام، إلى الأبد.

الحمد لله، على أن الأمور هدأت مؤخراً. فقد أرعبت جماعات "الباشي بوزوق" الإقليم حتى الخضوع. لكن النساء بقين على عادة الحذر والترقب. وعليه، فقد كن يتفقدن بعضهن بعضاً كل مساء، ويتناوبن الأدوار في القيام بالدوريات، ويحتفظن بالبنادق جاهزة على الدوام.

ركضت سوسا متقدمة عندما سمعت أصوات الضحك من "الخان" البعيد. كان هذا بيت أزرات وتامبي، أكثر الأولاد التوائم شقاوة في بلغاريا، حسب رأي أمهما. فقد كانت حليمه منشغلة بالكامل في إبعادهما عن المتاعب، إضافة إلى تمريض ثلاثة من الأقارب المسنين، هم والديها وشقيقة أمها الكبرى. فقد تحمل ثلاثتهم الرحلة الرهيبة صاعدين النهر في المركب القادم من الساحل بجلد فائق – لكن صحتهم تراجعت بسرعة، بمجرد أن أدركوا موقع المكان الذي انتهوا إليه. فقد كان والدها العجوز ونسائه في الحقيقة، يحيون بانتظار الموت.

خرجت حليمه، يداها مبتلتان من محاولة غسل الوحل عن الصبيين. لقد كانا "يصطادان السمك" – يلعبان في الطين عند حافة النهر بالأغصان والخيوط. لا، لم يكن هناك سمك للعشاء، بالحكم على الضجة التي كانا يثيرانها.

انفصل زوج حليمة عنهم في مكان ما أثناء الرحلة الطويلة قدوماً من البحر الأسود. كان هناك العديد جداً من القصص بين النساء عن رحلتهن المصيرية من القفقاس، والعديد جداً من الليالي الموحشة خلال سنوات الوحشة عندما كانت هذه القصص تستعاد. لكن في هذه الأيام، فإن حليمه تكتفي بممارسة واجباتها وقلما تذكر الماضي. فقد كان لديها الكثير جداً لتفعله.

قالت مؤنبة "ماجده، ها أنت ذا. لقد تأخرت اليوم. تعالي وتناولي بعض الحساء. لا يحتوي على شيء – بكل صدق، سوف ننمحي كلنا قريباً...".

لقد كانت فكرة اندثار حليمه الشجاعة المسيطرة عبارة عن نكتة. فقد كانت المرأة تنمو مثل شجرة بلوط – ثابتة وصلبة، مهما كانت التربة ضعيفة. كان لدى ماجده شعور بأن "جذور" حليمه، حبها، غضبها، وإحساسها بالواجب، يغورون عميقها، كما تغور جذور الشجرة، لتجلب إليها طاقة عظيمة.

صرخت حليمه بالتوأمين العاريين، أزرات وتامبي "عودا إلى داخل ذلك البيت!" فقد ظنا أن هذه ربما تكون فرصة لهما للهروب بقيمصي نومهما. "سوسا! ألبسي هذين الوغدين ثيابهما! سامحيني يا ماجده – إجلسي. لا يتسنى لي أبداً وجود امرأة لأتحدث إليها!" في كل مرة تزورها فيها ماجده، كانت حليمه تقول الشيء نفسه "لا أحصل على أية محادثة أبداً".

ومع ذلك فقدكانت تتكلم بلا انقطاع، وكانت ماجده بالكاد تتمكن من النطق بكلمة. وهكذا فقد باشرت سوسا عملها كأم صغيرة في منتهى الجدية، وجلست ماجده مع حليمه وجهزت الوجبة الهزيلة.

بدأت ماجده بالقول "لقد قام فؤاد باشا باسترداد الحقل، لأن كاتبه جابي الضرائب –" أسكتتها حليمه برفع يدها الكبيرة منبسطة في الهواء "لا تخبريني!"

"لو أنني أستطيع أن أضع يديَّ على السارق..."

كانت الفكرة رائعة. "يحتمل أن يكون زوج المرأة صاحبة الخنازير قد فعلها "قالت بغضب، وهي تلقي بحبة بطاطا كبيرة مغسولة في وعاء لليخنة وكأنها تركي يتعامل مع رأس بلغاري.

سألت ماجده "وكيف سمعت بما حدث" لم تتوقف ماجده عن الإعجاب بكيفية حصول حليمه، وهي التي تعيش في أبعد "خان" في القرية، على كافة الأخبار أولا.

ضحكت حليمه بطريقة لئيمة خالية من المرح "لقد حصل عليها شخص في مقام رفيع من شخص آخر كان على الطريق. كائناً من كان، أوقف "العربة"، طلب من السائق الخروج منها – هناك خلف التقاطعات الرئيسة – "وأومأت برأسها بحدة باتجاه المنحنى البعيد في الوادي– "ثم حلَّ وثاق جواده. أخذ النقود، الأحذية، وترك الأحمق واقفاً هناك يحمل العنان في يده، وطقم من العجلات خلفه، بدون أي حيوان يحثه على المسير".

أطلقت حليمه ضحكة مدوية مباشرة، وانضمت إليها ماجده أيضاً، مما جعل سوسا والتوأمين يزعقون ضاحكين جميعاً. لم يكن أحد يفوت فرصة طيبة لخلق الضجيج في هذا البيت – لكن في الحقيقة، لم يكن الأمر مضحكاً.

قالت ماجده "إنني فقط آمل في أن يمسكوا بالمجرم قبل أن يقرروا الانتقام منا. حليمه، يستحسن أن تظلي ساهرة هذه الليلة، فربما سمعت أي شيء...".

"تماماً"، قالت حليمه وهي تنفض كتفيها. فقد كانت تنحني دوماً لاقتراحات ماجده – على الأغلب لأنها أكثر انشغالاً من أن تفكر

بالبدائل. إن أساليب الرجال على ما هي عليه. على النساء أن يتحملن.

لم يكن رجال الشراكسة "لصوصاً" وضيعين، مثل "الباشي بوزوق" في هذه الأنحاء، الذين ينهبون نساء الراياه العاجزات والأطفال، ويحرقون بيوتهم. لقد وضع اللوم على العديد من الشراكسة عما فعله هؤلاء المرتزقة الأتراك – على مسلكيات هي قطعاً دون ما يقبله أي أديغة. بما فيه الاغتصاب.

تنهدت كلتا المرأتين. مهما كانت القواعد، ومهما كان الجانب الذي يقفن فيه، فإن النساء لسن الفائزات أبداً.

أنهت حليمه وماجده الطبخ وتهيأت ماجده للانصراف. "يجب أن أعيد سوسا إلى بيتها قبيل حلول الليل، فإن رسميه سوف تشعر بالقلق إذا لم أفعل". قبلت حليمه على خدها المخشوشن.

"سوف أمر بك ثانية في الغد".

زمجرت حليمه "وأرسلي ساكنات" وهي تنظر إلى قدر طبيخها، ثم اشتكت بقولها "سيكون هذا فارغاً بحلول الغد" لكن ماجده أدركت أنها تقول ذلك لأنها بحاجة إلى التنفيس عن غضبها. "وقولي لرسميه، تلك الناحلة، أن تحضر إسماعيل إلى هنا في الغد أيضاً. إن الصبي بحاجة إلى التمرين، وهي أجبن بكثير من أن تغادر البيت. أقسم بالله أنها تتصرف كالضحية".

"نعم، ولكننا، أنت وأنا من صنف "المساعدات"، مما يجعل الأمور بخير".

ضحكت ماجده على نفسها وعلى حليمه – لكن المرأة الأكبر سناً لم تكن في مزاج يسمح لها بالتهكم على نفسها، فهبت قائلة "تحدثي غن نفسك. فهل تظنين أنني أحب القيام بكل هذه الأعمال بنفسي؟ لقد كانت لدي حديقة في الوطن، وكان لدي خدم، وعندي ممتلكات راقية!" لوَّحت بملعقة مطعجة باتجاه داخل كوخها المعتم،

حيث بدأ العجائز الثلاثة يسعلون من تأثير دخان الطبخ، وحيث كان الصبيان يتدحرجان مرة أخرى على السرير المنفوش.

ما كان لك أن تتكهن بالنسبة لحليمه، كيف سيكون رد فعلها على أية ملحوظة. هزت ماجده رأسها معتذرة "حسناً، حسناً يا حليمهِ، سامحيني" وخرجت باتجاه الطريق. طرأت لها فكرة، فاستدارت عائدة. ربما سيكون من الحكمة إرسال ساكنات صاعدة إلى القرية العليا على الفور، لإنذار النسوة من وجود متاعب يجري التحضير لها. فهل سيكون ذلك التسبب لهن بالقلق بغير ضرورة؟ كانت على وشك العودة إلى "خان" حليمه، للتشاور معها، لكنها ترددت مرة أخرى. كان بمقدورها سماع حليمه وهي تصرخ على الأطفال، وتطرقع بآنيتها، في محاولة لأطعام المسنين، ومحاولة في نفس الوقت أن تحافظ على النظام في البيت المتهدم، المتعفن.

أدركت ماجده أن اتخاذ كل القرارات منوط بها. فهي لم يكن لديها أطفال، ولا عائلة تخصها فيما عدا حمويها، وفي الحقيقة، لم يكن لديها إلا نفسها لتفكر بها. تنهدت، وهي تشعر بالوحدة المطبقة. ماذا كان كاظم سيفعل، كان ذلك كل ما لديها ليدلها على الصواب حالياً...

"هيا يا سوسا، أمسكي بيدي". اقتربت البنت الصغيرة منها، خائفة قليلاً ومحتارة من النظرة القاسية البعيدة التي شاهدتها في المرأة التي تعتني بها. لم تكن ماجده تمتلك الكلمات التي تشرح اضطرابها وصراعها لطفلة. سحبت سوسا من يدها. "سنسير بسرعة، قبل أن يخفت النور. سرعان ما سنكون في البيت".

لكن ماجده لم تصل إلى ذلك الحد. فقد قفز رجل يرتدي زياً رسمياً خارجاً من خلف صخرة وسدد بندقية ونشستر. كان ذلك انجول زارتوف.

"انجول؟ ما الأمر؟ لا تطلق النار! هذه أنا، ماجده!"

خلعت ماجده غطاء رأسها، حتى يمكنه أن يراها بوضوح أكثر. "لماذا أنت تسدد البندقية عليَّ؟"

جاء صوته جارحاً "لا تتحركي!" واستطاعت على الفور أن تدرك بأن الرجل قد أصابه مسٌّ. فقد حدث أمر ما جعلها تصبح عدوة له.

كان انجول أكبر منها سناً بمجرد سنة أو اثنتين، في أواخر عشرينات عمره، وسيماً، أسمر البشرة، بشارب رفيع. وقد ارتدى في هذا اليوم سترة من فراء الخروف فوق معطف أخضر، نعالاً جلدية وغطاء ساقين مربوطاً بقدميه وقصبتي ساقيه، وكان المعطف الواقي من المطر ملتفاً على كتفيه.

سألته ماجده "إلى أين أنت ذاهب؟ ما الذي حدث؟ أنت تبدو وكأنك –كأنك تقاتل! أنت يا أنجول؟ حتماً لا!"

وجدت ماجده نفسها قريبة من البكاء. إن هذا الرجل أجنبي، راياه بلغاري قدم لها العديد من الجمائل في السنوات القاسية الأخيرة. وهكذا فقد وجدت نفسها تحمل نحوه ثروة من مشاعر الامتنان – وحتى ثروة من الحنان تجاهه، لم يطلقها نحوه سوى هذه اللحظة القاسية.

أخذ انجول يعبث بسلاحه بيد مرتعشة، وكأنما يجبر نفسه على التصرف بطريقة عسكرية. "لقد قتلوا أخي!" همس لها بخشونة "لقد قام الجيش التركي بإعدام ثيودور. بعد أن قاموا بتعذيبه.." كانت إيماءته مرعبة: تحركت يده عبر رقبته.

"يا انجول، إنني في غاية الأسف. أرجوك، أرجوك أن تصدقني. لماذا توجه ذلك السلاح باتجاهي؟ هل هو ذنبي؟ ما الذي فعلته أنا؟ هل أنت ستقدم على قتلي؟

استمرت ماجده بالتحدث، وهي تراقب مختلف أنواع العذاب والحسرة وهي تعصف بعقل انجول.

استدركت قائلة "لقد كان البابا ثيودور من "الكوميتا"، مات ثائراً ، ويدرك ما كان يفعله... لقد كان شجاعاً، لكنه كان يعرف إلى أين سينتهي به الأمر... لقد كان هذا خياره، أن يموت بطلاً، شهيداً..."

"أعرف ذلك! لكنني نادم على أنني لم أقف إلى جانبه. لو إنني فعلت –آه يا ماجده، اسكتي تلك الطفلة عن البكاء وإلا فإنني أقسم بالله أنني – سأوقفها بنفسي!"

شعرت ماجده بالرعب. فقد كان الحزن يودي بعقل هذا الشخص اللطيف في العادة.

رجته ماجده "دعها تذهب يا انجول، أرجوك، اخفض سلاحك، أنا – أنا لن أهرب. بإمكاننا أن نتحدث. سوف أبقى، لن أتحرك..

كانت أفكارها تتسارع. وقف انجول في مكانه لثوانٍ عديدةٍ مخدرة قبل أن يخفض بندقيته.

حرك انجول رأسه بقوة "آه يا إلهي، حسناً جداً. اذهبي إذن أيتها الطفلة" مشيراً لسوسا حتى تنصرف، ثم سقط على ركبتيه، مرهقاً.

ركعت ماجده ببطء، وهي تفك أصابع سوسا من طيات تنورتها. "سوسا. اذهبي إلى البيت. قولي لرسميه، أن ماجده قابلت صديقاً على الطريق وأنها ستمشي معه إلى البيت".

صرخ انجول في ماجده، بطريقة غير مألوفة من شخصيته "لا ألاعيب! تكلمي إليها بطريقة أفهمها!"

كررت ماجده ما قالته لتوها باللغة التركية.

قال "ذلك صحيح. اسرعي بالذهاب أيتها الفتاة الصغيرة."

لم تفهم سوسا كلمة من لهجة النيسافا المحلية التي يتكلمها. على أية حال، فقد فهمت نبرة صوت الرجال البالغ، وكان الرجل

قد هدأ الآن، وهو يشعل سيجارة، ويستند إلى جانب صخرته. ولم يعد مخيفاً إلى ذلك الحد.

ارتعشت شفتا سوسا "ولكن يا خالة ماجده، أنا لا يفترض في أن أمشي لوحدي....".

"لا بأس عليك. افعلي ما أقوله لك. إليك هذه" رفعت ماجده يدها نحو الشريطة الزرقاء الموجودة في شعرها. "خذي هذه. إنها هدية إضافية. قولي لرسميه أن تجعل شعرك في جديلة".

نهضت واقفة وهي تراقب سوسا تتصرف بهدوء وبطء إلى "خانها".

استدارت نحو انجول وسألته "ماذا تريد مني؟ " وهي تخشى الأسوأ.

نظر انجول إلى شعر ماجده الأسود الكثيف، وقد انفرد على كتفيها بعد أن أهدت الشريط الذي كان يضمه. لا بد وأنه أدرك خوفها. دفن وجهه بين يديه.

"يا إلهي! لا شيء، لا شيء! لا تقلقي، فأنا لن أؤذيك. أنا لا يمكنني أن أؤذيك أبداً".

سحب نفساً عميقاً من سيجارته ثم داسها حتى انطفأت، وكأنما يقرر بذلك شكوكاً ثارت في داخله "أنا ذاهب بعيداً يا ماجده. لقد جئت لكي أودعك. ما عدت أستطيع أن أساعدك بعد الآن. لقد أردت في يوم ما –أنا– كنت أتأمل أننا ربما–"

هزت ماجده رأسها.

انهار انجول متكئاً على الصخرة. "كلا. أعرف ذلك الآن. ليس هناك عالم يستطيع فيه الناس أن يعتني فيه أحدهم بالآخر". نظر إلى البعيد عبر النتوءات الصخرية لمضيق نهر النيسافا. "سيظل على الدوام شخص يكره شخصاً آخر. ما عدت أؤمن بربي بعد

اليوم. لقد كان أخي محقاً. وحده رب الانتقام هو الموجود في هذا العالم. السيف الحاد النظيف للرب العظيم".

انحدرت الدموع فوق خدي انجول. بانت يداه بيضاوين ناعمتين وهو يمسح دموعه بغضب متجدد هائل.

لم يكن مقاتلاً، أدركت ماجده ذلك. كان يحب الألوان والأقمشة، المنسوجات ذات النوعية النسيجية الجيدة والعرض المنفذ بإجادة. كان يحب الكلام، المساومة، التعامل مع الأشياء الجميلة وإشعار الجميع بالسرور من صفقة الشراء. لم يكن ذلك يعني شيئاً الآن، بينما رأس أخيه موضوع فوق حربة خارج أحد السجون التركية.

بقي انجول صامتاً لوهلة، وكأنما يحاول أن يقنع عقله بشيء ما. "اسمعي يا ماجده، من المقرر والمخطط له أن تتم مهاجمة هذه القرية. هنالك طابور من التعزيزات التركية سيقوم باكتساح هذه المنطقة في طريقه نحو نيس. إن الصرب يسببون لهم متاعب جمة هناك. هذا مكان جيد لإيقافهم.

يجب علينا القيام بواجبنا. لا يمكننا أن نترك الصرب يقومون بكل القتال، وإلا فأنهم سوف يستولون على منطقتنا."

"هل سيتحتم علينا الرحيل مرة أخرى؟ هل تعني، أنكم سوف.. تجيئون إلى هنا غداً؟" كانت ماجده تحاول أن تفهم ما يقوله أو يفعله.

نفض كتفيه "نعم. سوف أكون هنا. ستكون عملية قذرة جداً. نحن بحاجة إلى هذه البيوت للاحتماء. ربما يصاب عجائزكم بالأذى. إذا لم تتصرفوا، فالاحتمالات كبيرة بأن الأتراك سيأتون ويقتلوكم بعد أن نكون قد انصرفنا. بسبب إيوائكم للعصاة". كانت نبرته واقعية وكأنما كان البحث كله أكاديمياً بالكامل.

"لقد سبق وأن أنذرت جيرانكم البلغار، وبعضهم قد غادر فعلاً".

هبت فيه ماجده "ولماذا لا تقتلوننا أنتم بأنفسكم، في هذه الحالة؟" وقد شعرت بالغضب منه. سقطت على ركبتيها "لماذا لا تقتلوننا..."

أدرك مدى ما قاله – أكثر مما يجب، ورفع بندقيته على كتفه، مستعداً للمغادرة. "أنا لا أستطيع أن أفعل ذلك! هل تعلمين أن أخي كان يريد أن تموتوا جميعاً! أنا كذلك أريد حرية بلغاريا من الاضطهاد، لكنني كنت أتجادل معه دائماً، ما كنت أريد الأمر على تلك الشاكلة أبداً! إنني أشعر بالقرف، القرف من موت الناس! لكن يجب علي أن أفعل هذا الآن – لقد أخذ مني أخي قسماً مقدساً... آه يا ثيودور!" سقط انجول على ركبتيه مرة أخرى في نوع من النشوة الحزينة، فهو يصلي ويبكي ويحس بالرغبة في القتل في نفس الوقت.

وضعت ماجده يدها على رأسه. ظل منحنياً للحظة، وقد خبأ وجهه عنها. رفع طرف ثوبها قليلاً، وضع طرفه على شفتيه، وقبله. تحدثت بادرته عن شفقة لم يستطع وجهه أن يظهرها، فقد كان في ظاهره مصمماً.

لم تكن ماجده تعرف الكثير عن حالة الحرب الدائرة خارج قريتها، أو في وادي النيسافا هذا. فجأة، أصبحت الحرب هنا، أمامها، ولم تفهم منها شيئاً. حاولت مرة أخرى "أرجوك، أرجوك، قل لهم أن لا يفعلوها هنا.. ليس لدينا إلا أقل القليل..."

نهض انجول، وقد قست ملامحه في هذه اللحظة. سحب سلسلة حول عنقه ليحل رباطها، وسلمها إليها. "خذي هذه، يا ماجده. انصتي إلى أوامري ونفذي هروبك. إذا حذرت السلطات من كميننا سوق يصبح الأمر أسوأ بالنسبة لك. لقد تم تحذيرك! اشكري نجوم سعدك أن الذي أرسل في هذه المهمة هو أنا".

اختفى في ظلمة الليل. نظرت ماجده إلى التذكار الذي تركه انجول في كف يدها، وأحست بأنها آخر هدية لأنوثتها. ألقت بها بعيداً عنها وركضت كل الطريق إلى بيتها. غرق الصليب الفضي مع سلسلته في وحل نهر النيسافا، في مسافة بعيدة إلى الأسفل.

***

الفصل الثالث

تحتم على أصلان وأورهان أتاكوي مشاهدة الجلد. فقد انكشف أمر ضابط مسؤول عن ابتزاز المال من فلاحي الرايا، بمحض الصدفة، أثناء توقف العقيدين القادمين من استنبول في حصن فيليبوليس. كان المسكين عديم الحظ (ومع أنه كان فاسداً بلا شك) مربوطاً في هذه الأونة إلى عمود في وسط ساحة الاستعراضات، حتى يشكل عبرة للرجال - ويؤثر في العقيدين حول حالة الانضباط المحلية. افترض أصلان أن الجندي صغير السن المربوط إلى جانب الضابط، شريك صغير الشأن في هذه "الفضيحة" وأنه تم تهديده بالتعذيب إذا لم يعترف باسم المجرم.

تبادل كل من أصلان وأورهان نظرة عارفة. لم يكن من شأنهما التدخل في إجراءات من هذا القبيل: فما من شك في أن الضابط قد استحق عقابه. جرى تجريده من رتبته أمام الكتيبة بكاملها في فيليبوليس. راقب أصلان بوجه جامد خالٍ من ردود الفعل: وراقب أورهان بتعبير مشابه في عدم التأثر. ورغم ذلك فإن تيمور الشاب، الواقف خلف أصلان مباشرة، كان يجد صعوبة في إبقاء عينيه ناظرتين إلى الأمام، ووجد نفسه يركز على رف من العصافير وقد حط على سطح المهجع، يتشمسون غافلين عن العنف الدائر تحتهم.

وقفت صفوف من الجنود والضباط ذوي الرتب الصغيرة متيبسين في حالة تأهب حول ساحة المهجع. أوضح "المتصرف"، وهو القائد المحلي للجيش، وهو أناضولي ضخم الجثة، الموقف في خطابه القصير فبينما تم غض الطرف عن الفظاعات من مختلف الأنواع في قمة اشتداد العصيان، فإن جهود أنشطة الجيش العثماني موجهة بالكامل حالياً في هذه المنطقة وبعد الهزيمة، نحو التوصل إلى صيغة تعايش مع الرايا البلغارية. فإذا لم يفعلوا، وإذا استمر

المزيد من العنف والمضايقة، فإن الروس سيصبح لديهم عذر مثالي للانقضاض عبر نهر الدانوب للدفاع عن "أخوتهم السلافيين المسيحيين".

اختتم القائد بقوله "ونحن لا نريد ذلك، أليس كذلك؟ لم يواجه أحد منكم طابوراً من القوزاق. لقد واجهتهم أنا، ويمكنني أن أقول لكم، إنني لا أريد أن أفعلها مرة أخرى. هذه هي أرض السلطان وأن واجبكم الإلهي هو الدفاع عنها! كل شخص يتسبب في إغضاب رعيته، حتى رعيته "الرايا"، فهو يغضب السلطان والإمبراطورية! إن هؤلاء "ذميون"، وهم أيضاً شعبه!"

تناول القائد السوط بنفسه – وهذا إجراء هو بدون شك جزء من خطته للتأثير في العقيدين الزائرين على أنه قادر على تطبيق سلطته بشكل مثالي. عند الضربة الثالثة، استجر الدم من ظهر الضابط- وكذلك من ظهر المجند الشاب الذي غطى على أفعاله، وكان مربوطاً إلى الجانب الآخر من العمود. وكان الجلاد الرسمي، وهو رقيب السرية، يتعامل معه في تزامن تام مع ضربات القائد المنتظمة.

كان الجندي أكبر من تيمور سناً بقليل، وكان جلده ناعماً، صبيانياً، وغير موسوم بأية كدمات حتى الآن. جلبت مراقبته وهو يتفتح الدموع الحارقة إلى عيني تيمور. لاحظ أصلان بدوره التناقض بين بشرتي الرجلين. واقع الحال أن الضابط المجرد من رتبته كان يتلقى العقاب الأشد بكثير من الفتى، وبما أنه قد تم جلده مرات متعددة من قبل خلال سيرته العسكرية، فقد أصبح جلده كتلة من الأنسجة الندوبية. وكان ذلك هو السبب في تفتحه بهذه السرعة. المرجح أن يبقى لدى الفتى مجرد شريط أو اثنين دائمين من الندوب من هذه الجنحة. ليس أقل مما يستحق.

أغمي على الفتى. لكن الرجل الأكبر سناً ظل واعياً: حمل وجهه نظرة تركيز شرس، لأن تحمل الألم هو شكل الكبرياء

الوحيد المتبقي لديه. كان يلقي برأسه إلى الخلف بعد كل جلدة، يسحب جرعة كبيرة من الهواء، ويجهز نفسه للضربة التالية. كان يعرف كيف يتلقى العقاب – أعجب أورهان بتلك المزية.

ألقى أصلان بنظرة إلى زميله. لم يكن صحيحاً القول أن أورهان يتلذذ بالعنف. بل كان يمتلك ذلك النوع من انعدام الخوف الذي يعني أنه يخاطر بنفسه بسرعة، ويتصرف بشجاعة أسطورية تحت وابل النيران، ويستخدم ذكاءه لتخليص نفسه من المتاعب في كل الأوقات. لكنه لن يتم القبض عليه أبداً، تلك كانت القضية الأهم. كان التعبير عن القرف الذي يجتاح قسماته الآن متعلقاً بشعوره بعدم استحقاق مثل هذا الغباء للجلد – ليس الفساد بعينه، بل السميَّه التي تقف خلفه. فالناس هم الناس.

أجفل أصلان من انهماكه في أفكاره بصرخة عالية. كان القائد قد جهر بالعدد الأخير للضربات. وتم صرف الرجال.

قال أورهان باختصار وسرعة "حسناً، كانت تلك بداية جيدة لهذا النهار، هلم بنا، لنمض في طريقنا. لقد أدينا واجبنا هنا".

قدم القائد إليهما ليودعهما. كان يتعرق بشدة، وقد انقطع أحد أزرار زيه الأزرق المائل إلى الرمادي من شدة إجهاده "أنا مدين لكما، أيها الضابطان الزميلان، لحضوركما في هذا الإجراء التأديبي" قال وهو يخلع قفازيه الجلديين اللذين تلطخا باللون الأحمر. "إن تعليم هذا الفريق أمر صعب – وأنا سعيد بمثل هذه المناسبة الممتازة".

انتهى الأمر بالقائد مهنئاً كلاً من نفسه والعقيدين بطريقة ما، على واجب نفذ باتقان، مشط الأناضولي سوالف وجهه التي ينقط منها العرق والدم. إلى الخلف.

قال أصلان "حسن، أن تقريري للسيراسكريات جاهز. لقد تركته لدى مساعدك من أجل إرساله إلى العاصمة مع تقريركم، يا سيدي."

"جيد، جيد" أجاب القائد، وقد أجبر نفسه على الابتسام على هذه الأنباء غير المرحب بها. فقد كان يأمل أن يعمل استعراض النظام المكشوف هذا كوسيلة للترقية الشخصية. ولم تكن أخبار الفساد التي ترسل إلى السيراسكريات جزءاً من خطته.

شتم أورهان داخلياً الوضع المنجز الذي وضعهم فيه أصلان، والذي يتفق مع طرائق تفكيره الشخصية الشيطانية. فقد كان صديقه، من حيث المبدأ، يتصرف بأسلوب مباشر، مختصر. ولكن، إذا أخذنا بالاعتبار موقعه كغريب، فربما يكون من الحكمة أن يتخذ الأجراء الملائم، أمام الآخرين – حتى لا يتمكن أحد مطلقاً من اتهام أصلان بالتقاعس في التزامه نحو أسياده العثمانيين.

"حسناً، أتمنى لكم نهاراً سعيداً، أيها السادة." أصبح القائد في حاجة إلى الاستحمام والقيلولة بعد الظهر نتيجة جهوده كلها. أطلق تحية عسكرية مبالغ فيها، ثم انطلق إلى جناحه، تقابل أصلان وأورهان مع تيمور عند البوابة. كان جواداهما جاهزين، يلتمعان وقد تم تجهيزهما بشكل جميل ومتشوقين للتريض.

كان تيمور قد امتطى حصانه مسبقاً.

"متشوق للانطلاق، الست كذلك، أيها الفتى؟" سأل أصلان

"نعم، سيدي" جاءت نبرة تيمور خالية من الأحاسيس. ولكن أصلان لاحظها، على الرغم من انشغال فكره.

غطوا مسافة جيدة في ظهيرة ذلك النهار. كانت الخطة تقضي بالسفر باتجاه شمالي – غربي، من خلال المناطق التي دمرت في ثورة عام ١٨٧٦. كان المسير في البداية سهلاً على طريق عربات فوق سهل مستوي نسبياً، وخالٍ من الأسيجة، حيث كان يمكن رؤية بعض المحاولات لزراعة الذرة. أخذوا فترة استراحة، في قرية الراياه المسماة سالا بيتزا، وهي تجمع بائس لبضع مئات من البيوت، تمكنت من النجاة رغم هجمات الباش بوزوق. ثم استأنفوا

المسير قدر استطاعتهم قبل هبوط الليل وتمكنوا من الوصول إلى سارا جويول. حسب التقارير الرسميه، فقد أحرقت هذه البلدة حتى سويت بالأرض. وأصبح السكان البلغار يعيشون الآن في أكواخ مؤقتة من الأغصان، بنيت في وقت الطوارئ ولا تزال تؤدي مهمة المأوى الوحيد لهم. كانت حالتهم مرعبة لمن يشاهدهم. فقد صادر الجيش العثماني ثيرانهم من أجل نقل التموين العسكري، وأجبر الفلاحين على زراعةِ الأرز لتغذية الجنود. بدا وكأنه لم يبق لهم شيء. لا أنوار، لا أثاث: مجرد بضعة خيوط من الدخان ترتفع من تحت جدران أكواخهم الحقيرة نفسها.

توجه أورهان وأصلان إلى رئيس القرية، أظهروا له "فرمانهم" –أوامرهم الحكومية– وفي الحال، تم تخصيص أحد البيتين الباقيين لهم، والذي لم يكن يحتوي أكثر من بضعة كراسي ذات ثلاث أرجل، مغزل، بقرة، بضع دجاجات وعائلة – تم إرسالها على عجل إلى أحد الأكواخ لقضاء الليلة.

كانت الغرفة الداخلية الرئيسة للمنزل تحوي مدخنة مخروطية الشكل في إحدى الزوايا، مما تسبب في جعل الجدران، الأرضية والسقف تصطبغ بلون أسود مشبع بالدهن بطريقة منتظمة.

أحضرت قصعة من يخنة الملفوف، مشبعة بالدهن هي الأخرى (يحتمل أنها نصف وجبة عشاء العائلة نفسها) وتركت لهم.

قال تيمور، وهو يتناول قطعة بطاطا باردة من طرف الطبق "من بعد إذنك يا سيدي! أرغب في الخلود إلى النوم، إذا لم تكن لديك أية أوامر أخرى".

نظر إليه أصلان ملياً وبتفحص. كان تيمور شاحب اللون وظهر عليه الشعور بالغثيان

"حسن جداً أيها الفتى. نوماً هنيئاً".

تراجع تيمور باتجاه الغرفة الأمامية الأكثر برودة. التهم قطعة البطاطا، واضطَجع مسنداً رأسه إلى سرجه، وقد لف جسمه بمعطفه، وقد استقر لقضاء ليلته بكامل النية والغايات.

راقبه أورهان من خلال الباب – فقد اضطرا إلى إبقائه مفتوحاً للتغلب على المزيج الفريد من الثوم. مشروب العرق، دخان الحطب ولحم الخنزير المطبوخ الذي أصبح كلاهما يميزه على أنه مزيج الروائح البلغاري الأصلي.

"إليك هذا الجندي المدرب بشكل جيد. لو أنني عثرت على مساعد في مثل كفاءته، لكنت اصطحبته معي بدوري. هذا شخص يمكنك الوثوق به، أليس كذلك يا أصلان؟" قال أورهان.

دحرج أصلان نفسه داخل معطفه الضباطي الأزرق "إنه شاب طيب". وحاول أن يخلد إلى النوم. لكن أورهان كان في حالة ذهنية فلسفية.

اشتكى أورهان بقوله "لا أستطيع أن أفكر لماذا يصر هؤلاء الرايا الملاعين على هذه الرغبة في الاستقلال. فأنا لم أقابل أحدا ًمنهم في مثل نصف ذكاء تيمور. إن البلغار مجموعة من الفلاحين البائسين جداً. إنهم غير قادرين على حكم أنفسهم. لا يستطيع هؤلاء "الجاور" السمر أن يطلقوا النار بشكل مستقيم، لا يقدرون على إدارة شيء، إنهم مجرد كتلة من الممارسات الكافرة. هل تعلم أنه يوجد مئة وثلاثة وثمانين يوماً لا يمكن "للرايا" فيها أن يشتغل – وأنه يفترض فيهم ممارسة الصيام للمئة واثنين وثمانين يوماً الباقية؟".

علق أصلان "لا أفترض أن الفلاح العادي له أي رأي في هذه الترتيبات. حسب تجربتي، فإن القساوسة هم الذين يضعون القواعد. إن للكنيسة الأرثوذكسية الشرقية طغاتها مثل أي مذهب آخر".

شعر أورهان بسرور غامر، فهذا هو أصلان يكشف دخيلته كما لم يفعل من قبل مطلقاً. فهذه أطول خطبة سمعها من أصلان

منذ وقت طويل. فإن الحديث بهذه الصراحة - وهذه المقارنة عن الأديان لم يكن من طبعه.

علّق أورهان "هل أنت تتحول إلى "مفكر حر"؟ هذا أمر معاصر جداً، أوروبي جداً منك.. فهل أنت تقول أنك لا تؤمن بنقاء الإمبراطورية العثمانية - أنها يجب أن لا تكون إمبراطورية إسلامية بالكامل؟ بالتأكيد، تلك هي مشكلتنا، لقد أضعفنا أنفسنا بإعطاء "الجاور" أكثر بكثير مما يجب من السلطات داخل إدارتنا. إنها تتحول إلى إدارة مدنية - وليس دولة إسلامية حقيقية! إنهم لا يقاتلون - ولكنهم يصابون بالسمنة بدلاً من ذلك. إنهم يمتلكون أكثر مما يجب من الأراضي، ويصبحون أنانيين، وفي نهاية المطاف، غير مخلصين.... وقساوستهم يدفعونهم إلى ذلك. إننا نتساهل مع "الذميين" أكثر مما يجب" أصبح أورهان في حالة هيجان شديدة.

"إهدأ يا أورهان. إنني مسلم متمسك بديني مثلك تماماً. إنني فقط أتكلم في مجال سياسي، كما تعرفه أنت بشكل جيد."

أعلن أورهان "ولكن هذه هي النقطة التي أورد إثارتها تحديداً". كان بوسع أصلان أن يسمعه جالساً على فراشه، ويضرب ركبته بقبضته.

"لا يمكن الفصل بين الشأن الديني والشأن الدنيوي. ما الذي أوحى إليك بهذه الفكرة يا أصلان - هل تلك هي الطريقة التي تمارسون بها الإسلام أنتم الشراكسة؟ لا عجب أنكم خسرتم القفقاس - كيف يمكنك أن تقاتل هنا في تركيا، إذا كان ذلك هو رأيك؟"

استدرا أصلان، مصمماً على أن لا ينخرط في ثرثرة فكرية كسولة لفترة أطول. فقد كان أورهان يدفعه إليها باستمرار في هذه الأيام.

استمر أورهان في التعبير عن معرفته داخل الغرفة الخانقة "أنت تعلم أن الصرب والبلغار يكرهون بعضهم بعضاً بقدر ما يكرهون الأتراك، إن لدى كليهما هذه الفكرة المخالفة للمنطق والتي

تقضي بأنهم عندما يطردوننا من البلقان، فإنهم سوف يستعيدون حدودهم كما كانت – قبل خمسة قرون. أمر يبعث على السخرية."

وافقه أصلان "إن الزمن يمضي، وكذلك هذه الليلة البائسة." ابتسم أصلان في الظلام على "تمكن أورهان العميق" من موضوع صعب على الفهم. رغم أنه كان متعباً، إلا أنه كان ما زال قادراً على التلهي والاستمتاع باستخفاف من قناعات صديقه المطلقة. "والآن، ارحمني يا أورهان، واتركني أنام." صمت أورهان. لم تقنعه محاولاته بالتزامات أصلان نحو القضية، لكنها لم تثبت له أنها غير صادقة أيضاً. سوف يتحتم عليه أن يحاول بجدية أكثر حتى يكتشفه.

جاءت استراحة أصلان الليلية قصيرة ومضطربة. لم يكن مقتنعاً. فقد كانت استجوابات أورهان تعيد النظر في دوافعه الشخصية. لقد قام بخدمة أسياده لمدة طويلة بدون أي تساؤل. ما لم يكن أورهان يعرفه، هو السبب الذي جاء به إلى استنبول في السنة الماضية وما اكتشفه...

أخذته إغفاءة، وهو يستذكر المرة الأولى التي وطأت فيها قدماه تركيا الأوروبية. كان هناك رجل عجوز... رجل عجوز من طراز مختلف في الصورة في ذلك الوقت...

في السنة الماضية، عام 1876، عندما كانت حركات العصيان على أشدها في بلغاريا، قدم طلباً للإجازة في الأناضول من أجل السفر إلى العاصمة. فقد أراد أن يبذل مجهوداً واحداً أخيراً لمعرفة ما قد حل بعائلته. فقد توفر لديه دليل قاطع على أن شباب الشراكسة يجري تجنيدهم للقتال في الجبل الأسود، البوسنة وبلغاريا، ضد جميع شعوب البلقان الثائرة، الذين كانوا يدعون بأنهم مضطهدون من قبل نير استعمار الأتراك. فقد صادف العديد من الجنود الشراكسة في الأناضول الذين أخبروه مثل هذه القصص من تجاربهم الخاصة.. وكان لدى العديد منهم عائلات مبعثرة في

المقاطعات الغربية. وفي كل مرة يسمع فيها واحدة من حكاياتهم، كان الأمل يعاد اشتعاله في داخله، بأن بعضاً من أقاربه مستقر هناك بسعادة.

بالطبع، كان واضحاً أن العملاء الروس يحركون المتاعب في المناطق، لإبقاء القوات التركية منتشرة على امتداد كامل حدود الإمبراطورية. عادت عناصر قلق أصلان حول مصير أهله إلى الطفو على السطح، لأن هذه "الأنشطة المتمردة" قد تضع مستوطنات المهاجرين الشراكسة في وسط خط "إطلاق النار" -الروسي- تماماً مثل الأزمنة الغابرة. منحه ضباطه الأعلى رتبة الإذن بالذهاب في إجازة والسفر إلى العاصمة، وإجراء الاستفسارات شخصياً في السيراسكريات حول مصير اللاجئين الشابسوغ، ربما بسبب خدمته المتفانية.

كانت المرة الأخيرة التي شاهد أصلان فيها أبويه هي قبل عشر سنوات، مباشرة قبل أن يجري شحنهم خروجاً من أنابا عبر البحر الأسود. لم يكن لديه إلا حفنة من الأسماء ليعتمد عليها في بحثه. لكن لم تكن الاستفسارات السبب الوحيد لذهابه إلى وزارة الحربية مباشرة. فقد كان أصلان يهدهد خطة ترمي إلى إقناع السلطات بأن تمنحه نقلاً إلى بلغاريا. أراد أن يقترب أكثر. أقرب إلى شعبه، أو أقرب إلى الحرب التالية؟ ولم لا يكون الأمران معاً؟

وصل إلى استنبول يوم الحادي والثلاثين من شهر آب، عام 1876 - في نفس الوقت الذي كان يجري فيه خلع السلطان المراهق، المسكون بالرعب، الغبي مراد الخامس على إدعاءات بالجنون، وجيء بشقيقه عبد الحميد الثاني ونودي به خليفة لدار الإسلام. إنضمت سفينة نقل الجنود التي تقل أصلان إلى حشد من السفن في الميناء، التي تغلي بالأنباء، وتطلق صفاراتها، وتطلق الصواريخ نحو السماء عشوائياً.

كان أصلان قد سمع قصصاً لا نهاية لها من أورهان أتاكوي عن هذه المدينة العظيمة الواقعة على مضيق البوسفور، عن قصورها البيضاء المبهرة، قبابها، مآذنها، أسواقها الملأى بالغرائب وموانئها المزدهرة. وهكذا جاء انطباعه عنها من النظرة الأولى من حاملة الجند في البحر الأسود مذهلاً بقدر ما تخيله عنها.

كانت المدينة المتلألئة مخفية جزئياً بغلالة من الضباب الأبيض الذي ملأ المرفأ وغطى الأودية التي تماوجت فوقها المدينة المتمددة. بدت أضواء المآذن سابحة في الهواء. أشارت المدينة فوراً إلى نفسها على أنها "بيت الإسلام": كانت المصابيح معلقة فوق سطوح المباني في كل مكان مشكلة كلمات بالعربية مؤداها "بسم الله الرحمن الرحيم" – وقد تدلى اسم الجلالة الرحيم بين أبراج مكتبة "المدرسة" الدينية – كما عبارة "الله أكبر" التي تشكل صرخة الحرب القديمة لدى جنود الرسول عليه صلوات الله بنقاط براقة فوق مدخل جامع ضخم إلى جانب الميناء.

رست السفينة في وقت متأخر: غادر أصلان السفينة، بصفته ضابطاً مجازاً، بسهولة نسبية. تجول بلا غاية لفترة قصيرة، لمجرد تذوق حيوية المدينة والتمتع بها. زاحمته جموع من "السوفتا" في الشوارع المحيطة بالميناء، وهم طلبة المدارس الدينية التركية الصغار السن، كانوا منطلقين خروجاً من "المدرسة"، الكليات الدينية. بعمائمهم وقفاطينهم البيضاء، انطلقوا راكضين في الشوارع الضيقة بمعنويات عالية. وكان بعضهم يرتل الشعارات الدينية والسياسية وهم يلوحون ببنادق ملتمعة.

ابتسم أصلان بمرارة. فقد أيقن أن هؤلاء المتحمسين لا يكادوا يعرفون كيف يستعملون بنادقهم بفعالية – ومع ذلك فإن بنادقهم الونشستر المشتراة حديثاً متفوقة بكثير جداً عن بنادق الدك ذات القدحة الصوان التي اضطر جنوده إلى الاكتفاء والتعامل بها. أدرك أن رحلته سيراً على الأقدام قد تشكل خطراً عليه، ولذلك أشار إلى

عربة بالية يجرها جواد، يقودها أرمني أعور، وأعطاه تعليمات الاتجاه: وزارة الحربية.

صرخ السائق الأرمني "يو يو!" ووجه جواده نحو مجموعة من اللاجئين المتدفقين إلى الطريق، وأزاح كل العوائق بضربة سوط. أزاح أصلان ستارة النافذة، مخاطراً بوصول الغبار إليه بسبب فضوله. ما هي جنسية هؤلاء الشحاذين ذوي أغطية الرأس الزرقاء؟ لم تكن لدى أصلان أية فكرة. مر العالم من أمامه في لمحات من خلال الإطار المفتوح على شكل صور. شاهد متطوعين بوماك بثيابهم الرثة: تجار يهود ملتحين، الطاقية الصوفية الحمراء ذات الشراشيب والتنانير المتهادية لأحد التجار اليونان، يطأطئ برأسه لمقرض أموال تونسي بثياب حريرية رقيقة: مغنين نوبيين يستجدون بأسما لهم الرثة، الأشكال العديدة الغامضة للنساء التركيات المرتديات البراقع يهمسن لخدمهن – وأسوأ منظر، عدة جماعات من الشراكسة الذين يتضورون جوعاً – كل هؤلاء يتدافعون خلال شوارع الميناء الضيقة باحثين عن وجهة رابحة.

صرخ بسائق العربة في اندفاعة تلقائية قائلاً "توقف!"

قال السائق الأعور "لا بأس، يا عسكري، ولكن أنت تترك حقيبة معي، نعم؟"

"الحقيبة تبقى معك – وأنت بدورك تبقى" أمره أصلان، ثم قفز خارجاً من مقعده ليتحدث إلى واحدة من الجماعات المتكومة من الشراكسة – أعمام مسنون ثلاثة، زوجاتهم، بعض النسوة الأصغر سناً وأطفالهن، لم تكن لديه أية فكرة عما يفعله – لماذا اختار هذه المجموعة، وليس غيرها، لكن الأمر لم يشكل له فرقاً ظاهراً. فقد أراد مجرد التواصل، هنا في قلب المدينة، حيث كان يمكن لأحد أقاربه أن يكون قد تواجد.

حتى في أيام المحن والفاقة، ارتدى الرجال "التشيركيسكا" بفخر واعتزاز، ومشت نساؤهم خلفهم مرتديات أثوابهن المشدودة

بالأحزمة على الخصر بدون تغطية وجوههن، رؤوسهن مرفوعة عالياً. حملت النساء الأصغر سناً رزماً كبيرة من حوائجهن فوق أردافهن. حافظوا على صفوفهم متراصة قريبة من بعضها، كأنما يتوجسون خيفة من كمين ما في وسط هذه المدينة المتحضرة.

في هذه اللحظة، تهيبت النساء وجلاً من منظر هذا الضابط التركي المهيب، ذي اللحية الشقراء، الذي يحمل ندبة صغيرة فوق أحد حاجبيه. وضع أحد مسني الشراكسة، وهو رجل صلب العود ناحل الجسم وقد غطى الشعر الفولاذي الأشيب فوديه، يده على القاما وهمّ بسحبها – في إيماءة بالكاد توحي بالدفاع، بل هي أقرب إلى إظهار يائس للشجاعة. تذكر أصلان والده الحاج دانيل الذي فقده منذ زمن طويل، بغصة من الألم.

"يا تحمادا! السلام عليك! إنني من الشابسوغ!" حاول أصلان أن يهدئ من روع الرجل. لمعت عينا الرجل. "تقول أديغه؟ ماذا؟ أنت ضابط تركي. ما الذي تريده! إننا نتحرك بأسرع ما يمكننا!".

"إنني من الشابسوغ – أنا ابن الحجي دانيل، صديق كازبك القباردي.."

وجد أصلان نفسه يثرثر، محاولاً أن يأتي بأية صلة قرابة يمكن أن تهدئ مخاوف هذا الرجل . أعتقد أن الرجل يمكن أن يكون قباردياً بالحكم على لهجته.

حاول الرجل التخلص منه "اتركنا بحالنا. يجب علينا أن نعثر على مأوى.." أمسك بيد أحد الأطفال وأخذه من إحدى النساء المنهكات أثناء كلامه، ونظر حوله إلى متاهة الشوارع باحثاً عن أية معالم مميزة.

قال أصلان "من أين أنتم؟ وإلى أين تذهبون؟" لكن المجموعة بدت وكأنها لم تسمعه.

"ابتعد عنا – ألا يمكنك أن ترى؟" دفعه الرجل المسن بعنف، مسقطاً بحركته البطانية التي كانت تلف الطفل الذي يحمله بين ذراعيه "إنه مريض. مريض! هنالك إرسالية قريبة من مستشفى البحارة التجاريين – أخبرنا بذلك شخص ما–ربما نحصل على المساعدة..." كانت شفتاه جافتين، وعيناه قد تجمد فيهما التعبير. لا شيء سيجعله يحيد عن مساره. ولا حتى منظر ضابط تركي عالي الرتبة يتكلم اللغة الشركسية – لأنه بحلول هذه اللحظة، كان القباردي العجوز يتمتم لنفسه بحرية بلغته الأصلية.

أدرك أصلان أن العديد منهم مصاب بالحمى، ولأجل ذلك كانوا خائفين من التوقف في الشوارع.

يجب أن لا يلفت الانتباه إليهم. فسوف تتم مهاجمتهم – سجنهم – أي شيء ممكن الحدوث في جنون هذا الخضم المتدافع.

ما لم يستطع أن يراه هو أي دركي من "الضابطية"، أو أية تحركات عسكرية. ففي هذه المنطقة من استنبول كان هناك القليل جداً من قوات النظام، سواء كانت عسكرية أم مدنية. ربما اجتذبت الأزمة السياسية كل الرجال عن آخرهم. الفوضى في المقاطعات: حتماً لا وجود للفوضى في المدينة!

لعن أصلان نفسه على أن خدمته في الجيش قد سرقت سنوات من حياته –سنوات أعمى فيها نفسه عما كان يحدث في بقية أنحاء الدنيا، بعيداً وراء المعركة التالية، الفرصة التالية لقتل قوزاقي.. لم يكن بإمكانه أن يصدق بأن الإمبراطورية كلها في حالة غليان.

استدار حوله، يبحث يمنة ويسرة عن شيء يمكنه أن يفعله. شاهد فجأة صاحب عربة نقل يفرغ حمولتها من أكياس القهوة في أحد المستودعات. انطلق نحوه.

أطلق نحوه الأمر بعنف "أنقل هؤلاء الناس إلى مستشفى إرسالية البحارة، فور انتهائك من العمل هنا".

"آه نعم، وأنا..."

"هذا أمر مصادرة. نفذه – إذا فشلت في تنفيذ أوامري، فسوف أشق حلقك" قال أصلان بمنتهى الهدوء "وأنا أعرف أين أجدك"

لم يكن ذلك صحيحاً، لكنه نطق العبارة بتلك الدرجة من السميّة بحيث لم يستطع صاحب العربة التشكيك في مصداقيتها. دفع أصلان الحشود المتدافعة بعيداً عنه بمرفقيه عبر الشارع حتى عاد إلى اللاجئين، وتناول الطفل المريض من القباردي.

"إليك هذه" ودفع بحفنة من النقود المعدنية في يدي الرجل العجوز "إذا رفضت الإرسالية قبولك – اشتر بعض الطعام –احصل على غرفة– اشرب قدر ما تستطع. إذا كانت أصابتكم هي الكوليرا، فهذا كل ما تحتاجونه. الماء – الماء النظيف – وكميات كبيرة منه".

بدأت إحدى النساء بالبكاء، وقد فهمت ما يقوله. بينما هم يجرون أنفسهم عبر الطريق، كان باستطاعة أصلان أن يرى المارة يراقبون المشهد بفضول، وأدرك أنه يتحتم عليه أن يغادر المكان، وضع الطفل في العربة، وعاد إلى الركوب في عربته المستأجرة.

"أتمنى لكم حظاً طيباً. كان الله معكم.."

هدرت العربة مبتعدة. جلس أصلان مسترخياً في مقعده. وقد تضاربت أفكاره. فقد كان يحس بالانفراج، وبالدهشة، وباليأس في الوقت نفسه.

عبر بعربته جسر جالاتا، بينما كانت عجلات عربته تضرب حجارة الطريق أثناء الظهور المفاجئ للشبان الخيالة من سلاح الفرسان الإمبراطوري وبعض الجنود المشاة، مندفعين جيئة وذهاباً في مهمات عسكرية. كان أورهان قد وصف له هذه الرحلة بكل تفاصيلها، وهو يقتبس أقوال الشعراء المتعددين بطلاقة. وها هو، أصلان بك، موجود حيث يشتاق أورهان أتاكوي أن يكون! تحركت

العربة إلى الديفان يولي العظيم، وهو شارع عريض يمتد لعدة أميال، مشهور منذ أيام الإمبراطورية الرومانية، أخذه من أبنية البرلمان، عبر جوهرة القديسة صوفيا ذات القباب، إلى وزارة الحربية. إلى الأمام، غاص الديفان يولي في قلب المدينة، حيث ما زالت الجماهير تحتشد وتتدافع.

دفع أصلان الأجرة وصعد درجات السيراسكريات قفزاً، يشق طريقه من خلال شرائح من المتعطلين المهتاجين، رجال يرتدون بزات أوروبية أنيقة وطرابيش حمر: رجال يرتدون قفاطين وقبعات صغيرة تلتصق برؤوسهم، وآخرين بأزياء متنوعة – فرنسية، عربية، ألمانية، نمساوية، وبريطانية. قابل عينيه بحر من الأزياء والخوذات، ناهيك عن سيل من العمل الكتابي الورقي. في كل مكان كانت هناك صفوف من الناس الذين يحملون الوثائق، التقارير، الأوامر، كلها تنتظر التوقيع، التوقيع المقابل، التصديق من شخص ما.

من بين كل هذه الزمر، كانت هناك قلة من الضباط المرهقين الذي يرتدون شارات هيئة الأركان الإمبراطورية البراقة، تندفع هنا وهناك في مهمات حاسمة. فإن خلع سلطان ما هو شأن يخص الجميع.

الشيء الوحيد الذي يتعين عمله هو الإبقاء على مساره. وصل أصلان، عن طريق الاستفسار الصبور، إلى ممر هادئ، مبلط ومزنر بالرخام الزهري المغبر. كان هذا هو قلب بيروقراطية السيرسكريات، حيث يمكن أن يجيء السلاطين ويذهبون لكن الحياة هنا تستمر... استمع موظف تركي متعاطف يحمل في يده نكاشة أسنان مهترئة، إلى أسئلته وطلب منه أن ينتظر.

أرشد في وقت لاحق إلى غرفة مبلطة ذات سقف عالٍ. استمع موظف ذو درجة متدنية يرتدي بذلة صباحية من صوف الألباكا المهترئة إلى درجة أن قميصه كان يضيء من خلالها، استمع إلى

تفاصيله. أخرج، بمنتهى الأدب واللياقة، ملفاً من نوع المانيلا، وكتب أسم أصلان الكامل بالخط العربي المتدفق الجميل على صفحة ورق فارغة.

بعد ذلك، توقف الكاتب وحدق في الاسم وكأنه يتحدث إليه بما يملأ مجلدات.

قال "اعذرني"، وغادر الغرفة.

تناوبت الدقائق من على وجه ساعة حائط قديمة، غاية في البشاعة، من صنع ألماني.

بدأ أصلان يتثاءب. فقد كان الصمت، الحرارة والغبار السابح في عمود من الضوء يصيبه بحالة من التنويم المغنطيسي.

عاد الموظف في نهاية المطاف. في هذه المرة كان يحمل ملفاً ضخماً جداً بين يديه، وكان الملف وثيابه مغطيين بالغبار. لم يستطع أصلان أن يتأكد مما إذا كان ذلك مؤشراً جيداً أم سيئاً.

"إن استفسارك مخالف للقواعد كلياً. ولكن بما أن لديك حتماً سجل خدمة متميز، ولأن ولاءك لا تشوبه أية شائبة.." كانت يدا الكاتب المطليتان بطلاء الأظافر تنزلقان فوق صفحات معارك وحصارات أصلان بلمسة رقيقة.. "فقد منحني رؤسائي الإذن لأكشف لك بعض التفاصيل عن مستوطنات الشراكسة. سوف يستغرق ذلك بعض الوقت. هل يمكنك أن تعود مرة أخرى بعد أسبوع؟"

"أسبوع؟ هل أنت مجنون؟"

ابتسم الكاتب ابتسامة متعبة "ربما أنت لا تعي أننا في خضم أزمة دستورية...! أيها المقدم."

لكن أصلان كان يفهم العقلية التركية. فهذه انتهازية صرفة، فقال بمنتهى البرود "أشك في أنك ستجعل ذلك الأمر يؤثر على

تحرياتك، إن سكرتارية وزارة الحربية تفاخر بدون شك بحفاظها على الاستقرار في جميع الأوقات، إن كفاءتها ذائعة الصيت في كافة أرجاء الإمبراطورية. بالإضافة "وهنا مال إلى الأمام بكتلته البشرية المهددة التي تمثل ضابطاً عالي الرتبة في سلاح الفرسان، لا يتحلى بذرة من الصبر "هل تعتقد أنني أستطيع أن أنتظر أسبوعاً كاملاً؟ أنا واثق من أن رؤسائي.."

أسبل جفنا الكاتب اللامعين لكنه لم يخف استمتاعه "بإمكانك أن تزور المشاهد. بإمكاني أن أعطيك أنسب العناوين، لتسليتك".

تعلم أصلان كيف يخفي احتقاره "أنت في غاية الكرم". أثناء كلامه، مرر كيساً جلدياً عبر المكتب. كان يحتوي على جزء كبير من مدخراته بالمسكوكات العثمانية الذهبية.

مازحه الكاتب الساخر قائلاً "مجرد..." لنقل أنها "ضريبة عزاب"، لأن أصلان كان معفى من دفع الكثير من أنواع الضرائب بصفته جندياً. اختفى الكيس بسرعة داخل درج مفتوح مسبقاً.

ارتعشت يدا الكاتب الرقيقتان قليلاً بينما هو يضمهما فوق الملف السميك - وقد أثارته النقود. قال وهو يسعى إلى استعادة السيطرة على نفسه "لقد تم نصحي بأن أحجب عنك الكثير من هذا، فربما ستجد أن قراءته تسبب لك الحزن..." تصالب وجه أصلان "لا أعتقد ذلك. لقد كنت موجوداً في سوتشي، عام 1864. إنني مدرك لحقيقة أن صعود اللاجئين القادمين من منطقتي في الجبال. لم تكن، فلنقل "منظماً بشكل جيد".

تجنب الكاتب التحديق في عينيه "كلا، في الحقيقة. شيء يؤسف له. أنت تقول في سوتشي عام 1864.."

ارتعشت يداه مرة أخرى. اصطكت أسنان أصلان من ضغطه عليها ليمنع نفسه من الصراخ.. "أعطني ذلك الملف اللعين! الآن!"

رفرفت صفحات الملف. شخوط من الحبر تمثل أرقاماً وأسماء. نتف من الحياة، سريعة العطب كما الفراشات. لقد شاهد أصلان بعض هذه الأنفس وهي تنفق: المئات والمئات من العائلات الشركسية، المعسكرة في الرمال على سواحل سوتشي على البحر الأسود، تنتظر.

قال أصلان "لم تأت القوارب أبداً".

"هكذا يبدو". المزيد من الصفحات المتقلبة، المزيد من الأسماء.

كانوا يموتون، جلوساً مستقيمين، راقدين إلى جانب أحبابهم، يمسكون بأطفالهم، بأقاربهم المسنين. يموتون من الحرارة؟ من العطش؟ الإرهاق؟ الجوع؟ المرضى؟ كل هذه العوامل القاسية، وكل ما حصلوا عليه من التعزية هو غطاء رفيع من الرمل، تذروه الريح.

تنهد الكاتب "حسناً جيداً، أيها العقيد العزيز. ألق نظرة. ليس لدي الكثير من الوقت "وأدار الملف في مواجهة أصلان.

تابع أصلان بنفسه الأرقام

لغاية تموز عام 1864 في كل الروميلي 40.000 عائلة

1864 في كل الروميلي، وصلت 70.000 عائلة إلى موانئ الدانوب وتم توطينها على ضفاف الدانوب ما بين صربيا وبلغاريا

الأعداد ما بين 150.000-250.000 شخص.

لم يقو دماغه على الاستيعاب، قبل ثلاثة عشر عاماً، استقبلت المناطق البلغارية قرابة ربع مليون شخص - في إقليمي فيدين ونيس وحدهما، 50.000 عائلة من الشراكسة...

أدرنه	60.000 عائلة
سيليسترا وفيدين	13.000 عائلة
نيس وصوفيا	12.000 عائلة
قطب كوسوفو وبريستينا	42.000 عائلة

قال بهدوء أجبر نفسه عليه "هذا مثير للاهتمام جداً، ولكن سيكون مما يساعدني كثيراً أن أرى التخطيط – البيانات الإحصائية الأولية".

"حسناً، تلك كانت مسؤولية المقاطعات ، على المستوى المحلي. نحن نمتلك هذه البيانات لأجل – لأغراض الأمن العام، لا بد وأنك تفهم. و –آه– كانت وزارة الخارجية تشرف على الموضوع بشكل عام. وليس السيراسكريات".

فهم أصلان. فإن "السراسكير" مهتمه فقط بجمع الجنود لأجل السلطان.

"وهكذا فأنت لا يمكنك أن تخبرني إلى أين ذهبت كل عائلة.. هل يمكنك ذلك؟"

سأل بهدوء "لقد افترقنا رغماً عنا. ذهبت أنا إلى سوتشي، لكن معظم سكان قريتي جرى نقلهم بالسفن من أنابا. ليست لدي فكرة عن المكان الذي شحنوا إليه".

أصيب الكاتب بالصدمة. "طبعاً أستطيع أن أخبرك. لدينا كل شيء، مدون، بالتفصيل!"

قفز قلب أصلان بين أضلاعه.

"لكن تلك معلومات سرية!" سحب الكاتب الملف بعيداً عنه. "أنا لا أستطيع أن أخرق تلك القاعدة. إن ذلك يساوي أكثر من حياتي!" أصيب بالهيجان "ما شاهدته أنت يعتبر مزية، أيها العقيد! إنها

امتياز يمنح للقلة القليلة! كنت أعتقد أنك تعرف ذلك! كنت أعتقد أنك تعرف! والآن، أتمنى لك نهاراً سعيداً!"

أغلق الكاتب درجه بقوة، ثم فتح شخص ما من الخارج الباب وأشار إلى أصلان. انتهى الوقت. نهض واقفاً وأطلق تحية

الله أكبر

لم يعرفوا. هذه المؤسسة الأعظم بين المؤسسات العثمانية... لم تعرف.

أفلح بطريقة ما في الخروج إلى الحشود في الشارع. كان رأسه يؤلمه. فهو لم يتناول شيئاً من الطعام طيلة النهار. كان الجوع يعضه بنابه – على الأقل، كان هناك شيء يعضه. فقد كان الفراغ يمسك بأمعائه.

لا يمكن أن يكون هذا صحيحاً. لم يجر التخطيط لأي شيء، لا أحد يعرف ما يتوجب عليه عمله. لقد كانت الأرقام مجرد تخمين، والمواقع لا تزيد عن كونها توقعات لاحقة. أين هم الآن؟

"كنت أعتقد أنك تعرف".

لقد ظل لسنوات يؤمن أن الإمبراطورية العثمانية تسيطر على كل ذرة في وجوده. فقد تم اختياره بالإسم من على شاطئ في سامسون، تم تجنيده، إطعامه، إلباسه الزي وإرساله إلى الجبهة. لقد أصبح الجيش حياته. وصارت كل وظيفة وكل واجب ضرباً من الإيمان، يوماً إثر يوم. أصبح السلطان نوره الإلهي على الأرض – نوره هو، ونور كل جندي آخر. لكنهم لم يعرفوا.

غادر أصلان السيراسكريات. خطر بباله أن يسترجع خطاه ويعثر على عائلة القباردييين، لكن الحدس أخبره بأن لا يفعل.

تجاوبت أصداء الكلمات من التقارير "نقص في العمالة.. أجزاء من القرى... زيادة العنصر المسلم في البلقان.. عزل بلغاريا.. زيادة قوتنا العسكرية.."

كان يمتلك إحساساً قوياً بالمصير، بالقدر. سوف يتكشف كل شيء في يوم ما، في مكان ما. مشى أصلان نحو قلب المدينة، وهو يتمتم بالصلوات على شفتيه، بأن لا يكون أبوه أو أمه قد عانيا كما علم أن الآلاف قد عانوا – وكانوا ما زالوا يعانون، على ما يبدو، في كل هذه السنوات التالية.

لم يتخل في مرة واحدة، عن التخيل في أنه في مكان ما، في وقت ما، قد يشاهد وجهي والديه العجوزين اللذين يفيضان بالحكمة. كان جماع المنطق يقول له أن ذلك مستحيل، ولكنه وإن كان يمكنه أن يحيا بدون سعادة. إلا أنه لم يكن يستطيع أن يحيا بدون الأمل.

***

الفصل الرابع

ركضت ماجده، وهي تترنح وقد أصابها الغثيان، نحو باب رسميه "أسرعي، انهضي إسماعيل! أركضي خلفي!" كان الوقت قرابة الفجر، رغم أن نور القمر كان ينعكس على كل شيء بحدة ويجعله في مثل لمعان النهار.

ظلت رسميه مستعدة لمثل هذا الحدث على الدوام. فاستفاقت وكأنها لم تنم مطلقاً.

"إنني آتية! يا إلهي! يا إلهي!".

لم تكن بحاجة إلى التفسير. فقد كان بمقدورها أن ترى بأن ماجده ليس لديها الوقت لذلك استمرت ماجده في الجري، وهي تشهق أنفاسها حتى شعرت أنها غير قادرة على العطاء أكثر من ذلك، وقد انقطعت أنفاسها من جراء الخوف أكثر مما هو من الإجهاد.

صرخت عندما وصلت إلى "خانها" "يا تحمادا! انهض، أطلق النفير، أنا ذاهبة إلى ساكنات!"

كانت في هذه اللحظة تجري نازلة التلة – حتى سقطت على "خان" ساكنات الصغير، وهي تصرخ لكنها واهنة إلى درجة أن قبضاتها أحدثت ضجة أعلى من حلقها الذي غدا بلا صوت.

سرعان ما حضر الجميع إلى منزل العجوز حطوط – بما فيهم سكان البيوت العليا، الذين أحست كلابهم بالانفعال الجماعي، فأضافوا إليه نباحهم.

أمرت ماجده "فليأخذ اثنان منكم الأمهار ويركبا باتجاه حليمه، في حال أنها لم تسمع – سوف تكون بحاجة إلى المساعدة في التعامل مع الكبار".

تبرعت فتاتان من القرية العليا على الفور. فقد تسلمت ماجده القيادة – لم يجادلها في ذلك أحد، إذ لم يكن هناك متسع من الوقت لذلك. قفزت الفتاتان على ظهري المهرين وانطلقتا.

"ما الذي يحدث؟ يا إلهي، ماذا سنفعل؟" كانت رسميه بحالة هستيرية هادئة.

قالت ماجده "لا تقلقي، أعتقد أن لدينا وقتٍ كافٍ. يجب أن نصعد التلة نحو الأحراش، قبيل الفجر.."

"لماذا؟ أهو فؤاد باشا؟ وهل يتعلق الأمر بالسرقة؟"

تعلقت رسميه بماجده "لا تخبريه إنني هنا – أرجوك، أرجوك!"

لقد كانت لدى رسميه المسكينة مخاوفها الخاصة الرهيبة من "القائمقام" المرعب. لقد كانت خادمته مرة، لكنها هربت من جراء محاولاته التحرش بها، وكانت تختبئ منه في قرية تيبيليك خمسة، ولم يكن هو يعرف أنها هناك. لا وقت لمثل هذه المخاوف الآن.

أمرت ماجده "يجب علينا أن نمون الطعام ونذبح كل الدجاجات" ببرودة أعصاب يشوبها الغموض. وحدها صاحبة الدم الشاب الفتي قادرة على مثل هذا البرود "هيا، أيتها النساء. احزمن حوائجكن".

ابتعدن مسرعات، بعضهن باكيات، وبعضهن الآخر يشددن شعورهن، وابتعدت بعضهن مسافة قصيرة ثم رجعن زاحفات لشدة الذعر، ليختبئن تحت جنح الظلمة لسماع ما لديها لتقوله غير ما قالته.

وصلت حليمه، وهي تعاني من مساعدة أقاربها المسنين في صعود الممر، صرخت بنبرة سيطرة

"ما الذي تنتظرنه؟ لماذا لم تتحركن حتى الآن؟"

قال ماجده باقتضاب "لقد كنا بانتظارك، يا حليمه"

"علينا أن نبقى مع بعضنا، لأجل الأمان"

استدارت نحو بقية النساء، اللاتي تجمعن بحلول هذا الوقت في الساحة، وقد امتلأت أذرعهن بالناس والحوائج: الأطفال، العجائز، الدجاجات الذبيحة، وحزم المتاع.

"هل أنتن جاهزات الآن؟ إذن سأخبركن بما يجري" جاء صوتها صافياً، حازماً، ثابتاً:

"سوف يهاجمنا مقاتلو الحرية البلغار المجانين وكتيبة كاملة من الخيالة الأتراك خلال ساعات! يجب علينا أن نتحرك خارجين من هنا بسرعة، قبل أن يبدأ أي منهم بمهاجمتنا!"

لكن إسماعيل، انتزع بندقية من إحدى النساء وركض إلى بوابة "خان" حطوط، وكان ذراعاه الناحلان يرتجفان.

مدت رسميه يديها، ترجوه "ما الذي تفعله، أيها الصبي؟ عد إلى هنا!"

"أماه، يجب عليك أن تسمحي لي بالدفاع عنكن. لقد حان الوقت لكي أقاومهم!"

لم يكد صوته يزيد على الهمسة بقليل، وجاء تنفسه مع الصفير لصعوبته. كان خائفاً من الكوميتاس لكنه بات أشد خوفاً حتى من فؤاد باشا والباش بوزوق التابعين له.

وقف المسكين إسماعيل لوحده في الظلام، مسدداً بندقية يكاد لا يتمكن من حملها نحو الظلام الدامس، مكتفياً بالارتعاش.

في تلك اللحظة وصل من القرية العليا عجوز مخضرم بالقتال، يدفع أمامه عربة رقدت فوقها امرأة عجوز، نصف منهارة، ويسير خلفه صف من النساء، والصغار. كان هذا حسن، الفارس المريض.

قال وهو يعاني صعوبة في التنفس "صبي طيب! صبي طيب!" ثم أنزل بندقية الدك القديمة عن كتفه.

"سوف أنضم إليك!"

كانت ماجده نفسها تصاب بالهستيريا تدريجياً، وهي تمسك بيد صديقتها حليمه بقوة "لو كان زوجي كاظم هنا، لكنا قد صعدنا التلة بحلول هذا الوقت!"

"لكنه ليس هنا، لقد قتل في المعركة، وليس لديّ أو لديك شخص يدافع عنا، وينبغي علينا أن نفعل ما نعتقده الأفضل، وأن نتعامل مع هؤلاء الرجال المغفلين العجائز والصبية ذوي العيون الوحشية".

في داخل الكوخ المعتم، كان العجوز حطوط، والد زوج ماجده يصلي بقوة، وهو يمرر حبات مسبحته من خلال أصابعه. عادت ماجده إلى الداخل وركعت على ركبتيها وهي ترجوه.

"لماذا لا تتحدث إلى إسماعيل وحسن يا تحمادا! حتى أنت ترى أن آخر ما نستطيع عمله هو البقاء هنا، أليس كذلك؟ أرجوك يا تحمادا، من أجل الأطفال..."

فتح العجوز حطوط عينيه ونظر إليها متفحصاً.. وكأنما أزالت الأزمة غشاوة العمر عن عينيه. "أنت شاهدة على الوضع. لم يعطني فؤاد باشا أية صلاحية على هذه القرية. لا إلي ولا إلى والد حليمه، العجوز تامبي. أنا لا أستطيع أن أنصح أحداً – حسن يعرف أنه ليس بمقدورنا قول أو فعل أي شيء له."

"نعم، ولكن هذا الأمر يخصنا جميعاً! حتماً سوف يستمع إليك الآن، لهذه المرة!"

نهضت زهره، زوجة العجوز حطوط عن أريكتها ووضعت يدها على كتف ماجده.

"اتركي زوجي حطوط يؤدي صلواته، يا نيسًا".

كان ذلك كل ما قالته العجوز زهره، لكن ماجده! استولى عليها اليأس في هذه اللحظة، وليس الخوف. لم يكن بإمكان المسنين القتال، فاكتفوا بالصلاة لكي تقضي إرادة الله بأن يكون موتهم سريعاً. وأراد إسماعيل اليافع فقط أن يلقي بنفسه في المعمعة – وهو موت أكثر توكيداً، لأنه هو الآخر لم يكن لديه أمل في الحياة.

اكتفت رسميه بالبكاء "إسماعيل! ولدي! ما الذي سنفعله يا ماجده، ما الذي سنفعله!

ظهر وكأن نوعاً من الشلل الجماعي قد أمسك بتلابيب الجميع.

شعرت ماجده للحظة أن تصميمها يضعف. لم يكن كافيا لها أن تمتلك القوة لنفسها، أو حتى أن يسمعها الآخرون ويطيعونها كقائد. كان يتحتم عليها العثور على القوة، السلطة، لتحريك المجموعة كلها. سحبت نفساً عميقاً ورفعت يدها لإسكات الصرخات والنواح.

"يجب أن نذهب الآن! إذا كان العجوز حسن وإسماعيل يريدان البقاء – فيجب علينا أن نحترمهما. تلك هي طريقة الرجال – الطريقة الشركسية. هيا، اجمعن الرزم..."

بدأت رسميه بالزعيق. سيطرت كل من حليمه وماجده عليها بالقوة، وسحبتاها خارج ساحة منزل العجوز حطوط.

لكن القرار أخرج من أيدي الجميع. فقد أطلق العجوز حسن زمجرة عالية وتجاوبت أصداء طلقات البنادق من فوق ضفة النهر، مرتدة عن صخور نهر النيسافا العالية.

"الكوميتاس! إنهم هنا!"

قام العجوز حطوط بالعمل الوحيد الذي يمكنه القيام به – نهض، ومشى متثاقلاً ليعطي الفتى إسماعيل "القاما" التي يمتلكها –

وهي خنجر شركسي ذو نوعية راقية – وقام بحشو جيوبه بالخراطيش.

كان حسن مقاتلاً عميق الخبرة، حسن التدريب. احتمى بلحظة خلف مدخل سياج الأغصان المؤدي إلى ساحة حطوط الصغيرة، وأطلق وابلاً من النار على البلغار المتقدمين. أسقط رجلاً عن جواده، لكنه سرعان ما عاد إلى الركوب، وهو يحاول تضميد جرحٍ في الكتف. اندفع قائد الثوار إلى الأمام وكأنه محصن ضد الرصاصات وهو يشهر مسدساً فوق رأسه. بينما كان حسن يعاني – في محاولة لإعادة تلقيم بندقيته الدك القديمة، اقترب هذا الرجل وانزلق عن سرجه ليمسك بإسماعيل المسكين المرتعد من خلف رقبته، ويوسعه ضرباً مبرحاً. صاح فيه "هل تريد أن تموت، أيها الشحاذ الصغير؟" ثم أطاح بمسدسه بقوة نحو رأس إسماعيل الأشقر وضربه مرتين بكعب مسدسه بحيث كاد يفقده الوعي، وفتح في وجنة الصبي الفتي جرحاً.

كان حسن قوي البنية، لكنه كان مقعداً – لم يتمكن من الوصول بالسرعة الكافية لمساعدة إسماعيل، بل فقد توازنه وسقط بتثاقل. كان إسماعيل قد اكتفى. أمسك بخده وهرول نحو النسوة بأسرع ما تستطيع ساقاه أن تحملاه، وهو يصيح. اتخذ اثنان أو ثلاثة من الثوار مواقعهم إلى جانب مدخل "الخان". بدأت فرقة ثانية بنصب قطعة مدفعية خشبية كانوا قد حملوها صاعدين بها التلة وهي مفككة.

لقد كانت الطريقة التي أوصلوا فيها ماسورة المدفع، عجلاته، والقذائف إلى ذلك البعد في الظلام بدون أي صوت يذكر، إنجازاً مهماً بحد ذاته.

بعد قطعها مسافة قصيرة في تسلق جانب التلة، توقفت ماجده لتلتقط أنفاسها، ونظرت إلى أسفل، مذهولة، بينما قام الثوار بتنفيذ خطة كمينهم. لقد كانوا معرضين للقتل كلهم – الكوميتاس

والشركس على حد سواء. سرعان ما يحضر الجنود الأتراك – بعد الفجر بوقت قصير –وسوف يسحقون هذه المحاولة المثيرة للشفقة بقوة الأعداد المجردة الطاغية.

استمرت النسوة في الكفاح لصعود جانب التلة، وكن يحرزن تقدماً بطيئاً لحد الإيلام، مع وجود كل الأطفال والمسنين يسحبونهن من أذرعتهن. لقد بدا الأمر وكأن الخوف في هذا الموقف قد سحب الطاقة من الجميع. ربما لأنهن اضطررن إلى الهرب مرات عديدة، وأكثر مما يستحب. لم يبد على أحد أنه يمتلك الإرادة لاستدعاء ذلك القدر الإضافي من دفقة الاضطرار التي ستوصلهم إلى خط الأشجار في الوقت الملائم. ربما أن البعض أراد حتى أن يسمع أزيز الرصاص عند ظهره، وإنهاء الأمر، مرة واحدة وإلى الأبد...

توقفت حليمه، في المقدمة، فجأة، بلا حراك.

"الله – انظرن إلى ذلك" قال حليمه من بين أنفاسها. تجمعت النساء خلفها. وصل طابور من المشاة الأتراك من الشرق، محاذياً لنهر النيسافا، بستراتهم الزرقاء وسراويلهم الرمادية الرقيقة، التي أمكن رؤيتها بوضوح في ضوء الفجر.

ما لم يكنَّ قادرات على رؤيته، ولكن استطاعت النسوة في الموضع الأعلى رؤيته، كان في الجهة المقابلة، يتجه نحو هذه البقعة بعينها، صف رفيع من الخيالة. كانت ستراتهم حمراء. كان هذا الجيش الروسي هذه المرة – يساعد على تحرير "السلاف" و "المسيحيين" من الظلم التركي.

ألقت بعض نساء حسن نظرة واحدة على ذلك الطابور ثم بدأن يصرخن.

"القوزاق!"

كافح حسن للوقوف على قدميه بدون أن يلاحظه الثوار الذين كانوا يعملون بسرعة ضد الفجر المنبلج لتهيئة أنفسهم للكمين. وجاءت صرخته صدى لصرخات نسائه وقد سمعهن

"انظروا، أيها الأغبياء!"

اندفع حشد الرجال بكامله عبر ساحة حطوط العجوز للوقوف على نقطة ملائمة حيث يمكنهم أن يشاهدوا: بكل تأكيد، استطاعوا أن يتعرفوا على القبعات السوداء والسترات الحمراء المخيفة لوحدة قوزاقية – قوزاق الدون، الذين خدموا سابقاً على خط الجبهة الروسي في القفقاس وأمكنة ساخنة أخرى في الإمبراطورية الروسية.

قال قائد الثوار بلهجة مقتضبة "ذلك أمر يؤسف له. فقد كنا نأمل في أداء هذه المهمة بأنفسنا" تبع ذلك سلسلة من الأوامر الواضحة بصوت خفيض وباللغة البلغارية غير المفهومة إلى جنوده الثوار، الذين استجاب معظمهم لها في ثانية بحشو بنادقهم بخراطيش ملفوفة بالورق، واضح أنها مصنوعة يدوياً، والقفز إلى ظهور جيادهم، ثم الانتشار بين "خانات" قرية تيبيليك خمسة. عمل طاقم المدفع بسرعة محمومة لتذخير المدفع الخشبي ليكون جاهزاً لحظة وصول الأتراك إلى مدى مرماه.

لكن حسن أصبح في حالة هيجان من مرأى القوزاق، فقد قطع كل هذه المسافة إلى أبعد اصقاع الإمبراطورية التركية ليهرب من أقدم وأعتى أعداء قبيلته. بدأ يركض، بأقصى ما يسكنه، باتجاه الطابور التركي، متحدياً الثوار أن يطلقوا عليه النار في ظهره أثناء هروبه.

أمر قائد الثوار "لا تطلقوا النار! اتركوه يذهب! وإلا فقدنا عنصر المفاجأة. جهزوا ذلك المدفع اللعين!"

حثت ماجده النساء "يجب أن نتسلق حتى نبلغ الجبال، فنحن لا نستيطع أن نسير بمحاذاة النهر في كلا الاتجاهين. إذا لم نستمر في التسلق فسوف نقع في المصيدة".

كانت ساكنات، شقيقة زوجها، تثق بها. "يا ماجده، أنا معك، هلموا، جميعكن، لنستمر في التحرك!"

بدأت نسوة حسن جميعهن في النحيب، فقد كاد القوزاق أن يصلوا بموازاة القرية. أصبح بإمكان النساء أن يشاهدن بصعوبة، بنية حسن الصغيرة وهو يجري باتجاه الخطوط التركية ليخبرهم عن الأتراك، ولكن جهوده كلها باءت بالفشل. رفع حسن بندقيته وهزها، وقد أعياه الغضب والهياج، ثم انهالت الرصاصات. كاد الأمر أن يصبح مضحكاً. استدار حسن من فوره، وكأنما خطرت له فكرة أخرى أكثر ذكاءً، ثم ألقى بنفسه على المنحدر، متعثراً، متدحرجا، ملقياً بنفسه خلف الصخور الكبيرة، حتى وصل إليهن أسرع من أرنب بري. ثم دّوى صوته:

"عليهم لعنة الله، إذا كانوا أكثر غباءً من أن يقبلوا التحذير، لماذا أهتم أنا! وأنتن أيها النسوة الغبيات! تحركن! لا تقفن هناك لتراقبن القتال!"

بدا على الحشد أنه امتلأ حماساً من غضب حسن. فتفرقن متسلقات المنحدر.

تحدث حسن بأنفاسه المبهورة واندفاعة الكلام إلى ماجده "سوف أعيقهم في أعلى الممر نحو الحرش. استمري أنت في المسير نحو الحماية الأعمق. سوف ألحق بكن لاحقاً. إذهبن! إذهبن! أنت يا أمرأة، اتركي الجدة معي!"

نفذت زوجة حسن ما أمرت به. تولت ماجده القيادة، وهي تجر والدي زوجها معها. تبعتها رسميه، ممسكة بالصغيرة سوسا بقوة. تبعتها حليمه والتوأمين ونساء حسن، كل واحدة تحمل طفلاً أو تساعد مسناً ضعيفاً. اتخذ حسن موقعاً له خلف صخرة ضخمة،

وقد أقعىَ على حقويه ليوقف تقدم أي شخص يلاحقهم, دفع قريبته المسنة، وهي امرأة عجوز تستريح فيما يشبه عربة يد، نحو بقعة آمنة نسبياً، عند حافة دغل صغير من الأشجار. أراحت المرأة العجوز رأسها، بعينين خاليتين من التعبير، إلى جانب عربتها، وراقبته بقبول واهن لمصيرها.

هرول القرويون وركضوا صاعدين التلة، فوق الحجارة، الصخور، عبر غطاء أرضي متشابك من النبات، إلى هدوء غابة أشجار الزان حيث بدأت الجذور البارزة ذات العقد تعيق تقدمهم، تعرقل أقدامهم، وتمزق ثيابهم. خلف هذا الخط من الغابة كان هنالك امتداد صخري عارٍ من النبات ثم بقع من أرض الرعي يليه متسلق حاد يؤدي إلى الوادي التالي. كان الأمل الوحيد المتبقي لهم هو أن لا يتعب الجنود أنفسهم –سواء كانوا من الروس أو الأتراك. في اللحاق بهم. لأنه بمجرد أن ينكشفوا، فسيتم اصطيادهم بسهولة. دوى انفجار راعد. نظروا إلى الخلف: كان المشهد بكامله مكشوفاً أمامهم كأنه لعبة بطولية فوق قطعة خضراء من قماش طاولات البليارد. بدأ اللون الأحمر للقوزاق يتقدم بسرعة العدو في هذه اللحظة، بينما تخلى الطابور التركي السائر على طريق العربات عن اصطفافه وتفرقوا يمنة ويسرة بين الصخور الواقعة على ضفة نهر النيسافا أو خلف أية شجرة يجدونها ملائمة.

أحدثت الصلية الأولى التي أطلقها الكوميتاس أقصى تأثير. فقد انتشر العديد من الجثث المشوهة في التراب. في هذه اللحظة نظرت حليمة وماجدة خلفهما، وشاهدتا الأكواخ غير المنتظمة، غير المريحة التي تشكل قرية تيبيليك خمسة وقد التهمتها ألسنة اللهب. جاء الرد المدفعي التركي على نفس الدرجة من الفظاعة. كانت الدجاجات التي تخلت عنهن ماجدة تتقافز وترفرف، تشهق بحثاً عن الهواء ثم تسقط إلى الأرض بلا حياة. ثم صدر صوت خوار بقرة محاصرة. شدت عنزة أحدهم رباطها بجنون حتى اختنقت.

"هيا بنا. لا فائدة ترجى من النظر أكثر من هذا".

وصلوا إلى الغطاء العميق. أصبح التقدم بطيئاً: أصيب الكبار بالمزيد من التعب، إنهار الأطفال وهم يبكون. أحياناً كانوا يتوقفون للاستراحة، وقد وضعوا أصابعهم على شفاههم، حتى يمكنهم أن يسمعوا ما إذا كان أي من الجنود يبحثون عنهم.

تزايد إحساسهم بالأمان تدريجياً. فلماذا يقدم الأتراك أو القوزاق على إيذاء مثل هذه الزمرة من النساء اللاجئات؟

مع انتصاف النهار، تركزت مخاوف الناس على جوعهم الهائل. كان الحرش كثيفاً، ولم يسمعوا أي شيء خلفهم. تساقط الكبار والصغار على حد سواء، كأنهم شخص واحد، إلى الأرض، بجانب نبع جبلي صغير، والتهموا الكمية الصغيرة من خبز الذرة التي تمكنوا من حشرها في حوائجهم.

لاحظت حليمه أن تامبي وأزرات جالسين بهدوء وصمت، في غياب كلي للولدين الشقيين اللذين تعرفهما. التصقا بقوة بركبتي العجوز تامبي وزوجته، وهما يقضمان حصتيهما.

علقت حليمه "انظري إلى ذلك. ما من إشارة على التعارك".

كانت لدى ماجده همومها الخاصة بها. فقد كان حماها العجوز حطوط يتكئ إلى جذع شجرة، وقد مدَّ رجليه أمامه. وكانت زوجته زهره تعيد ربط نعاله الجلدية وطماقاته حول ساقيه. شاهدت ماجده بقع الدماء على رباطات ساقيه المصنوعة في البيت حيث تعثر وجرح جلده الرقيق فوق صخرة مر بجانبها.

تحدثت ماجده بنبرة خفيضة إلى حليمه "إن القرية التالية على مبعدة مسير أقل من يوم. لن نتمكن من الوصول إليها بحلول الظلام مع هؤلاء الناس الضعفاء. إن المنحدر شاق وطويل".

"على الأقل، دعينا نمكنهم من عبور الجبل ما دام ضوء النهار موجوداً". ناقشتها حليمه

"طالما تمكنا من الوصول إلى واجهة الأخرى.. فربما نعثر على "خان" للرعاة لإيواء الأضعف بيننا. أو ربما نلتقي بالفتاتين، وتجلبان لنا المساعدة من القرويين".

احتضنت ماجده ركبتيها "ربما".

كانت تفكر في المرات القليلة التي تمشت فيها مع كاظم صاعدة الأحراش بهذه الطريقة. كان كاظم يحب أن ينصب الأفخاخ للطرائد. (فقد كانت طيور الشنقب وفيرة ولذيذة) وكانا يعثران على نباتات الفطر أو ثمار التوت البري في الفصول المختلفة. ما زال بمقدور ماجده أن تتذكر ما كانت تحس به كامرأة حقيقية – أن تمتلك تلك السعادة الدافئة الآمنة التي تمكنها من التصرف كفتاة صغيرة، تملأها الضحكات، وتمتلئ بالرشاقة المتأتية عن معرفتها بأن هناك رجل يراقبها، ويجد المسرة في كل حركة تقومين بها.

ماذا كان كاظم سيفعل؟ لقد كانت لدى كاظم عادة محببة تنحصر في مراجعة خططه بالتفصيل حتى يمكنها من أن توافق، ليس أنه متردد وغير حاسم، ولكن لأنه كان يحب أن يخبرها بكل شيء يفعله أو يخطط له كوسيلة للتودد إليها.

ملأت الدموع عينيها، لأنه لم يتوقع أبداً أن تكون هذه الموهبة في التفكير المسبق إرثاً رائعاً لها.

بإمكانها أن تغمض عينيها وتتخيل كاظم جالساً إلى جانبها، يفرد يديه القويتين القادرتين ويعدد الخيارات، واحداً بعد الآخر. "بإمكاننا أن نرسل جماعة صغيرة أمامنا لتعود إلينا بالمساعدة من القرية التالية. أو، يمكننا أن ننتظر هنا حتى يعود حسن ويلحق بنا. سوف تكون لدينا فرصة أفضل في النجاة، بوجود المهرين، أو حتى بوجود رجل واحد مريض. عبرت ماجده عن قلقها بأفكارها الخاصة " يا كاظم، نحن نساء ضعيفات. إذا بقينا ننتظر هنا – ماذا إذا جاء الأتراك باحثين عن الكوميتاس ووجدونا بدلاً منهم؟ سوف يغتصبوننا جميعاً. ربما حتى يقتلوننا جميعاً انتقاماً للأموات!"

فتحت ماجده عينيها ونظرت إلى ساكنات. بات صعباً عليها أن تكون قريبة من شقيقة زوجها بسبب الشبه الشديد الذي تحمله لكاظم. في هذه اللحظة، كان حاجبا ساكنات المقوسين بشكل رائع متوترين لشدة الخوف، وقد خلت عيناها الزرقاوان الضاربتان إلى الرمادي من التعابير، كأنها لا ترى، أو أسوأ، كأنما هي تحدق في رعب تراه من داخلها. كانت تبدو مختلفة عن حقيقتها إلى حد بعيد، مختلفة عن كاظم، حتى يمكن أن تكون غريبة عنها.

نهضت ماجده مسرعة وذهبت لتحتضنها. مسَّدت شعر ساكنات الأسود الفاحم، نفس الملمس الناعم الذي تذكر أنها عانقته على رأس كاظم.

"يا ساكنات، سوف ننجو. كوني شجاعة من أجلي – تخيلي ما يمكن أن يقوله كاظم! "أختاه، ما كل هذا؟ لا تجلبي لي العار!"

تحولت عينا ساكنات إلى الضبابية – غامتا بالدموع، لكنها على الأقل، عادت إلى الاستجابة "نعم، سيقول "كيف يمكن أن تخافي بينما أنا هنا؟ يا لها من إهانة لأخيك الكبير!"".

"صه. لا تبكِ. لا تستسلمي. لا تقولي أنه ليس هنا! يجب أن نفعل ما قد يفعله، تماماً بنفس الطريقة، حتى يكون معنا. ألا يمكنك أن تري ذلك؟"

تعلقت ساكنات بماجده "ما كنت أظن أن أحداً يمكنه أن يحب كاظم بقدر ما أحبه. لكنك تحبينه أكثر، يا ماجده".

انطلق تحذير مفاجئ – شخص ما قادم! رفع إسماعيل الصغير "الطارق" على بندقيته القديمة واستعد، وقد اتكأ ببطنه على صخرة ليمنح نفسه الثبات. اتضح أن الرجل هو حسن.

قال "لقد انتهت المعركة". وهو يئن ويفرك ذراعيه من الإجهاد الذي عاناه لحمله جدته صاعداً بها التلة. وتعاونت النسوة فيما بينهن

وحملن السيدة المشلولة خارج عربتها، وضعنها على الأرض، وفركن ذراعيها وظهرها، الذي كان محصوراً في ملزمة من الألم.

أخبرهم حسن "لقد تلقى الأتراك أسوأ هزيمة – تقطعوا إلى أشلاء. لقد قام القوزاق بمطاردة الكوميتاس أيضاً. لن نعود نراهم في هذه الأرجاء مرة أخرى".

لم يكن حسن رجلا ًلائقاً صحياً. فقد كان يتحرك بصعوبة بالغة في أفضل الأحيان بسبب إصابته بجروح في صدره وفي وركه قبل سنوات عديدة. وقد سحب منه جهد هذا اليوم كل قواه. بدا لونه رمادياً لكثرة تعرقه، وقد خارت الطاقة فيه.

"يا حسن، ما الذي سنفعله؟" أظهرت له ماجده الاحترام بحكم العادة، لكونه رجلاً ويمثّل الأكبر سناً ومرتبة في المجموعة. لكنها فعلت في هذا الوقت لتساعده على الوصول إلى ما تبقى بداخله من مصادر القوة.

أحضرت زوجة حسن الماء من النبع في مغرفة خشبية صغيرة. شرب جرعات كبيرة، ثم أخرج تنهيدة "أشكرك يا زوجتي".

جلست المرأة، حاتخان – إلى جانبه، تنتظر، وقد لفت معطفها حول جسمها بصمت.

قرر حسن "سوف أمضي لوحدي فوق الجبل. لا يمكن لمجموعتكم أن تبلغ الوادي التالي بأية طريقة. إذا لم أعد حتى شروق شمس صباح الغد، يجب عليكم أن تنزلوا التلة حتى ضفة النهر. سيكون الجنود قد انصرفوا – بإمكانكم أن تسلكوا الطريق الرئيس الخارج باتجاه نيس".

سألت ماجده "باتجاه نيس؟ ولكن الصرب هناك، يقاتلون الأتراك! الاتجاه الآخر؟ باتجاه صوفيا؟ لن يساعدنا الكوميتاس– ولا حتى الباشي بوزوق".

قال حسن بغضب "ماذا إذن، الاتجاه إلى الشمال الشرقي نحو فيدين – إلى القرى الشركسية على ضفاف نهر الدانوب؟" هز رأسه "ولكن يجب أن تعرفوا الآن، أنه يحتمل أن يكون الروس قد عبروا النهر ويندفعون إلى الجنوب. وهذا ما يفسر وجود قوزاق الدون هؤلاء هنا. لن تقتنع نسوتي بالذهاب إلى الشرق إذا كان الروس يتقدمون. كلا، هل تسمعينني، اتجهوا غرباً أو شمال غرب، باتجاه نيس. إنها فرصتكم الوحيدة للنجاة، يا ماجده. بالإضافة، فإن الجنود الأتراك ما زالوا يحتلون ذلك الإقليم – وليس الصرب."

حاول حسن أن يبدو مقنعاً. لكن إذا كان القوزاق يتحركون إلى داخل واديهم، فإن المسير باتجاه الغرب قد يعني أنهم يسيرون إلى داخل فم الدب، مثل زهرات سقطت في العسل الذي يلتهمه.

"حسناً، نحن نساء". قالت ماجده في نهاية النقاش "ربما أنت محق، يا حسن. سيكون من الأسلم لنا البقاء على الطرقات. السفر في وضح النهار، وتجنب الأحراش والممرات الجبلية".

قالت حليمه بمرارة "تلك الأماكن تعود إلى الكوميتاس والهايدوت، الثوار ورجال العصابات، وليس للشحاذين الضعفاء المشردين مثلنا".

جعل هذا القول ماجده تضحك فقالت وعيناها تلتمعان "آه يا حليمة، لن أفكر فيك على أنك مشردة أو ضعيفة، فأنت ضخمة وقوية، إنك قادرة على حمل "البيت" على ظهرك أو بين ذراعيك – فقط انظري إلى نفسك!".

حتى حسن ابتسم. فقد أفردت حليمة معطفها من كتفيها وكأنه خيمة. أراح التوأمان رأسيهما على ركبتيها غافين كأنهما ملاكين، وقد تلامس جبينيهما. امتد المعطف حتى غطى قدمي العجوز تامبي وزوجته من جهة، ومن الجهة الأخرى شقيقة زوجة العجوز تامبي. كان الكبار يستريحون بتواضع، وقد أخفوا أرجلهم.

نهض حسن واقفاً على قدميه ببطء "تمام. سأمضي الآن في طريقي. عبر الجبل. إذا لم يكن هناك قتال دائر في الوادي التالي فسوف أعود ومعي المساعدة في وقت قصير جداً." انطلق في سيره، ثم تردد وعاد إدراجه. أخرج "القاما" من حزامه وسلمه إلى زوجته.

"احتفظي بها لسلامتك" لمس حسن رأسها، في إشارة حب – مباركة– كانت إيماءة تعني أشياء عديدة، وبالإمكان تذكرها على أنها اللمسة الأخيرة على الإطلاق. بدأت زوجة حسن تنتحب، وبكى معها أقاربها. لم يوقفهم حسن في هذه المرة، فقد كان من العبث المحاولة لذلك ابتعد متعثراً، لأنهن سيدركن أنه من المستحيل استبقاءه بصرخاتهن العالية بعدها.

استمر حسن في المسير – وهو رجل عريض المنكبين، منحنياً إلى الأمام قليلاً عند كتفيه، وهو يتحرك بصعوبة على قدميه المنتعلتين حذاءً طرياً. كان رجلاً هادئاً، غير ودود، من الشابسوغ – يحب الخوض في الثرثرة من أي نوع، وهي صفة تعاظمت لديه في السنوات الأخيرة بسبب التزاماته تجاه هذا العدد الكبير من الإناث – زوجات أشقائه المتوفين وبناتهم. لقد تم أخذ الأبناء وأبناء الأخوة جميعهم إلى الجيش، في نفس الوقت الذي قبض فيه على كل من كاظم وزوج ساكنات. توفي أحد أشقاء حسن من الحمى في السنة السابقة لذلك، وغرق آخر في نهر الدانوب، خلال تلك الرحلات الرهيبة بالمراكب صعوداً في النهر من شاطئ البحر. فكرت بتلك الرحلة الأخرى – بذلك الغضب الطويل الرهيب فوق البحر الأسود عام 1864. كم يتوجب على شعبها أن يعاني أكثر من هذا؟ راقبت ماجده حسن وهو يعرج، ويداري مشيته كأنه حيوان خشن جريح في الغابة العالية، وشعرت بدورها بعويل الحزن يتنامى في داخلها – رغم أن حسن قد ظل في القرية العليا على الدوام، يصرخ في نسائه ويتردد في إبقاء الصلة مع جيرانه.

لكنه في هذه الساعات الأخيرة القليلة قد خاطر بحياته عدة مرات في الدفاع عن جيرانه.

نادى العجوز حطوط على ماجده "تعالي، تعالي! إن لدى حماتك شيئاً تريد أن تخبرك به".

اقتربت ماجده. همست لها زهره بخجل "لقد نسيت يا ماجده. لقد كنت أشعر بالرعب في هذا الصباح لدرجة أفقدتني صوابي. لقد نسيت أنني وضعت كيساً من المال في مخزن الحبوب".

صرخت ماجده "نقود؟ كيف اتفق أن لديك نقود؟"

ارتعشت زهره "لقد أعطاني إياها كاظم لاحتفظ بها لك، كان يعرف أنك سوف تنفقينها علينا. لقد ائتمنني على إخفائها، لحين الحاجة الجدية إليها. الطفل، الأمر هو....."

أغمضت ماجده عينيها. عندما تم أخذ كاظم، فكرت بأنها حامل. لم يكن قد مضى على زواجهما سوى أسابيع قليلة. لكن الصدمة من إلقاء القبض عليه من قبل العسكر الأتراك سببت لها النزيف، وبعد ذلك لم يعد هناك من طفل.

"إذن سأعود أدراجي إلى القرية. سيكون الجنود قد غادروها بحلول هذا الوقت. سيكون الوضع آمناً. يجب علي أن أحاول على الأقل. قبل أن يعود حسن".

عرفت مكان حفرة التخزين بالضبط، حسب مقتضى التقاليد الشركسية: تحت أرضية شرفة العجوز حطوط، مملوءة بالذرة والمأكولات المجففة تخصيصاً لمثل هذه الحالة الطارئة تماماً.

ذهبت لتسأل زوجة حسن إذا كانت بدورها قد عملت مثل ذلك المخزن. فقد كانت تلك عادة قديمة من أيام القفقاس، حين كان القوزاق يغزون القرى ويحرقونها. إذ يعود القرويون بعد ذهاب الجنود، ويباشرون حياتهم مرة أخرى، يخرجون بذارهم وذرتهم، ويستأنفون المسيرة. أما هنا، فلم يكن ذلك ممكناً.

هزت حاتخان رأسها نفياً. "كلا، لقد كان حسن يزرع الكثير من الخضروات لأنه لا يقدر على ركوب الخيل والإغارة. كنا نتشارك كلنا. وكنا بأمان". غطت حاتخان وجهها وبدأت في العويل مرة أخرى.

شعرت ماجده بتصاعد الغضب داخلها. "سامحيني يا حاتخان، ولكن كيف يمكنك أن تحزني على مثل تلك الحياة؟ هل أذلنا الأتراك نحن الشراكسة إلى هذا الدرك الأسفل – حتى تعتقدين أن زراعة الخضار جيدة بما يكفي؟ لم تكن تلك حياة طيبة بالنسبة لحسن – انظري كيف تصرف بشجاعة! كوني شجاعة أنت الأخرى، أيتها المرأة الشركسية!"

صاحت حاتخان وسط دموعها "الأمر ملائم بالنسبة لك! فأنت ليس لديك أطفال تشاهدينهم يموتون جوعاً!".

انسحبت ماجده "سامحك الله. تلك هي مأساتي العظمى، وأنت تعرفين ذلك، يا حاتخان."

ازداد بكاء حاتخان: "آه، إنني آسفة، ما كان يجدر بي أن أقولها..."

غادرتها ماجده، وأخبرت حليمه بالمكان الذي ستذهب إليه. كان مبيت حليمه بعيداً جداً بحيث لا يمكن الوصول إليه لذلك قررتا إحضار المؤن من مخزن حطوط للوقت الراهن. إذا عاد حسن، فسيكون كل شيء على ما يرام لليوم التالي. وإذا لم يعد، فسوف يسير الجميع نحو الوادي، غرباً، ويتفقدون ما تبقى من المؤن في خان حليمة على طريقهم.

انطلقت ماجده عزلاء من السلاح. كانت تلك الطريقة أسلم. إذا كان سيطلق عليها النار، فليكن: وإذا كانت تحمل بندقية وتمت مواجهتها، فستكون العاقبة أسوأ بالنسبة لها.

كان النزول سهلاً لكونها وحدها. تحركت بسرعة وبدون إصدار أصوات تذكر من طرف الغابة، وتوقفت، مبهورة الأنفاس، لتتفقد إن كانت هناك أية إشارة على وجود حياة في الوادي تحتها. لقد عاشت في هذه القرية الصغيرة لسبع سنوات - ستة أشهر كضيفة، أربعة أسابيع كعروس، ومن ذلك الوقت، ست سنوات كأرملة. كان ذلك وقتاً كافياً لها حتى تميز كل صوت، نداء العصافير، عواء الذئاب، الخيل البرية، الخراف الضالة أو الجدايا المفقودة. أخبرتها نوعية الصمت أن المعركة قد انتهت - أسوأ من ذلك، أنه ربما تكون هناك مناظر مخيفة تتعامل معها عندما تنزل إلى تحت.

لكن حدث الأمر وكأن كاظم قد كلمها. ليس مرة، بل مرتين. وإلا فكيف يمكنها أن تفسر كون زهره وحاتخان قد ذكرتا طفلها الذي فقدته؟ لقد كان ذلك كاظم الذي يقول "لقد كان مقدراً أنك فقدت الطفل عندما تركتك. فهذا يعني أنني أترك لك كنزاً، في وقت الشدة هذا، ليساعدك على البقاء حية. إنها إرادة الله أن تنقذي والديَّ. سوف تتجين بحياتك وتكتب لك حياة جديدة. هذا ما أرغب فيه أنا، كاظم، بالنسبة لك".

لقد حزنت طيلة هذه السنوات. في هذا اليوم، أحست ماجده بقوة إرادة غريبة وشرسة، على الاحتمال. هناك مكان أفضل في مكان ما - لقد كان كاظم يأمرها بأن تتحلى بالشجاعة وتتحرك إلى الأمام نحو حياة جديدة.

سحبت ماجده نفساً عميقاً وركضت منحنية وبأسلوب متماوج جيئة وذهاباً كما شاهدت الرجال يفعلون، عبر منحدر التلة المكشوف المؤدي إلى القرية العليا. كانت الخرائب ما تزال مدخنة. وكانت رائحة احتراق بقرة حسن تزكم الأنوف.

تسلقت نازلة، في رشاقة عنزة، وقد قل خوفها الآن لكونها اقتربت من خان حطوط. كانت الجدران الرفيعة والسقف المكون

من الأغصان قد احترقت حتى لم يعد لها وجود. انهارت أخشاب الشرفة، وما زالت ساخنة بحيث لا يمكن لمسها. بحثت ماجده أولاً عن حجر حاد الحواف في الساحة. ثم زحفت تحت أخشاب الشرفة المدخنة. ممسكة بشالها فوق رأسها اتقاء الدخان وفي حالة سقوط رماد ساخن عليها. كانت هناك فسحة بالكاد تكفي لأن تحشر نفسها في جانب واحد وتستعمل الحجر لتحفر به الأرض الساخنة. أخرجت كيسين من الذرة، عدة مواعين من الخيار المخلل، غير منفجرة برغم الحرارة، وهناك في القعر، كان كيس زهرة. أخفت النقود بدون أن تتوقف لتفقد محتويات الكيس، وكيساً واحداً من الذرة لأن ذلك كان كل ما يمكنها حمله.

بينما هي تغادر الساحة، سمعت ضجة. كانت هناك جثة قرب البوابة. كانت الضجة خفيضة، متقطعة، غرغرة رجل كان يتجاوز مرحلة العذاب، وقد توقف تنفسه إلا من صوت شفط لا إرادي. لكن كان هناك صوت آخر إلى جانب صراع الموت هذا.

تحركت ماجده إلى الأمام بحذر. كانت مرغمة على التحرك من هذا الصوت الآخر – أدركت أن حركاتها قد تم سماعها. فقد كان الأنين محاولة تواصل. كان الرجل المشرف على الموت يناديها. ماذا لو فرضنا أنه أحد القوزاق؟

كلا، كان بإمكانها أن تشاهد طماقات السيقان، الرجل من الكوميتاس. لا يتحرك، حسناً، إنه رجل، يحتضر. كانت مضطرة لأن تنظر. لم يعد لديها خوف الآن، مجرد إلهام بأن الاقتراب آمن بالنسبة لها. كان الرجل قريباً من الموت بشكل واضح. كان ذلك هو انجول زارتوف. كانت ذراعه اليمنى مفتوحة بجرح، ولم يكن بإمكانه تحريكها. استلقى في مكانه وقد ظلت ذراعه الأخرى محشورة تحت ثقله. فقد اخترقت صدره طعنة حربة واستحال لونه إلى القرمزي لكثرة الدماء.

وقفت ماجده فوقه. كانت عيناه البنيتان ما زالتا قادرتين على الفهم، وترجوانها. ليس لكي تنهي حياته، أدركت ذلك. كان يطلب منها أن تفعل له شيئاً. رفع يده الجريحة لكنه لم يكن لديه أية قوة فسقطت. أدركت فجأة أنه يحاول أن يرسم إشارة الصليب على نفسه قبل أن يموت. كان هناك نور يشع من عينيه، آمل باحث.

لم تعرف ماجده ما يجب عليها عمله. ركعت وصلّت حسب الطريقة الوحيدة الصحيحة. لم يمت. ولم تغب نظرة العذاب من عينيه – ولم يكن ما يعذبه هو الألم الجسدي. بدأت تحل أزرار زيه البني وقد خطر ببالها خاطر. انتشر الذعر عبر تقاسيم وجهه.

"يا انجول – هذه أنا! إنني ماجده!"

لم تمتلك الشجاعة الكافية لأن تلمس جلده، فقد كان بارداً ودبقاً. بحثت خلال جيوبه، إلى أن عثرت على ما كان يبحث عنه. مسبحته. رفعتها عالياً، حتى يستطيع أن يرى الصليب في نهاية الخرزات. سالت الدموع على وجهها. أصبح الآن بإمكانه أن يذهب، وكذلك هي.

ركضت ماجده هاربة بأسرع ما تستطيع. كان الشيء الذي أخذته من انجول هو مسدسه. عثرت على طريقها عائدة إلى الشابسوغ في الغابة.

تناولت زهرة الكيس منها على عجل، ولفته حول عنقها، حوّلت ماجده وباقي النساء الذرة إلى عجينة خشنة. كان الظلام قد بدأ يخيم والطقس على جانب التلة أبرد منه في أي "خان" من قريتهم.

بذلت كل من حليمه، رسميه، إسماعيل ونسوة حسن أفضل الجهود لإشعال نار حتى يمكنوا من إنضاج الخبز الخشن فيها. لأنهم إذا لم يأكلوا، ولم يحتفظوا بالدفء، فسوف يموتون – بالإضافة إلى ذلك، فقد كان هناك الذئاب التي يجب إبقاءها بعيدة في الليل.

قال إسماعيل "سوف أتولى الحراسة". مع أنه يكاد يغمى عليه من شدة الإرهاق.

قالت حليمه بخشونة "لا فائدة من ذلك أيها الصبي. أحصل على قليل من النوم. فإما أن نكون أحياء أو أمواتاً بحلول الصباح – سيقرر ذلك الله سبحانه وتعالى".

بدا على إسماعيل وكأنه سيبكي من شدة الإرهاق، متعباً إلى درجة أنه لا يعرف ما إذا كان سيدافع عن شرفه باعتباره الذكر الشاب الوحيد في المجموعة، أو يطيع "العمة" حليمه مثل طفل مهذب. حلت حليمه معضلته. فقالت وهي تطبطب على كومة من أوراق شجر الزان التي جمعتها على شكل فراش "إليك يا إسماعيل، أريدك أن تنام على هذا الجانب مني – وإلا فإن النار ستصبح حارة جداً." رقد إسماعيل على الأرض إلى جانب أمه، وظل ممسكاً بماسورة البندقية حتى عندما استغرق في النوم.

استغرق الجميع في النوم معه.

استيقظت ماجده مرة في منتصف الليل، وهي تحس بالبرد لأن النار بدأت تخمد. ألقت إليها بالمزيد من قطع الخشب وعاينت كل أكوام الجيران النائمين. حتى المسنين منهم كانوا نائمين في سلام بعد جهود الهروب. تراجع الموت الذي بدا قريباً جداً في هذه الآونة.

كانت أول من استيقظ عند الفجر أيضاً، وقد امتلأت روحها بإحساس عميق بغاية وتصميم.

"دعونا لا نطيل المكوث هنا. إذا تحركنا مبتعدين من هنا فإن ذلك سيحافظ على ارتفاع معنويات الناس".

قالت حليمه، وهي تفرك عينيها "وماذا عن حسن؟"

هزت ماجده رأسها "إذا حضر الآن، سيعرف أي اتجاه سنسلكه." كانت تلك طريقة متفائلة في تجنب الاحتمال الرهيب في أن يكون قد فشل، أو أنه مات.

أثبت الواقع حدس ماجده. والغريب أن أحداً من نساء الشابسوغ لم يندم على التحرك، حتى نسوة حسن، اللاتي حزمن حوائجهن بدون أي كلام، فقد نفذت منهن الدموع. فقد ألقيت حجارة النرد. وأصبحن الآن لوحدهن.

لم تكن قرية تيبيليك موئلاً في يوم من الأيام، بل كانت أشبه بالسجن. انتشر شعور غريب بالانفراج بين النساء بينما هن راكعات لأداء الصلاة. كانت حاتخان تصلي بحماسة أكثر من الأخريات، بأن يتبعهن حسن على الطريق إلى نيس ويلحق بهن. سوف تقوم بعمل ما قاله لها، لأنها إذا كانت مطيعة، فإن ذلك سيأتي لزوجها بالفأل الحسن. انطلقت النسوة، بحركة التفاف حول القرية وباتجاه "خان" حليمه، باتجاه الغرب. كان بدوره قد أحرق كإجراء انتقامي لأن هجوم الكوميتاس قد حدث بشكل عام حول بيت العجوز حطوط، وليس هذا البيت.

عثرت حليمه على عنزتها وإحدى عنزات رسميه، كانتا قد تجولتا بعيداً على الممر باحثتين عن الطعام والرفقة. قالت حليمه "إلى الجحيم"، وهي تحمل رزمتها على كتفها وتبدأ بالمسير في رأس الطابور. كان الممر ضيقاً عند هذه النقطة ولم يستطعن أن يمشين أكثر من اثنتين متجاورتين، واحدة ضعيفة تستند إلى أخرى قوية.

لقد كان الشعور بالسعادة ضرباً من الجنون. لقد فقدن كل شيء ولم يكن لديهن أية فكرة عن الوجهة التي يتوجهن إليها. لكن مجرد حقيقة مغادرة ذلك الوادي الكئيب، وطغيان فؤاد باشا ونتانة روائح خنازير المرأة البلغارية كانت أسباباً كافية.

أصبحن الآن خارج السلطة التركية. فقد أحرقت بيوتهن لكنهن قادرات على التحكم بمصائرهن. ربما حتى يعتبرن ميتات من قبل السلطات – فقدن حياتهن في الخرائب. ما كان ذلك ليشكل أهمية، إذ لم تعد لهن صفة رسمية، كنَّ أحراراً، حتى ولو مجرد أحرار في الموت.

***

الفصل الخامس

كان العقيد أصلان ورفاقه جاهزين لاستمرار في مسيرهم بالاتجاه الغربي نحو صوفيا، مقر قيادة الجيش العثماني الغربي لبلغاريا. قبل بزوغ الشمس بوقت طويل. أظهر تيمور، المساعد، شبابه بان كان يقظاً وقد حزم متاعه قبل أي شخص آخر، غير متأثر على الإطلاق بقضائه الليلة على خشبات الأرضية العارية، حتى أنه بدا أقل شحوباً بقليل.

تألف الإفطار خارج "الخان" من خبز بني خشن، تم عجنه في داخل قطعة حطب مفرغة وخبزه في نار مدخنة من قبل إمرأة فلاحة متجهمة ذات خدين غائرين.

سأل أصلان، وهو يعاين القذارة بقرف "هل هي خطتك المتعمدة في التوقف لدى فلاحي "الراياه" يا أورهان؟"

"إنني فقط أذكر الناس بمن نكون وما هو الوضع. نحن بحاجة إلى إبقاء "حضورنا" " قال أورهان، وهو يزدرد الخبز الجاف بجرعة من الحليب الطازج. "أحياناً يكون للزيارة غير المتوقعة والفجائية من أناس مهمين، تأثير مفيد".

ألقى أصلان ببقية الخبز الذي يحمله إلى الكلاب - كانت هناك دوماً قطعان من كلاب الدرواس في قرى الراياه- لكن صبياً - طفلاً صغيراً وصل إليها أولاً، كاشفاً عن مؤخرة وسخة بقدر منفر أثناء تحركه. قال أصلان، وهو ينهض ليتمطى "لنقطع مسافة جيدة اليوم. إنني متشوق للوصول إلى قيادتي الجديدة. لا بد وأنك متشوق أنت الآخر، أليس كذلك، يا أورهان؟"

ظهرت الحيرة على محيا أورهان "أنت حاد مثل المستردة. يفترض فينا أن نقدم تقريراً عن مشاهداتنا على الطريق - أم أنك لا تستطيع أن تكون فعالاً بعيداً عن خط الجبهة".

لم يقل أصلان أن فضوله الرئيس لا يتمركز في النزول على قرى "الراياه" للتأثير فيهم (أو تناول مؤنهم القليلة) بل في العثور على أية مستوطنات شركسية على الطريق.

قال أصلان بجلافة "بل أستطيع العمل". ألقى بحزمه فراشه إلى تيمور ليربطها إلى سرج فرسه، وتفقد خارطتهم بحثاً عن أفضل طريق إلى بانا جوريشته – مركز الدعم للكوميتا.

كان القسم الأول من الرحلة باتجاه ستريلتزا – وهي ذات مناظر جميلة إلى حد ما. ركبوا بسرعة الخبب خلال وادٍ جميل واقع تحت تلال متدرجة بشكل جميل. كلما وصلوا إلى قرية مزقتها الحروب، تناوب أورهان وأصلان في إجراء الاستفسارات. في كل قرية كان يوجد دائماً قسيس أو "بابا" بلحية طويلة بيضاء وطاقية سوداء على شكل مدفأة، جاهز لإتهام جيرانه المسلمين بارتكاب الفظاعات. وقد كان تعبير "باشي بوزوق" ينم عن الإساءة ويدل على أية مجموعة من المجرمين – المزارعين المحليين، الميليشيا المأجورة، وحتى "لصوص الخيل" الشراكسة في بعض الأحيان.

بدأ أصلان يحس بالتوجس. فما من أديغه سيقدم على ذبح نساء أو أطفال غير قادرين على الدفاع عن أنفسهم بدون تبرير ملجئ أليم. سرعان ما أصبح التوقف عند كل بقعة مدمرة غير عملي. فهم مضطرون إلى الوصول إلى باناجوريشته قبل حلول الليل، وما زالت المسافة طويلة جداً. بالإضافة إلى ذلك، فقد كانت الأدلة المنظورة والقصص المملة هي نفسها. فحيث كانت القرى محروقة ومسواة بالأرض، فقد بقيت بعض الأكواخ واقفة في وسط الرماد. بالنظر إلى مرور اثني عشر شهراً، فإن "الراياه" ما كانوا يحرزون ما يكفي من التقدم في سبيل إعادة بناء شؤون حياتهم. كان البابوات ورؤساء القرى كلهم يتحدثون بنفس المظالم. فحيث قامت الحكومة بتقديم أكياس من المسامير، ترتب على القرويين العثور على الخشب. بالنظر إلى أن الجيش قام بمصادرة كل ثيرانهم، لم يتمكنوا من نقل الأخشاب من الغابات إلى القرى. لقد

ذبح العديد من الرجال القادرين على العمل – أحرقوا في أسرَّتهم، طعنوا بالحراب، ذبحوا بالسيوف، أطلقت عليهم نيران البنادق من مسافات قصيرة، حتى أن عائلاتهم لم تستطع أن تتعرف على وجوههم. أصبح الدمار وانهيار المعنويات يعم كل الجهات. بحلول منتصف ما بعد الظهيرة، أصبحت الرحلة تميل إلى الصعوبة. أضطر أصلان، أورهان وتيمور إلى خوض العديد من الجداول، تسلق الضفاف الشديدة الانحدار والخوض من خلال مستنقعات وسبخات تحت غابات من البلوطات العتيقة التي تفوح منها روائح التعفن. ظهر الإعياء على تيمور. مال أصلان نحوه، وسأله بهدوء "هل أنت على ما يرام؟"

تردد الفتى "لا يا سيدي. إذا كان الباشي بوزوق قد عاملوا فلاحي الراياه بهذه الطريقة – فماذا تراهم سيفعلوا بشعبنا؟"

"نحن نعرف أن بعض الوحدات قد فقدت الانضباط" اعترف أصلان "أعتقد أن الجيش النظامي قد ترك للميليشيات المحلية التعامل مع هذه القرى الأشد فقراً – هذا كل ما في الأمر".

قال أورهان مدافعاً "ماذا تتوقع؟ ليس من العملي إرسال القوات النظامية الخاصة إلى كل موقع يحدث فيه عصيان. لكنني يجب أن أعترف، بأنه لم تكن لدي أية فكرة عن مدى عمق الغارات وتأثيرها..."

وصلوا إلى المستوطنة المحترقة بشكل مفاجئ جداً. بعد أم داروا حول نتوء صخري. دخلوا في مرتفع أزيلت أشجاره. وكانت المستوطنة أمامهم – بالتشكيل الدائري المألوف. لم تكن هناك أية مآذن، خلافاً للقرى التركية: وخلافاً للقرى المسيحية، لم تكن هناك أية كنائس جرى هدمها من قبل الباشي بوزوق، ولم يكن هناك أي وجود لبابا أشيب الشعر، جاهز ليلقي خطبة من الاتهامات ضد جيرانه المسلمين.

لا بد وأن القرية كانت بائسة حتى عندما كانت مأهولة. لأن كل ما بقي منها هو أجزاء قليلة مسودة من أسيجة الأغصان. بضعة أحواض من الخضار المثيرة للشفقة وقد احترقت حتى أصبحت رماداً، وبعض الطيور الداجنة التي سحقت في الطين. لم تبق بناية واحدة واقفة. وكان الدخان ما يزال يتصاعد.

"بحق الله. لماذا الآن؟ لماذا حدث هذا؟"

في وسط الخرائب، جلست امرأتان تهدهدان نفسيهما إلى الأمام وإلى الخلف، وتنتحبان. استطاع أصلان أن يميز اللغة التي انتحبتا بها، فقد كانت لغته.

كانت رائحة الاحتراق ما تزال طازجة. ورائحة اللحم المحترق حادة شديدة الاختراق.

جاء رد أورهان مقتضباً "غارة انتقامية. لا بد وأن هذا صراع محلي من نوع ما".

اتهمه أصلان بقوله "تعني، أن المأساة حصلت ليلة أمس. بينما نحن نائمون".

ترجل عن جواده، وقلبه يخفق بعنف، من بحق الجحيم هو الذي فعلها – هل هم الراياه الذين يستحضرون روح الانتقام؟ أم الكوميتاس المختبئين في هذه التلال المصممين على نشر الفوضى والرعب؟

أم هم المزارعون الأتراك، مستغلين هذا الزمن الذي تعمه الفوضى للتخلص من هؤلاء اللاجئين، واستعادة أراضيهم؟

توقف أصلان عن المسير فجأة واستدار إلى الخلف صارخاً وقد رفع ذراعه محذراً

"تيمور، استمر في الركوب باتجاه بانا جوريشته وأنذر الجنود. فإن هؤلاء الناس بحاجة إلى المساعدة!"

انطلق تيمور مبتعداً

لم يكن أصلان يحتمل رؤية الرعب. ليس عندما يتعلق بشعبه. فقد كان بالكاد يحتمله لنفسه.

كان القرويون كلهم من الشابسوغ. ألقيت الجثث نصف المحترقة على الأرض ولم يمض على موتها وقت طويل لأنها كانت ما تزال تنزف. لم يكن هناك جرحى لهم أي بصيص أمل في النجاة بحياتهم: فقد كانت جميع الأجساد تحمل علامات الذبح المتعمد. كان بعضهم بدون رؤوس: وقد طعن بعض الرضع بالحراب وهم ملتصقون بصدور أمهاتهم. وقد بقرت بطون بعض الحوامل: أما الأخريات، فقد بدا عليهن الهلع والعار من الطريقة التي استلقين فيها قبل موتهن. كانت هناك قلة قليلة من الرجال المسنين.

جاء أورهان خلف أصلان، وهو ما يزال ممتطياً جواده. سمعت المرأتان هسهسة مهاميزه، ورفعتا عيناهما الزائغتان. توقفتا عن النواح، غطتا وجهيهما بشاليهما وتكورتا، كأنهما تنتظران رصاصة أو طعنة حربة.

أمسك أصلان بلجام جواد أورهان ليوقف رفيقه عن الاقتراب أكثر مما فعل "أرجوك، دعني أقوم بهذا الأمر لوحدي".

أومأ أورهان برأسه "معك حق. سوف ألقي نظرة على محيط القرية. هذا شيء مقرف – أظن أنهما الناجيتين الوحيدتين."

"يحتمل. ولكن كن حذراً." تقدم أصلان إلى الأمام بنفس الحذر.

تكلم بلغته الأصلية إلى المرأتين متمهلاً "بكل احترام، يا سيدتيَّ المسكينتين، هل تسمحان لي بمساعدتكما؟ اسمحا لي بمد يد العون. هيا بنا، أنتما لا تستطيعان الجلوس هنا طيلة النهار".

فهمت المرأة الشابة ما قاله، ثم ردت "أنت واحد منا" وهي في منتهى الذهول.

"نعم، أنا واحد منكم، إنني من الشابسوغ. أنا ابن الحجي دانيل، صديق الحجي كازبك، القباردي."

لمعت عينا المرأة المسنة" كازبك؟" وانتقلت من خارج كابوسها إلى ذكريات في مثل حدة النهار ووضوحه.

التقط أصلان لمحة من تعبير آخر – لإمرأة شركسية في قمة أنوثتها، ممتلئة بالدفء والقوة، وليس أرملة مصابة بمس من الجنون وقد تطاير شعرها الأبيض. ثم همست "إنني قريبة للحجي حسن".

تكلم أصلان بحزم "هلمي بنا..." وحاول أن يساعدها على النهوض.

لكن المرأة العجوز كانت قد أطبقت قبضتيها إلى جانبي رأسها بقوة. لقد فقدت إدراكها. وكل ما كان بوسعها عمله هو التمتمة بصلوات لأجل الأموات، الصلوات لأجل الأموات.

كرر بلطف "هلمي بنا، لنخرج من هذا المكان".

كانت العجوز ضعيفة وذاهلة إلى درجة أنه اضطر إلى حملها. نظر أصلان حواليه باحثاً عن بقعة صغيرة من الملاذ. كان هناك نتوء صخري على مسافة قريبة من المذبحة، يشكل مأدى طبيعياً من نوع ما. قاد المرأتين الشابسوغ نحو الحافة المعشبة تحت هذا النتوء، حيث وضع حمله، ولف معطفه حولها. وقفت المرأة الأخرى، والتي يحتمل أنها حفيدتها، كأنها لعبة، تنتظر منه أن يتصرف بها هي الأخرى. لم يكن جواد أصلان قد ابتعد، لذلك طقطق له بأسنانه، ثم صفر، وحضر الحصان خبباً. حلَّ بطانية نومه وفرشها للمرأتين حتى يكون لهما مكان تجلسان عليه من الرطوبة والبرد.

قالت الأرملة بدون اهتمام، وعيناها ما تزالان تلمعان من الذكرى "لقد ذهب الحجي حيدر حسن إلى انجلترا منذ زمن".

فقال أصلان، مشفقاً "هل فعل ذلك حقاً؟"

أمشكت بذراعه بقوة، غير مدركة أنه لا يصدقها وأنه يعتقد أنها تهذي "نعم، نعم، لقد ذهب إلى انجلترا ليحضر العون. لكن الجنود لم يأتوا".

قال أصلان وهو يربت على يدها "كلا، طبعاً لا. والآن، لا تقلقي، أيتها المرأة الطيبة. في هذه المرة سيحضر الجنود ويأخذونك إلى مكان آمن".

أطبقت على ذراعه بقوة وقد استحال وجهها إلى اللون الرمادي. "لا، لا – جنود! لا تدعهم يحضرون مرة أخرى!"

"لا تقلقي، ستكونين بأمان.." لم يكن أصلان متأكداً مما تقوله، أو مما كان يعد نفسه به.

حضر إليهم أورهان فجأة، وسأل مقاطعاً "جنود؟ هل تعنين بقولك أن الجنود الأتراك قد فعلوا هذا؟"

بدأت المرأة الأرملة ترتجف "جنود، جنود، الجنود قادمون، آه يا عزيزي، الجنود قادمون. ويلي. الطفلة، الطفلة، الطفلة، أين هو المهد، أين الطفلة؟"

بدأت المرأة الشابة تشارك في الجنون "أنا لا أستطيع أن أحملها! يجب علي أن أمسك بيد أحمد الصغير! نانا، كان يجب عليك أن تأخذي الطفلة، لقد ماتت ماما الآن، إنها لا تستطيع أن تحملها.."

قال أورهان بحزم "توقفن عن هذا. إليكما، كليكما، تناولا جرعة من هذا. إنه علاج لكما".

قدَّم لهما مطرة ماء. تشمم أصلان محتوى الشراب ثم ركع ليقدمه لهما.

تناوبت المرأتان الشرب، وهما تراقبان شفاه بعضهما بعضاً كما يفعل الأطفال عند تناول الطيبات.

همست المرأة الشابة "حان دوري، يا نانا".

ركع أصلان مقترباً، وتحدث باللغة الشركسية مرة أخرى "هل كان الرجال الذين فعلوا هذا بلغاريين أم أتراك؟"

قالت المرأة الشابة وهي تطاطئ برأسها ببطء "جنود، باللونين الأحمر والأزرق – لونين أقرب إلى الأحمر والأزرق–" انفتحت عيناها على اتساع أكبر، وقد أبصرت زي كل من أورهان وأصلان العسكريين، وبدأت بالزعيق.

"لا تؤذيا أخي الصغير! أطلقا علي النار، اقتلاني!"

أمسك أصلان بذراعيها وثبتهما إلى جانبيها بحزم "شابسوغ! أنا من الشابسوغ!"

لكن أورهان سحبه عن المرأة المهتاجة في حالة هستيرية، ورفعه واقفاً على قدميه "ليس بوسعك عمل أي شيء. لقد فقدتا إدراكهما. اتركهما بحالهما! أشعل ناراً، يا أصلان. لن يصل تيمور إلى باناجوريشته قبل بضع ساعات وأنا أشك أن ترسل القيادة سرية جنود في مثل هذه الليلة في هذه المنطقة، لإنقاذ مجرد–"

"أكمل... هيا قلها!" أصبح أصلان في حالة هيجان وحشي "لإنقاذ مجرد نساء – إن رجالهن لصوص خيل لا يصلحون لشيء! تجار عبيد! رعاع من الشراكسة! لاجئون!"

أربدّت عينا أورهان من الغضب "اصمت يا أصلان وإلا فإنني سأضطر إلى ضربك" شعر أصلان بقوة تهديده وندم على كلماته.

لأنه ليس من سمات التصرف اللائق بشركسي "أديغه" أن يفقد أعصابه أو يتكلم بطيش وتهور.

كانت الندبة القديمة على جبين أصلان تنبض: راقب أورهان الخط الأبيض الصغير الذي يحفر عميقاً في حاجب رفيقه الأيسر. فهو يعرف هذا النبض جيداً. انتظر حتى هدأت أنفاس أصلان وانتظمت وأصبح يسيطر على انفعالاته مرة أخرى.

"الحمد لله والشكر. لقد اقترب الوضع من السوء. لم أعد أرغب في ضربك منذ مدة طويلة" حاول أورهان أن يقضي على التوتر "هيا اذهب أيها الرجل، أحضر بعض الحطب. فإن هاتين المسكينتين يجب إبقاءهما دافئتين إذا كانتا ستعيشان حتى تريا يوماً آخر".

مشى أصلان مبتعداً باتجاه حرش البلوط، وهو يبتلع الهواء البارد الرطب ويحاول أن لا يفكر في المنظر الرهيب خلفه. كان الغسق قد بدأ يهبط. وهكذا فقد رحم الظلام المرأتين بحجبهما عن البقايا الوحشية لجيرانهما المذبوحين. الأسماء؟ ماذا كانت أسماؤهم. يفترض فيه أن يسأل.

حينما عاد، وجد المرأتين متكومتين سوية بقرب نار صغيرة، وأورهان جالساً إلى ناحية منها، يحدق بجوع مستهلك لا يتوقف في المرأة الأصغر سناً من الاثنتين.

للحظة عابرة، "حدق" أصلان في الفتاة بنفس الطريقة بدوره. ورأى حتماً الجسم الرائع، والأعضاء البيضاء المكشوفة بإهمال إلى ضياء القمر واللهب الرقيق لشواظ النار المتسلقة. شاهد بدوره التكور المثير لصدر العذراء، مكشوفاً عند جانب ردائها المخيط بطريقة بدائية، الممزق، أدرك أنها قابلة للإشتهاء: أسوأ من ذلك، أنها معرضة للاعتداء. لكن الفكرة ملأته بالقرف – خلافاً للإعجاب الشهواني الواضح الصادر عن رفيقه أورهان.

زمجر فيه أصلان "غض عينيك عنها". فمازحه أورهان قائلاً:

"آه، بالله عليك يا أصلان، بإمكان الرجل أن ينظر... ربما لأنها ليست على ذوقك، هل ذلك هو الأمر؟ قسماً بالله (وقالها بالفرنسية) "النساء الشركسيات" لا عجب أنهن مشهورات عبر أوربا كلها!" لم يعد بالإمكان إيقاف أورهان عن الثرثرة "هل أحضرت الحطب؟ عظيم – لنوقد شعلة هائلة..." استعاد سيطرته على نفسه بدون أي خجل. "دعنا نوفر للسيدتين ملاذاً ونشعل ناراً. ونسهل على تيمور العثور علينا، إيه؟"

عمل أورهان بهمة ونشاط على جمع الأغصان الكبيرة وبنى عريشه بدائية إلى جانب المرأتين، لإبعاد البرد. شعر أصلان، بالإنزعاج، وأبقى عينه على أورهان. فقد كان تصرفه غير لائق كلياً، حتى أنه مغيظ: وبكل الأحوال، فقد ظل أورهان يتمتع بقدر من الدم البارد أكثر منه، ولم تكن لديه فكرة عن الخوف الذي ظل أصلان يحتمله طيلة هذا الوقت. وهذا هو الآن: البرهان المرئي على عذابات قومه. ماذا لو كان أبواه قد قضيا نحبهما في مثل هذا المكان... إنه احتمال لا يطاق.

بدا وكأن الليلة ستظل جافة بلا مطر، ولكن كانت هناك رطوبة في الأرض. اشعلوا ناراً متلهبة وأحضر أورهان الشاي من جراب سرجه. راقبه أصلان بتكذيب يتنامى.

اعتذر أورهان بلهجة لعوب "أنه شاي صيني"، لكن رفاقه لم يفهموا نيته في التنكيت أثناء رشفهم الشاي من كوبه العسكري. بمجرد أن شعرت المرأة المسنة بقليل من الدفء، وجدت في نفسها المزيد من الطاقة على البكاء.

"ابنتي! الصغار.. أحمد، أمينة.. آه، لماذا لم نمت نحن بدورنا، يا أدايف؟"

وقع أصلان في حيرة وأعيته الكلمات. جلس متكوراً محني الظهر إلى جانب النار، وقد بدأت الأحاسيس المتضاربة في داخله تتصاعد وتقوى حتى لم يعد قادراً على احتمالها. اقترب من

الانفجار – أراد أن يفعل شيئاً ما ليخفف به الضغط في داخله. لم يكن في هذه اللحظة قادراً على مواساة المرأتين. التعامل مع أورهان – لم يعرف إلى أين سيؤدي به ذلك، ولم يكن هذا هو الوقت الملائم.

أعلن أصلان "سأذهب للتصيد. سأصطاد لنا شيئاً للعشاء".

بسط أورهان يديه باتجاه اللهب "رجل فاضل. سوف أقوم بالحراسة. نحن بحاجة إلى إدامة النار لإبعاد الذئاب".

نهض أصلان واقفاً، علق بندقيته على كتفه وانطلق.

بينما هو يغادر الفسحة، ألقى بنظرة إلى الخلف، ليتفقد أورهان. كان يبدو مسالماً بما يكفي، يدخن سيجارة، وقد أدار ظهره للنساء. استمرت العجوز في النحيب بصوت خفيض، بينما احتضنتها حفيدتها بين ذراعيها. ظلت العجوز تغمغم باسم ما بين الفينة والأخرى وسط ثرثرتها "أحمد، أمينة، ميتان".

ابتسم أورهان "احترس، يا أصلان" وأطلق صيحة شبيهة بنداء البوم الأبيض – وهي واحدة من النداءات القديمة من أيامهما في الأناضول.

خطا أصلان بحذر وخفة في العتمة. لم يعتقد أنه سيجد الكثير. فإن الحيوانات تهرب من رائحة الدخان، ناهيك عن ألسنة اللهيب. ولكن، وكما يشاء الحظ، لم يكن قد ابتعد كثيراً قبل أن يسمع صوت أجراس خشبية تقرع بلطف في فسحة صغيرة. كان هناك زوج من الماعز، مربوطين، يمضغان طعامهما في طمأنينة.

أدى انعدام الاهتمام الحيواني، ونظراتهما المحدقة إلى جيشان عواطفه. اقتربت عنزة مع جديها منه ودفعته بخطمها في رقة. ركع أصلان في خصوصية الحرش وانعزاله، وأطلق العنان لمشاعره.

لقد دفع بكل مشاعره وأفكاره حول عائلته إلى الجهة الخلفية من عقله لسنوات طويلة. لم يعترض أبداً على حظه ووضعه، الذي

دفعه لأن يكون جندياً في خدمة السلطان. حتى عندما فشل في العثور على سجلات عائلته بعد كل جهوده ومحاولاته، كبت كل آلامه، سعيداً بكونه مفيداً، ولكونه ببساطة: موجوداً حياً.

لكنه كان مرهقاً حتى العظم. انحنى راكعاً إلى الأمام، ممسكاً بالجدي الصغير وهو يربت على فرائه الحريري الناعم. اندفعت رائحته القوية النفاذة، المألوفة لخياشيمه بذكرى مفرحة. تذكر أمه وهي تحضّر أكياساً صغيرة من الموسلين ملأى بالحليب الدسم الذي سرعان ما يتحول بطريقة سحرية إلى جبنة مرة المذاق. كان الخدم يحمصونها له لوجبة الغداء أثناء طفولته. كان أبوه يأخذه في الأيام الذهبية المزدهرة إلى المراعي حيث يركبان جنباً إلى جنب، يعدان القطيع قبل أن يقوداه إلى مرج آخر.

دفعته العنزة في كتفه برقة. تأوه أصلان بصوت عالٍ، مسح الدموع عن وجهه بظاهر يده، سحب "القاما" وحزّ رقبة الجدي. تدفق الدم الدافئ على يديه فرفع الحيوان المذبوح بعيداً عنه حتى يسيل الدم على العشب.

قطع رباط العنزة وحررها. حامت حوله مذعورة، وهي تتشمم الجدي الذبيح. ضرب مؤخرتها بكف يده بقوة، فهربت مذعورة مبتعدة داخل الحرش. مشى عائداً إلى المخيم المؤقت فلمح شيئاً قلب موازين كافة مشاعره نحو الغضب القاتل.

كان أورهان قد لاطف الفتاة الشابة، أدايف، بحيث أبعدها مسافة قليلة عن جدتها. كانت الفتاة في حالة ذهول - واضح أنها لم تكن مدركة أو مهتمة بما يجري، فرقدت ساكنة كأنها ألعوبة.

كان أورهان قد رفع رداءها حتى خصرها، وتنكب جسمها، وهو يعجن نهديها ويفرك بجسمه جسدها، متلذذاً بتوقع انتصاب عضوه. لحظة أخرى، وكان على وشك اغتصابها.

أسقط أصلان الجدي المذبوح، وقفز على أورهان، قابضاً على خناقة بقوة، سحبه عن الفتاة الشركسية بعنف. انزلقت يداه الداميتان عن حلق أورهان بينما هما يتعاركان على التربة المسوَّدة.

جاء صوت أورهان مخنوقاً، كسيراً "بالله عليك!". كان أصلان أكبر حجماً منه بكثير، لكن أورهان كان يقاتل للنجاة بجياته، وهو إلى ذلك مقاتل صلب، يجيد الحيل القذرة. ضرب أصلان بركبته في ملتقى فخذيه، عضه في ذراعيه، وبصق في عينيه.

لكن أصلان ضربه. كال له الضربات التي حولت لونه إلى الأزرق والأسود بكل أحاسيس الضيم المكبوتة التي عاملته بها كل الدنيا كما عاملت أبناء شعبه. ثبَّت أورهان على الأرض حتى ندَّت عن حلقه غرغرة الموت، ثم رفع "القاما" المضمخة بالدماء، وتهيأ لغرزها في صدره.

صرخ أصلان "إذهب إلى الجحيم!"

فتحت المرأة العجوز عينيها ولمحت الرجلين. أطلقت صرخة جهنمية، ثم أمسكت بصدرها بقوة. كان واضحاً من الصرخة واندفاع الدم المفاجئ إلى وجهها، أنها قد أصيب بجلطة قلبية خطيرة، جدية وقاتلة.

خلال هذا كله، كانت أدايف جالسة في حالة شرود ذاهل، وكأنما الرجلين اللذين يتقاتلان قتال الموت أمر عادي بالنسبة إليها.

كان هذا كابوساً – كابوساً تحيا من خلاله، ولم تهرب منه بعد في نهاية الأمر. وحده صوت صراخ جدتها أعادها بفعل الصدمة إلى الواقع الطارئ بشكل قاتل.

صرخت "تانا!" قفزت إلى قدميها، ممسكة بقوة بثيابها الممزقة، وركضت لتحتضن المرأة العجوز، التي كان وجهها يتحول إلى اللون الأزرق بسبب نقص الهواء.

احتضنتها الشابة بقوة "نانا!" – لكن ذلك لم يأتِ بأية جدوى. بدا وكأن الروح العجوز تكافح للحصول على النفس، وهي تدفع الهواء أمامها بعيداً عنها وكأنها بذلك تطرد الخانقين. الصور، الشياطين، الجن، وأرواح الموتى الذين ظلوا بلا قبور.

جاءت آخر تنهدات المرأة العجوز بالأسمين "أمينة! أحمد!"

أغمضت عيناها، أصبح تنفسها صعباً. صار جسمها يطلق تنهيدة رهيبة بين الفينة والأخرى، محاولاً أن يسحب الحياة إلى نفسه بدون جهدها الواعي.

في تلك الأثناء، عاد أصلان وتاب إلى رشده، مرّر أصابعه خلال شعره، وكأنه يسعى بذلك إلى إدخال شيء من المنطق من خلال صدغيه النابضين بقوة.

رقد أورهان تحته، ساكناً، نهض أصلان ووقف فوقه. "انهض. يا ابن السفاح – لدينا أشياء أكثر أهمية نفعلها. هناك حياة يجب إنقاذها" ركل أورهان بقوة، ثم تركه وخطا باتجاه المرأتين، ثم حمل مطرة السوائل نحو شفتي العجوز.

قال أصلان "إليك، اسقها بعض الماء!" لكن الماء سال فوق فكيها المرخيين. أراد أن يفرك يدي المرأة المريضة، لكن يديه كانتا متسختين – متسختين بالدم، ملوثتين بالشغف، بالقتل.

وقف ظل أورهان بينه وبين النار

"اتركهما بحالهما. لن تعيش طويلاً. اتركهما بحالهما".

نظر أصلان إلى أعلى، وقد عاوده الإحساس القاتل "اتركهما بحالهما؟"

"نعم، اتركهما بحالهما. إنهما لا تستحقان العناء". التمع وجه أورهان الداكن بالتشفي الساخر.

بقيت احتمالية القتل قائمة للحظة أخرى. لكنهما تراجعا كليهما. ما كان بوسعهما الاستمرار في هذا المنحى – فقد كان بعيداً عن المنطق.

جلس أصلان ساكناً، يحاول أن يسيطر على عواطفه.

انطلق أورهان بتصميم عنيد، يعيد اشتعال النار، يشوي الجدي، يغلي المزيد من الماء، كأن شيئاً لم يحدث. تجول خلال القرية باحثاً عن أي شيء على الإطلاق، يفيد في المساعدة على تخفيف آلام المرأة العجوز. فقد كان ذلك مجرد شيء يتلهى بعمله – شيء يعيد إليه صوابه ورضى أصلان. كأنما كل ما فعله مجرد – حسناً، ما يمكن أن يفعله أي رجل، لو أعطي نصف فرصته. راقبه أصلان بمزيج من الذهول الداهش والكراهية.

لم يكن أي من الرجلين قد قضى مثل هذا الوقت الطويل قريباً من الموت لهذه الدرجة ولا قضى مثل هذا الوقت قريباً من نساء غريبات عنهما – نساء ضعيفات، مكشوفات بكل عواطفهن. وكان كلاهما مغموراً بالمشاعر ولكن بطريقتين مختلفتين.

قام أصلان بتنظيف نفسه قدر المستطاع بالعشب الطويل. حاول مرة أخرى أن يخفف من حزن الفتاة أدايف، التي تعلقت بجدتها وهي تهدهدها إلى الإمام وإلى الخلف.

"دعيني أمسك بها. إبقي قريبة مني هنا – ستكونين بأمان، أنا أعدك. إليك، خذي رشفة من قليل من الشاي. أنا سأمسكها".

"كلا. كلا. يجب أن أحضنها أنا" مسَّدت أدايف وجه جدتها بحنو لا يعرف التعب. "كلميني، يا نانا، كلميني. لا تتركيني. إذا تركتني لن يبقى لي أحد".

عاد أورهان صفر اليدين "لا شيء!" بصق في النار "إن المكان برمته ليس أكثر من الرماد والركام. إن الرائحة نتنة. أقسم بالله إنني سأكون سعيداً بالخروج من هنا".

لم يكلمه أصلان. فهو لم يعرف كيف سيتمكن من التحدث إلى هذا الحيوان مرة أخرى على الإطلاق. فقد كانت حقيقة كون أورهان يعتقد بأن أفعاله الشهمة وكفاءته ستؤدي إلى تصحيح وحشيته بنفس سوء جريمته، إن لم تكن أسوأ.

راقب العدوان اللدودان الجدي أثناء شيّه بطريقة آلية، محاولين أن لا ينظرا إلى منظر الموت الواقع خلفهما مباشرة.

كان هناك اعتراف غير مصرح به بينهما: لقد قتل كلاهما مرات عديدة، ولكن أحداً منهما لم يطلق العنان لمثل هذين الدافعين من قبل: دافع أورهان على الاغتصاب، ودافع أصلان على القتل بدم بارد.

قال أصلان "أين هم الجنود بحق الجحيم".

استمرا في تغذية النار، وتقليب سيخ الشواء. أبقى أورهان عينيه بعيدتين عن الفتاة أدايف، وكان ذلك تصرفاً حكيماً من جهته، لأن أصلان كان قد صمم في عقله بثبات أنه إذا ألقى أورهان بمجرد لمحة في اتجاهها، فهو سيشق حلقه "بالقاما" المعلقة في حزامه.

بعد مدة كأنها ساعات، سمعوا صوت حشرجة.

"تانا!"

احتضنت المرأة الشابة الجسد الضعيف بقوة إلى صدرها. لم يتحرك أحد لوقت طويل، ولم يكسر سكون الليل سوى فرقعات النار وصوت شواء اللحم.

أثّر هذا المشهد في أصلان بعمق: كأن العجوز قد عادت إلى حالة من التكريم، إلى اكتمال الطفولة. شع شعرها الأبيض الخفيف بلون الفضة تحت ضوء النار، كان بالإمكان رؤية شكل جمجمتها الدقيقة التشكيل تحت تلك الهالة، وكأنها جمجمة طفل، محتضنة في تجويف ذراع حفيدتها. أضاء وجه المرأة المتوفاة بتعبير من النعيم،

وكأنها طفل قد رضع حتى الشبع ويغفو بنفس البراءة. واحتضنت الشابة بكامل طهارتها قريبتها، بنفس الحنان المتأتي عن الطبيعة نفسها.

شاهد أصلان وجه أورهان – وقد امتلأ مرة أخرى بالتعابير المفعمة بالشهوات المريضة، نحو الجنس العنيف، لانطلاقة جسدية يتوجها اضطراب المرأة العاطفي- ورأى ذلك المزيج النجس من الاشتهاء وشهوة الدم اللذين لا مفر من أن يحطا من قدر الرجل المحارب.

في نهاية الأمر، تكلمت المرأة الشابة، أدايف، بصوت هادئ مختلف كلياً.

"إذا تكرمتما أنتما العسكريان – إنني أحب أن أراها مدفونة. ولكن لا بأس من تناولكما الطعام أولاً. لأن جدتي لن يعجبها أن تبقيا جائعين".

كانت الوجبة شأناً دينياً بالنسبة لأصلان. فقد تناول الطعام ثم أدى الصلاة، وقام بما توجب عليه عمله باحترام وكأنه يستجدي الغفران على التلوث الذي سببته أفكار وأفعال صديقه.

لم تكن هناك أية أدوات: لذلك حفر كل من أورهان وأصلان الأرض بشفرات حربتيهما. رفعت الشابة غطاء رأس جدتها الموسلين وغطت به وجهها، ثم نزعت غطاء رأسها هي وغطت الكتفين الناحلين واليدين المضمومتين. استعمل معطف أصلان بدل الكفن لاحتواء جسم العجوز الناحل، ووريت التراب بحيث كان رأسها موجهاً إلى الشرق، باتجاه مكة المكرمة.

قالت المرأة الشابة بأسلوب محدد "يجب أن نغطي القبر بالحجارة الكبيرة، وإلا فإن الكلاب أو الذئاب ستصل إليه."

عمل الرجلان بذهول. مرة أخرى ظهر على أورهان أنه نسي أفكاره الشهوانية وقام بجر الصخور، وهو يسب ويلعن، من أطراف الفسحة في الحرش.

عندما انتهوا جميعاً، رقدت المرأة الشابة إلى جانب النار، بكت بهدوء لفترة، ثم فقدت الوعي. كان تنفسها عميقاً طويلاً لدرجة أن أصلان فكر لهنيهة مرعبة أنها ربما تتخلى بدورها عن الحياة. واكتفى أورهان بتجاهلها.

كان أورهان مدركاً تمام الإدراك لعدائية أصلان، فقال "إنني لست على ثقة تامة مطلقاً لماذا قمنا بهذا العمل". وكأن شيئاً لم يتغير بينهما. "سيكون هذا صعباً على الكتابة في تقريرنا، عقيدان يخيمان مع امرأتين ويجهزان جنازة جدة – إذا كنت تفهم ما أرمي إليه".

عند هذا القول، لم يستطع أصلان أن ينظر في وجهه. "لا تتعب نفسك إذاً".

رأى أورهان فرصة يظهر فيها بمظهر المهم في هذا الموقف – ليحصل على اليد العليا. فقال بشكل نفاقي "أنا مضطر إلى ذلك. يجب أن نسجل كل شيء. كيف يمكننا أن نفرض النظام، إذا لم نكن نعرف ما يحدث؟ يا أصلان، أنك تفقد سيطرتك على الأمور!"

"لا أعتقد ذلك. أنت الذي كنت على وشك اغتصابها. فهل أنت ستذكر ذلك في تقريرك..؟"

ناوله أورهان سيجارة، وكأن هذا العمل سيعيد إليه صوابه "لا تكن أكثر حماقة مما أنت مجبر عليه".

جاهد أصلان ليتسمع إذا كانت قوة الإغاثة قد اقتربت من مجال السمع. لا شيء: صمت جبلي مطبق، يتهادى عميقا كالبحر.

تكلم أصلان "لقد قمنا بدفن تلك المرأة العجوز لأنها صاحبة الجسد الوحيد السليم في هذه الدار –المقبرة كلها. هي الروح

الوحيدة التي سترقد بسلام. على الأقل، هذا هو سبب دفني لها – كما هي مشيئة الله سبحانه وتعالى".

رقد على الأرض ووجهه في التراب، وتصنع النوم، بينما ظلت يده قابضة على "القاما"

لم ينم أورهان أتاكوي هو الآخر. فقد تعارك لمدة طويلة مع الأحاسيس الجسدية المزعجة للشهوة المقموعة. تركزت إحباطاته تدريجياً على أصلان أكثر من ضحيته المتخيلة. فقد بات يكره حقيقة أن أصلان قد شاهد الضعف الكامن فيه.

لم يكن أصلان تركياً. ولن يكون تركياً أبداً. إنه شركسي. يمتلك حساً بالشرف والشفقة، وقانوناً للتعلق والارتباط لا يمكن فهمه، سبَّب لأورهان الغيظ، لأن تعلقه هذا مخصص لشيء آخر غير الإمبراطورية، غير الإسلام، لا سمح الله. هذا المعيار هو الذي ميَّز أصلان. فهو شخصي، ولم يكن أورهان يمتلكه. ما الذي يعطي أصلان الحق حتى يكون متفوقاً لهذه الدرجة، بينما هو في الواقع، محل شك؟ لم تكن هذه هي المرة الأولى التي تمنى فيها أورهان أن لا يحتاج الجيش التركي إلى خدمات رجال مثل أصلان، يحملون ولاءات منقسمة ومعايير مخفية. لن ينسى أصلان مطلقاً ما كان يريد أن يفعله. وعليه، فقد تحول حسد أورهان إلى مساره الصحيح: الكراهية.

***

الفصل السادس

"هذا هو مفترق الطرق."

كان أصلان قد استيقظ أولاً. ركل أورهان أتاكوي في أضلاعه.

"ماذا لحق الـــ-!"

"أخرج من هنا."

"لا يمكن أن تكون جاداً!"

أستيقظ أورهان بسرعة، وهو يرمش أمام الشمس والشكل الداكن الذي يلوح فوقه. كرر أصلان أمره. "لقد قلت، أخرج من هنا. لا حاجة لكلينا بالانتظار. ربما يعود تيمور وحده، وربما يعود ومعه مجموعة من "الضابطية"، أو طابور من الجند، على أية حالة، سوف أكتب تقريراً كاملاً."

تكورت شفتا أورهان "أنت لن تجرؤ.. ستكون كلمتي مقابل كلمتك."

فحَّ فيه أصلان "سأخاطر بذلك، ولكن ليس هذا ما يدور في خلدي. فقط أخرج من هنا يا أورهان وستظل الحقيقة مدفونة".

أحسّ أورهان بدمه يغلي لمجرد التفكير في أن أصلان بك، المهاجر الشركسي، يمتلك عليه ممسكاً مهما كان نوعه

"لا أرى سبباً للاستعجال."

ظهر التعبير على وجه أصلان عدائياً بالكامل "سيكون من الأفضل أن لا تكون هنا حينما تستيقظ الفتاة".

سخر منه أورهان "أخلي لك الميدان، أليس كذلك أيها الشركسي؟"

"أيها القطعة من القذارة. إما أن تغادر الآن، أو إنني سوف...."

"سوف ماذا؟ توسخ يديك وتقتلني؟ كيف ستفسر وجود جثتي للسلطات في نيس؟"

وصل أصلان إلى حالة الإشباع. قبض على أورهان من حلقه.

"لن تكون هناك أية جثة حقيرة للتفسير إذا لم تغادر من هنا في هذه اللحظة، يا ابن الزانية."

لطم أورهان على وجهه. كانت البادرة مهينة إلى درجة أن ملامح أورهان الدقيقة بهتت حتى وصلت إلى لون الجليد: فقد أهين لون الشرف الرمادي. وقتها استشاط غضباً.

"في يوم ما– في يوم ما أيها الشركسي، ستدفع ثمن ذلك."

خطف أورهان سترته، ألقى بنفسه في السرج وانطلق مبتعداً.

بعد فترة لم تطل، وصل تيمور مع مجموعة صغيرة من "الضابطية" ومختار قرية مجاورة، قدم للعناية بالنساء الباقيات على قيد الحياة.

همس تيمور لأصلان بطريقة اعتذار "الواضح أن هذه تعتبر مسألة مدنية.... لم أتمكن من لفت انتباه أي شخص في حامية باناجوريشته. إنهم يقولون أن هذا النوع من حملات الانتقام يحدث طيلة الوقت."

أيقظ أصلان الفتاة النائمة بما أمكنه من الرقة. "إن رجال الشرطة موجودون هنا، يا أدايف. سوف يتوجب عليك أن تذهبي معهم إلى القرية التالية. لا يمكنك البقاء هنا."

قالت أدايف باللغة الشركسية "أنا... أريد أن أذهب معك، رجاءً". عبرت دماغها صور نصف متكاملة عن الليلة الفائتة

بسرعة. لم تكن راغبة في التذكر: نظرت إلى أصلان وكأن تركيزها على حمايته لها سيوقف اقتحام الأفكار الأخرى الأكثر عنفاً لعقلها.

"ذلك ليس ممكناً. أنا آسف. أنا لدي أوامر... هذه الطريقة أفضل. أعدك أنك ستكونين بأمان".

ذهب أصلان إلى المختارِ، وقال له

"لقد تأخرتم في المجيء."

كان المختار رجلا تُركياً نحيل الجسم، تبدو عليه ملامح التعب. لكنه لم يكن رجلاً سيئاً. "أنا آسف أيها العقيد. لقد وقع العديد من مثل هذه الهجمات في هذه الأنحاء. هنالك العديد من المهمات التي يتحتم علي القيام بها! لقد حضرت الشرطة وأيقظتني، وقد حضرت بأسرع ما أمكنني".

"هذه الفتاة شركسية. ما الذي سيحدث لها إذا ذهبت إلى قريتك؟"

أقسم المختار يميناً مغلظاً "لن ينالها أي أذى. سوف يجلدني رجال "الضابطية" إذا نالها أي سوء. سوف تعتني بها عائلتي نفسها، يا سيدي العقيد..."

ناوله أصلان بعض المال. "سوف تعتني بها حتى يجيء شخص ما لطلبها. أرسل خطاباً إلى اللجنة القنصلية في باناجوريشته، واذكر لهم اسمي. سوف يعثرون على عائلة شركسية آخر لتؤويها. هل تفهمني؟ إذا بيعت أو أخذت كخادمة من قبل أي تركي....."

بدأ المختار يثرثر بالوعود، مدركاً أن هذا العقيد يمتلك السلطة لتحويل كل تهديد إلى حقيقة.

"حسناً".

استأذن أصلان وقتها في المغادرة، بأسرع ما أمكنه. لم يعد هناك أي شيء آخر يتوجب عمله. وقفت أدايف حزينة إلى جانب القروي التركي المظلوم، الذي نظر إليها بالكثير من التشكك – فقد أصبحت عبئاً آخر لم يكن يتوقعه.

انطلق أصلان وتيمور بأقصى سرعة لهما. لم يطرح تيمور أية أسئلة عن غياب العقيد أتاكوي. فقد كان لديه ما يكفي من المنطق لأن لا يطرح أية أسئلة على الضابط الأعلى رتبة، والذي بدأ في مزاج سيء راعد.

أدرك أصلان أن الفتى يشعر بالانفراج لأن أورهان لم يعد معهما. لقد شهد تيمور في الأسبوع الماضي مناظر لم يكن يتخيل أن الإنسان قادر على ارتكابها أو النجاة منها، وقد صدمه مرح أورهان في مناسبات عديدة. ولم يعد بحاجة إلى معرفة المزيد عن الرجل، حسب رأي أصلان.

كان يفترض في أصلان أن يتسلم مركز قيادته في هذه الناحية من نيس، وهي منطقة الأراضي المتنازع عليها منذ مدة طويلة بين الأتراك والصرب.

كانت رحلة ركوب طويلة وصعبة، وكان قد تأخر عن موعد وصوله كثيراً.

في نهاية المطاف وصل العقيد ومساعده إلى بلدة نيس – إلى شارع مزروع بأشجار الحور، زرعت لتوفر الظلال، ومن خلال بلدة رائعة مليئة بالبيوت التركية المحتوية على طوابق علوية مزينة بأعمال الخشب المحفور الذي تتشكل منه الشرفات ومصاريع النوافذ. كان السكان أكثر ثراءً وتنويعاً مما رأياه في الأرياف: العديد من الألبان الذين يرتدون أثواباً بيضاء منسوجة ومصنوعة بيتياً، البلغار، الوالاك والغجر الذين يزحمون الشوارع الضيقة في خليط من التجارة والمؤامرات، بينما كان الجنود خارج وظائفهم يتمازحون مع الموظفين الأتراك الذين يلبسون الطرابيش الحمراء

والمدنيين الصرب ذوي الدم النقي الذين يدعون بأن البلدة تخصهم، وأنها تأتي في الأهمية بعد بلغراد مباشرة.

كانت القلعة، التي يتم الوصول إليها عبر جسر جميل فوق نهر النيسافا، حصناً غير تقليدي مبني من الطين، محمي ببضعة مدافع هاوزز تعبأ من خلف الماسورة.

على مرأى منها، يقع منزل – قوناق- الباشا، مقر إقامته، وكانت حديقته المزدهرة أحد العوامل التي تذكر بعادات البلدة الجميلة في أوقات أكثر سلاماً من هذه.

غمغم تيمور "إن التفكير – تلك القرى...." غير قادر على التحدث عن الرعب الذي كان يتصاعد بدون سيطرته، فيقلب معدته.

فهم أصلان. كان من الصعب مشاهدة النشاط الحيوي المتفجر في هذه البلدة العسكرية بدون إلقاء رؤية كابوسية فوقه – بدون تخيل الشوارع وقد امتلأت بالدخان، والمواطنين مشوهين وينزفون مثل تلك الأنفس المسكينة التي شاهداها.

قال له أصلان "سوف تعتاد على الأمر. نظم أفكارك، أيها الفتى."

"نعم يا سيدي." كانت نظرات تيمور معلقة بالأرض في مجهود كبير.

قابل القائد أصلان على الفور في داخل القلعة، وهو تركي مقدوني يبدو التعب في قسمات وجهه كان ينتظر وصوله بفارغ الصبر. ناوله القائد رزمة من الوثائق مع كومة من خرائط عمليات الميدان.

"الكتيبة الخامسة. متمركزة حالياً إلى الجنوب الشرقي من هنا، في بيرو. أنت متأخر وهم ينتظرونك."

بدا جلياً أن الحاكم لا يضيع الوقت ولا الكلمات سدى "بإمكانك أن تأخذ تموينك: سوف أعطيك إيجازي فيما بعد. أريدك أن تتحرك نحو بيرو هذا اليوم."

سأل أصلان "هل هناك من سبب معين، يا سيدي؟"

حدجه الحاكم بنظرة قاسية "سوف أعطيك إيجازي الكامل لاحقاً! اسمع - لقد أرسلت سرية مشاة لتدعيم الجنود في بيرو. هوجم الطابور على الطريق، تم تفجيره من قبل الكوميتاس البلغار على ضفاف نهر النيسافا قبل بضعة أيام. لقد تناقصت أعداد أفراد الكتيبة في بيرو إلى النصف، وهم يتعرضون للضغط، ومعنوياتهم متدنية. لا أستطيع الاستغناء عن أي رجال آخرين في الوقت الحالي. يجب أن تتمسك بموقعك بمن لديك. نفذ هذا الأمر أيها العقيد".

"حسناً، أعتقد أن بإمكاننا الاستغناء، عن المزيد من الإيجاز يا سيدي. من بعد إذنك يا سيدي، سوف أغادر في الحال، وسوف يهتم مساعدي بموضوع تموينا".

افترقت حواجب المقدوني السوداء كالسخام للحظة، بينما كانت عيناه المحمرتان تنتقلان "إن مثل هذه الطاقة أمر منشط للعزائم" قال بفظاظة "أتمنى لك نهاراً سعيداً."

وعاد إلى أعماله الكتابية، وقد تعمقت الخطوط في وجهه من الشعور بالعداء.

خارج مكتبه، كان تيمور بالانتظار، وقد بدا عليه الشحوب. واضح أنه كان يسترق السمع.

"سيدي، أطلب الإذن بالكلام، يا سيدي" قال، وقد شد بنيته حتى تصلبت.

"ما الأمر يا تيمور؟ تكلم أيها الفتى"

"اطلب من العقيد أن لا يمضي راكباً لوحده يا سيدي. اطلب منه أن ينتظر تجهيز المؤن".

تردد أصلان. شعر بمسؤولية تجاه هذا الفتى- فهو قريب كازبك، الصلة الوحيدة الباقية بحياته القديمة ورفاقه السابقين. لقد سبق وأن أرسل تيمور في رحلة ركوب طويلة عبر الجبال البلغارية لإحضار المساعدة للنساء الشركسيات. بان على الفتى أنه لم يتعافى بعد من تلك التجربة -ربما كان يطلب منه أكثر مما يجب بهذه السرعة. حتى بالنسبة لمقاتل قباردي. ناوله وثيقة الطلبية "حسناً جداً، أشرف على هذه. سوف تجدني في الإسطبلات. سوف أعيد حذو جوادي بينما أنتظرك".

كان أصلان يعرف كيف يستغل وقته لأفضل الغايات في القلعة. إن المحددة في العادة هي المكان الذي يلتقط فيه المرء صورة طيبة عن الأحوال السائدة. لأن كل الثرثرة تجيء من خلال البيطار – وقد صدق هذا المبدأ على قلعة نيس بشكل عام.

كان الحداد رجلاً ألمانياً ضخم الجثة، حسب التقاليد السائدة لعمال الأفران، المبنية على الملاحم، يتمتع بعضلات قوية كالصخر، مدهنة رجراجة، ويرتدي مريلة جلدية متسخة. أما فخذاه فيبلغ حجمهما حجم إبهامي مارد نارتي.

زمجر الحداد قائلاً "أنت لست واحداً من هؤلاء الرعاع الشرقيين" وبصق في يده قبل أن يخلع الحذوات عن حوافز جواد أصلان الرمادي. "فمن أين أنت، أيها العقيد؟"

"إنني شركسي"

"القفقاس وحق جوبيتر! شراكسة، هكذا ينادونكم أحياناً في أوروبا!"

"أعتقد أنهم يفعلون ذلك."

"نعم... وقد أسس قومك سمعة في هذه الأنحاء، ولكن ذلك ليس من شأني."

"أي نوع من السمعة؟"

"آه، يبدو أن البلغار يلومونكم أنتم الشركس على كل المجازر... أنا أعرف أن معظمها هو من عمل "الباشي بوزوق". لقد رأيتهم يذهبون راكبين لينهبوا، وهم يرتدون أزياءكم "التشيركسكا".

"وأنت ألماني".

"هذا صحيح. لقد تطوعت لأحارب لتحرير صربيا في العام الماضي. كيف حدث إنني موجود هنا؟ إنها قصة طويلة أيها العقيد. دعنا نكتفي بالقول للوقت الحالي أنهم يدفعون لي نقداً مقابل كل عمل أؤديه وهذا يلائمني. غداً ربما أقوم بحذو الخيول للروس. من الذي يهتم بحق الجحيم."

"إنهم قريبون...."

"إنهم قريبون لدرجة مزعجة. سوف يستولي الصرب على هذا المكان – أنت محظوظ لأنك ستتوجه عائداً إلى بيرو".

"كيف تعرف أنني ذاهب إلى هناك؟"

ابتسم الألماني ابتسامة خفيفة، فأضافت بقايا أسنانه السوداء نكهة وسخة إلى إحساسه المعتم بروح الدعابة. "لأن العقيد الأخير جرى نسفه وتفتيته قبل مجرد ثلاثة أيام، إن جنوده يفرون من الخدمة، والخائفين منهم لدرجة أنهم لا يجرؤون على الهروب. لم يتم إطعامهم ولم تدفع رواتبهم منذ عشرة شهور مثل بقية هذا الطاقم البائس. يعتاش الذين يبقون على النهب، وهو وضع أفضل بكثير مما يمكننا عمله هنا في نيس. وعليه فإلى أين يرسلون عقيداً جديداً براقاً مثلك – شركسي حاد مثل المسترد؟ هل فهمت ما أرمي إليه؟

مسح أصلان الحرارة عن وجهه. "نعم، لقد فهمت. إن معلوماتك قيمة جداً، أيها الحداد."

عضَّ الحداد على القطعة النقدية التي نفحه إياها أصلان "إسمي فيرنر، فيرنر شميت. أشكرك" وتابع عمله بدون أدنى إحساس بأنه تجاوز أية حدود أو صلاحيات.

إن معاقبته لن تحقق شيئا. لأن أولى علامات تدني الروح المعنوية هي قلة الاحترام والتهاون في الشؤون الأمنية. إتكأ أصلان على بوابة مدخل المحددة، وهو يوازن خياراته. لم يبد أي منها إيجابياً، كالعادة.

عند انتصاف ما بعد الظهيرة، كان أصلان وتيمور على طريقهما وهما يسحبان خلفهما جوادي حمولة، مسافرين رجوعاً على الطريق التي سلكاها لجزء من المسافة. بعد فترة قصيرة تحولا للركوب إلى جنوب نهر النيسافا، مارين من خلال القرى التي يغلب عليها السكان الصرب مثل نوفوسيلو و بيلا بالانكا. حققا تقدماً جيداً وكانا متجهين فوق الوادي النهري الخصيب باتجاه كورينيتسا وبيرو عندما لمح تيمور خيطاً من الدخان يرتفع من الجنوب، في أماكن أعلى فوق منحدرات جبال السوفا.

شاركه أصلان انزعاجه ولكن لم يتفق معه في تصارع أفكاره. "يمكن أن يكون أي شيء، يا تيمور. يجب علينا أن نصل إلى بيرو. لا مجال للمزيد من التحويلات."

لكن تيمور لم يستطع أن يسيطر على نفسه. "يحتمل أنها مثل تلك القرية الأخرى – مليئة بالشركس، مجرد مذبوحين لأنهم فقط يعترضون الطريق! يجب علينا أن نذهب ونستطلع، يا سيدي العقيد!"

"كلا! لدي أوامري المشددة! سوف تفعل ما أقوله!"

صرخ تيمور بكل الغضب والاستهجان الذي يحمله شاب يافع تحطم إحساسه الطبيعي بالعدالة للمرة الأولى "هذه ليست حرباً – هذا ضرب من الجنون!" سحب عنان فرسه بعنف وبدأ يتسلق سفح التلة، وهو يضربها بدون رحمة.

"تيمور، عد إلى هنا!" صرخ فيه أصلان وهو يطارده. استجابت فرسه الرمادية بطريقة رائعة برغم الطريق الطويلة التي قطعتها. لحق أصلان بتيمور بدون صعوبة تذكر ومال نحوه الفتى، ثم سحبه إلى الأرض، ترجل بسرعة ليتأكد من أن الفتى لم يصب بأذى. نهض تيمور وأخذ يضرب أصلان في صدره – ليس من باب الغضب على قريبه، بقدر ما هو غاضب من نفسه. كان هذا تصرفاً مريعاً ومعيباً من شركسي فتي –أن يضرب رجلاً أكبر منه سناً– لكن تيمور كان قد تجاوز مرحلة العقلانية كلياً.

تصارعا بمرارة وعنف. كان تيمور نحيلاً لكنه قوي البنية، وقد أحاله جيشان عواطفه إلى حالة من الجنون. أما أصلان فقد كبّله قلقه على الفتى: لم يكن يريد أن يؤذي الفتى أو يسبب له ندوباً. إضافة إلى ذلك، أن الشراكسة لا يمارسون العراك اليدوي وعليه فقد أحبطه انعدام اللياقة في تصرف تيمور.

"النجدة! النجدة!" جاء صوت مخنوق ليعيدهما فوراً إلى جادة التعقل والمنطق. استغرق الأمر دقائق متعددة من أصلان وتيمور وهما يتنفسان بعمق، ونبضهما يتسارع، حتى أعادا توجيه نفسيهما ومعرفة المصدر الذي يجيء الصوت منه.

اندفعا راكضين إلى الأمام، ليعثرا على رجل طاعن في السن، نصف ميت، وقد تضمخت لحيته البيضاء الطويلة بالدماء.

"الرحمة! آه يا الله، يا الله..."

كان هناك جرح من ضربة سيف في رقبته. عمل أصلان بسرعة محمومة لإيقاف نزيف الدماء بواسطة وشاحه، لكن

المحاولة كانت يائسة. فقد خسر الرجل العجوز الكثير جداً من دمه قبلاً.

"لقد أخذوا جميع شبابنا من الرجال. ليس لدينا أي دفاع... لقد أشعلوا بنا النيران.... ساعدانا، ساعدانا."

تكلم اللغة الشركسية، كان من البزادوغ، بلهجته ذات الإيقاع المرح، القريبة من لهجة الشابسوغ.

صرخ تيمور "لقد قلت لك! إنه أديغه! فلنذهب يا سيدي العقيد، يجب أن ننقذهم في هذه المرة!"

أمره أصلان "تيمور، أنت تبقى حيث أنت تماماً!" ثم استدار نحو الرجل المسن، ووضع يداً مهدئة على وجهه، قائلاً "لا تقلق". وقد قرَّب فمه من أذن الضحية. "أنا شركسي، أنا أديغه. سوف أساعدك..".

توسل الرجل العجوز، ممسكاً بسترة أصلان "لا تساعدني، فأنا هالك لا محالة! ساعد أهلي. بل ساعد أهلك أنت.. أنت لست من هذه الأنحاء. يجب أن تعرف الحقيقة. لقد أسكننا السلطان هنا لغاية معينة. لقد تم التخلص منا! ألقي بنا هنا بين الأتراك، الصرب – البلغار – لإضعاف مقاومتهم. جميعنا من الشابسوغ. حاجز بشري... والمزيد بالإضافة إلى ذلك. لقد أحضرونا صعوداً في النهر على مراكب مسطحة تشبه التوابيت، مات العديد، والذين نجوا جرى التخلي عنهم بين الأعداء... لقد أجبروا المزارعين على التخلي عن بعض أراضيهم، وبناء بيوت لنا. لقد أراد الأتراك منا الدفاع عن الحدود. لقد كنا مخلصين.. لكنهم جميعاً يكرهوننا الآن. جميعهم يريدوننا أمواتاً..."

اختنق بدمه، بحيث كان غضبه يقتله. جلس أصلان على الأرض، ممسكاً برأسه بين يديه.

انحسرت الروح من الرجل العجوز تدريجياً بينما هو يتردد. كم سيجد مثل هذا الرجل؟

فقد تيمور كل إدراك يتعلق برتبته الوضيعة. فقال بنبرات راعشة:

"يجب أن أذهب إلى القرية، يجب أن أرى ما يحدث. سامحني يا أصلان بك، ولكن ربما لا يكون الوقت متأخراً جداً هذه المرة. ربما يكون هناك بعض الناجين الأحياء ونتمكن من إخراجهم –".

"إلى أين يا تيمور؟ ما الذي تفكر بأنك قادر على تحقيقه تحديداً؟ ماذا بوسعك أن تفعل إذا لقيت أي شخص؟ لدينا أوامرنا – هل تعتقد أن بإمكاننا أن نتجاهلها؟"

ومع ذلك، فمع كل اعتراض يقدمه أصلان، بينما يدا الرجل العجوز ما زالتا دافئتين تحت قبضته، أدرك أن تيمور على حق، وبدا رأسه ينبض لدرجة أنه تخيله سينفجر.

"كلا، لا، يا سيدي العقيد أصلان!" لم يعد لدى تيمور ما يخسره الآن، وكان يدرك ذلك.

"أتوسل إليك، باسم أبيك، أتوسل إليك باسم جد أبي، كازبك، أتوسل إليك أن تصغي إلي! يجب علينا أن ننقذ هؤلاء الناس!"

فجأة، رفع أصلان يداً آمرة "يكفي هذا! أصمت! أركب يا تيمور، وأمسك بجوادي الحمولة".

ظن تيمور للحظة أنه سيلقي بنفسه على أصلان مرة أخرى، فقد كان غضبه وحزنه عنيفين إلى هذه الدرجة. لكن أصلان كان قد أغمض عينيه وأحنى رأسه نحو الأرض وهو يتلو صلاة مفعمة بالرهبة. لم يجرؤ تيمور على النطق أو فعل المزيد.

حمل أصلان الجسد المهزول بين ذراعيه ووضعه عبر سرج فرسه الرمادية. امتطى بصعوبة خلف الرجل الذي يودع الحياة ثم

ضمه إلى صدره. بعد تردد لم يطل، دفع بفرسه مباشرة نحو الجنوب، باتجاه القرية المحترقة – الاتجاه المعاكس لبيرو.

"الله أكبر ولله الحمد!" فرك تيمور قبضته في عينيه الحارتين الغاضبتين، وهو يراقب السرعة التي تسلقت بها فرس أصلان الرمادية الصخور البيضاء لسفوح تلال السوفا، متسلقة قوية برغم حملها.

لقد كان هذا إهمالاً للواجب. إذا علمت السلطات التركية بما يفعلانه، فإن العقيد أصلان سوف يرسل إلى استنبول للمحاكمة والإعدام، وسوف يموت هو الآخر.

طار جواد تيمور تحت ضغط مهاميزه، وارتفع وجيب قلبه مع كل خطوة. فقد تغلب فرح غريب على مخاوفه، لأنه أدرك أن كل شيء قد وقع في نسق بداخله لم يكن معروفاً له حتى هذه اللحظة. أصبح بإمكانه أن يحب سيده، "التحمادا"، ويحب كل يوم في حياته مهما كان المستقبل يخبئ له، طالما أن مساق عمله قد انكشف أمامه.

صاح وقد امتلأ بحماسة طاغية "يا سيدي العقيد! لقد كانت إرادة الله سبحانه وتعالى التي أرسلتني إليك!"

رمقه أصلان بنظرة تعبى من الدنيا بأسرها "لا، بل كان الجنرال موسى كندوكوف هو الذي عينك. فقد كان مديناً لي بصنيع... يكفي هذا الكلام الكسول يا تيمور. اركب نحو تلك القمة واستطلع إن كان لا يزال هناك قتال في تلك المستوطنة البائسة".

انطلق تيمور متسلقاً التلة. خلف رأسه، وعبر قمة السلسلة الصخرية، كانت السماء قد امتلأت بالغيوم الزرقاء المائلة إلى السواد، كأنها الكدمات، مهددة بسقوط المطر.

استمر أصلان في الصعود بثبات وهو ينوء بحمله. هرع إليه تيمور عائداً لينضم إليه بأسلوب فوضوي، مبهور الأنفاس.

"أرجوك يا سيدي، دعني أتقدم عليك! ليس هناك أي جنود، لكنني أستطيع أن أرى العديد من الناس يتراكضون في المكان، وقد أشتعلت كل الخانات بالنيران!".

قال أصلان، وهو ينفض رأسه حتى ينظر تيمور بدوره إلى السماء المعتمة. "لن يطول اشتعالها، تمهل، يا تيمور، ليس هناك الكثير مما يستطيع كلانا أن يفعله ولا تستطيع الطبيعة أن تفعل أفضل منه بكثير".

فجأة، شاهدا نور البرق الخاطف ووصل إلى سمعيهما هزيم الرعد المنذر بالخطر وكأن الطبيعة تردد مؤكدة على كلام أصلان. في هذه الآونة، بدأت صرخات القرويين تصل إليهما، بعيدة مستهجنة بينما بدأت الريح تحملها وتجلدهما بها. فقد ظن المساكين التعساء أن الرعد كان هدير قذائف مدفعية – فهم لم يتسنى لهم رؤية السماء وقد أكفهرت بالسحب حتى أظلمت.

بينما هما يقتربان من القرية، شاهدا شراذم متجمعة من النساء والمسنين يندفعون يمنة ويسرة، مستعدين للهروب، كان لديهما بضع عربات عند طرف القرية، وكانوا يحملون فوقها الضعفاء والصغار، إلى جانب البطانيات، الأواني والمقالي، وأكياس الطعام. أثبتت سرعة وكفاءة أفعالهم أن القرويين كانوا مستعدين للإخلاء منذ بعض الوقت.

حضر إليهما رجل عجوز، ووضع يداً حانية على الجسد الخالي من الحياة، المسجى عبر سرج فرس أصلان. وقال بحزن عميق "إنك تحمل صديقي، كمال، أنا إسمي تسوك. لقد كنت أبحث عنه" مرر يديه فوق الجثمان "تحياتي، أيها الغريب. أنا آسف، لكنني أعتقد أن كمال قد توفي".

"أنا أيضاً آسف. لقد جاء حضوري متأخراً جداً. تخلى أصلان عن جثمان كمال، الذي انزلق نحو ذراعي تسوك الناحلتين القويتين وبدأ حشد صغير يتجمع ليقدم العون. حمل كمال بعيداً بسرعة: كان

القرويون قد حفروا قبراً جماعياً ليودعوا فيه الضحايا قبل أن يباشروا بهروبهم.

سأل أصلان، وهو يتابعهم سيراً على قدميه "إلى أين ستتجهون؟"

اقتربت منه سيدة تبدو عليها سيماء الكفاءة قائلة "إنني ابنة كمال، أشكركما على إعادتة إلينا".

كانت هادئة، وقد جفت عيناها "لقد أراد منا أبي أن نخرج كلنا في الأسبوع الماضي. خالفه البعض. والآن هم يشعرون بالندم! لقد أخذ هؤلاء الرجال الأشرار كل شيء – الذرة، الجياد، الدجاج، الماعز. كل شيء. لقد حاول والدي كمال أن يجادلهم. ولذلك أقدموا على قتله."

"هل هم الباشي بوزوق؟"

رفعت يديها في حركة تنم عن الحيرة، وانعدام الإجابة "من يدري؟ متشردون أتراك – ثوار صربيون – فارون من الخدمة في الجيش – ماذا يهم؟"

كرر أصلان سؤاله ببطء ولكن بإلحاح "إلى أين أنتم متجهون؟"

قالت، في محاولة لإبقاء انتباهها "إلى الجنوب الغربي". أخذت نفساً عميقا، حتى تنظم أفكارها

"لقد مرت بنا بعض النسوة على هذا الاتجاه قبل مجرد بضعة أيام. أردن أن نذهب معهن. أظن أنهن جئن من الضفة الأخرى لنهر النيسافا. أنا لم أبتعد إلى تلك الناحية أبداً. على أية حال، كن متجهات نحو السنجق – فقد قلن أنه لا يوجد قتال هناك. ذلك السنجق يقع إلى الجنوب الغربي من هنا، أليس كذلك؟"

أومأ أصلان برأسه موافقاً "نعم. إنه مركز حيوي بالنسبة للأتراك. وهو يعج بالجنود ولذلك فالقتال هناك أقل. سوف أذهب معكم."

عاد تسوك، الوجيه المسن، أدراجه "هل سترافقنا أيها العقيد؟ الحمد لله والشكر!" قال باسطاً ذراعيه وكأنه يعجب بزي أصلان الرسمي للمرة الأولى "لدينا حامي! أخيراً!"

فقط لو كان يعلم: رمق أصلان وتيمور بعضهما بعضاً بنظرة سريعة، وقد قررا أن الوقت الحالي غير ملائم لكشف الحقيقة – وهي أنهما يعصيان الأوامر.

قال أصلان "ليس لدينا وقت لنضيعه، أنا لدي خرائط. أستطيع أن أدلكم على الطريق. ولكن يتوجب علينا أن نخرج من هذا الإقليم بأسرع ما يمكن، قبل أن تحضر الشرطة أو المزيد من الجنود لاستقصاء الأمر".

بدأ صف غير منتظم من الشركس يتبع أصلان. كان يقودهم مترجلاً، بينما ركض تيمور إلى جانبه. قال "لقد نظرت إلى الخارطة، يا سيدي".

وضع أصلان يداً ممتنة على كتفه "فتى طيب. يجب علينا أن نلتف حول نيس، لن نكون قادرين على العبور فوق جبال السوفا مع كل هؤلاء الناس الضعفاء. سوف نصل إلى مضيق "أمينين كيرتنا" بعد ظهر هذا اليوم، نستريح لبضع ساعات، ثم نعبر خلال ذلك الطريق تحت ستار العتمة. من هناك سوف نلتف حول بلدة تدعى بروكوبلجيه، نلتزم طرق القرى الجبلية الواقعة فوق البلدة، ونصل إلى السنجق – بعد بضعة أيام على أقل تقدير".

امتلأت نفس تيمور بالإعجاب "أنت لم تزر هذه المنطقة مطلقاً، ومع ذلك فأنت تعرف الطريق مسبقاً...."

"حسناً، لقد قمت كذلك بدراسة الخرائط. لقد كنت أنوي أن أسيطر على بعض هذه الأمكنة بواسطة قيادتي الجديدة" قال أصلان بمرارة "لكن ها نحن هنا".

لحق بهما تسوك، متكئاً على ذراع ابنة صديقه المتوفى. كان شخصية صلبة لا تقبل التدمير، واضح أنه أقدر على المسير الطويل من العديد من الناس الأصغر سناً.

كان ناتئ العظام لكنه في قوة وصلابة الفولاذ: ولم يلاحظ أصلان سوى في هذه اللحظة أن إبصاره محدود، فقد رأى على عينيه طبقتين لؤلؤيتين سميكتين من السُّد بحيث لم يكن قادراً على رؤية موقع خطاه بوضوح.

إن تسوك هو راوي القرية. وعليه فقد بدأ في هذه اللحظة يتمتم بأسطورة شركسية قديمة، نصف مغناة، ونصف مروية، تتعلق بحكاية محمد ابن حاتوقو، وهو بطل من الشابسوغ استطاع أن يحرر شعبه من أعداء الوطن.

كان أصلان قد سمع هذه الأنشودة عدة مرات من قبل، فضاقت أنفاسه، إذ استولى عليه حزن كاد يخنقه لشدة التأثر. أما بالنسبة للقرويين الآخرين، فقد كانت أنشودة تسوك بلسماً لكل الأوجاع والأمراض. فقد تماوجت كلماتها رجوعاً في صف اللاجئين، وبدأوا يدندنون بها ويرددون كلماتها على إيقاع خطى أقدامهم.

وصلت السعادة بتيمور إلى حد أنه بدا كشخص آخر جديد. ظهر وكأن قامته قد استطالت بضع بوصات في الأسابيع القليلة الأخيرة، نحل قليلاً، واكتسب شيئاً من الصلابة. فقد نما الشعر الناعم على خديه حتى أصبح كالأسلاك جراء الإهمال، مما أكسبه لمحة من ذلك الجندي الصلب المتمرس الذي تحول إليه. حسناً، لا عجب، فهو ينحدر من سلالة تحوي دماء المقاتلين، وهذا ما ورثه منها. على ما يذكره أصلان فإن أباه هو رسلان، ابن أنور، الذي

كان شقيقاً لأعظم مقاتلي جيله: كازبك القادم من الحابساي. وقد كان أنور نفسه صاحب غارات عديدة على خط الجبهة الروسي – نهب الكثير من الغنائم من جيش القوزاق نفسه في مناسبة تاريخية لا تنسى. كان أصلان يعرف كل هؤلاء الناس من سمعتهم فقط، من ذكريات صديقه العظيم السابق. ناخو، حفيد كازبك. صديق طفولته، رفيق صباه.... كان هو الشخص الذي ركب معه حين ذهب ليبحث عن والديه المفقودين في الخروج الكبير. كانا وقتها في نفس عمر تيمور الآن، هذا الفتى الذي يركب إلى جانبه. إن تيمور يجعل أصلان يشعر بأنه عجوز طاعن في السن. لديه ملامح القباردي السمراء الوسيمة، حواجب سوداء مميزة حادة، بشرة باهتة، عينان زرقاوان يشع منهما بريق الذكاء، وعظام خدود بارزة، بينما هو، أصلان، أكثر ميلاً إلى اللون الأشقر، ويربي لحية قصيرة على الدوام، حسب عادة الشابسوغ. في هذه الأونة أصبحت لحيته الشقراء مضمخة باللون الرمادي، بينما أضفت بشرة تيمور الفتية ولفائف شعره الطويلة ذات اللون الأسود الفاحم عليه لمحة خجولة وفي غاية الوسامة. خاصة في هذه اللحظة وقد اكتسبت عيناه مسحة من الأمل والمجد زاد في بريقهما.

كان أصلان سعيداً في شروده، لكن تسوك توقف عن الإنشاد واصطف إلى جانبه. استهل كلامه بلباقة "لقد كنت أفكر...."

"نعم يا تحمادا" عاد أصلان إلى صيغة المخاطبة الرسمية التي عرفها بين قومه منذ صباه. بات يشعر بالراحة النفسية تتنامى في داخله – على الرغم من خطورة وضعه.

"هل أنت ضابط في الجيش التركي؟"

"نعم يا تحمادا"

"إذن أنت لديك مركز قيادة؟"

تردد أصلان لحظة قصيرة. فما هو المقدار الذي سيكون من الحكمة إفشاؤه في هذه المرحلة؟

"نعم لدي. لقد كنت مرتحلاً إليه عندما صادفت صديقكم المشرف على الموت".

"آه، إذن أنت سترافقنا حرصاً على سلامتنا خلال الجبال، ثم تتركنا على الجانب الآخر؟"

"يتحتم علي أن أتسلم منصبي، يا تحمادا. سوف تكونون بأمان في السنجق".

"فقط هكذا" قال تسوك، واحتفظ ببقية رأيه لنفسه.

حدج تيمور الذي كان كالعادة، يسترق السمع، أصلان بنظرة عدم موافقة.

استمر المسير مدة طويلة كأنها الأبدية. فكلما ابتعد الناس عن القرية، كلما فقدوا رباطة جأشهم وانتابهم القلق. بدأ الطابور يتباطأ. أصبح بمقدور أصلان أن يسمع الناس ينتحبون. بدأ الأطفال يبكون. لم يعد لديه خيار سوى الأمر بالتوقف. وقف في وسط الدائرة الصغيرة من اللاجئين.

"إنني آسف لاضطراري إلى التحدث بحزم. يجب أن تشربوا قليلاً من الماء، وتطعموا الأطفال. تخلوا عن أمتعتكم الآن. يجب أن تحملوا معكم أقل ما يمكن. يجب أن نعبر نهر المورافا بينما لا يزال هناك ضوء. من هناك سيكون المسير سهلاً نسبياً فوق أرض مستوية حتى نصل إلى التلال المحيطة ببلدة بروكوبلي. يوجد مخفر كبير "للضابطية" هناك. سوف نرتحل من حوله أثناء الليل."

نهضت ابنة كمال "كيف نعرف انك لن تقوم بتسليمنا إلى السلطات؟ ليس "الضابطية" بأفضل من الجنود. إنهم حتى أسوأ."

عقد أصلان يديه خلف ظهره "أعطيك كلمتي كشركسي." حل أزرار زيه العسكري باندفاع عاطفي وناوله إلى تيمور، الذي فعل مثله.

قال تيمور باعتزاز "نحن كلانا أديغه، أنا قباردي، من الحابساي على نهر التيريك."

قامت ابنة كمال بفتح إحدى رزمها، وناولت تيمور معطفاً خشناً من صنع بيتي "سوف تحتاج إلى هذا"

"أشكرك"

أدى هذا التبادل المثير للاهتمام إلى رفع المعنويات في المجموعة. فقد بدأ أفرادها يثرثرون، يأكلون بسرعة، أعادوا حل وتربيط رزمهم مراراً وتكراراً، وقد أحسوا بضرورة تخفيف أحمالهم. لم يكن أصلان قد اهتم بإصدار أمره حول الأمتعة قبل ذلك الوقت، مدركاً أن حمل المتاع لبضع ساعات سيكون أكثر إقناعاً من أي أمر يصدره.

عبروا نهر المورافا الأصفر المتدفق بدون صعوبة بالغة: فقد كان الوقت أواخر الصيف وكان جريانه عند الحد الأدنى. اضطروا إلى تجنب جميع الجسور التي يحتمل أن تكون محروسة من قبل "الضابطية" –الشرطة الريفية التي كان سيصر أفرادها على رؤية وثائق الهوية وتصاريح المرور. عثر أصلان بمساعدة خرائطه العسكرية على نقطة خوض مخصصة للماشية في أعلى المجرى من قرية بيلوتيننتسي وقاد مجموعته عبرها. وقد خاضت العربتان المخلعتان النهر جيئة وذهاباً عدة مرات.

أدرك أصلان أنهم سوف يضطروا إلى التخلي عن العربتين عندما يصلوا إلى الجبال، بين سلسلتي الجاستريفاتس والسوكولسكا العظيمتين، ولكن بإمكانهم في الوقت الحاضر اتباع مجرى التوبليتزا، من خلال تلال حرجية دافئة وسهول منبسطة مزروعة بالذرة الصفراء. قضوا ليلتهم الأولى في سفح تلة محمية –عند أطراف حقل ذرة.

أثبت هذا الإجراء أنه نعمة مباركة. فكما هو الحال في معظم أنحاء صربيا، فقد كان الفلاحون يعملون بأقل قدر من الجهد. فقد

ظهر المنظر الطبيعي في هذا الخريف الذهبي وكأنه راقد في قيلولة دائمية. لكن الذرة الصفراء مكنت عصابة أصلان من الخلود إلى الراحة في الليل، وبعد ذلك من التحرك بأمان وبطء، على خطوط الفلاحة التي نمت عالية إلى درجة أنها أخفتهم كلياً. فقد أخفى العديد من قطاع الطرق والمجرمين أنفسهم وتحركوا بسرعة عبر الأرض المنبسطة بهذه الطريقة.

كانت الذرة ناضجة – جاهزة للحصاد. مع بدء خفوت الضوء، في اليوم الثاني للمسير، صارت رؤوس السنابل الطويلة تتخذ شكل الهياكل العظيمة، تطأطئ برؤوسها أثناء مرور الشركس من خلالها، بينما تمتد أوراقها الجافة مثل أذرع عظيمة جافة. بين هنيهة وأخرى كان كوز ذرة ناضج يسقط بتثاقل عند قدمي أحدهم، أو كان طير حجل سمين يجري أمامهم، مرعبا الأطفالَ الذين يتخيلون أنهم ملاحقين.

وصلوا إلى الأرض الضيقة عند سفوح الجبال، وبدأوا يتسلقون صاعدين حول الطريق المؤدية إلى بروكولبي، حسب أوامر أصلان. تمَّ إنزال المسنين من العربتين، وقد تيبست أطرافهم وانتابتهم الآلام. كان هذا هو الجزء الصعب.

سلكوا ممرات الماعز، وبينما هم يتسلقون بدأت المناظر الطبيعية تتحول إلى اللون الأبيض حيث صارت النتوءات الصخرية تحل محل الخضرة اليانعة للمراعي والحقول المزروعة.

نادى أصلان على تيمور.

"أنا مضطر إلى إرسالك إلى الأمام للاستطلاع. لا يمكننا أن نجزم بعدم وجود رجال عصابات أو "باشي بوزوق" يختبئون في هذا الإقليم، خاصة وأننا قد خرجنا من الوادي، لقد كنا محظوظين حتى الآن بأن لم يقابلنا أي منهم".

"أمرك سيدي" سبقهم تيمور راكضاً، سعيداً، خفيف الخطو لكونه يؤدي خدمة مفيدة.

قفز صبي خارجاً من خلف صخرة، قذف حجراً أصاب تيمور في جانب رأسه. صعق تيمور وتمايل، ولم يتمكن من إشهار بندقيته.

"توقفوا. لا تتقدموا أكثر من هذا. هناك العديد من البنادق مسلط عليكم!" أعلن الصبي، وهو يقفز فوق صخرة بيضاء مرتفعة، ومسلطاً بندقيته على أصلان –واضح أنه القائد. على الرغم من هزاله وأصابته بالحمى التي أدت إلى احمرار وجهه، فقد ظهر على الصبي أنه انتحاري مصمم على إيقاف تقدم اللاجئين.

رفع أصلان يده لينذر كل من خلفه للتوقف ساكناً وعدم القيام بأية حركة مفاجئة. تراجع تيمور إلى الخلف متعثراً ووقف قرب سيده، ممسكاً برأسه النازف، وينظر بقليل من الدهشة إلى الصبي الذي يصغره بسنوات عديدة ولكن من الواضح أنه لا يخاتل.

قال أصلان بنبرة تركية هادئة "نحن مجرد لاجئين. نحن لا نقصد أحداً بأي سوء. هؤلاء الناس شركس–رجال ونساء عجائز، ونساء وأطفال. لقد فقدوا بيوتهم في منطقة الحرب ويحاولون أن يصلوا إلى مكان أكثر أمناً".

"أنت ترتدي بنطال جيش تركي. أستطيع أن أراه تحت معطفك. أنا لا أحب الجنود".

أطلق الصبي رصاصة من بندقيته عند قدمي أصلان للتوكيد على رأيه.

صرخت عدة نساء وألقين بأنفسهن على أطفالهن لحمايتهم. زحف تسوك قريباً من أصلان ونادى على الصبي:

"أنت لست تركياً، أسمع ذلك في صوتك".

تردد الصبي وتمايل فوق الصخرة "لا، لست تركياً. لا تقترب أكثر من هذا. إبقَ في مكانك بالضبط. سوف أحضر قائدي. تذكر، هناك بنادق أخرى مصوبة عليك".

شكك أصلان في هذه المقولة. خطا خطوة واحدة ليناقش الصبي، ليمنعه من الانطلاق هارباً -أزّت رصاصة أخرى قريباً منه وارتدت عن الصخر الأبيض القريب منه.

استدار حوله، وهو يمسح السفح الصخري بعينيه. جاءت الطلقة من مكان أعلى. إذن فهؤلاء مسلحون- كائناً من يكونون. هبط قلب أصلان. لم يستطع أن يصدق أنه تصرف على تلك الدرجة من الغباء، التعب وانعدام الحيطة إلى درجة أنه قاد هؤلاء الناس المساكين إلى قتال. يمكن لهؤلاء الصبية أن يكونوا "هايدار"، "كوميتاس"، فارين من الخدمة العسكرية- الله وحده يعلم.

هبط الغسق بسرعة. لم يتكلم أحد. كان الطقس يميل إلى البرودة بسرعة مع خفوت الضوء.

ظهر شكل أطول قامة بدون إصدار أي صوت فوق الصخرة الواقعة أمامهم. شكل ظلالي متشح بمعطف، وقف منتصب القامة ساكناً. قام اللاجئون واقفين قومة شخص واحد.

تكلم الشكل "أنا ماجده" -كانت امرأة، ألقت طاقية معطفها بعيداً عن رأسها وخاطبتهم بلغة شركسية عذبة، ذات إيقاع موسيقي.

أصيب أصلان بالذهول. كذلك أخرجت المرأة بندقية من تحت ردائها، وظهر من الطريقة التي أمسكت بها أنها قادرة تماماً على استعمالها بكفاءة.

"أنا العقيد أصلان من الجيش العثماني، فرقة نيس" تكلم بوضوح "وأنا في طريقي إلى استلام قيادتي. أنا لا أقصد بكم سوءاً. أنا بكل بساطة أرافق هؤلاء القرويين -الذين هم من الشركس- إلى مكان آمن".

"حكاية محتملة! كيف لي أن أعرف أنهم ليسوا رهائن، وأنك لا تحاول أن تجمعنا كلنا؟"

تقدم تسوك، مخاطراً بحياته. ظهر صبية بالكاد يقدرون على الإمساك بالبنادق حول ماجدةه من جميع الجهات فوق الصخور، واقفين مثل الخفراء بينما وضعوا أصابعهم المتشوقة إلى الحركة جاهزة على الزناد الجاهز للإطلاق.

قال "أنا أعرفك أيتها الشابة، أنت المرأة التي جاءت من الجانب الآخر من نهر النيسافا. أنت شابسوغ، لقد أعطيناك الخبز، أشفقي علينا... نحن ما نحن عليه. لاجئون، كما أنت لاجئة".

"ألقوا بأسلحتكم إلى الأرض" كان صوت ماجده لا يزال على بروده.

لم يكن سوى أصلان وتيمور وقلة من الرجال والنساء يحملون بنادق. كانت مجموعة باعثة على السخرية تحت صخرة ماجده.

"غطوا أعينكم. كلكم. إن معرفة بقية الطريق أمر يخصنا نحن وحدنا".

قال أصلان "اذهب أنت أولاً يا تسوك" لم يكن تسوك بحاجة إلى عصابة على عينيه، فقد كان أكثرهم ثقة بمواقع قدميه.

شجعهم تسوك "هلموا بنا، يا أصدقائي، سوف نكون بأمان الآن. لقد عثرنا على المزيد من أبناء جلدتنا! لا تخافوا. بإمكاننا أن نشعر بالأمان عما قريب".

سمح تسوك لنفسه بأن يتم اقتياده من قبل الصبي الخفير المحموم، وهو يلقي بعبارات التشجيع المتواصلة. شاهد أصلان ماجده تلف نفسها بمعطفها الأسود وتقفز نازلة عن الصخرة، ثم تغيب في الليل. انتظر حتى مرّ عنه آخر القرويين، ثم صعد في نهاية الطابور، بحيث جاء تيمور أمامه مباشرة. قام نفر من الحراس الأصغر سناً بالتقاط جميع الأسلحة وركضوا مبتعدين وهي تقرقع. لقد كانت كل هذه التحركات مخططاً لها بعناية..

"أنت أيضاً، أيها العقيد. غطي عينيك".

كان ذلك صوت المرأة، تلكزه في وسط ظهره ببندقية. تحرك أصلان إلى الأمام، متعثراً بين الفينة والأخرى. كلما تعثر، كانت هذه الماجده تلكزه بشدة وتأمره بالتوجه يمنة أو يسرة. بذل جهداً ليسمع أي قدر من التحول إلى النعومة في نبرتها، لكنه لم يسمع شيئاً. لعن نفسه، وهو يعجب كيف استطاع أن يوقع نفسه في مثل هذا المأزق المذل.

***

الفصل السابع

أطرف أصلان بعينيه وفركهما عندما أزيلت العصابة عنهما، وهو يحاول أن يجعل إبصاره يتآلف مع كآبة باردة كثيفة. ظهر جلياً أن اللاجئين الشركس قد خيموا في صدع ضيق عند سفح الجبل، يتخلله جدول صاخب ماؤه غاية في البرودة. غصت جنبات المجرى بشجرات قصيرة توقف نموها وشجيرات شوكية، مما أعطى الموقع صفة الملجأ التعيس.

كانت الأصوات خافتة في الجو الرطب. وعلى أية حال، فقد كان هذا اختياراً موفقاً كمخبأ، لأن الناس لم يكونوا بحاجة إلى أكثر من بندقية أو اثنتين لحراسة هذا الأخدود. جلست حوله في كل اتجاه، مجموعات من النساء اللاتي يحتضن أطفالاً في طيات أثوابهن. كان هدوءهن مثيراً للأعصاب.

إلى الأعلى من هذا الموقع، وقفت حلقة من الصبية الصغار السن، يؤدون واجب الخفارة – لم يكن بعضهم يتجاوز السنين العشر من عمره، حاملين أسلحة يتعاملون معها بسهولة. ربما بسهولة أكثر مما يجب.... كان أصلان يدرك السرعة التي يتعلم فيها الطفل التعامل مع أية قطعة سلاح، إطلاقها بدقة، والتعايش مع عواقبها. لأن الأطفال في المواقف الصعبة يتأقلمون مع الضرورة بوخزة ضمير أقل كثيراً مما يتكون مع البالغين، لأن إرادة البقاء لديهم تكون في أنقى صورها.

وقفت المرأة المسماة ماجده إلى جانب نار تعيسة مدخنة، تؤدي دور القاضي والقائد العسكري. أخذت المجموعة كلها تحدق في القادمين الجدد، بعد أن حشر أفرادها في كتلة متراصة كأنها قطيع من الغنم. كونت هذه المجموعة من النساء الملطخات بالأقذار ذوات الشعور المشعثة هيئة محلفين خشنة جاهزة. أدرك أصلان اتجاه تفكيرهن: هل ستقلص زيادة الأعداد فرصهن في النجاة؟ هل

هذا طابور شيطاني مخرب دفعه الأتراك إليهن! أم أنهم مجرد عصابة معادية أخرى من اللاجئين، توشك أن تستولي على المخيم؟

قال أصلان، بصوت واضح عالٍ "في البداية، سوف نسلم إليكم كل الطعام الذي بحوزتنا، مقابل الحماية هنا معكم لهذه الليلة".

قالت ماجده بصوت مرح لا يخلو من السخرية "هل ستفعل ذلك حقاً؟ ليس ذلك القرار عائداً إليك، أيها العقيد".

استبد الفضول بأصلان "كيف عرفت رتبتي؟"

رجَّت ماجدة رأسها بعنف. فجيء بتيمور إلى المقدمة، وقد قيدت يداه خلف ظهره. كان قد تم تفتيش حقائب سرجه وبطانية نومه ثم ألقى الصبي المصاب بالحمى الذي كان قد أطلق النار عليهم من فوق الصخور بالسترتين العسكريتين إلى الأرض.

أمرت ماجده "أفصح عن نفسك". وهكذا فعل أصلان، وقد استدار ليواجه النساء ويكشف فقط عن أقل القليل الضروري عما يعرفه عن الوضع في المنطقة بشكل عام.

طبيعي أن النساء لم يكنَّ مهتمات كثيراً بشرحه الدبلوماسي عن أوامره الصادرة من نيس، حول إعادة تجميع القوات التركية، أو عن حشر خمسة وعشرين ألف جندي حربي على حدود الإمبراطورية العثمانية، متحمسين للانضمام إلى الروس لسحق قوة الأتراك (كان الأتراك يخوضون كفاحاً بطولياً للتمسك بمدينة بليفنه البلغارية ذات الأهمية الحيوية. لأنها أن سقطت فستصبح الإمبراطورية العثمانية في حكم المندحرة—لكن أصلان لم يتطرق إلى ذلك الموضوع). استمر أصلان في الحديث، وهو يراقب وجوه النساء أثناء إصغائهن إلى خطبته الشركسية التي تنم عن حسن التربية، بلهجته الشابسوغ ذات الوقع المغنى، مدركاً أنهن في سبيل اتخاذ القرار حول ما إذا كان، بكل بساطة، رجلاً يمكنهن الوثوق فيه.

قاطعته ماجده بقولها "هل أنت هارب من الخدمة؟ ما الذي فعلته حتى تهرب من قيادتك؟"

لم يكن أصلان راغباً في الإفصاح عن الحقيقة الفجة، إذ كان يخشى من أنها ستنشر الفزع بين اللاجئين. كيف يمكنه أن يخبرهن عن المذابح التي رآها؟ كيف يخبرهن بأن ما يحدث لهن يجري استنساخه عبر الإقليم كله، بحيث يتخذ شكلاً من الإبادة العرقية كما يبدو له؟

كان تردده قاتلاً

"أنت تكذب! قيدوه، وقيدوا الفتى معه". تحول لون وجه تيمور إلى القرمزي من جراء وسمه بالخيانة. تضاعف إحساسه بالمهانة عندما تقدمت فتاتان تحملان حبالاً قوية. أتمتا واجبهما بخجل.

بدأ العديد من نساء قرية تسوك بالنحيب. رفعت ماجده يداً آمرة وأسكتتهن. "ليست لدينا أية خصومة معكن! إهدأن –أنا لا أريد أن أؤذيكن! رسميه! حليمه!"

تقدمت امرأتان، أحدهما ضخمة الجثة والأخرى نحيلة شقراء بسرعة، وقسمتا اللاجئين إلى مجموعتين. قالت رسميه: "من هنا" وجاء صوتها أكثر وضوحاً وثباتاً مما يوحي به نحولها. "يجب عليكم جميعاً أن تقيموا فراشكم هنا –وسوف نتناوب الحراسة عليكم خلال الليل بطوله. هذا إجراء يقصد به سلامتكم إضافة إلى سلامتنا. تقول ماجده أنه يجب على كل منكم أن يحمل رقماً حتى نتمكن من حصر أعدادكم ونتأكد من عدم هروب أي منكم لكشف موقعنا. أنا واثقة من أنكم لن تفعلوا ذلك، ولكن هل تفهمون، أن هذا ما يتوجب علينا عمله؟ بكل احترام، أيتها الجدات، هل ستتعاونَّ؟"

بالطبع، قامت حليمه بإيصال نفس المعلومات بنبرات أكثر صرامة إلى النصف العائد إليها من المجموعة –خمسة عشر نفساً في المجموع. تم إحصاء النساء والأطفال والعجائز وإعطائهم أرقاماً ثم وضعهم جنباً إلى جنب بقدر مقبول من الكفاءة. مرت

الفتيات صغيرات السن (بعضهن من بنات حسن) بين اللاجئين الجدد وهن يوزعن أرغفة خبز الذرة المسطحة ويقدمن ملء مغرفة من الحساء الساخن لكل شخص بدوره. كانت العملية بشكل عام تنطوي على السلاسة والتعاطف، وقد راقبها أصلان بمشاعر الاحترام لجو القبول العام الذي أظهرته النساء لبعضهن البعض.

لم يتم التعامل معه شخصياً بتلك الدرجة من اللطف. فقد تم تقييده بجانب تيمور إلى صخرة كبيرة. كانا متعبين كلاهما حد الإرهاق وسرعان ما شعرا بالألم في كتفيهما والخدر في ظهريهما من جراء انعدام إمكانية التحرك لوضعهما.

قال أصلان بدون غضب "ها أنت تعرف الآن كيف يكون شعورك عندما لا يثق بك أبناء جلدتك" حتى أن تيمور لاحظ وجود طيف ابتسامة على وجهه. لم يكن تيمور سعيداً بهذا الوضع على الإطلاق. ففي الواقع كان تيمور مغتاظاً ويشعر بالإهانة لعدم الوثوق به.

ولم يكن الجرح في صدغه، والذي سببته ضربة مقلاع، يساعد على تحسين مزاجه.

راقب أصلان بينما جلست ماجدة على صخرة قريبة من النار، وقد لفت معطفها على ركبتيها. كانت قد استولت على حقائب سرجه وتقوم بفتح جراب مراسلاته -على مرأى واضح منه. جف ريقه. قامت بقراءة جميع التقارير الواردة إليه من القيادة في نيس. توزيع مواقع القوات، تفاصيل خطوط الإمداد، كل شيء -حتى الوثائق التي تحمل الأختام "السرية" مما أثار دهشته واستغرابه.

كان رد فعله الفوري هو الاستخفاف. فاجأه أنها قادرة على قراءة اللغة التركية، ناهيك عن فهم محتوى مثل هذه الوثائق. ثم خطر له أن بعض هاته النسوة قد لا يكن من اللاجئين على الإطلاق، بل يعملن بالتحالف مع مجموعة أكبر من الثوار في مكان ما من الأراضي المحاذية للحدود البلغارية. ربما تكون الأمهات

البائسات والأطفال مجرد غطاء لعملهن! لقد اقتيد العديد جداً من الرجال إلى القوات المسلحة -ربما يكون ممكناً أن يتم استخدام النساء لجمع المعلومات في الريف. لقد سمع فيما مضى أن نساء الجبل الأسود يقاتلن إلى جانب رجالهن في الجبال- يتسلقن الصخور على الجبال ليدخلن القوات إلى المعسكرات، يقتلن الجرحى عند انتهاء المعارك... ينهبن، يحرقن.. كل شيء ممكن الآن، خاصة وأن العديد من القوميات قد بدأ يثور ضد طغيان السلطان.

تأوه تيمور، مقاطعاً فرضيات أصلان "إن راسي في حالة سيئة يا سيدي، لا أستطيع أن أبصر في عيني اليمنى".

تمدد أصلان قدر استطاعته ليلقي نظرة. كان الجرح من ضربة المقلاع ما يزال ينز دماً، وقد تورم الجفن حتى انغلق. لقد تحمل تيمور الكثير في الأيام القليلة الماضية، لكن أصلان كان يشك في أن الضربة التي سددت إلى كبريائه كانت بقدر ضخامة الضربة التي أصابت صدغه.

همس تيمور "آسف يا سيدي" وكأن استطلاعه السيء هو السبب الوحيد للمأزق الذي وقعوا فيه. تراخى رأسه إلى الأمام -لقد غاب عن الوعي.

صاح أصلان منادياً ماجده "بكل احترام، أيها الأولياء!" استخدم مصطلحاً تركياً يعترف بسلطتها، بقيادتها، وبطبيعتها أيضاً. رفعت ماجده رأسها، بينما ومضت عيناها باعتراف مرغم بصيغة خطابه. لكنها لم تتحرك.

"اسمعي، يمكنك أن تبقي عليَّ مقيداً طيلة الليل إذا أحببت" نادى أصلان عليها عبر المسافة "لكن مساعدي هنا -إنه جريح. أرجوك أن تطلقي سراحه. سوف نكون بحاجة إلى كل الشباب القادرين جسدياً في مجموعتنا غداً. أنت تعرفين ذلك كما أعرفه أنا".

فكرت ماجده بما قاله لدقيقة. ثم تحولت إلى ناحيته وحلت العقد حول ذراعي تيمور "بالقاما" التي تحملها. كانت الحبال قد حزت عميقاً في لحمه عندما سقط إلى الأمام: فقد تحول لون يديه إلى الزرقة. قرفصت إلى جانب أصلان، مائلة صوب تيمور وبدأت تفرك ذراعيه، وقد نسيت عدائيتها. هاجمت رائحة اللحم النسائي الدافئ المثير كيان أصلان. كان قد تشمم رائحة عرق الخوف، الموت، المرض، على العديد من الرجال في أزمنة غابرة. لكن هذه الرائحة القوية، المتمردة، لامرأة تحسن العناية بنفسها أذهلته. أحمرّ خداها من معالجتها للحبال، من قلقها على الجندي الفتي، من معرفتها بأن أصلان، الضابط، يحدق فيها. أطلقت تحركاتها العطور النفاذة لأيام أكثر سعادة، المختزنة في المعطف السميك والدثار الملتف بشدة حول الجزء العلوي من جسمها. كل ما تمكن أصلان من رؤيته هو وجهها الحزين، ذو البشرة الباهتة، ويديها، اللتين كانت أصابعها المستدقة مخدَّشة ومتسخة ورغم ذلك احتفظت برقة تمس شغاف القلب. تأوَّه تيمور فعاد إليه الوعي، فقالت بصوت خفيض "سوف أعمل على أن يتم تضميد رأسه" حثها أصلان بقوله "يا صاحبة الولاية، أرجوك، دعينا نتحدث على انفراد. لا بد أنك تفهمين سبب وجودي هنا —أقسم أنني لا أضمر لكم سوءاً".

تراجعت ماجده مبتعدة، وهي تلف دثارها حول وجهها. نادت على إحدى النساء لتحضر مساعدة. سرعان ما حضر تسوك ولاجئ آخر من قريته ليحملا تيمور إلى بقعة أقرب إلى إحدى النيران، حيث جرى غسل رأسه، وتم إطعامه بقليل من الحساء فعاد الدم إلى وجهه الوسيم.

وقف صبيان توأمان إلى جانب تيمور، يحدقان في سروال الخيالة العسكري المخطط، في مهمازيه المهسهسين "هيا ابتعدا من هنا!" قامت المرأة المدعوة حليمه بضرب كليهما على أقفيتهما،

وأعيدا إلى موقع خفارتهما فوق صخرة عالية، حيث جلسا قريبين من بعضهما، يتذمران بصوت عالٍ ويتبادلان اللكمات.

أحضرت ماجده كوباً من الحساء وجلست قبالة اصلان. لم تقترح أن تفك قيوده، بل أمسكت بالفنجان إلى شفتيه، بينما بدأت تستجوبه.

"هكذا إذن، أنت أيضاً شركسي".

"نعم، أنا شابسوغ، ابن الحجي دانيل. لقد تم شحن أبويَّ من سوتشي عبر البحر الأسود.. قبل أكثر من عشر سنوات".

اكفهرَّت عينا ماجده من التذكر.

"لقد انفصلنا عن بعضنا قسراً" قرر أصلان أنه كلما أخبرها بالمزيد، كلما زاد اكتسابه لثقتها. إذا كانت صديقة. أما إذا كانت عدوة، فلن يكون هناك فرق في الحالتين.

"ليست لدي أية فكرة عن المكان الذي أرسلا إليه. لقد أجبرت على الانخراط في الجيش وقاتلت في الأناضول حتى تم نقلي مؤخراً إلى هنا". تجرع السائل الساخن بشره، وقد انتابته رغبة حارقة مفاجئة في أن يطرح السؤال المركزي في حياته.

"هل أنت ملمة بهذين الاسمين؟ الحجي دانيل؟ زوجته ماريان؟ أخبريني، ألم تسمعي هذين الاسمين يؤتى على ذكرهما في أي مكان من هذا الإقليم؟"

هزت ماجده رأسها، وقد توترت أعصابها. "لا تسلني عن أية أسماء! لن أفضي إليك بأية أسماء!".

"فهل تعطيني اسمك على الأقل، أيتها الوالية؟ سأل أصلان. "أنت ماجده –ابنة " – ".

"أنا ماجده. ذلك كل ما أنت بحاجة إلى معرفته".

"حسناً جداً". تناول المزيد من بعض الطعام. أحسّ أن كل لقمة تزيد في شعوره بالإرهاق، لكنه ناضل حتى يصل إلى شيء من التفاهم مع هذه المرأة الشرسة التي من الواضح أنها مذعورة. "اسمعي، يجب علينا أن ننتقل من هنا. لدي كل الأسباب لكي أعتقد أن القوات الصربية ستبدأ بالتحرك باتجاه الجنوب، لقطع خطوط الإمداد بين صوفيا ونيس –سوف يستمرون في التحرك جنوبا في إقليم كوسوفو. لا بد وأنك تعرفين أن الصرب يعتبرون ذلك الإقليم جزءاً من أراضيهم التراثية".

اكتفت ماجده بالتحديق فيه. أدرك أنها لا تعرف شيئاً على الإطلاق عن القوى الكبرى المؤثرة، التي جلبت الكارثة فوق رأسها. بات يشك في أن كل أوراقه قد كان لها أي معنى بالنسبة له.

"نحن قريبون من سنجق نوفي بازار. إنها منطقة متنازع عليها بين الصرب والأتراك. سوف تعج بالجنود الأتراك. بالنسبة للوقت الحالي، لا بد وأنك تعرفين إذا كنت قد قرأت وثائقي، أنه لا يوجد الكثير من القتال في هذا الإقليم. أنا أقترح أن ننقلك أنت وجماعتك إلى الأمام باتجاه الجنوب الغربي –باتجاه جبال الجبل الأسود. سيكون الاختباء هناك أكثر أماناً.

في نهاية الأمر بدأت ماجده تتواصل. "ولكننا لا نستطيع الاستمرار إذا لم يكن لدينا طعام. لقد أحضرت لنا المزيد من الناس. كيف سيتمكن هؤلاء الناس العجائز من المسير كل يوم إذا كانوا ضعافاً ولا يتم إطعامهم؟".

شعر بالإنفراج، وأصبح يتنفس بسهولة. إنها تبحث الموقف معه –وهذه خطوة في الاتجاه الصحيح. "سيكون هناك العديد من القرويين الذين سمعوا الإشاعات، وسيهربون من بيوتهم، للابتعاد عن القتال. أقترح أن أخرج في الغد مع بضعة كشافة ونبحث فيما إذا استطعنا أن نعثر على أية مخازن طعام مهجورة في "الخانات

القريبة" إذا كان الناس يغادرون في عجالة... فإنهم لا يأخذون كل شيء".

تذكرت ماجده الساعات الأخيرة في قريتها -قطع حماتها النقدية الذهبية، المخيطة حالياً بعناية داخل غرز لباسها الداخلي. أحنت رأسها ببطء.

"يمكنك أن تذهب. وسوف نحتفظ بالفتى رهينة".

"تيمور؟ حسناً، لا بأس، إذا كنت تصرين. لكن اسمحي لي باصطحاب أحد أعوانك معي".

"إسماعيل".

"ذلك الذي يكره الجنود الأتراك؟".

"نعم، وسوف تصطحب ساكنات، شقيقة زوجي، إنها لائقة صحياً، وتحسن الركوب إلى درجة ممتازة، وربما تكون ذات فائدة في حالة وجود نساء تركيات مستعدات لبيعنا بعض المؤن" ترددت ماجده.

"سوف أعطيك بعض المال. في حالة.. أنا واثقة من أنك سوف تتصرف بحكمة، ولن تجلب الانتباه إلى نفسك بالسرقة أو المصادرة. إذا لم تعد بحلول مغيب الشمس، وقتها –"

"سوف أعود. أنت لست بحاجة إلى أن تثقلي عقلك بتنفيذ أي تهديد".

غضت ماجده طرفها. فقد مضى وقت طويل منذ تحدث إليها أي رجل بهذه الدرجة من الاحترام أو اللطف.

ران الصمت على أصلان بدوره، وهو يراقب وجهها. كانت امرأة حسنة المظهر، ذات ملامح راقية ترك عليها الألم آثاراً عميقة. بات يعجب كيف سيكون شكلها لو أن نور الفرح أضاء التعبير على وجهها. ربما ستبدو أصغر، وجميلة حتماً. شعر

بتعاطف عميق تجاهها، كما لو أنها أخت أضاعها منذ زمن طويل، وبحاجة إلى رعاية.

أسرَّ إليها "بما أنك تدركين الآن أنني قد هربت من قيادتي، يمكنك أن تطمئني، أنني سأكون في منتهي الفطنة: إذا قبض عليَّ، فإن عقوبتي ستكون الموت".

رفعت ماجده رأسها مرة أخرى "لماذا فعلت هذا؟" منجذبة إلى معرفة المزيد من هذا الرجل، على الرغم من مخاوفها.

مرة أخرى، حاول أصلان أن يكشف أقل الضروري، حتى لا يتسبب لها بالمزيد من الذعر. "لقد ارتحلت عبر الروملي، خلال بلغاريا. وكنت طيلة الطريق أبحث عن مستوطنات الشابسوغ – أعرف الآن، أنني كنت أبحث عن معجزة، عن كلمة ما حول عائلتي أو أبناء عشيرتي في مكان ما. لقد شاهدت العديد من القرى المهجورة. يبدو أن العديد من الشركس – والعديد من الأتراك المسلمين أيضاً – يهربون رجوعاً باتجاه استنبول، خائفين على حياتهم في هذه الولايات الرايات التي أعلنت انفصالها. أعرف الآن أن الشركس سوف تكون معاناتهم هي الأسوأ، وأنا أرغب في مساعدة أولئك الذين أتمكن من مساعدتهم، في الوصول إلى مكان أكثر أماناً. بطريقة ما."

"لكن جيش السلطان هو الذي أقامنا هنا!"

"يا ماجده، لا أعتقد أن الشركس يمكنهم أن يتوقعوا الحماية من السلطان أو من ضباطه"

"لماذا؟"

"لأننا "مهاجرون". نحن ندين بنفس الديانة ولكننا مهجرون".

"دخلاء" "لصوص خيل" "مثيرون للمتاعب" قالت ماجده بمرارة، وهي تستذكر كل كلمات الشتيمة التي سمعتها هي

وجيرانها من امرأة الخنازير البلغارية قرب قرية تيبيليك خمسة. "لم يرغب بنا أحد. فقد ظلوا يقولون أننا سرقنا أراضيهم".

"لقد سمعت هذا القول في أمكنة عديدة" وافقها أصلان، ممتناً على إبقاء هذا النقاش عند مستوى بسيط. لو كانت لدى ماجده أية فكرة عما شاهده في تلك القرى المحروقة...

سقته ماجدة آخر القطرات وهي تقول "أنهِ هذا الحساء. إذا كنت ستذهب باحثاً عن الطعام في الغد، يجب عليك أن تستريح".

"فهل ستحلين وثاقي، يا صاحبة الولاية؟"

ترددت ماجده. "نعم، إذا أعطيتني هذين" وأشارت إلى قدميه "أنت لن تستطيع الهرب بدونهما. ضحك أصلان "حسن جداً" وانحنى إلى الأمام بصعوبة ليفك مهمازيه ثم خلع حذاءه العزيز عليه. "اعتن بهما جيداً، يا سيدتي، فقد صنعهما إسكافي يهودي بالغ المهارة بيديه في جالاتا".

ظهر الحزم على محيا ماجده، أخفت الحذاء تحت معطفها واستدارت منادية "سوف نوقظك قبيل الفجر" وابتلعتها الظلمة.

بقي أصلان لوحده مع الإحساس غير المعتاد بالرغبة في الضحك تتوارى في أنفاسه – ليس المرح الساخر الذي سمح لنفسه به في صحبة الرجال، بل النوع المغيظ الذي لم يعرفه منذ اختفت أمه من حياته. أدار وجهه نحو الأرض، وانتقل إلى مملكة النوم بينما كانت دموع الإرهاق والحزن ترسم طرقاً لها في ملامحه التي لفحها التعرض للعناصر. مثل المطر على الجبل.

***

قبيل الفجر، أحسّ بشخص ما يلكزه في أضلاعه فطارت يده نحو حزامه ليسحب "القاما". لكنه عندما اكتشف أنه غير مسلح، جلس مستقيماً متصلباً في وضع دفاعي رافعاً ذراعيه ليحمي وجهه...

الصمت.

أدرك فجأة المكان الذي هو فيه، فنظر إلى الأعلى ليبصر امرأة شركسية أخرى محتمية خلف صبي أشقر الشعر، يحمل بندقية مصوبة نحوه. كانت تلك هي الفتاة ساكنات والصبي هو إسماعيل. قال "آسف – ما قصدت إلى أن أرعبك".

أجابته ساكنات بصوت خجول "حذاؤك" وهي تناوله جلوده التي تم تنظيفها جيداً، وحتى تمت تدفئتها قليلاً إلى جانب النار.

"هذا أمر في غاية اللطف منك – هل أنت ساكنات؟"

هزت رأسها، وهي ما زالت تنظر إلى الأرض.

"نعم. هذه هي خطتي. سنمتطي – هل لديكم جواد؟"

أشارت ساكنات إلى فلو بلغاري قوي صغير الحجم محمَّل بسلتين من كل جهة، مربوط بسروع اقتياد مع حيوان آخر محمل بنفس المعدات إلى جانبه.

"سنحاول باتجاه الجنوب الشرقي. إذا كانت الذاكرة تخدمني فقد كانت هناك مستوطنة أو اثنتين".

كانت القرى مبنية في تشكيلات مفتوحة منتشرة بغير نسق معين، حسب التقاليد المحلية المتبعة في هذا الإقليم الخصيب، بدون مركز متماسك. كانت المزارع متواجدة على بعد مسافات من بعضها البعض. وثبت أن هذا وضع ملائم جداً. لأنه لن يتم إطلاق النفير العام إذا قاموا بالتقرب من هذه التجمعات بشكل دوري.

ركبت ساكنات ووقف إسماعيل منتظراً أوامره. خطرت لأصلان فكرة، مشى متجاوزاً الصبي إلى حيث كان جواده وجواد تيمور المخصصين للخيالة مربوطين إلى شجيرة ذات أشواك.

"خذ، يا إسماعيل. خذ أنت جواد تيمور، إنه صعب المراس قليلاً، ولكنك فارس متمكن حسب ما أرى".

استجاب إسماعيل كما يفعل الشركسي الأصيل، قفز إلى ظهر الجواد العاري وانطلق به إلى آخر الأخدود ببراعة مذهلة. وقف ينتظر بكبرياء حتى يلحق به كل من أصلان وساكنات. لم يكن قد نبس ببنت شفة حتى هذه اللحظة.

قال أصلان بنعومة لساكنات "إن العقاب لا يأكل من يد الصقار". كان ذلك مثلاً شركسياً قديماً دفع بالابتسامة إلى قسماتها.

"إن مصادقة إسماعيل أمر صعب. لكنك ابتدأت بداية طيبة".

ركبوا في نور الفجر بصمت، بينما الجياد تنخر ريشاً من أنفاسها فوق الصقيع الحليبي المتعمق، كان الخريف يتقدم. بدت الحقول رائعة، أبر من المراعي البيضاء المتجمدة تتقصف وتسحق تحت حوافرها، تتضارب رؤوس سيقان الذرة الجافة وأوراقها الذهبية ببعضها في أغنية مألوفة عن الريح الباردة. أشرقت شمس رطبة فوق القمة البعيدة لجبل رادان إلى الجنوب، تصبغ الحقول والزرائب بوميض يتخافت، ليصبح في صفاء العنبر وشفافيته. لو أنهم يتبعون مسار وادي التوبليكا، متحلقين هذه السلسلة الجبلية، منحرفين تجاه الجنوب، فإنهم سيصلون خلال ساعات معدودة إلى سهل كوسوفو. قلب الحياة الصربية الرمزي، السرير المضمخ بالدماء الذي بذرت فوقه بذرات الأبطال، الأمة المجهضة. هنا قام الأتراك باكتساح الصرب وسجنهم طيلة قرون من العبودية، معارك خاسرة، شعب مفصول عن قلب أمته.

وصلت المجموعة الباحثة إلى القرب من مجموعة حظائر مطلية باللون الأبيض. أشار إليهم أصلان بالتوقف حتى يتمكن من الإصغاء بعناية. لا أصوات بشرية. لا دخان يرتفع من بيت المزرعة المبني على أحد أطراف الحظيرة الأكبر. لم تكن هناك أية بقرات قد سمح لها بالخروج إلى الساحة بعد حلبها.

أمر أصلان "إسماعيل، ابق هنا وقم بالحراسة إلى جانب ساكنات" بعد أن وضع ساكنات في موقع محمي إلى جانب الطريق

"سوف أذهب إلى الأمام لأرى إن كان هذا المكان مهجوراً بالقدر الذي يبدو عليه".

ترجل أصلان، ومرة أخرى، وبدافع غريزي محض، ذهبت يده إلى "القاما" التي لم تكن موجودة. ابتسم إسماعيل، وأخرج الخنجر وبندقية من جراب كتفه.

"لقد قالت ماجده أن بإمكاني أن أعطيك هذين".

اتخذ أصلان طريقه إلى الأمام بسرعة، راكضاً، منحني القامة خلال حفر الري.

أحسّ بالفراغ، التخلي، فلا كلاب: ولا شيء.

وصل إلى مدخل الحظيرة الأولى. كان الباب مواربا قليلاً. عندما حدَّق من خلال الشق في إطار الباب، شاهد أكياساً من الحنطة، بضعة أباريق من الزيت: جدار ممتلئ بالبصل المجفف، الثوم والفلفل. جرى لعابه.

لفتت انتباهه الكامل صرخة مكبوتة. دفع بنفسه حتى التصق بالجدار ورفع زناد بندقيته. انتظر دقيقة أو اثنتين وسمع عراكاً، كأن هناك قطة أو كلب في الحظيرة. سحب نفساً عميقاً والتف داخلاً من خلال الباب مشهراً سلاحه.

على كومة من القش، رقد اثنان أو ثلاثة من الفلاحين العجائز وبضعة أطفال صغار مذعورين.

"لماذا أنتم مختبئون؟ هل تمت مهاجمتكم؟"

لم يصدر عن كومة البشر تلك سوى البكاء الخافت.

اقترب أصلان، هناك أمر غريب في هذا الموقف. تجمد في مكانه: كانت هناك امرأة ملقاة وسط المجموعة، ساكنة كلياً. هناك جرح كبير غائر في صدرها، والدماء تنزف منه. كان العجائز والأطفال متحلقين حولها، وقد تلطخ كل واحد منهم بدمها.

تكلم أكبر الرجال سناً "مجموعة من الجنود الصرب.... لقد أخذوا كل شيء في الحظائر الأخرى... نحن من البوماك.."

مسلمون بلغار

"لقد قتلوا ابنتي. حاولت أن تقاومهم، أن تجادل. لعلهم يتركونا بحالنا جميعاً هنا – في هذه الحظيرة. مجرد هذه الحظيرة لتقيم أودنا عبر الشتاء، كما تعلم، مجرد ما يكفي من الزيت... قليل من الذرة..." كان الرجل يهذي، شارد الذهن. "قامت بإطلاق النار عليهم، أعتقد أنهم قتلوها... لكنها ما زالت متعلقة بالحياة. إذا استطعنا أن نبقيها دافئة فربما....."

لم يكن بمقدور أصلان أن يفعل أي شيء ليساعد به في الوقت الحالي "اسمع أيها الرجل العجوز، لدي أناس يجب علي الاهتمام بهم أيضاً. سوف أعود بعد فترة. إلى أي جهة ذهب الجنود؟"

"لقد ركبوا عائدين إلى نيس"

تراجع أصلان خارجاً من الحظيرة. ثم جرى مسرعاً نحو ساكنات.

"ليس لدينا الكثير من الوقت. إن المنطقة تعج بالعصاة. دعونا نستمر في المسير جنوباً لفترة – يبدو أن الجنود الصرب قد أخذوا قدر ما يستطيعون حمله في هذه الغارة، واستداروا عائدين إلى بيوتهم."

ركبوا بسرعة أكبر، مستمرين في السير على الطريق الترابية حتى أبصروا مجموعة أخرى من الحظائر والخانات ذات الجدران البيضاء.

في هذه المرة، كان الدخان يتصاعد.

"تعالي معي، يا ساكنات." كان أصلان قد قرر أن يخاطر، ويتقدم مباشرة مشياً نحو أحد الأكواخ. أزَّت طلقة عند أقدامهما.

رفع أصلان ذراعيه، ملوحاً بشال ياقته. أمسك بيده الأخرى ساكنات بقوة، وكأنهما زوج وزوجة. مشيا إلى الأمام بثبات.

انفتح باب "الخان" شقاً صغيراً في هذه المرة.

"أرجوكم، نحن لاجئون، نريد فقط أن نشتري طعاماً."

تكلم اللغة التركية، لكن في اللحظة التي شاهدت فيها ساكنات الوجه القابع عند باب الكوخ، انطلقت تتكلم اللغة الشركسية بصوت عالٍ.

"أنت شركسية! وحدها المرأة الشركسية ترتدي مثل هذا الوشاح! ساعدونا، أتوسل إليك!"

انفتح الباب على اتساعه في هذه اللحظة، وخرج شاب فتي في مواجهتهم، مهدداً وجاهزاً لإطلاق النار. "يجب أن تغادروا من هنا. إن الوضع خطير. نحن نحزم متاعنا استعداداً للمغادرة. لقد هرب كل شخص في هذه القرية قبلنا. إن طفلنا مريض... الصرب يتقدمون وإذا لم نخرج من هنا، فسنكون كلنا أمواتاً خلال يوم أو يومين."

صرخت ساكنات "نحن بحاجة إلى الطعام!"

"جربي حظيرة أحمد. لقد غادر بالأمس – أظن أن ما تركه خلفه لم يعد يفيده الآن. تفضلي وأخدمي نفسك، أيتها المرأة الشركسية!"

"كان الله معكم!"

دفعت زوجته برأسها من خلف ظهر زوجها

"اذهبوا! ابتعدوا، رجاءً، ليس لدينا الكثير من الوقت... ولكن احترسوا في طريق ذهابكم، سيكون هناك جنود و "ضابطية" يبحثون عن النهابين.... سوف يتم اختطافك إذا أمسكوا بكم!"

ركض أصلان، وساكنات وإسماعيل باتجاه الحظائر المجاورة، كان كل شيء غارقاً في الفوضى، وكأنما قد نهض جميع سكان المستوطنة وولوا هاربين بالضروريات خلال ساعات معدودة. كانت أدوات الفلاحة مبعثرة، وبضع بقرات يتجولن في بستان خضروات، يمضغن المفلوف.

كان هناك برميل من المخللات ترك مفتوحاً في إحدى الحظائر. خطف إسماعيل حفنة وبدأ يحشو فمه بها، وهو يكاد يختنق لفرط جوعه. كومة من التبن، كيس أو اثنين من الذرة، مثقوبين، تناثرت محتوياتهما على الأرض الصلدة. كل شيء غير ذلك كان قد أخذه الناس.

"يا ساكنات، لو كنت أنت زوجة المزارع، فأين كنت ستضعين مخزونك؟"

فهمت ساكنات – المخزن الخفي، المدفون... التقليد القديم. ركضت حول الحظائر، إلى مقدمة الكوخ الصغير ذي الشرفة النازلة المتدرجة، لا مؤشر. ركضت حول الجانب الآخر من الكوخ، وهي تبحث، وتبحث. صاحت "هنا!" كان هناك باب مقفل للكوخ المنحدر السطح، الملحق بظهر أحد "الخانات". ظهر وكأنه مكان لتخزين الحطب. نسف أصلان القفل عن المفصل، وأخرج كل الحطب المقطع بمساعدة إسماعيل. بكل تأكيد، كانت تحت الحطب كومة نظيفة منسقة من الأكياس، فوق طبقة من الشرائح الخشبية، للسماح للهواء بتهوية الغرفة المخفية – لقد كانوا سعداء الحظ. فهذا هو مخزن الطوارئ للقرية، الممتلئ بجرار الخزين.

قفز أصلان إلى داخل الممر الضيق وفتح بعض الجرار "بسرعة، ليس لدينا الكثير من الوقت." وبدأ يغرف المحتويات، أرز، طحين، فاصولياء، في الأكياس الفارغة التي أمسكها إسماعيل وساكنات فوق رأسه عند مستوى الأرض، واللذين أخذا يجريان

جيئة وذهاباً حتى امتلأت السلال على ظهر الفلوين بالمؤن، ثم حملا ظهري الجوادين.

عملوا لعدة ساعات بدون استراحة. "يجب أن نأكل قليلاً الآن، ونحمل البقية بأنفسنا، يجب أن نأخذ بقدر ما نستطيع. ولكن يجب أيضاً أن نعود، ونحث كل الناس على التحرك الليلة." كان أصلان يفكر ويتصرف بسرعة لأجل الجميع.

حملوا الجياد أكثر ما يمكنها حمله – ما يكفي لبضعة أيام، إذا اكتفت المجموعة بتناول كميات قليلة.

بدأ المسير الطويل عودة إلى الأخدود الجبلي. حملت ساكنات الفتية كيساً وكادت تجري به لسرعتها وقد انحنى ظهرها بحدة، حتى أصبحت تبدو مثل الفلو. حاول إسماعيل أن يقلدها، لكن نوبة من السعال أبطأته. بدون تعليق، تناول أصلان حمله وأضافه إلى ما يحمله. وقال له

"أمسك بالأعنة" نفذ إسماعيل ما طلب منه.

بينما هم يمرون بمستوطنة "البوماك" الصغيرة، تردد أصلان، قال: "يجب أن أذهب لأرى إذا كان هؤلاء العواجيز يتدبرون أمرهم. يجب عليهم أن يرحلوا الليلة. استمر أنت في المسير يا إسماعيل، أنت تعرف الطريق التي جئنا منها خلال حقول الذرة. سوف ألحق بك".

ألقى أصلان أكياسه على الأرض عند زاوية أول حقول الذرة وعاد مسرعاً نحو الحظيرة المفتوحة. لم يسمع صوتاً في هذه المرة وهو يقترب بالتلصص المعهود. كان النور قد بدأ يخفت: لقد كان يوماً طويلاً وكان يلهث بتثاقل جراء التوتر والإرهاق معاً.

الحظيرة فارغة. تحرك إلى الأمام بحذر إلى حيث يمكنه رؤية الوشاح الأبيض المضمخ بالدماء للمرأة الجريحة. كانت ما تزال حية، ولكن بالحكم على أنفاسها الطويلة المحتشرجة، فقد كان موتها

محتماً. ظهر الرجل العجوز وكأنه نائم، وهو مستلقٍ إلى الجدار الخلفي للحظيرة. كان أصلان يهم بالزحف مبتعداً، لكن وعياً إضافياً جعله يدقق النظر. قابل عينيه منظر رهيب. كانت بندقية الرجل العجوز مسندة بوضع غريب... وقد وضع ماسورة البندقية في فمه. نفرت إحدى عينيه فوق الثقب الموجود حيث نسف عظم خده.

عبر ركبتيه رقد جثمان طفل صغير جداً، مخنوق، وجسمه ما زال دافئاً، وإلى جانبه ارتمت وسط التبن، زوجته الراقدة ممسكة ثوب زوجها بأصابع لا تود الإفلات مطلقاً.

استلقت ثلاثة أجيال يائسة أزهقت أرواحها وسط نتائج جهودها. لا بد وأن الطفل الآخر قد ابتعد هارباً - لا بد وأنه قيل له بأن ينقذ نفسه.

الشيء الوحيد الذي استطاع أصلان أن يفعله هو أن يتلو صلاة، يمدد الرجل إلى جانب زوجته ويغطي الجثث بالمزيد من القش بحيث تختفي بشاعتهم، وتشوهاتهم، عن أعين الآخرين. بعدها ركض عائداً إلى الحقول. لم يأخذ أي شيء من الحظيرة: سيكون هناك لاجئون آخرون سيمرون من هذا الاتجاه ويستفيدون من جهود عائلة "البوماك"، الجيدة في الزراعة.

محى الأموات من عقله. كل ما علق بذهنه هو صورة التدنيس الحيوي لأبصال المرأة الفاضلة ولثومها وفلفلها المجفف. وأكواز الذرة، التي تلطخت بالدماء حيث كانت معلقة بنسق منظم.

***

استدعي أورهان أتاكوي إلى إيجاز في فيدين، على نهر الدانوب، إلى الغرب - حيث حدود بلغاريا مع صربيا. على مقربة من فيدين، تنضم التيارات العميقة لنهر التيموك إلى الدانوب، "النهر المعتم"، الذي يندفع في تيار قوي عظيم نحو البحر الأسود، مشكلاً حدوداً طبيعية بين رومانيا وبلغاريا. يجبر النهر نفسه على عبور

"البوابات الحديدية"، أخاديد كازان، قبل أن ينعطف شمالاً في أبهة بحيرية نحو حدود روسيا.

ولكن هنا، في فيدين، وردت الأخبار التي مفادها أن الروس لم يكتفوا بعبور هذه الجبهة، بل اخترقوا خلال الجبال ويتوجهون نحو بلدة إدارية عثمانية رئيسة، هي أدرنة، الواقعة على الطريق الروميلي الجنوبي الرئيس المتجه شرقاً - غرباً، من خلال فيليبوليس إلى صوفيا - ذلك الطريق الذي سلكه مع ذلك الوغد أصلان قبل فترة وجيزة. لم يعجز الروس عن دحر الأتراك في كل المواقع، إلا في السهل الواسع جنوب الدانوب، خلف جبال بلغاريا الشمالية (المسماة سريدنا جورا) في منطقة بليفنا. أصبح الاحتفاظ بقلعة بليفنا رمزاً للنصر العثماني المطلق على الثوار والغزاة - التحالف السلافي المسيحي ضد الأتراك المسلمين.

كل هذا شرحه محمد علي باشا، القائد العام لجيش الدانوب في مقر القيادة العامة للقوات التركية، في فيدين. على الرغم من مظهره في بزته العسكرية المحلاة بالذهب، ذات الياقة العالية والمخيطة من القطيفة السوداء، والتي ارتداها ليضفي شعوراً بحتمية النصر على ضباطه، إلا أن الجو المكبوت الشائع في قصر الكوناك في فيدين، نطق بحقيقة الوضع، وهي أن الروس كانوا يكسبون.

جاء صوت محمد علي باشا جافاً ومشروخاً عندما أعلن. "لدينا أنباء تفيد بأن الروس سوف يستدعون الجنرال توتليبين لإدارة الحصار على بليفنا" عسكت الوجوه الفزع بشكل واضح، رغم أن أحداً لم يجرؤ على التنفس به، ناهيك عن التكلم عنه.

"إن رغبة القيصر هي أن يتم استدعاء صربيا لتشارك في هذه الحرب، وأنا لا أستطيع أن أفهم السبب في تأخرهم، إذا كانوا تائقين إلى حريتهم لهذا الحد!" تفحص خرائطه، وكأنه غير راغب في مواجهة الإذلال الذي يعرض الصرب أنفسهم إليه حالياً.

"أنهم مرهقون من جهودهم السابقة لمحاولة ازاحتنا". تحول محمد علي باشا إلى الإهانة الشعرية. "يبدو أن أخوتنا السلافيون يحتاجون إلى أن يدفع لهم مقابل قتالهم إلى جانب محرريهم."

تطوع أورهان أتاكوي بالهمس بأدب "تصف مليون روبل، ياباشانا."

ظهر محمد علي باشا بمظهر متسامي "إن الرقم غير ذي أهمية. إن واقعة الدفع نفسها هي التي تكشف عن طبيعتهم الارتزاقية. يختبئ الأمير ميلان خلف النسر الروسي ثم يمد يده ليتلقى مصروف جيبه."

وافقه جنرال آخر بتحليل أبسط "الأمير ميلان طماع وعديم الإخلاص".

ظهر على محمد علي باشا السرور، رغم أن كل شخص يحضر هذا الإيجاز فهم أنه يتمسك بالقشات. "إن الروس في حالة مريعة، وقد تعرضوا لنكسات لا يمكن تصورها في بليفنا. لقد كانت خسائرهم في الرجال ثقيلة. إن مفهوم الأخوة السلافية كله في طريقه إلى التداعي والانفراط، خاصة وأن الروس من كافة الرتب يرون كم هم الصرب عازفون عن القتال، وكم هي أحوالهم مريحة، مقارنة بالسلافيين داخل روسيا الأم! السلاف! يا أيها السادة، كلمة تعني "أقنان"! عبيد! لدي مصادر موثوقة تفيد بأن انهيار الروح المعنوية هي مصدر قلق رئيس بين المتطوعين الروس. لقد جاؤوا إلى هنا في حملة يفترض أنها روحانية، ثم اكتشفوا الحقيقة – بأن هذا الأمر مجرد تلاعب استعماري من قبل القيصر. ليست لديهم أية قناعة ليقاتلوا بموجبها. فلا الاستمرار في حملة شتائية ولا قضاء الشتاء في بلغاريا مجدٍ لهم على الإطلاق."

ألقى أورهان نظرة على ضابط زميل، وهو القائد القادم من نيس. نفض كتفيه. إن الأمور لا تبدو قريبة من حالة انهيار المعنويات التي كثرت حولها الطنطنة العالية ولا بأي حال من

الأحوال في الطرف الغربي من منطقة الحرب. فالقوات التركية موزعة بشكل واسع بحيث أصبحت قليلة الكثافة – فهي محتلة وتخسر على الشاطئ الأدرياتيكي، وتفرض سيطرة هشة على الأقاليم الواقعة شرق نهر ليم، حيث يحتمل أن يقوم البوسنيون بالاختراق في أية لحظة، وهم بالكاد يحافظون على الأمن والنظام في سنجق نوفي بازار – مما يتسبب في إغضاب النمسا، التي تعتبر المنطقة قريبة جداً من منطقة نفوذها، بحيث لا تسمح بأن يسيطر عليها الثوار الوطنيون، سواء كان يحملون رايات عليها نسور صربيا أو صقور الجبل الأسود.

اختتم محمد علي بقوله "بشكل إجمالي، فإن الصورة إيجابية، وحتى نضمن انهيار الحامية الروسية في بليفنا، فإنني أقترح أن تقوموا أيها السادة بإفشال أي هجوم صربي يخطط له من المؤخرة. إنني أعتمد عليكم في صد مرتزقة الأمير ميلان، الذين سيضطرون بدون شك للمسير شرقاً نحو بليفنا إذا صرخ القيصر فيهم بالحدة الكافية".

طأطأ الجميع رؤوسهم، ممتنعين عن ذكر حقيقة وجود عنصر آخر إضافي في كل هذا الوضع هو أن الرومانيين عبر الحدود هم في نفس درجة الاحتمالية في أن يشغلوا كلاً من الأتراك والصرب في فيدين – البلدة التي يعتبرونها تابعة لهم.

استمر الإيجاز الطويل، مع قيام اعتراضات واستراتيجيات مضادة متنوعة أفرغت محتوى مواهب الفرقة الغربية بكاملها.

بدأ أورهان يفقد الاهتمام في النقاش. كل ما كان يهمه هو حقيقة وجود عدد غير محدود من المسيحيين السلاف الذين يمكنه أن يتخلص منهم، بطريقة أو بأخرى.

تشنفت أذناه عندما تناهى إلى سمعه صوت قائد منطقة نيس وهو ينصح بأن الخط بين نيس وصوفيا بحاجة إلى دفاعات أقوى بكل تأكيد. فقد كان هناك دليل تكتيكي واضح بأن الروس، ربما

يتقدمون، مع القوات الصربية أو بدونها، مباشرة باتجاه الجنوب، عبر الحدود الصربية. للاشتباك مع القوات التركية على ذلك الطريق الحيوي الممتد شرقاً وغرباً، بمحاذاة نهر النيسافا.

أدرك أورهان، أنه إذا كان الأمر هكذا، فإن منافسه وعدوه الرئيس، أصلان بك، سيكون في خضم المعمعة، بدلاً من أن يقبع بأمان خلف الخطوط التركية في وظيفة إدارية من نوع ما.

أزعجته الفكرة وأغضبته.

تحدث إلى قائد منطقة نيس همساً "هل أنت تلمح إلى أنك لا تملك الثقة في توزيع قواتك؟ أنت بالتأكيد لديك ذلك "البطل" الشركسي العقيد أصلان بك الذي يقوم بتنظيم القوات في بيرو؟"

نفض القائد كتفيه "الظاهر أن الأمر ليس كذلك. لقد أرسلته إلى هناك قبل بضعة أسابيع. والغبي اللعين مفقود. لا بد وأنه قتل وألقي به في حفرة من قبل أحد ثوار الكوميتا، على ما أعتقد."

شعر أورهان أتاكوي بقلبه يتوقف عن الخفقان. أحسّ للحظة بندم مرده الحنين إلى الماضي: لقد قاتل أصلان إلى جانبه سنوات عديدة، وقد قرَّب موته شعور أورهان بالزوال بدرجة مزعجة. لكن تلك الوخزة كانت قصيرة الأجل. فقد حولتها الكراهية إلى دفقة من الفرح.

سأل القائد، وهو ينظر إلى أورهان متفكراً "هل كنت تعرفه؟"

"نعم، لقد قاتلنا في الأناضول، تحت إمرة الجنرال كندوكوف"

قال القائد "شركسي، أليس كذلك"

"حقاً"

"هل هو رجل محل ثقة؟"

"ولماذا تسأل؟"

"حسناً، إذا كان الأمر يتعلق بعمل "فويفودي" – "أي أن القائد الثائر يقتل من أجل الحصول على الريشة في القبعة" كما يقال – فسوف نسمع بالجثة، إنهم يحبون أن يستعرضوا مثل هذه الأشياء، في منطقتي الحرجية...."

"إلا إذا عثر على بعض القرويين الشركس ووفروا له عمليه دفن لائقة... لديهم قواعد حول مثل هذه الأمور، على ما أعتقد".

"نعم، حقيقة هم كذلك. أمر مزعج حقاً. ما الذي يفترض فيَّ أن أقوله في تقريري؟ إنني فقدت جثة عقيد؟ أمر مضحك جداً."

"إنها ظروف الحرب، يا صديقي، ظروف الحرب." كان الإيجاز قد انتهى إلى نبرة جديدة. بدأ نبض أورهان يتسارع ويرقص على إيقاع مختلف أكثر مرحاً بكثير، لكنه احتفظ بأفكاره لنفسه.

* * *

الفصل الثامن

"الحمد لله والشكر! يمكننا أن نحصل على وجبة محترمة!" جلبت صرخة حليمة المرحة جميع اللاجئين بحيث تجمعوا حول طرف المخيم. استعجل كل من أصلان، ساكنات وإسماعيل في المرحلة الأخيرة من حملتهم في البحث عن الطعام حتى أحمرت وجوههم.

"أحمد الله على عودتك سالماً!" قبضت رسميه على إسماعيل بقوة حتى كادت تسقطه عن جواد تيمور.

غمغم إسماعيل مؤنباً "أمي...."، فإن صحبته القريبة من أصلان قد أعادت إليه إحساسه بالرجولة، والتي أهملها بالضرورة خلال أيامه في قرية تيبيليك خمسة. بالإضافة إلى ذلك، فإن ضعف إسماعيل، المتمثل في صدره المعتل، جعله أكثر تصميماً على إنكار هزاله بحيث يكون الرجل لكل هاته النسوة المسكينات. وقدَّر أصلان الوضع: وهو الذي منحه تلك الفرصة.

رأته رسميه وهو يشيح بوجهه عنها، وفهمت. داهمتها رغبة في البكاء، لكن كبرياءها حال دون ذلك. قامت ماجده بتنظيم الشؤون على الفور "يجب أن نجهز وجبة واحدة ضخمة، ولكن نوقد ناراً صغيرة في موقعين أو ثلاثة، حتى لا يكون هناك الكثير من الدخان – ونستمر في تهوية النيران حتى نفرق الأدخنة". قامت ماجده بمساعدة النسوة اللاتي بدت عليهن الحيوية مع وجود فرصة لهن لعمل شيء بناء ومريح لأطفالهن والطاعنين في السن.

"نعم، نعم يا ماجده" دفعت حاتخان، أرملة حسن، بنفسها إلى الأمام "ولكن يجب على حليمه أن تراقب توزيع الطعام حتى تتأكد من حصول كل عائلة على كمية مساوية للأخرى..."

ابتسمت ماجده قليلاً "يا حاتخان، يجب أن تقومي أنت بالتوزيع، مادام الأمر يهمك."

أحسَّت حاتخان بالذعر وتكورت داخل ردائها الأسود "أنا؟ أنا لا أستطيع".

"ولكن يجب عليك – أنت صاحبة أكبر عائلة هنا، أفلا تعتقدين أنه سيكون من الحكمة أن تقدمي الطعام لكل الآخرين ولنفسك في الأخير؟ لما فيه مصلحة المجموعة؟"

"نعم، لقد فهمت..." استدعت حاتخان شقيقات حسن، وأفراد عائلته، ليساعدنها في ابتداع نظام للتوزيع.

لم يكن حسن قد تمكن من اللحاق بهن، منذ الوقت الذي عبر فيه فوق الجبل الكائن بمحاذاة نهر النيسافا لإحضار النجدة. ربما يكون قد مات – ربما قبض عله الأتراك واعتقلوه لاستجوابه. ربما ألقت مجموعة من "الضابطية" القبض عليه وألصقت به تهمة ما لمجرد الشعور بالرضى. مهما كانت الحقائق، فقد كانت حاتخان تتصرف كأرملة، وقامت بواجبها. لقد كان حسن زوجاً فظاً، لكن وداعه كان عملاً يحمل معاني الشرف الرفيع – يكاد يكون حياً– وكانت حاتخان قانعة به.

بقي أصلان واقفاً على حده، يراقب كل هذا الصخب المنطوي على النشاط واتخاذ القرارات. بات يعجب بأسلوب ماجده الحازم مع بقية النساء، واقتنع بأنها تستحق السلطة التي منحتها إياها كل الاستحقاق. أشار إليها لتتنحى جانباً للحظة.

"يجب أن نتحرك مبتعدين من هنا قريباً. إن الإقليم كله يعج بالوحدات العسكرية – البلغارية، الصربية، من يدري، لدي هواجس في أن الروس قد يندفعون جنوباً إلى هذا الحد خلال أيام قليلة. نحن لسنا آمنين هنا."

"أين سنذهب إذن؟" لم تشكك في مخاوفه، مدركة كل الإدراك أنه لا بد ويعرف المزيد عن هذه الأمور أكثر مما ستتمكن من معرفته على الإطلاق، بصفته ضابطاً في الجيش.

"أعتقد أن أفضل فرصة لدينا هي المسير باتجاه شمالي – غربي عبر السنجق ونحو حدود الجبل الأسود."

سألت ماجده ببراءة "وهل الوضع مسالم هناك؟"

ضحك أصلان، وهو يفكر في وحدات جنود الجبل الأسود التي واجهها في الأناضول خلال الحملات السابقة.

"كلا، يؤسفني أن أخبرك بأن أهالي الجبل الأسود هم عصابة من الثوار أسوأ من الشركس بكثير، إذا كان ذلك ممكناً. إنهم استقلاليو النزعة بدرجة شرسة، رجال طوال القامة ملتحون، ولديهم نساء يحاربن إلى جانبهم... وهم مصممون على تخليص أنفسهم من ربقة الأتراك."

"هل هم مسلمون؟"

هز رأسه نفياً "إنهم "جاور" أرثوذكس"

بان التشكك على وجه ماجده "لماذا إذن تريدنا أن نتحرك نحوهم؟."

"ليس لدينا خيار آخر. إن أملي هو أن بإمكاننا أن نختبئ في الجبال أفضل مما يمكننا أن نفعل في هذا الإقليم. ثم ننزل بطريقة ما إلى الساحل، ونعثر على سفينة هناك لتأخذنا إلى –"

"إلى أين؟ مع كل هؤلاء الناس؟ إلى أين؟ عودة إلى الشابسوغ؟ إلى القفقاس؟ هل يمكننا أن نفعل، هل تعتقد ذلك؟"

تنهد أصلان، وهو يفرك رأسه "امنحيني بضع دقائق يا ماجده. يجب أن أفكر بمنتهى الجدية..."

أصيبت ماجده بالذعر "هل تعني، أنه ليست لديك خطة؟"

استجمع أصلان قواه "لا، ليست لدي خطة على الإطلاق. أنا متعب وجائع. هذا كل ما هنالك. الأمر في غاية التعقيد. سوف أحتاج إلى وقت طويل لأشرح لك – جميع- الخيارات."

بات أصلان يأمل في أنه قد أقنعها.

كانت ماجده مهيأة مسبقاً لتصدق بأنهم جميعاً في أيدي كفؤة الآن – بوجود عقيد شركسي من الجيش العثماني! صدقت روايته بكل صدق، خاصة وأنه قد عاد بكل هذا الطعام...

قالت باحترام "حسن جداً، يا أصلان بك. سوف أعيد لك مراسلاتك. أنا أتوقع أنك ستكون بحاجة إلى دراسة الخرائط..."

"اسمعي يا ماجده-" شعر أصلان بثقل الحمل الواقع على كتفيه. "هؤلاء، هم شعبك. أريد منك أن توازني كل البدائل التي أطرحها، وبعد ذلك أن تتشاوري معهم كلهم. أنت القائد هنا- وليس أنا."

عضت ماجده على شفتها، وقد غمرها الأدب واللياقة اللذين أغدق عليها بهما. فقط لو أنه كانت لديه فكرة عن درجة الصعوبة التي عانت منها، في تسلم القيادة!

أحنت قامتها قليلاً باحترام قائلة "أشكرك" ثم انصرفت.

دب الحماس في اللاجئين وحلت فيهم طاقة جديدة. فقد جلب منظر أصلان وساكنات وإسماعيل وهم عائدون سالمين ومعهم طعام كافٍ لسد جوع كل فرد فيهم، أملاً جديداً.

توقف المطر بدوره، بحيث أصبح بالإمكان تجفيف الكبار وإطعامهم وجبة ملائمة ولو لمرة.

بالنسبة لماجده، فقد كان التطور الجديد للأحداث نعمة مضاعفة. فقد تولت قيادة المجموعة بدون رغبة منها، ولكنها وجدت أن القيادة جلبت إلى حياتها تركيزاً جديداً وطريقة لوضع

الحزن خلفها. شعرت بانفراج عظيم عندما اكتشفت أن أصلان يقف إلى جانبهم بصدق. لم تقتنع أنه لم يكن جاسوساً أو قد نصب لهم شركاً تركياً إلا عندما عاد. لكن سيطرته على الوضع جلبت مشاعر مختلطة. فقد كان جزء صغير منها يعارض السهولة التي استلم بها السيطرة. مع أن العادات والتقاليد تجعل موضوع انصياعها لكلامه مسألة آلية. بينما تذكر جزء منها – أكبر بكثير من المعترض كل أنواع ردود الفعل المتعلقة بوجود رجل تعتمد عليه، رجل تمتلكه، مما جعل حضوره مؤلماً جداً. تمنت لو أنه كان كاظم.

انسلّت ماجده مبتعدة إلى ملجأها تحت النتوء. احتضنت ركبتيها، وهي تهدهد نفسها جيئة وذهاباً، ثم بكت قليلاً، واثقة من أن أحداً لا يستطيع أن يراها.

"إنه أمر يدعو إلى الارتياح، أليس كذلك يا ابنتي، وجود رجل في الجوار". كانت حليمه قد فرضت حضورها، ودفعت إليها بقصعة كبيرة من الكاجاماك الساخن، يتصاعد منه البخار. مسحت ماجده وجهها بسرعة، وحاولت أن تتناول الطعام. كانت عصيدة الذرة الحارة المغذية دسمة إلى درجة أنها لم تتمكن سوى من تناول ملء بضع ملاعق.

"هيا، كلي! سوف تكونين بحاجة إلى قوتك" تحدثت إليها حليمه وكأنها طفلة.

"ما الذي يزعجك؟"

هاجمت الشكوك ماجده "ما الذي سيحدث لنا جميعاً، يا حليمه؟"

"يا له من وقت تختارينه لتقلقي الآن! ونحن لدينا طعام في بطوننا وضابط وسيم ليدلنا على الطريق!"

نفضت ماجده رأسها، وقد قهرها اليأس.

"ما الفائدة... لقد اندلعت الحرب في كل الأمكنة. إنه يقول ذلك".

ركعت حليمه واحتضنت ماجده في عناق هو أشبه بالخض. "أنت فقط متعبة جداً، لقد تحملت عبء كل شيء على كتفيك، ولست مضطرة إلى ذلك بعد الآن. ستكونين بخير... ستكونين بخير تماماً بعد أن تأكلي وتنامي قليلاً."

"نعم، نعم، ذلك هو" قالت ماجده وهي تتنشق مستعيدة المزيد من الدموع.

"والآن أرجوك أن تنهي ذلك الطعام. أنا أصر." أخرجت حليمه حفنة من الفواكه المجففة والمكسرات من جيب خفي. "لن أسمح لك أن تأكلي هذا إلا بعد أن تكوني قد انتهيت من تناول محتويات تلك القصعة" قالت حليمه ذلك ثم وضعت الحفنة عند قدمي ماجده وانصرفت.

في تلك الأثناء كان أصلان قد انتحى جانبا ببعض الأولاد، وكان يريهم بندقيته الألمانية الصنع من نوع سنايدر التي تذخر من مشط - أحدث ما يعتمده الجيش التركي، وهي بندقية شديدة الفعالية. جلس إسماعيل وولدي حليمه التوأمين، أزرات وتامبي في حلقة حوله، ووقف خلفهم صبيين هما أبناء نساء حسن، أبناء عمومة باتر وتامر. شكلت هذه العصابة "فرقة خفارة" الأخدود. لم يكد توأما حليمه اليتيمين يبلغان سن العاشرة: باتر وتامر لا أكثر من الثانية عشرة. أما إسماعيل المريض فهو في الثالثة عشرة. لقد كانوا رجالاً حسب التعريف الشركسي: لو كانوا في الوطن القفقاس، لتعلموا الصيد، ركوب الخيل، إطلاق النار، لدواعي التريض، بمجرد أن يصبح بالإمكان رفعهم إلى سرج فرس. ولكن بسبب من ظروف الحرمان التي يعيشونها في إمبراطورية تركيا المتداعية، لم يتبق لهم سوى الممارسات المميتة من الرجولة.

"أنتم تفككونها بهذه الطريقة، هل ترون؟" قام أصلان بالحركات كاملة مغمض العينين وكأنه يسحب حريراً ناعماً من طوق زفاف. أعاد تجميع البندقية بنفس السرعة والمهارة.

أطلق كل من أزرات وتامبي الصغيرين النداء بنفس واحد "إفعل ذلك مرة أخرى!" وفعلها أصلان مرة أخرى ، لمجرد تسليتهم.

"والآن أيها الأولاد، أريد منكم أن تقوموا جميعاً بتنظيف بنادقكم. لدى "صديقي" تيمور الزيت وقليل من برادة الحديد – سوف تحتاج إلى ذلك يا إسماعيل، لجعل عمل البندقية أكثر سلاسة..." داعب بإصبعه بندقية إسماعيل، وهي الأقدم من بين كل الأسلحة في المجموعة. كانت تعود إلى والد زوج ماجده، وهي من صنع عربي،مزينة بنقوش جميلة ومطعمة بالفضة عند حجيرة القذيفة. "هذه قطعة سلاح رائعة – قديمة جداً. لكنني واثق من أنها تطلق النار بشكل مستقيم."

"يمكنك أن تراهن على ذلك!" ولكي يبرهن على ذلك ويعرضه، نهض الشاب إسماعيل ورمى له أصلان بقطعة خشب في الهواء. كانت البندقية جيدة التوازن ولكنها ذات ماسورة طويلة.

بات أصلان يعجب كيف سيتمكن هذا الصبي الضئيل الجسم من تدبر أمرها. لكن إسماعيل كان رامياً بالفطرة، إذ رفع السلاح بحركة تطويح رشيقة، وبدون أن تغيب عينه عن مسار قطعة الخشب. إن دقته وأناقته تعنيان أنه قد تعلم بأن القوة لم تكن مطلوبة للتصويب الذي لا يخطئ – فالأمر كله متعلق بالتنسيق، هدوء الأعصاب، والنظر الثاقب. كان إصبعه على الزناد خفيفاً ودقيقاً إلى درجة مميتة. تكسرت قطعة الخشب إلى عدة قطع وسقطت على الأرض.

"إطلاقة جيدة يا إسماعيل. والآن، عندما تعودون إلى مراكزكم – أعتقد أنه سيكون من الأفضل إذا جلست هناك يا تامبي، وأنت على تلك السلسلة – "وأشار إلى نقطة مراقبة أفضل فوق الأخدود بالنسبة لأزرات. "بإمكانك أن ترى المزيد من هناك – وتشير إلى

شقيقك عبر المدى بدون أن تضطر إلى الوقوف والكشف عن موقعك..."

"نعم يا سيدي..." كان أزرات ينظر إلى الأعلى باتجاه أصلان وكأنه إله – نارتي من الجبال يمتلك قدرات أسطورية، شبيهة بما كانت جدته تقص عليه في حكايا وقت النوم القديمة.

ظهر الأخدود في تلك الليلة القصيرة وكأنه مسكون بحياة مشابهة للأيام الغابرة – النساء يطبخن بهدوء، وهن يدندنّ بمقاطع من الأغاني، والمسنون قد خفت آلامهم وأوجاعهم، يستذكرون الأيام الخوالي، بينما انهمك الأولاد كلياً في أسلحتهم، يلمعونها ويغيظون بعضهم بعضاً كما يحب كل الأولاد أن يفعلوا.

كان أصلان على وشك العثور على ماجده، ليبحث معها ما يعتقد أنه يتوجب عليهم عمله بالمزيد من التفصيل. فقد كان همه الرئيس، على الدوام، أن يخبرها بما يكفي لإقناعها بحكمة تفكيره، ولكن ليس الكثير إلى درجة إفزاعها. يعلم الله أنه كان هناك كابوس يتشكل أمامهم هناك في المناطق المتنازع عليها بين تركيا، بلغاريا وصربيا –مناطق يعرفون أنه يتوجب عليهم المسير من خلالها، بدون أية مرافقة عسكرية. لو أن ماجدة تعرف الحقيقة كاملة.. لو أن النساء يدركن الحقيقة عن طبيعة هذه الحرب –فسوف يصبح تحريك اللاجئين ضمن أي نوع من الانضباط مستحيلاً.

لكن كان يحترم ماجده، وشعر أنها تستحق معرفة الحقيقة. تلك كانت معضلته. وعليه فقد قرر أن يتحسس طريقه أثناء المحادثة، قليلاً بعد قليل.

حضر تيمور نحوه بخطى طويلة واثقة. رفع أصلان يده بالتحية "هل أنت بحال أفضل يا صديقي؟ كيف حال رأسك؟".

شعر تيمور بالسرور من استعمال أصلان لكلمة "صديق". لكنه كان لا يزال جندياً بكل الاعتبارات "بخير يا سيدي!" وأدى التحية

بقوة العادة. "هناك مجموعة كبيرة من اللاجئين تقترب من الأخدود يا سيدي! أطلب أوامركم-".

بهتت ابتسامة أصلان "ماذا بحق الشيطان؟ -اجعل الصبية يحتجزونهم- تماماً كما فعلوا معنا!" جاءت ماجده راكضة. "هل سمعت؟ ما الذي سنفعله؟".

"نستجوبهم أولاً".

أخذت ماجده تعصر يديها "يجب أن نتحرك! حالاً! إذا واصل حضور المزيد من الناس، فسوف نصبح مجموعة أكبر مما يمكن السيطرة عليها!".

"هذه هي أفكاري بالضبط. لكننا لا نستطيع أن نسافر في وضح النهار. تعالي معي يا ماجده."

جريا بسرعة وتسلقا الصخرة حيث كشفت ماجده عن نفسها في المرة الأولى لأصلان وتيمور. إلى الأسفل تحتهم وقفت مجموعة من الفلاحين، في المكمن الطبيعي الذي كونته الصخور البيضاء والشجيرات الشوكية. دفعت المجموعة أمامها صبياً لطخت وجهه الدموع، ملابسه مغطاة بالدم الجاف: كان هذا الطفل البوماك الذي شاهده أصلان في حظيرة العائلة، على بعد مسيرة يوم منهم.

"أهذا أنت! هل تبعتنا؟"

طأطأ الصبي رأسه بغباء، تكلم رجل آخر خلفه باللغة التركية، وهي اللغة المشتركة. "لقد عثرنا على هذا الطفل تائهاً يتجول في الحقول. ظل يتحدث عن رجل ضخم أراد أن يساعدهم. لقد تبعك لجزء من الطريق ثم غلبه التعب فلم يتمكن من مجاراتك. قال أنك كنت متجهاً إلى الجبال لذلك فكرنا أن هذه المنطقة ربما تكون أكثر أماناً..."

لم تكن لديهم أدنى فكرة. لقد كانوا يسيرون باتجاه الشمال الشرقي، متوجهين مباشرة نحو منطقة المعارك. شعر أصلان

بالغثيان لشدة ما غالبته أفكار الغضب على عجزه حيال هذه الأحداث.

أجابت ماجده أولاً، باللغة التركية أيضاً. "من أنتم؟ إلى أية قومية تنتمون؟"

"نحن شركس، معظمنا من الشابسوغ – لدينا عائلة من البزادوغ تسير معنا، وشخص من القباردي."

كان أصلان يحصي، ثم قال بالشركسية "خمسة عشر"، وقد ارتسمت على محياه ابتسامة تعبى.

ركع الرجل على ركبتيه، والدموع تنهمر على خديه، قائلاً "الحمد لله والشكر".

حضر العجوز تسوك من خلف أصلان "يجب أن تساعد هؤلاء الناس، يا أصلان بك، لا يسعك أن تطردهم. أنت ترى وضعهم... سوف يموتون."

سألت ماجده مرة أخرى، وبلغتها الأصلية هذه المرة: "هل أحضرتم أي طعام؟ هل لديكم أسلحة؟ ألقوا بكل أسلحتكم على الأرض...."

أطاعوا بسرعة، كان هذا على الأقل مؤشراً إيجابياً. كان هناك ثلاثة رجال عجائز وصبيين ضمن المجموعة، ما عدا الطفل البوماك. أخرج الفلاحون ما مجموعة ثلاثة بنادق من طراز الدك، ستة مسدسات، ثمانية "قامات" وأربعة أطقم من أحزمة الرصاص المتراكبة من تحت فروات الخراف التي يرتدونها.

صقّر تيمور، الذي كان واقفاً قرب أصلان قائلاً "يا لها من حمولة!" رفع أحد الرجال المسنين يديه وأعلن "أنا جانبولات. لقد قاتل أشقائي الأكبر سناً مني في الجبال مع منصور بك والرجلين الإنجليزين لونجوورث وبيل، اللذين وعدانا بالمساعدة، هذه البنادق إنجليزية الصنع! إنجليزية، هل تسمعني؟"

بدأ الرجل يهتاج، ويهز أحدى البنادق الطويلة فوق رأسه. "لو أنهم ساعدونا، أولئك الإنجليز، لربما كنا استطعنا أن ننقذ بلادنا، بدلاً من أن ينتهي المطاف بنا هنا - فلاحين لاجئين، هاربين من-."

"يكفي هذا القدر" جاء صوت أصلان قاطعاً، فهو لم يشأ أن تنشر الشائعات خلال المعسكر بدون سيطرة "يا تسوك، خذ أنت الرجال. ماجده، خذي أنت النساء. تيمور، خذ أنت الأولاد ثم عد لمقابلتي. يكاد الفجر ينبلج: أطعموا هؤلاء الناس وبعد ذلك يجب على كل واحد أن يستريح.. سوف نخلي المخيم لاحقاً، هذه الليلة، بمجرد أن يحل الظلام، يجب أن نتحرك مغادرين."

اقتربت ماجده منه "سوف أجيء لأكلمك بعد أن أقدم لهاته النسوة أمكنة يلذن بها. أنت محق يا أصلان بك. يجب أن نرتحل - إلى أي مكان- بسرعة - قبل أن يعثر علينا المزيد من الناس."

"إذا كان لاجئو الشابسوغ يستطيعون أن يجدونا، فكذلك سيتمكن الجنود."

هزت رأسها موافقة "سوف يلتهم هؤلاء الناس الطعام كله. نحن لا يمكننا أن نساعد القادمين الجنود بدون أن نهلك نحن جوعاً. يجب أن نتحرك وإلا كان مصيرنا الموت."

"بالضبط يا ماجده."

نادى تسوك على أصلان بينما هو ينطلق مع رجال الشابسوغ: "إن النارت هو أول من يتحمل العبء، أليس كذلك يا أصلان بك؟"

ضحك أصلان بمرارة "كذلك أخبرني والدي".

في وقت لاحق، وبينما كان أصلان منكباً على خرائطه الميدانية، انضم إليه تيمور قرب النار. كان ممتلئاً بالجذل والنشوة، ويرفس قطع الحطب برجله ليزيد اشتعالها.

"ما الأمر الآن يا تيمور؟ تبدو الأمور وكأنها تتجه إلى الأسوأ، ولكنك تتمتع بروح مرحة، على الأقل...."

"هناك رجل من القباردي مع الناس الجدد، إنه يدعى عمر. واحد من أبناء شعبي! أليست تلك مصادفة؟"

هز أصلان رأسه رافضاً "ليس تماماً. لقد ألقي بنا خارج القفقاس مثلما تنثر الحصى خارج حقل الحراثة. إن الحجارة تسقط هكذا..." وألقى بحفنة من الحجارة البيضاء على الأرض المحترقة القريبة من النار. سقطت ثلاثة متفرقة، واصطدم حجران بينما هما يسقطان جنباً إلى جنب.

ابتسم تيمور "ذلك هو نحن – حجران متدحرجان من نهر التيريك، إذن! إنه يدعى عمر. من قرية على مسافة ركوب لا بأس بها من قريتي. إنه القدر... إنه فارس حاذق، بالطبع."

بات تيمور ممتلئاً بالقرابة القباردية.

"ممتاز. ذلك يناسب خطتي بشكل جيد جداً. خذ أنت خارطة توزيع الجنود هذه، ومن مراسلاتي–"

"هل أعادتها إليك قائدة اللاجئين؟"

"صاحبة الولاية ماجده، نعم"

"عظيم، سوف ننطلق إذن."

وضع أصلان يداً مهدئة على ذراعه. "ليس بهذه السرعة. يجب أن أقابل الشاب عمر هذا. لا أريد منكما أيها الشابان المندفعان أن تنطلقا في الريف بدون غاية مفيدة. إن حياة العشرات من الناس متعلقة بمهارتكما في الاستكشاف.

"ولكن، يا أصلان، لقد أمضى عمر هذا زمناً مع الأتالق. لم تغادر عائلته القفقاس إلا قبل سنة، مثلي أنا. إنه المقاتل الأفضل تدريباً الذي يمكنك أن تأمل في العثور عليه."

"حسناً؟ كيف استطاع أن يتجنب التجنيد؟"

"لأنه الابن الأخير للعائلة، كما أنهم قدموا رشوة للقائمقام ليسمح له بالبقاء حتى يكملوا تسييج حقولهم ويجلبوا محصول السنة."

"والآن قام الصرب بالإغارة على حظائر العائلة...."

"نعم يا سيدي. واحرقوها. لقد كان هو الوحيد الذي نجا بحياته."

"دعني أقابل هذا الشاب."

عاد تيمور بلحظة مصطحباً عمر، وهو شاب هادئ الحديث بوجه ينم عن تربية راقية. كان يحمل شبهاً مثيراً للاستغراب من صديق الصبا لأصلان، ناخو الحابساي: أسمر البشرة، معتدل القامة، شديد التناسق، بملامح ذكية تتسم بالحركة، وابتسامة مدهشة ساحرة.

كان الشبه مؤثراً إلى درجة أن أصلان وجد نفسه يغالب مشاعره. "إنني سعيد بمقابلتك يا عمر. لنأمل أن نوصلك أنت وكل أصدقائك إلى بر السلامة.... والآن، انتبه إليَّ، وادرس بجدية. انظر...." بسط الخارطة على العشب، وانحنى فوقها، جاهداً في إخفاء مشاعره التي كان يدرك أنها ستكون واضحة لولا جهده في إخفائها.

تجنب كل من عمر وتيمور عيني بعضهما. فقد أقنعتهما خشونة أسلوب أصلان بخطورة العمل الذي سيقدمان عليه.

***

انطلقوا عند الغسق، متجهين لفترة بمحاذاة ضفة نهر توبليكا باتجاه كورسومليا. من هذه النقطة كان هناك ممر ضيق خلال الجبال، يؤدي مباشرة إلى وادي نهر الإيبار، ومن هناك عبر

السنجق – "العَلَمْ" كما هو معروف بالتركية – وهي منطقة حيوية واسعة تشكل ممراً للحركة القادمة من إمبراطورية النمسا باتجاه الجنوب نحو ميناء سالونيكا الرئيس، ملاحقاً مجرى نهر إيبار الصربي أولاً، وبعد ذلك نهر فاردار المقدوني العظيم في الجنوب. بغض النظر عن مصالح الجبل الأسود، صربيا، أو تركيا، في هذا الإقليم – فقد كانت قوة النمسا الرهيبة التي تقرر مصيره. كانت هناك أموال وتجارة في الميزان. لا يمكن للنمسويين أن يسمحوا للوطنيين المتحمسين مثل الصرب أو أبناء الجبل الأسود أن تكون لهم سيطرة على هذا الإقليم الحيوي.

كان أصلان يعرف من خلال حضوره لإيجاز في أمكنة غاية في الأهمية (داخل السيراسكريات) أن صربيا لا تجرؤ على القيام بحملات في السنجق على مستوى رسمي، بدون أن تخاطر بفقدان الدعم الدبلوماسي لمطالبها بالاستقلال التام عن العثمانيين في فيينا.

لكن ذلك لم يكن يعني أن لا يرى ضباط الخط الأمامي الصربيون ذوي الميول الصقورية أنه من الملائم الخوض في بعض الاشتباكات – ولو لمجرد جعل العالم يعرف أن الصرب مقاتلون رائعون، وأن السنجق، مثله مثل كوسوفو، عائد لهم بموجب حقوق الدماء والتاريخ. رغم ذلك، فقد ظهر أنه أهون الشرور كلها، أثناء دراسته للخرائط بصحبة ماجده، قبل انسحابهم مباشرة. قال "سنكون بأمان إلى درجة معقولة حتى نصل إلى هنا" وهو يشير إلى وادي توبليكا العميق. "بعد ذلك سيتحتم علينا أن نعبرِ الجبال إلى وادي نهر الإيبار – هل ترينه؟ يوجد ممر معلَّم عليه هنا، ومن هنا، كما ترين، عبر السنجق، باتجاه الجبل الأسود. أمر سهل." ابتسم لها تلك الابتسامة التي تنم عن منتهى الاستخفاف من قبل جندي قام لتوه بتلخيص مهمة رعناء.

"مع وجود العنصر المضاف القائل بأنه لا يوجد أي بديل آخر."

ضحكت ماجده "هكذا إذن يذهب الجنود إلى الحرب."

عبس أصلان "إلى حد بعيد."

تنهدت ماجده بعمق. "حسن إذن. سوف نقوم جميعاً بأداء صلاة العشاء أولاً. يبدو أننا بحاجة إلى أن يكون الله سبحانه وتعالى إلى جانبنا أكثر من أي شيء آخر."

انطلق عمر وتيمور أولاً، يعدوان بجواديهما في عتمة الليل يرافقهما إحساس عميق بأهمية كل منهما. تملك أصلان إحساس بأنه عاش هذه التجربة قبلاً وهو يراقب هذين الشابين، ينطلقان باتجاه الغرب تماماً كما فعل مع حفيد كازبك، ناخو، على أمل العثور على أبيه، الحاج دانيل وأمه، عندما أخرجوا بالقوة من وطنهم من قبل الروس. كان قد بحث هو وناخو في عدة أمكنة لمعرفة ما قد حل بالشابسوغ، الوبيخ، والشعوب الشركسية الأخرى في تلك الهجرة الإجرامية. في نهاية المطاف وجدوا بعض الآثار، في سوتشي، على البحر الأسود. ما رآه وقتها هو عمل هائل متعمد من أعمال الإبادة العرقية: آلاف المواطنين الشركس وقد تم التخلي عنهم، بسبب تخبط السلطات الروسية، التي لم توفر السفن المناسبة إلى تركيا، التي لم تهتم لكون هؤلاء المهجرين المرغمين كانوا يموتون كالذباب تحت أشعة الشمس بسبب نقص الماء والطعام، أو غرقوا في البحر مع سفنهم – التوابيت. ما الذي يمكن أن يعثر عليه تيمور وعمر، وهما يركبان أمام الجمع؟ هل كان السنجق "ساكناً" عسكرياً كما أصرت السلطات على أن يظل؟ فكر أصلان أن إيمان ماجده بالصلوات لم يكن في غير محله بأي شكل...

تمكنوا بحلول الفجر من عبور الممر الجبلي والوصول إلى وادي نهر الإيبار. مرة أخرى، لم يجدوا هنا سوى المعزات التائهة تتجول على غير هدى، "خانات" فارغة وعلائم قليلة جداً على الحياة العادية. كانت البلاد جميلة، خصبة، مروية بشكل جيد – لا عجب أن تقاتل عليها هذا العدد من الدول. اختبأوا داخل غابة كثيفة

من أشجار الزان لفترة الصباح، منتظرين عودة تيمور وعمر بتقريرهما عن الوضع. عاد الشابان بعيد الظهيرة.

قال تيمور "يبدو الوضع هادئاً إلى حد بعيد، لقد حددنا المواقع الميدانية التركية، ووجدنا طريقاً حولها – من خلال هذا المكان–" أشار إلى خرائط الميدان الثمينة. "يجب علينا أن نمر بجانب جوشا نيتسابانيا – هنالك معسكر صربي إلى الشمال منها مباشرة – وعبر نهر الإيبار إلى الشمال من بيوتسي، عثرنا على نقطة مخاضة.

استعلم أصلان "هل تقصد، فوق عبارة؟"

نظر كل من تيمور وعمر إلى بعضهما بعضاً "حسناً، ليس تماماً.... لدينا خطة تقضي بالحصول على بعض العربات وتوصيل النساء والأطفال عبر النهر بتلك الطريقة..."

أغمض أصلان عينيه "لا أعتقد أنني أريد أن أسمع هذا."

"يا سيدي! استنجح الطريقة! إنها فرصتنا الوحيدة!" تكلم عمر بجرأة.

ظهر على أصلان الحزم "حسناً جداً، يا ماجده، اذهبي أنت الآن. أنا أفضل أن لا أبحث التفاصيل أمامك."

"واصل كلامك، يا تيمور..."

"من هناك – حسناً، إنها منطقة سهلة ومفتوحة وسوف نضطر إلى التحرك بسرعة نحو الجبال، قاطعين هذا الوادي، وادي نوفي بازار."

بقي أصلان صامتاً لفترة، وهو يوازن الاحتمالات. هل يتوجب عليه التوجه جنوباً؟ هناك الكثير جداً من المتاعب على الجبهة الألبانية.. عبر كوسوفو؟ مكشوفة جداً لفترة هي أطول مما هو آمن....

"فليكن كذلك. اذهبا لتأكلا، أيها الشباب. وبعد ذلك عودا إليَّ من أجل الإيجاز النهائي."

اقترب اثنان من رجال الشركس المسنين الذين انضموا إلى المجموعة مؤخراً من أصلان بينما كان راقداً يستريح.

قال أصلان باقتضاب "أسميكما؟"

"أنا كمال، وهذا حمزه" ظهر على كمال، الرجل الذي كان قد تحدث إلى أصلان عند الوصول، بعض التحسن في الهيئة من أثر الرفقة. عينان صافيتان، تركيز على الهدف. ربما كان في ستينات عمره، لكنه كان لائقاً صحياً ورشيق الجسم. أما حمزه فهو مزارع ضئيل الجسم، بيدين معروقتين خشنتين، وظهر محدودب. ما كان أحد ليعرف سنه بالتأكيد: فهو في أي سن ما بين الخمسين إلى التسعين.

"كلانا يعلم أنه ستقع متاعب. نستطيع أن نطلق النار بشكل مستقيم. أخبرنا بما يترتب علينا عمله."

هزَّ أصلان رأسه رافضاً "لا فائدة من اتخاذكم موقف الحرس المقاتلين، إذا كان ذلك ما كنتم تفكرون فيه. إن الأمل الوحيد لدينا هو في عبور سهل الإيبار خلسة. إذا أطلقنا النار، فسوف يتم القضاء علينا. يجب أن نتصرف كضعفاء ونبدو كذلك، ونكون سلبيين قدر الإمكان. إنني أعتمد عليكم في السيطرة على أعصابكم. فإذا كنتم لا تستطيعون أن تعطوني كلمة شرف منكم على هذا الأمر، فإنني سوف أحتفظ بأسلحتكم."

"ولماذا تعيد إلينا أسلحتنا على الإطلاق؟" قال حمزه العجوز الضئيل الجسم بصوت قاسٍ جارح.

"لأنه، إذا تفرقنا فربما تحتاجون إلى السلاح للصيد – أو –"

مسح أصلان على وجهه بيده، وهو يفكر في البوماك المذبوحين في الحظيرة الملطخة بالدماء.

جاء صوت كمال مغضباً "لا تقل المزيد. إنه على حق، يا حمزه."

"احتفظوا بجهودكم لمساعدة النسوة العجائز. ستكون مسيرة طويلة جداً ونحن لا يمكننا أن نتوقف إلا بعد أن نصل إلى الحماية على الجهة الأخرى."

ضم كمال يديه الاثنتين إلى بعضهما قائلاً "أنا أعطيك كلمتي"

"وأنت يا حمزه؟"

خبأ حمزه يديه داخل سترته الطويلة التي لا أكمام لها، وطأطأ برأسه.

"أنا لست خائفاً من أي شيء أو أي أحد. لكنني سأنفذ ما تقوله."

جلب هذا الكلام الابتسامة إلى وجه أصلان المقطب لكل الاعتبارات الأخرى. فقد كان يعرف أنه لا بد من وجود شركسي ذي دماء حارة ومزاج عصبي بين المجموعة. وقد كان يأمل في أن يتمكن فقط من السيطرة عليه بما يكفي من الوقت لبلوغ منقطة الأمان.

وهكذا انطلقت المجموعة عند الغسق، مخاطرة بما تبقى من النور لصالح تغطية مسافة أفضل. كان الطقس قارس البرودة. توقف المطر تدريجياً لكن الشتاء كان قد أدركهم.

كانت الأيام الشديدة البرودة والتي لا ترى الشمس فيها، متبوعة بليالٍ تصل إلى حد الإنجماد، ولا يخفف من وطأتها إلا بريق النجوم. تحركت المجموعة البالغ عددها حوالي الخمسين ببطء ولكن بتصميم شديد. أبطأ شخص في النقل كان والدة حسن العجوز. كان الرجال قد صنعوا لها نقالة مكان العربة التي صممها لها حسن. تناوب جميع الرجال القادرين على حملها: لم تكن السيدة

العجوز تشكل الكثير من العبء، خاصة بوجود شرائط. إذ لم تكن، بهدوئها وعدم شكواها، تعادل أكثر من وزن طفل بالغ.

مشت ماجده إلى جانب أصلان مسافة قصيرة "هل نحن نتحرك بما يكفي من السرعة؟"

"بأسرع ما يمكننا تدبر أمورنا".

"لقد دأبت والدة حسن على رفض الطعام. إنها لا تأكل أكثر مما يبقيها على قيد الحياة، لكنها تقول أنه ليس بوسعها أن تأكل أكثر لأنها تشكل عبئاً علينا."

ألقى إليها بنظرة ذات مغزى "إنها عبء فعلي، بالمعنى الحرفي للكلمة."

لامست ماجده ذراعه "أنت لا تفهم الوضع. إذا ماتت، فسوف تصبح نساء حسن كلهن أصعب على السيطرة بقدر أكبر بكثير. إنها ضعيفة لكنها شرسة. ألا ترى؟ إنها تحافظ عليهن تحت السيطرة والطاعة. هناك العديد من الطرق للحفاظ على الناس أحياء."

كان بوسع أصلان أن يفكر بعدة أجوبة قاسية، لكنه عدل عن الأمر، واحتفظ برأيه لنفسه. ربما كانت ماجده تمتلك معلومات يمكن أن تعلمها له حول البقاء حياً – وإذا كان الأمر كذلك، فإن الجميع سيقدر نصيحتها تقديراً عالياً قبل انتهاء هذه الرحلة.

تابعت المجموعة مسيرها، وقد انتاب أفرادها الجوع، لأن مخزونها من الطعام بدأ يقل. كانت النسوة قد خبزن كل الذرة إلى أرغفة منبسطة قاسية، وكان هذا كل ما تبقى من رحلة أصلان للبحث عن الطعام بحلول نهاية اليوم الثاني. كانوا يشربون الماء من الجداول، ويلتقطون ثمار التوت البري المتأخرة النضج حيث يجدونها، وأحياناً، كان الحظ يسعفهم، فيعثرون على "خان" مهجور يحتوي على خضار شتوية تحول لونها إلى الصفرة بفعل الصقيع

في الحقول. كان الملفوف المسلوق، النباتات الجذرية المسلوقة، والذرة المسلوقة، هي كل التغذية التي يحصلون عليها.

كان مخيم اليوم التالي هو الأخير قبيل العبور من خلال السنجق. وكان هذا أيضاً هو الوقت الذي يتعين فيه على تيمور وعمر التعامل مع مسألة الحصول على واسطة نقل عائمة من أي شكل، لعبور نهر الإيبار.

اقترب تيمور من أصلان قرابة نهاية ذلك اليوم، قبل أن تبدأ المسيرة الطويلة. "أرجو الإذن بطلب المساعدة، يا سيدي."

أجاب أصلان بدون تفكير. وبحكم العادة "الإذن ممنوح" ثم ضحك. "تباً، إنني هارب من الخدمة! لا داعي لأن تستمر في التخاطب معي بصفة رسمية يا ولدي!"

ظهرت الحيرة على محيا تيمور، ثم نفض كتفيه. "لا أدري يا سيدي، الأمر يحضرني بشكل طبيعي. وأنا أحبه."

"حسن جداً، أيها الملازم. إشرح موقفك."

اطلب الإذن في اصطحاب ثلاثة رجال لتحرير عربتين زراعيتين من موقع محدد سلفاً".

"كم عدد الأفراد المعادين؟"

"قرية من الراياه"

"ها! هل هم صرب أم بلغار؟"

"ليست لدي فكرة، يا سيدي، ولكن الأمر هكذا، إذا ارتديت لباسي الرسمي..."

"انتظر. لن يكون بإمكانك أن تفعل هذا. ولكن لو أنني ارتدي زيي الرسمي وأقوم بقيادة هذه المجموعة... يصبح بإمكاني مصادرة المعدات. قانونياً. لا يفترض في هؤلاء الناس أن يعرفوا إنني لم أتسلم مركز قيادتي في بيرو."

"نعم يا سيدي" دلت ابتسامة تيمور العريضة على أن هذه كانت خطته في الأساس.

"حسن، أخبر أياً من الرجال الذين يتطوعون أن يرتدوا ملابس بيضاء وخضراء مثل "الباشي بوزوق"، وسوف تتكون لدي سرية صغيرة. هلم بنا نذهب."

راقبت كل من ماجده، حليمه وساكنات الموقف بتوجس متصاعد بينما كان أصلان يرتدي ثيابه العسكرية. ظهر لماجده وكأنه يتحول من الناجي المتفهم، العنيد الذي اعتبرته حامياً لهم، إلى كائن آخر بدم بارد، مختلف كلياً. تغيرت هيئته: تعابير وجهه، وحتى صوته.

فجأة، خلع سترة زيه العسكرية وألقى بها بعيداً. "اللعنة، لن ينجح هذا الأمر. إنني بحاجة إلى حلاقة ذقني. لا توجد مرآة، وليس لدينا صابون."

تقدمت أرملة حسن من الحشد المراقب.

"أنا أستطيع أن أحلق لك. حسن – لقد كنت أحلق له ذقنه. أنا – لقد احتفظت بلوازمه، في حالة عودته." ركضت وبحثت داخل حقائبها وعادت تحمل قطعة صابون نادرة.

"أشكرك، يا حاتخان...."

تجمعت ثلة من الأطفال بينما جلس أصلان على جذع شجرة مقطوعة وقامت حاتخان بعمل الرغوة على وجهه، وحلقت له وجهه نظيفاً بكفاءة عالية – فإن الضابط التركي يحتفظ فقط بشاربه، على أبعد تقدير. كذلك عثرت على مقص، وشذبت شعرة الأشقر الداكن. سرعان ما أخضع تيمور إلى نفس العملية. سقطت حلقات من الشعر الأسود والأشقر على العشب. ركض الأطفال ليلتقطوا نتف الشعر، لكن ماجده طردتهم عائدين.

"اتركوها! سوف تجلب لنا الحظ السعيد إذا قامت الطيور والسناجب بملء أعشاشها بهذه الشعيرات..."

تنهدت حليمه قائلة "إن الله سبحانه وتعالى يرى كل شيء" وهي تعتقد أن العملية بمجملها ضرب من الجنون.

بعيد الغسق بقليل، أصبح الرجال جاهزين.

"يجب أن تستمررن في المسير، أنتن النساء. سوف يقودكن عمر إلى مكان المخاضة المعين."

ركب أصلان وجماعته من "الباشي بوزوق" في الاتجاه المقابل. بعد ركوب صعب خلال الأحراش والخروج إلى سهل ممتلئ بالشجيرات الصلبة، وصلوا إلى الموقع - عبارة عن سوق-حديقة يديرها رجل بلغاري، وقد وقفت في الساحة "عربتان" عظيمتان مسطحتان، يحرسهما فلاح. من خلال الباب المشقوق، استطاع أصلان أن يشاهد المزارع مع عاملين جالسين إلى إطباق من اليخنة الساخنة التي يتصاعد منها البخار.

صرخ أصلان "هايدا"، وقد اجتذب انتباه الجميع بإطلاق النار من مسدسه في الهواء. قفز المزارع باتجاه الباب: أغلقه العمال بقوة خلفه. ركض "البكجي" الحارس المسلم الذي تقضي وظيفته المدفوعة الأجر أن يبعد اللصوص، خلف ظهر أحدى العربتين، وجهز بندقيته للإطلاق بعصبية محمومة.

"بأمر من الباديشاه "السلطان: لا تطلقوا النار! إنني أحمل أوراق مصادرة هنا!"

لوَّح أصلان ببعض من أوراقه العسكرية في الهواء، مرتاحاً لعلمه أن أحداً من هؤلاء الريفيين لا يستطيع القراءة. وعليه فسيكون الختم التركي إثباتاً كافياً لعملية خداعه. بدون إضاعة الوقت، التفت إلى عصابته "الباشي بوزوق" المرتجفين وصاح فيهم اربطوا الثيران بين عرائش العربات. ليس لدينا وقت نضيعه."

في الواقع أن الثيران الضخمة الأربعة وفرت تغطية ممتازة. إذ لم يتمكن المزارع وعماله من رؤية المتطفلين الذين هجموا على الساحة يدفعون الحيوانات باتجاه العربات، بوضوح. بات واضحاً أن المزارع، وهو بلغاري بحسب ما يستدل من ثيابه، قد خاف من مواجهة المحكمة العسكرية التركية أكثر من خوفه على مصادرة حيواناته. رفع يديه ليراهما عماله: "لا تطلقوا النار!"

أصيب الفلاحون بالهلع وانطلت عليهم الحيلة. فقد بان الإجراء كله رسمياً – تماماً كما كان أصلان يأمل. ركب باتجاه المزارع الذي عبر وجهه عن اليأس المطبق الذي كان يحسه.

"لا تقلق أيها العجوز. نحن لا نريد محصولك. أنا مضطر لمصادرة العربات للاستخدام العسكري. سوف تستردهما بحلول الصباح. قم أنت بقيادة واحدة، وأنت–" وأشار إلى "البكجي" الذي بدا عليه أنه مثير للمتاعب – "قم أنت بقيادة الأخرى. فوراً الآن، افرغوا هذه الأكياس – ليس هناك وقت للتأخير، قم أنت بالمسير وراء مساعدي عندما تصبح جاهزاً."

رجاه المزارع "أيها الشلبي – السيد المهذب– أليس هناك من "بقشيش"؟"

زأر فيه أصلان "نقود؟ هذا الأمر للدفاع عن الإمبراطورية!" لوح مسدسه وأطلق منه طلقة أخرى، وضعت حداً فورياً لكل النقاشات. اندفعت الثيران إلى الأمام في رعب، وانطلقت الرحلة.

تقدموا بسرعة معقولة، ركب أصلان إلى جانب السائق الأول، المزارع، وركب حمزه، الذي شكّل "باشي بوزوق" مقنعاً جداً حتى لا يقال كريها، وأبقى عينيه على الحارس التركي الذي يقود العربة الثانية.

كان الريف هادئاً. وكما هي العادة في هذه الأنحاء، بمجرد هبوط الظلام، أغلقت الأبواب والشبابيك وأوصدت، بحيث لم يظهر

أي وميض من الداخل في العتمة. وضعت كافة الحيوانات خلف أبواب موصدة. كان الخوف من اللصوصية واسع الانتشار. اكتفى أصلان بالدعاء لأن يكون استطلاع تيمور متعمقاً إلى درجة كافية وأنه يقودهم في الطريق الصحيح: غادروا الطريق الرئيس وانطلقوا في ممر مليء بالصخور بين الحقول.

طمأنه الفلاح بدون قصد منه. إذ نادى على حارسه الليلي وخاطبه بلغته الخاصة: إنهم يتجهون إلى مخاضة النهر. تلك ستكون وجهتهم." التقط أصلان كلمة "إيبار" وشعر بالارتياح.

وصلوا إلى النهر في وقت ملائم. قدم أصلان مطرة الماء التي يحملها إلى المزارع.

"تناول جرعة، أيها الرجل العجوز. سرعان ما سينتهي هذا الأمر" فعل المزارع كما قيل له، وهو يمسح عينيه المرتشحتين، ويأمل في أن ينتهي هذا الأمر برمته سريعاً. "لن تبدو ملفوفاتي بشكل طيب، لأنها متروكة تحت الصقيع طيلة الليل" عبر عن قلقه "ربما يسقط الثلج. آمل أن يكون أولئك التافهون الكسالى قد أعادوها إلى الداخل."

"تقول ثلج؟". مسح أصلان سفوح التلال خلفه بعينيه. كان يفترض في اللاجئين أن يصلوا حتى الآن. ما الذي يؤخرهم؟

إنه البرد... كانت الحرارة تميل إلى الانخفاض. مما أجبر كل شخص في المسيرة على فقدان شيء من طاقته – والسير بسرعة أبطأ، وليس أسرع. فقد ظل هؤلاء الناس يحيون على جراية طعام قليلة لمدة طويلة.

كان منظر النهر بشعاً، فهو طيني، سطحه يبدو زيتياً مما يدل على أنه قد بدأ يتجمد. مجرد بضعة أيام أخرى. وربما كان هذا العبور سيصبح أسهل.

"ها هم هناك!" في غمرة انفراجه، صرخ تيمور باللغة الشركسية بصوت عالي. كشَّر فيه أصلان، ورد عليه بسرعة بالتركية.

"اذهب إليهم وحثهم على الحضور بسرعة أكبر".

نفذ تيمور ما طلب منه. توقف الزمن: حدّق المزارع البلغاري العجوز في العتمة المطبقة بحشد النساء والأطفال التعساء، ثم عاد ببصره إلى أصلان.

ثم سأله "إليَّ هنا، ما الذي يجري بحق الجحيم؟"

"مناورات. لا تطرح أسئلة. فهذه مهمة سرية."

علَّق الحارس التركي بقوله "مهمة سرية مثل مؤخرتي"

بدون تفكير، طوَّح حمزه بندقيته القديمة باتجاه التركي، فتلقى صدغه عنف الضربة الكامل. سقط إلى الأمام على مقعد السائق، فاقداً الوعي كلياً.

صاح فيه أصلان متهكماً "أحسنت يا حمزه، ذلك يعني أنك ستقود العربة – وسيكون لدينا شخص واحد أقل لحراستنا"

بدأت النساء يركضن باتجاه العربات، تسلقنها متدافعات، في حالة هستيرية. كان بعضهن يبكي من شدة البرد. تقدمت إحدى النساء، وهي تنتمي إلى المجموعة الأخيرة من اللاجئين الشركس، مجموعة حمزه وكمال، اقتربت من أصلان حاملة طفلتها بين ذراعيها. رفعت اللفة الصغيرة إليه حتى يراها.

"إنها ترفض أن تستيقظ. إنها باردة... هل تعتقد أنها ستموت يا أصلان بك؟ كم سيتحتم علينا أن نمشي أكثر من هذا، قبل أن نشعر بالدفء مرة أخرى؟"

قال لها "قريباً، قريباً" فماذا يمكنه أن يقول غير ذلك؟ سحب إحدى النساء الأكثر لياقة خارج العربة بخشونة ظاهرة، وحمل الأم مع طفلتها إليها أولاً.

"يا تيمور، هل عبرت النهر راكباً؟ كم يبلغ عمقه؟"

"إن الماء يصل إلى حد ركابات الفرس، يا سيدي."

نظر أصلان إلى النهر. "إنه يبدو أعمق من ذلك. يستحسن أن تعبره أنت أولاً – وأنت، يا عمر، أعبره من أسفل المجرى قليلاً."

استدار أصلان نحو المزارع. "ترجل من العربة. انتظر هنا".

زمجر المزارع "لا وحياتك! سأقوم بالعبور بثيراني إلى الضفة الأخرى وأعود بهم، أشكرك على أية حال!"

"إذن، قم أنت يا حمزه بقيادة العربة الثانية، واركب يا كمال إلى جانبه"

حضرت ماجده، مبهورة الأنفاس، شاحبة الوجه... "كم شخصاً يجلس في كل عربة؟ أوقفن الذعر!"

"لا أكثر من عشرة. إنني قلق من النهر. سوف نضطر إلى القيام برحلتين – حتى ثلاث رحلات إذا اضطررنا."

كاد العبور الأول أن يكون كارثياً. فقد كان النهر في الواقع أعمق من الوقت الذي جربه فيه تيمور قبل مجرد بضعة أيام. فقد تسببت عواصف الشتاء في زيادة الجريان. بدأت المياه الثلجية الباردة تتسرب إلى قعر العربتين، زاحفة إلى ارتفاع الكاحل. بدأت بعض النسوة يصرخن في هلع عندما نزلت إحدى عجلات العربة الأولى في حفرة في قاع النهر.

صاح المزارع البلغاري "أقفلن أفواهكن! سوف تخفن حيواناتي! اصمدن عند الوسط، أيتها الإناث الغبيات!"

انتظر أصلان على الضفة الصربية من النهر، صامتاً ومتوتراً خلال هذه العملية. أفرغت العربات حمولتها بسرعة وعادت لتحمل الدفعة الثانية بسرعة مضاعفة.

أمر أصلان "ليركب عدد أقل منكن هذه المرة. سوف نقوم بعبور ثالث."

أثناء قيامهم بالعبور الأخير، وأصلان يركب إلى جانب العربة، سمعوا صوت إطلاق النار. وقف أصلان على ركابيه، ليحافظ على سيقانه من أن تتخدر في المياه الباردة من ناحية، وليحصل على رؤية أفضل لما ينتظرهم من ناحية أخرى.

جاء صوت إطلاق النار من خلف مرتفع في الأرض إلى الجهة الشمالية الشرقية، توالى القصف المدفعي السريع للقذائف، مصحوباً بهدير قذيفة مدفعية ثقيلة، بين الفينة والأخرى.

"هذا كل ما ينقصنا... يجب أن نتحرك بسرعة." أصدر أصلان أمره بأقصى ما استطاع من السيطرة على النفس "هيا تحركوا، جميعكم!"

تدافعت المجموعة الأخيرة من النساء خارجات من العربة في مياه النهر، بدون أن ينتظرن حتى يستدير المزارع بالعربة ويوصل مؤخرتها إلى الضفة. نهض المزارع واقفاً على لوحة الجلوس في عربته، وهي متوقفة وسط الماء، وصاح:

"أنا سعيد بالخلاص منك ومن فاسقاتك، يا رجل العصابات الشركسي!" ثم هز قبضته وأتى بحركة بذيئة "سحقاً لك من ضابط تركي!".

أراد تيمور وعمر أن يعودا إليه ويتدبرا أمره. لكن أصلان الذي كان لايزال ممسكاً بمسدسه قال "أتركاه لشأنه! عيناكما إلى الأمام!" جاء صوته عنيفاً، وحشياً: أصيبت ماجده وكل النساء

بالصدمة من درجة العنف التي أظهرها تجاه الشابين التابعين له. "الأفضل لكما أن تتابعا مسيركما، هل تسمعاني!" وهو يمور غضباً.

لكن السبب في ثورته كان الخطر الذي يواجهونه. فبينما هم يكادوا يركضون مسرعين متجمعين سوية في العتمة، كان بإمكانهم مشاهدة الوميض البرتقالي لنيران القذائف على بعد لا يزيد عن نصف ميل.

"هذه هي الدبلوماسية" شعر أصلان بالقرف، مدركاً أن كل هذه المناوشات مخالفة بشكل أساسي للأوامر الصادرة عن الباب العالي نفسه.

لم يكن إسراعهم في المسير يأتي بأية فائدة على ما يظهر: فقد كان القتال يرتحل معهم على مدى خط التقاء السماء بالأرض، مضيئاً الأفق بطريقة مفاجئة رهيبة في كل مرة تتفجر فيها قذيفة هاون. راقب أصلان القتال باهتمام وتركيز. بات يلعن نفسه على ترك موضوع الاستطلاع في يد عريف متوسط الخبرة. إن تيمور كشاف جيد، لكن الحرب الأناضولية أمر مختلف كلياً، يجري خوضها على طبيعة مختلفة: صخور متوسطة، صخور هائلة، مخابئ محفورة تحت الجروف الصخرية...

لم يكن تيمور قد أدرك الاحتمالات الخطرة في هذه المنطقة ذات السهول المتموجة بسلاسة – ولكن، أنى له أن يعرف، وهو يستطلع عن مسافة بعيدة، وعبر النهر، ما تأكد أصلان من التعرف عليه – وهو أن تلك "الأرض المرتفعة" هناك إلى جهة الشمال كانت في حقيقة الأمر ساتراً ترابياً هائل الحجم أقامه الصرب وأحسنوا تمويهه، ويخوضون حالياً عمليه حصار رئيسة هنا ضد الأتراك المحتلين، المتحصنين إلى الجنوب منهم مباشرة، خلف سلسلة صخرية منخفضة عند سفوح تلال الموكرا جورا– المجاورة لوجهتهم، الجبل الأسود.

لقد كانوا يهربون عبر منطقة تتوسط ميدان معركة هائل.

عبرت قذيفة وهي تصدر صفيراً مرعباً فوق رؤوسهم. المزيد من الصرخات. انبطح العديد من النساء مسويات أجسادهن بالأرض الباردة، في محاولة لتغطية أطفالهن بأجسادهن.

زمجر أصلان "انهضن! كلما استغرقنا وقتاً أطول في العبور، كلما زادت الخطورة علينا!" بدأ أصلان، بمساعدة كل من عمر، تيمور، كمال وحمزه عملية توصيل يائسة، يرفع الأطفال والعجائز عبر السرج ويعدو باتجاه الاحتماء علىبعد مئة ياردة أو أكثر قليلاً إلى جهة الجنوب الغربي. ينزل الناس ثم يعيد التقاط آخرين ويكرر العملية... شجع هذا الإجراء اللاجئين الآخرين على الجري بسرعة أكبر – إلى درجة أن الرجال بدأوا يمارسون لعبة القط والفأر، يخطفون الأطفال والعجائز من الآباء الملهوفين ويجبرونهم على الجري بقوة أكبر لاستردادهم. يلتقطون الناس ثم يلقون بهم....

"هيا بنا! هيا بنا! اتجهوا إلى مجرى ذلك النهر هناك!" أشار أصلان إلى جدول، هو أحد روافد نهر الإيبار. ارتفعت إلى جانبه حافة نهرية عميقة بما يكفي لوجود حفر صغيرة، مع وجود صف من أشجار الصفصاف خارجة منها. سيكونون أكثر أماناً هناك، ويمكنهم التحرك من غطاء إلى الآخر صعوداً في مجرى النهر باتجاه الجبال.

كان تسوك هو آخر من حملهم عبر سرجه، وقد حال لونه إلى الرمادي من شدة الإرهاق. بمجرد أن انزلق الرجل النحيل حتى العظم إلى الأرض، انفجرت خلفهم صلية هائلة من النيران. أضيئت السماء بنور خاطف – تذكر أصلان أمجاد مدينة استنبول، في اليوم الذي اعتلى فيه عبد الحميد العرش. لم يكن هذا القصف الشرس يقل عظمة عن تلك الاحتفالات، فهو عبارة عن شلال من اللهيب والدخان، من نيران المدافع المتوسطة والثقيلة، صادرة عن الجانب الصربي. أضيئت الخضرة والصقيع من قوة النيران. ركضت ماجده عائدة، ووقفت إلى جانبه وهي تتأرجح وصرخت قائلة "آه يا

الله، هل هذا يعني أنهم قادمون إلينا؟" وهي تضغط بقبضتيها المشدودتين إلى خديها.

تردد أصلان لمجرد ثانية، ثم وضع ذراعه حول كتفيها، بحيث غمرها بمعطفه العسكري "لا يا صاحبة الولاية. إن هذه هي ما يسمى "بنار الفرح واللعب". إن الصرب ينسحبون، وهم يقذفون بكل ما تبقى في حوزتهم، وكأنما يهزون قبضتهم في وجه الأتراك".

ارتجت الأرض نفسها تحت أقدامهم من قوة الصدمة. وقفت ماجده ملتصقة بأصلان لهنيهة التقطت فيها أنفاسها. ثم انسحبت مبتعدة، وهي تلف وجهها المحزون بدثارها. قالت "سوف أخبر الأخريات". ثم ركضت إلى مقدمة المجموعة، حيث صدرت تنهيدة تشجيع مثيرة للشفقة من النساء القويات، ساكنات، رسميه، وحليمه، وتابع الجمع الصغير من الشركس مسيرته.

***

الفصل التاسع

تلقت قوات أورهان أتاكوي الوطأة العظمى من الهجوم الروماني على فيدين، بحيث أصيب هو بالإرهاق الشديد. فقد كان صباحاً زادت الريح في برودته حتى التجمد، فوق قمة تل خارج المدينة. نظر من خلال منظاره المقرب على ما ظهر أنه وضع شبه ميئوس منه، داخل التحصينات الترابية المحيطة بموقعه الحصين المشرف على ما دونه، أو خارجه على حد سواء.

ربضت خطوط من الفوهات السوداء تحته مباشرة تنتظر، جاهزة لتصب نيرانها القاتلة على العدو الذي تبدو أعداده وكأنها لا نهاية لها. أي يساره، كان الجنود الرومانيون قد عبروا نهر الدانوب، وتخندقوا. ظهر له وكأن خنادقهم وشعورهم المجعدة قد تحركت أقرب إلى مواقعه بمسافة حوالي نصف ميل خلال الليل. لا بد وأن ذلك نوع من الخداع البصري....

استمر في حساباته، والكبرياء تمنعه من قبول كلمات ضباطه الميدانيين، بأنه قريباً، سوف يتحتم عليهم التفكير في الانسحاب.

سعل مساعده الضابط الأصغر منه سناً بأدب "هناك فارس مراسل، سيدي!"، وجهز مقعد العقيد الميداني. كان أورهان يفضل في هذه الأيام أن يقرأ الرسائل الأخيرة الأليمة وهو جالس. تنهد أورهان، أغلق منظاره الفرنسي المقرب الأنيق، وجهز نفسه لأسوأ الاحتمالات.

ألقى فارس المراسل بنفسه عن حصان بلغاري قبيح ناتئ العظام، وأدى التحية بيد مرتجفة. ارتعشت يد أورهان أتاكوي بدورها، مع أن ارتعاشها لم يكن سببه تبديد الطاقة نفسه. لقد كان الملازم الشاب الواقف أمامه يحدق فيه بقوة فبات من المهم أن

يكشف اللعبة – أن لا يبدي للناس بداية انهيار أعصابه. أجبر أورهان نفسه على الابتسام.

"أشكرك. هذا كل شيء."

"سيدي – أرجو أن تأذن لي بالكلام، يا سيدي."

دهش أورهان "ما الأمر؟"

تهدل كتفا الشاب إلى الأسفل "هل صحيح أن الروس قد احتلوا صوفيا؟"

سرت موجة من التوتر خلال المجموعة الصغيرة من الضباط، الواقفين حول العقيد أتاكوي.

"إن الشائعات تنتقل بسرعة. ولكن الحقائق لا تطير. الأمر الذي يجب أن يقلقك أكثر هو أننا إذا لم نكن حذرين وحريصين فإن الصرب سوف يحتلوا نيس. إن الجندي الصالح لا يشغل نفسه بالصورة الإجمالية. فهذا غرور: هذا ليس من شأنك."

وهكذا، فقد ظل أورهان على العهد به، بليغاً بشيء من المرارة.

"نعم، يا سيدي ولكن–".

"بدون ولكن. أخرج من هنا وتابع أداء واجبك تجاه السلطان."

"نعم يا سيدي. الله أكبر."

لجأ أورهان إلى داخل خيمته، واستلقى على سريره النهاري. كان قادراً على رؤية النتيجة الحتمية للكوارث الأخيرة بمنظور منطقي، لكنه لم يكن قادراً على قبولها. لقد سيطرت الإمبراطورية العثمانية على مسرح العمليات هذا طيلة أربعمئة سنة. إن "الروميلي"، تركيا الأوروبية، هي ممتلكات حيوية. إنها مشروع مقدس: تمثل إرادة الله سبحانه وتعالى. إن حياة الروح والدولة شأن واحد. إن احتمال انتصار مادية "الجاور" والوطنية الضيقة،

والتطلعات الأنانية على الخطط الإلهية أمر لا يمكن التفكير فيه. إن الإمبراطورية ترتيب مثالي بين الله سبحانه وتعالى، والسلطان المعيَّن إلهياً، وبين كل الناس، مسلمين، مسيحيين، يهود – مهما كانت أديانهم- الواقعين تحت سلطانه. إنها أفضل أشكال الحكم المقدس الطموح التي وجدت على الإطلاق. إن أفول نجمها ضرب من التجديف والكفر.

عاد أورهان إلى قراءة التقرير مرة أخرى بينما صدره ينتفخ وقلبه يخفق باضطراب. على ما يبدو، أصبح مضطراً إلى نقل ثلاث سرايا تحت قيادته لإعادة تأسيس خط المواصلات بين نيس وصوفيا- وهو الذي تم قطعه من قبل القوات الصربية. كانت بليفنا قد سقطت، والصرب والروس يزحفون على استنبول، ولم تعد فيدين قضية ذات شأن.

أدرك تمام الإدراك أن الروس قد أجبروا الصرب على دخول الحرب، لإشغال القوات التركية في الغرب، وإلهائها عن الهجوم الرئيس للقوات الروسية – لا سمح الله، يقول هذا التقرير أنهم أصبحوا قريبين من أدرنه – المدينة التجارية الأعظم في الروميلي! من هناك سيكون الطريق ممهداً تماماً حتى أسوار مدينة السلطان، سيقومون بقرع الباب، ودخول قصره، الباب العالي!

شعر أورهان، مع هذا التركيز الوحيد على حياته المهددة، أن مصيره سيكون الدمار الشامل. تصاعد الغضب في داخله، على أن ولاءه قد ذهب هباء. لقد كان مقدراً له أن يكون مخلوقاً متفوقاً: وقد كانت الإمبراطورية السبيل إلى تحقيق منزلته السامية. كيف يمكنه أن يخلص نفسه الآن....

الحمد لله والشكر. لماذا لم يأته الإلهام في وقت أبكر؟ نهض أورهان جالساً، عدَّل كتفيه، وقد جاءته فكرة ملهمة. إن الأمر متعلق دوماً بالانضباط الذهني، فكر في نفسه: هنالك دائماً مخرج،

إذا حافظت على صفاء ذهنك، وجعلت الحق عز وجل في عقلك على الدوام.

صاح أصلان بأحد المساعدين في الخارج" أيها النقيب" استدع ذلك الكشاف."

استطاع أورهان أن يرى، من خلال الشادر، جسم الرجل ينطلق مبتعداً تنفيذاً لأمره.

عاد الصبي إلى الظهور، محمر الوجه، خلال لحظة. لقد كان يملأ جوفه بوجبة ساخنة هو بحاجة ماسة إليها من مطبخ الميدان عندما تم استدعاؤه. كان طويل القامة: انحنى بشدة وسهولة ليدخل الخيمة وعندما عاد إلى الانتصاب ليقف في هيئة الاستعداد، لامس رأسه بطانة السقف. اضطر أورهان إلى التكلم بصوت خفيض، ليمنع مسترقي السمع الذين لا مفر من تواجدهم خارجاً من سماع ما سيقوله.

"هل جئت من جنوب بيرو؟"

نعم سيدي".

"من مقر قيادة اللواء...."

"نعم سيدي" ظهرت على الصبي علائم الحيرة.

"هو الضابط الذي كان يتولى القيادة في بيرو؟ من الذي سمح بوقوعها في يد العدو؟"

"أعتقد أنه ضابط مقدوني، سيدي - عقيد- آه..."، كان يبدو عليه الإرهاق، ويعجب مما إذا كان من الملائم ان يذكر الإسم.

"لا يهم. إذن. "الشركسي"، العقيد أصلان بك، أفهم من ذلك أنه لم يعد إلى مركزه؟"

"لم يعثر عليه يا سيدي. إنه مفقود في القتال."

"ولكن لم يكن هناك قتال قبل هذا التقدم الصربي، أليس كذلك؟"

تلعثم الصبي" نعم، لا، ليس تحديداً – بل قلاقل، اشتباكات.."

"حسن. ذلك كل ما احتاج إلى معرفته، يمكنك الانصراف."

كيف يمكن لعقيد بكامل رتبته أن يكون قد "اختفى في ظروف القتال" إذا لم يكن هناك قتال؟ مناوشات واشتباكات وخلافه –سيكون من غير الملائم لأصلان أن يشارك في مثل تلك الاضطرابات. بمجرد أن يكون قد حصل على أوراقه، كان يفترض فيه أن يذهب لاستلام قيادته، بدون أية عروض جانبية. لقد كان أصلان متلهفاً على الوصول إلى وجهته – فما الذي تسبب في حدوث التغيير؟ أصبح بمقدوره أن يشم رائحة القرار من الخدمة في الهواء. لا يعقل أن يكون قد وقع في هوى تلك الفتاة؟ الشركسية الناحلة.. أصبح أورهان على أتم اليقين الآن. جلس في هذه اللحظة وبدأ يكتب مطولاً، بخطه العربي المزوق التقليدي المميز، إلى أشخاص يعرف أنهم ميالون إليه في السيراسكريات. وكان رأيه أن العقيد أصلان بك، الذي كان تابعاً للواء الأناضولي الثاني، قد هرب من الجندية بكافة الاحتمالات، وأنه كان له دوراً أساسي في سقوط بيرو، والتسبب في الاختراق، من قبل القوات الصربية لمحور نيس- صوفيا. عندما تدلهمّ الخطوب وتصبح الأوقات صعبة، فإن كل شخص يحب أن يعثر على ذريعة. وسوف يكافأ أورهان أتاكوي، بمشيئة الله ومباركته، على تلك الذريعة.

***

أصبح المسير داخل الجبال شبيهاً بالطقس: فمع ميله إلى البرودة وبدء تساقط الثلوج، كذلك أصبحت الرحلة نفسها أبطأ تدريجياً إلى أن توقفت الحركة كلها. لقد أصيبوا بالانجماد.

بعد أسبوع من التحرك ليلاً والبحث عن الطعام أثناء النهار، أصبح أصلان وماجده على شفا الهزيمة. لم يعثروا على أي شيء خلال الساعات العشر الماضية، ولا على أي شخص يحصلون منه

على أي طعام. فقد امتدت حولهم منطقة طبيعية حجرية خالية من أية ملامح مميزة.

إن كانا قد أحسا بالتعاسة، برغم دافع القيادة الواقع على كاهلهما، فلا عجب إذا كانت البقية في وضع أسوأ. استلقى العديد في مبيت مؤقت في هذه الزاوية الجرداء من سفوح التلال، محشورين تحت الصخور، لتجنب الريح العاتية. اقتربت منهم هبات من الثلج صاعدة من الوادي.

في الأعلى، كانت القمم مثقلة بالتيارات، ووقفت النتوءات المسنونة في حالة إنذار، كأنها الحراس الطبيعيين، تحذرهم من مجرد التفكير في المرور من ذلك الاتجاه.

حشر أصلان نفسه واقفاً في فسحة داخل جدار أسود من الصخر، حتى يتمكن من دراسة خارطته بدون أن تهب في وجهه. وقفت ماجده إلى جانبه. مازحها بقوله "قريباً سنكون قد مشينا خارجين من طرفها" وهو يشير إلى طرف الورقة، حيث تنتهي حدود تركيا مع الجبل الأسود عند الهامش قرب اليد اليسرى. "ولن أعود قادراً على النظر هنا بعد ذلك، للاستدلال على الطريق الواجب سلوكها."

سألته "وهل يشكل ذلك أي فرق؟" وهي تلتصق قريبة منه بطريقة لا علاقة لها مطلقا بانعدام اللياقة بقدر ما هي متعلقة بالرغبة المجردة في البقاء على قيد الحياة. خلفها، كان كل من كمال وحمزه يلوذان بالصخرة، ينتظران كما يبدو دورهما للتحدث إلى أصلان، طفقا ينفخان داخل أيديهما وينظران إليها بفراغ صبر متزايد.

ترددت ماجده ثم اقتربت أكثر وكأنها تهم بدراسة الخريطة.

"هناك موضوع لم أتوقف عن التفكير فيه" قالت بما يشبه التمتمة. "ربما يكون الآن هو الوقت المناسب للحديث... هل أنت تثق بي، يا أصلان بك؟"

"طبعاً، كيف يمكنك أن تسأليني هذا الآن، بعد كل الذي مررنا به!".

أبقت ماجده عينيها على الخارطة "أعتقد أن كلاً من كمال وحمزه يبغضاني. إنهما يعتقدان أنه يجب أن يسيرا إلى جانبك وتتم استشارتهما، وليس أنا. إن هذا الوضع يسيء إلى كرامتهما: فأنا مجرد امرأة."

ابتسم أصلان "أنا مدرك لكونك امرأة، يا ماجده"

تراجعت ماجده مجفلة وخبأت وجهها وهي تحس بخجل شديد.

"أرجوك، لا-".

رفع يده ليطمئنها انه إنما يحاول التخفيف من موقف في غاية الصعوبة. "أرجوك أن تسامحني. أنت القائد. لقد أخرجت قريتك بكاملها من الخطر. لقد ساعدتني، في الوقت الذي كان بإمكانك فيه قتلي باعتباري دخيلاً. هناك الكثير جداً من النساء أكثر من الرجال في هذه المجموعة. لكل هذه الاعتبارات، أنا أمنحك موقع الزعامة، وهذا يضع نهاية للمسألة. هل يتذمر تسوك؟ إنه الأكبر سناً فينا، وهو بذلك صاحب الوجاهة. ماذا عن حماك العجوز حطوط، أو والد حليمه العجوز تامبي؟ إن بإمكانهما أيضاً أن يقولا الشيء نفسه. إننا في موقف غاية في الصعوبة، يبلغ حد اليأس. أنت مؤهلة لأن تقرري ما تعتقدينه الأفضل لقومك، أولاً وقبل كل شيء".

خفضت ماجده صوتها أكثر من ذي قبل "هل تعتقد أنه ستكون لدينا فرصة أفضل ِفي النجاة لو أننا تفرقنا إلى مجموعات أصغر؟"

بدت عليه الدهشة "ما الذي تقترحينه؟

"إنني خائفة... لنفترض أنهما يريدان منك أن تصطحب الأقوى والأكثر لياقة، وتترك العجائز خلفنا...." أطلق أصلان شتيمة. فقد كان يجب أن يتوقع مثل هذا الأمر.

"كيف ستتخذ قرارك، يا أصلان بك، بصفتك عسكرياً؟ هل يعلمونكم هذه الأشياء في الجيش؟"

جاء استفسار ماجده بسيطاً ولكنه كان جدياً برغم ذلك.

غطى أصلان وجهه بيديه في إشارة يأس. تمنى لو أنه يتمكن من النواح، من الصراخ في وجع السموات – لماذا كان من نصيبه هو البقاء حياً ببساطة، الخدمة، مواجهة هذه القرارات غير الإنسانية؟ تذكر لحظة من أيام شبابه، يوم وقف على شريط من الرمال ساخن حد الشواء، في اليوم الذي نزل فيه إلى الشاطئ التركي في سامسون. كان الناس في كل ناحية حوله يتساقطون ميتين مثل الذباب. فقد تم تجنيده عنوة في قوات السلطان المسلحة ذلك اليوم. اختار يومها عائلة موهومة – صادف امرأة ضائعة مع طفلها الرضيع، ادعى أنها قريبته حتى يمكنها تلقي الدعم من الدولة، مكافأة له على خدمته في الجيش. لقد قام بنفس الشيء لرجل عجوز أيضاً.... أصبحت لديه "عائلة"، لمجرد يوم واحد، مرة أخرى. كان أبواه قد اختفيا قبل الخروج بأشهر. لقد ماتوا جميعهم منذ وقت طويل، ماتوا منذ وقت طويل. لم يسمح لمشاعره، طيلة حياته. أن تتخذ مسارها الصحيح، أبداً. فهل هذا هو قدره ومصيره؟ لماذا؟.

كانت ذكرياته حيَّة، نابضة ومؤلمة إلى درجة أنه نسي البرد القارس كلياً لبضع لحظات. حدثت حركة جعلته يرفع عينيه متطلعاً، ليجد أن ماجده قد انسلت مبتعدة ويرى حمزه وكمال محشورين أمامه.

زمجر حمزه "أرنا المكان الذي نحن فيه، على الخارطة".

"أرجوك، يا أصلان بك – أعطنا فكرة صغيرة عما هو متوقع الحدوث لنا. إنني بحاجة إلى أن أخبر عائلتي." كان كمال دبلوماسياً على الأقل.

قال أصلان: "حسن جداً" استدار قليلاً حتى يستطيعوا أن يروا الخارطة. كادت كلماته أن تضيع ويطاح بها في الريح الهوجاء.

"هنا. عند سفوح التلال. يتحتم علينا أن نعبر سلسلة "الموكرا جورا" هنا. إنني أهدف إلى الوصول إلى بيك، قرب الحدود الألبانية. بعد ذلك لا توضح خارطتي شيئاً، لأنها تنتهي. بشكل عام، أنني آمل في الوصول إلى شاطئ الأدرياتيك."

كان بوسعه أن يدرك بأن هذه المعلومات ليس لها أي معنى بالنسبة لهذين الرجلين.

بدأ حمزة بالقول "لقد كنا نفكر..."

أضاف كمال "منذ المعركة التي وقعت في السهل..."

أتهمه حمزة "ألسنا نتحرك في الاتجاه الخاطئ؟"

"ماذا كنت ستقترح؟" سأل حمزة بنبرة مسيطرة عليها، مع أنها لم تفعل شيئاً لتطمين الرجلين الشركسيين بأنه لديه شكوكاً عميقة تجاههما.

"لماذا لا نستسلم للأتراك؟ لماذا لا ننزل عن الجبل عائدين إليهم ونطلب مساعدتهم؟ إذا كانوا يكسبون المعركة في الأسفل هناك – فما هي الفائدة من إرهاق أنفسنا بهذه الطريقة في هذا الاتجاه؟ أنت لا تعرف إلى أين نحن ذاهبون!"

أصبح أصلان عديم الكياسة مع فقدان صبره "إن الانتصارات التركية في السنجق لا تعني شيئاً. لأن معركة واحدة لا تشكل مجمل الحرب! إنهم يخسرون، ولا يهتمون بنا!"

"بنا!" تجاوبت أصداء الكلمة من عنفه – بل تجاوزت ذلك إلى إرسال الصدى داخل رأسه. أدرك الآن أنه سوف يستمر في هذه الرحلة حتى نهايتها المحتومة. وأنه، بطريقة أو بأخرى، سوف ينقذ هؤلاء الشراكسة، ويوفر لهم حياة أفضل، أكثر أماناً.

استعاد أصلان السيطرة على نفسه، وحاول أن يشرح الموقف العام كما يعرفه بالمزيد من التفصيل. "إسمع. أنا شخصياً معتاد على الإيجازات العادية! أنا لا أستطيع أن أجزم بأن مسيرة الحرب تتغير - يجب عليك أن تأخذ كلامي على أنه رأيي المبني على معلوماتي. من أعداد اللاجئين الذين رأيتهم: من تقارير غارات القوات: من نتائج المعركة التي شهدناها - من الإيجاز الذي حصلت عليه في نيس.."

تبادل حمزه وكمال نظرات متشككة. أفترض أنه كان مخطئاً، وأن الأتراك كانوا يصدون البلغار، الصرب، والروس - وحتى أبناء الجبل الأسود. كيف بحق الجحيم يمكن لهذا الضابط الوحيد المحشور على هذا الجبل البائس أن يعرف حقيقة ما يجري؟

في النهاية، قال أصلان "أنا لا أستطيع أن أملي عليك ما تفعله. إن قرارك يعادل قراري - بالنسبة لأهلك".

بدأ حمزه بالقول "آه، هذا هو بيت القصيد".

إذن، فقد كانت ماجده على حق.

رفع أصلان يده "توقف عند هذا الحد. إذا كنت ترغب في تشكيل جماعة انفصالية، بإمكانك أن تفعل. سأبقى أنا مع المجموعة الرئيسة."

"ولكن ذلك سخف! كل ما نرغب فيه هو إرسال وفد إلى الأتراك، لطلب ممر آمن! قال حمزه.

"أنت تنسى. أنا فار من الخدمة. سوف يلقى القبض علي وأقتل رمياً بالرصاص."

غرق الرجلان في الصمت. ثم أدرك أصلان المبتغى

"أنتما تريدان أخذ تيمور وعمر. ذلك هو الأمر، أليس كذلك؟ قوة من القادرين جسدياً"

"يعني...."

"لا يمكن أن أسمح بذلك. إذا ذهبتم، وكان الأتراك في حالة اليأس التي أعتقد أنهم سيكونون واقعين تحت تأثيرها، فأنكم تخاطرون باحتمال إرسال دورية عقابية علينا كلنا. ربما يكونوا من "الباشي بوزوق" - من يعلم. اقل الاحتمالات هو أن يتم التقاطنا. أنا لا أريد أن يتم التقاطنا وسوقنا من قبل أي طرف، بعد الآن، مطلقاً." كان صوت أصلان يتعالى. قريباً من العنف. خجل من نفسه وحاول أن يسيطر على نفسه مرة أخرى.

"هل أنت تقول، إذن، إننا لسنا أحراراً في مغادرتك؟"

"هل ستتركوا عائلاتكم معنا؟"

أصبح جلياً أن هذه هي الغاية.

ضرب أصلان قبضتيه ببعضهما للابقاء على حيوية أصابعه وحاول معهما أسلوباً خشناً في الإقناع "الأمر هو أن خطتكما ستنجح فقط إذا حصلتم على ردة فعل إيجابية." إذا حضرت قوة تركية راكبة إلى هنا ومعها خيول مرتاحة، بضع عربات للعجائز، وجواد حمولة محملاً بالطعام. فذلك إنقاذ. ثم أراضٍ جديدة. سلام. آه نعم... فكرا بجدية وصواب أيها الرجلان! الاحتمال الأكبر هو أن يلقى بكما في السجن وتغرقان في النسيان - ويحتمل أيضاً أن نلاحق ونقتل جراء تفكيركما الرغائبي!"

أحكم كمال عناق نفسه إتقاء البرد، قائلاً "حسناً جداً، يا أصلان بك، سوف نفكر في الموضوع ونحيطك علماً برأينا".

كاد أصلان أن يبصق لشدة قرفه. ماذا يوجد ليتم النقاش حوله، أحب لو يعرف.

عندما تركه الرجلان، تعربش تيمور المخلص صاعداً الصخرة، وقدم له كوباً من الماء الساخن

"أعتقد أن فيه ورقة شجر من نوع ما طافية بداخله يا سيدي، هذا أفضل ما تمكنت النسوة العجائز من عمله".

رشف أصلان. "إن هذين الرجلين يخططان لأمر ما. ابق عينيك يقظتين أنت وعمر عندما تتوليا الخفارة هذه الليلة".

قال تيمور "ليست هناك مشكلة، فأنا أصلاً لا أستطيع أن أنام في هذا البرد الشنيع – سيدي".

"إذا كان هذا هو الحال – فسوف أتولى النوبة الأولى من الخفارة. وتولى أنت وعمر الثانية والثالثة تباعاً. في هذه الأثناء، اقترح أن تأخذا أيها الفتيان الجياد وتستكشفا تلك النقطة "وأشار إلى السلسلة التي تلوح لهما. "وأرجو، إشفاقاً بنا، أن تعود إلينا بأخبار طيبة يا تيمور. إستطلع إن كانت هناك بعثة كنسية ألمانية للأنفس الشركسية الضائعة، على أقل القليل....!"

ضحك تيمور. بدا على أصلان أنه يتغير، مع ازدياد الموقف سوءاً. أصبح أكثر انطلاقاً – أكثر شبهاً بالروح الفتية التي لم يتح الوقت له ليحياها. شخص طائش الروح على الرغم من قسوة السنين التي عاشها.

"حسن جداً يا سيدي! سيكون ذلك هو الخلاص!"

انطلق تيمور راكباً. ظهر على جواده الهزال بحيث برزت أضلاعه. إذا عومل بهذه الطريقة أكثر من هذا، فسوف يصاب الحيوان المسكين بالعرج حتماً. وقتها سيكونوا في مشكلة أسوأ.

جاءت ماجده راكضة، مبهورة الأنفاس. "انظر، يا أصلان بك، هناك، تحت!".

استطاع بصعوبة بالغة أن يميز صفاً طويلاً آخر من اللاجئين المتعثرين في سيرهم.

قالت ماجده "آه، أتمنى أن لا يعثروا علينا." بدأت تتمتم صلاة، ثم توقفت. "أليس الوضع رهيباً، يا أصلان بك، أن يتمنى المرء أن لا يضطر إلى مساعدة الناس الآخرين؟"

"نعم، هو كذلك،لكن الذنب في ذلك يقع على عاتق الحرب، وليس على قلبك. هذا هو الواقع."

شاهد المزيد من مجموعتهم أولئك اللاجئين. راقب حمزه وكمال بانتباه حاد بينما عبرت القبيلة من أمامهم، وكانت ثلاث من أصل أربع عربات محملة بالمسنين والأطفال المرضى، بضعة رجال جرحى: صف طويل من الفلاحين محنية قاماتهم اتقاء الثلج والريح.

أقعى الشركس وحبسوا أنفاسهم، غير عارفين إن كان هؤلاء الناس أصدقاء أم أعداء، وآملين أن لا يتجهوا نفس وجهتهم. استحال الصف إلى رؤية شجية بينما سقط الثلج على ملابس المترنحين.

"يجب أن يتحركوا نحو الجبل. إذا بقوا في السهل، فسوف يتجمدوا جراء الريح".

"نعم، ولكن يحتمل أنهم يظنون أن بوسعهم السير بسرعة أكبر فوق الأرض المستوية".

هزَّ أصلان رأسه في أسى "كلا، تلك غلطة. عندما يشتد بهم البرد، فإنهم ببساطة سيتوقفون كما فعلنا نحن. لكنهم سيكونوا أشد تعرضاً للريح" وعاد إلى الانكباب على خارطته. راقب الشراكسة اللاجئين وهم يختفون داخل دوامة من الثلج. ساد صمت، سكون، فكر خلاله كل واحد فيهم باحتمالية موته. حدث تغيير نابض ملموس. فقد غيرت الرؤية مشاعر جماعة ماجده. تولد بينهم أمل متجدد – فقد كانوا في أيد أمينة وقادرة. ظهرت الكآبة على كل من حمزه وكمال، وانصرفا باحثين عن فجوة أخرى للتباحث.

هبط الليل بسرعة. ساد الهدوء. لم يكن تيمور وعمر قد عادا لكن ذلك لم يشكل فرقاً يذكر لدى أصلان. فهو واثق أن الطريق الوحيدة المتاحة هي الصعود إلى الأعلى.

"هيا بنا. حان وقت التحرك. لينهض الجميع."

حان دور حمزه والعجوز تسوك في حمل المحفة التي ترقد عليها والدة حسن. تبعتها حاتخان وأقاربها في مجموعة متراصة خلفها. جاءت بعدهن ماجده وباقي نساء قريتها، حليمه، رسميه، ساكنات، وقد أسندت كل واحدة منهن عجوزاً من عائلتها.

تبع قرويو تسوك، ثم كمال مع القرويين الذين وصلوا مؤخراً. الغريب أن هذا التشكيل أصبح ثابتاً: لم يغير أحد موقعه، ما عدا فريق التناوب الذي يحمل المحفة.

أعلن أصلان للمجموعة "سيعود تيمور وعمر من هذا الاتجاه. سوف نقابلهما على الطريق."

تحداه حمزه "وكيف لك أن تعرف ذلك؟"

"لأن هذه الطريق هي الأكثر وضوحا وملائمة حتى تسلكها الخيل."

لكن تيمور وعمر لم يعودا. ظل الجميع ينصتون ويشنفون أسماعهم لوقع حوافر الخيل: فهي ستطرقع كالحديد فوق هذه الصخور الجرداء. استمروا صعوداً بمجهود مضني لساعات عديدة، إلى أن سمعوا فجأة صرخة تمزق السكون. فقد انزلقت قدم الصبي الحارس إسماعيل وسقط في حفرة صخرية.

وعندما حاول العجوز حطوط، في عجالته، أن يمسك به، سقط هو الآخر فوقه.

توقفت المجموعة كلياً واحتشدت حول الفجوة السوداء. سيضطر أحدهم إلى إشعال واحدة من الجمرات النادرة. ما الذي يمكنهم أن يروه في الضوء المتراقص؟

شهقوا من الذعر.كان إسماعيل راقداً على ظهره مستوياً، بنصف وعيه، بالغ الشحوب وقد غطت الدماء وجهه. ورقد حطوط العجوز عبر جسمه، ساكناً كلياً. لم يتمكن أن يعرف دم من هو المسفوك، من هو الحي، ومن فارق الحياة.

شهقت ماجده وقفزت نازلة على الصخور الزلقة، وقد ألفت في نفسها قوة لم تكن تعهدها قبلاً، لترفع حماها وتحتضنه بين ذراعيها. حملته إلى فوق، بين نوبات بكائها لتسلمه إلى الأذرع المنتظرة لكل من حليمه وساكنات.

كان واضحاً، إن الرجل قد فارق الحياة. فقد ارتطم رأسه بعنف عند سقوطه: ربما توقف قلبه عن الخفقان بدوره.

"أبتاه! أبتاه!" استسلمت ساكنات لحزن يعصى على المواساة.

ركعت العجوز زهره، زوجته العزيزة المحبة، إلى جوار جثته. أخذت شفتاها تتحركان في أنشودة حزن، لكنها دفعت بطرف شالها إلى داخل فمها حتى لا يصدر عنها أي صوت، بل مجرد جدول من الدموع.

في هذه الأثناء، قفل أصلان عائداً من مقدمة الصف وقفز إلى داخل الحفرة بجانب ماجده، التي شرعت في إنهاض إسماعيل. وبينما هي تحاول، فتح الصبي عينيه وسعل، فخرج الدم من فمه.

بكت ماجده قائلة "إنه مريض جداً، ولن يصمد مدة أطول! أترى كم هو محموم، يا أصلان بك! آه يا الله، لا تجعلهما يموتان كليهما!"

صرخت رسمية "ارفعيه إليَّ! آه يا ولدي، يا ولدي، لا تتركني!"

رفع أصلان جسد إسماعيل المهزول إلى ذراعي أمه في دفعة قوية واحدة، ثم أخرج نفسه، وانحنى إلى الأسفل ليساعد ماجده

"هلمي. اصعدي لم تعد هناك مسافة بعيدة صعوداً".

"ربما يكون من الأفضل لي أن أجلس هنا وأموت أنا الأخرى..." وأخذت تنتحب بصوت أعلى.

تدلى أصلان إلى الأسفل وحملها خارج الحفرة الصخرية. أمسك بذراعيها بقوة:

"يجب أن نستمر في المسير، ونعثر على بقعة طيبة لندفن فيها حماك. بغض النظر عما يقع خلف القمة التالية، سوف نتوقف جميعاً ونقيم مخيماً. إن الطقس يداهمنا. سوف نضطر إلى حفر ملاجئ لنا للشتاء. لا يمكننا أن نستمر في المسير ضمن هذه الأحوال. لأن في ذلك خطورة شديدة علينا".

صارت ماجده تنتحب بلا سيطرة.

"استمعي إليَّ! إن واجبك يقضي بأن تدفني حماك. إن من واجبك أن تساعدي زهره على القيام بالشعائر. هذا واجبك يا ماجده. لا يمكنك أن تموتي قبل أن تؤدي واجباتك!"

هزَّها بمنتهى الخشونة. نظرت في عينيه، وتحدثت روح أصلان إليها عن وحشته وشعوره بالوحدة، عن حزنه، وعن إرادته التي لا يمكن قهرها في أن يحيا بشرف.

"نعم." سحبت ماجده نفساً عميقاً. وأخرجت تنهيدة ألم، ثم انسحبت من قبضته. "سامحني، يا أصلان بك. إنني أشعر بالخجل". ثم ترنحت ماشيه إلى جانب حماتها.

"توقفي عن البكاء يا ساكنات. ساعديني. انهضي الآن وساعديني."

أمسكت ماجده بيد ساكنات وجرتها حتى وقفت على قدميها.

"أمسكي أنت بذراع، وسأمسك أنا الأخرى، هل أنت جاهزة؟ الآن!"

نزعتا أصابع العجوز زهره عن جثة حطوط بالقوة. صرخت المرأة العجوز وظن الجمع كله للحظة رهيبة أنها قد فقدت عقلها وسوف تنطلق منفلتة لتلقي بنفسها في نفس تلك البقعة المظلمة من الصخر. لكن الموقف انتهى! لم يعد يصدر عنها أي صوت. انهارت زهره على بناتها اللاتي دعمنها بل كدن يسحبنها صاعدات الجبل. رفع أصلان وكمال جثة العجوز حطوط وحملاها بينهما تمهيداً للدفن. أصبحت المجموعة الآن مسيرة جنازة، بكى العديد: ليس الأطفال، فقد كانوا أضعف من البكاء وبعضهم يعاني المرض. واستمر سعال إسماعيل الجارح الرهيب يحطم أعصاب الجميع.

جواد تيمور! شاهدوه فجأة يطرق حوافره فوقهم، على حافة صخرية صغيرة.

"بسرعة، تعالوا بسرعة! هنالك ملجأ لنا هنا – بعض "الخانات". إنه مكان للرعاة، نحن بأمان! لقد نجونا أخيراً!".

بدأ الناس يركضون. بكت النساء،وأطلقن دعوات الامتنان. ركض الرجال أسرع من الآخرين. صرخ الأطفال رعباً، وهم يظنون أنهم يتعرضون لهجوم. فذلك هو الأمر الوحيد الذي يذكرونه عن الجري.. الخوف.

ثبت أن المكان أبعد مما تخيلوا. سقط بعض الناس وهم يتمسكون بالشجيرات الشوكية الصلبة، لاهثين مبهوري الأنفاس. تعثر البعض الآخر لأن كثرة انهمار الدموع أعمت بصيرتهم. صار جواد تيمور يبدو مثل السراب، رؤيا مؤلمة للفروسية، عندما وقف في ركابيه وصاح فيهم مرة أخرى "هيا بنا، هلموا، ليس المكان بعيداً!"

أطلق أصلان شتيمته "ليس بعيداً! ليس بعيداً! إنه في نهاية المعمورة". على بعد بضع مئات من الياردات، عثر على نصر

تيمور. وحق الله أنه كشاف بارع – كثيرون غيره كانوا سيركبون مارين بهذه الفتحة في الصخر. من خلال الممر الضيق، انفتح المسار الذي داسته الماعز والخراف والغزلان والذئاب حتى اهترأ، وصلوا إلى مساحة أرض أزيلت أشجارها. لقد التفت عليهم يد الله العلي القدير الحانية وسط سلطة الطبيعة الوحشية. كانت هناك عدة أكواخ محطمة، حقول من الأرض المحروثة، ومساحة للمزيد من "الخانات" – واضح أنه كانت تعيش هنا قرية بأكملها في الصيف، وقد شيدت ملاجئ لها من كتل العشب والطين، ألواح الخشب، النشارة والجلود. وسوف يفعلون ذلك هم أيضاً. في الصباح.

* * *

الفصل العاشر

ارتمى اللاجئون الشراكسة على الأرض وغرق العديد منهم في النوم حيث رقدوا لساعات طويلة. الرفاهية الوحيدة التي حصلوا عليها في هذا الوادي الجبلي الضيق المنعزل هي غياب الريح الدافعة.كانت طفرة من الطبيعة أن تتحد الصخور في تشكيل يمنح الحماية مثل حصن محمي من القرون الوسطى. كان أصلان قد شاهد مثل هذه النشوزات للتضاريس الطبيعية من قبل في الأناضول. بعض الجبليين كانوا يسمونها "كوري"، بينما دعاها آخرون "سيك" أو "دائرة" كأنما هي من صنع الإنسان، لكنه اكتشف أن هذه الأحواض نصف الدائرية ذات الحواف الحادة قد تشكلت بفعل الحركة الإنجرافية للجليد. جعلته الذكرى يشعر بالراحة: فهو هنا في منطقة جبلية مرة أخرى، كما في قفقاسه، طبيعة شرسة لكنها إلى ذلك، جميلة.

كانت الأرض متجمدة حد الصلابة. أجريت إصلاحات فورية للأكواخ القليلة الباقية واقفة بإلقاء البطانيات والمعاطف فوق الفتحات والفجوات. تجمع المسنون والأطفال داخل هذه الملاجئ البدائية ومحوا صورة ذلك النهار.

وحدهم المهتمون بموت العجوز حطوط ظلوا ناشطين، باحثين عن مكان ملائم لدفنه ومحاولين الاهتمام بأرملته وابنته ومواساتهما. احتفظت ساكنات برباطة جأشها. قد وصلت إلى هذا الملجأ، هذا المأوى. أصبح بمقدورها سماع عذابات قلبها والصمود الوقت الكافي حتى تشرع في البكاء وسط هدوء المكان وحمايته المحدودة.

أما ماجده فلم تتمكن من إطلاق العنان لأحزانها. فقد أحست أنها بين يدي القدر منذ اللحظة التي أعادها فيها أصلان من حافة الهاوية، من الأزمة، بيديه العاريتين المجردتين. شعرت بأنها قد

أنقذت لغاية ما. اجتاحتها اندفاعة قوية من الحب أثناء جلوسها قرب حماها، تعدل من وضع ثيابه وتمشط شعره الفضي، وأحست برباط قوي يشدها إليه وإلى زوجها المتوفى، وأدركت أنه الحب، وليس الحزن، الذي غمرها في تلك اللحظات.

صارت تناجيه في بوح نصفه همس، ونصفه الآخر من أفكارها "حطوط، يا والدي العزيز، ستغمرك السعادة الآن، لأنك ستكون قريباً من حبيبي كاظم. لم يعد هناك المزيد من الصراع بالنسبة لك، بل السلام، إلى الأبد... خذ معك حبي، خذه إلى كاظم. أعرف أن الموت لا يعني شيئاً، لأنني أحبكما كليكما الآن أكثر من أي وقت مضى وأعرف أن الحب يستمر..". أصبحت هذه الكلمات فكرة مركزية دوارة جابت كيانها، وهي تحيك نسيجاً من المقاومة حول وجودها كله. أصبحت ماجدة محصنة في حبها: عصية على المعاناة، بصرف النظر عن مقدار الألم الذي ستضطر إلى مكابدته. لم يكن لديها أي تمييز بين معاناتها ومعاناة كل الأنفس الأخرى حولها. لم تعد تشعر بأن "كأس" آلامها قد امتلأ حتى الحافة، بل شعرت وكأن قاعدته قد انفلقت، بحيث أن فديتها من الدماء قد اندفعت من خلاله إلى الأرض مرة أخرى. فقد اكتفت بإمساكه عالياً: أصبح جاهزاً للامتلاء بينما يظل فارغاً، أبداً.

اقترب أصلان من النساء اللاتي كن في حالة حداد. "يا ماجده، سامحيني على تطفلي...".

ابتعدت عن الجثة على ركبتيها، حتى أصبحت قريبة منه. تكلمت إليه بظهرها، لأنها رفضت أن تدير وجهها إليه. استطاع أن يلمح الجديلة الطويلة للشعر الحنطي اللون تحت دثارها الموسلين الممزق. كانت هناك شوكة وبضع وريقات شجر عالقة في الدثار، قام بالتقاطها أثناء حديثه إليها.

قال بصوت حنون "لقد عثرت على بقعة ملائمة للجنازة. ليست لدينا أدوات لنحفر قبراً عميقاً. هنالك أخدود خلف هذه "الدائرة". يمكننا إرقاده هناك وملء السطح بالحجارة فيما بعد".

قالت: "نعم، يجب أن نفعل ذلك حتى لا تتمكن الذئاب أو العقبان من الوصول إليه".

"هذا صحيح".

"إنه جاهز تقريباً. بإمكانكم أن تأخذوه عندما تأذن لكم زهره بذلك".

أدرك أصلان أن العادة جرت بأن يغسل الجسد ويطهر تمهيداً للدفن. تلك كانت ستكون مهمة الرجال. ولكن في هذه الظروف... حتى مثل هذه الإلتزامات البسيطة لم يكن بالإمكان أداؤها.

بقيت النساء سوية وهن يصلين ويطلقن الأدعية حسب مقتضى العادة، بينما قام أصلان، تيمور، عمر، كمال وحمزه وباقي المسنين تسوك والعجوز تامبي، والد حليمه، بحمل العجوز حطوط بعيداً إلى مكان راحته الأبدية. كذلك كان الافتراق عن جسده عذاباً مؤلماً – فهو رأس العائلة، حاميها في الأيام الأفضل. كان من الصعب عدم امتلاك صورة عن تلك اللحظة التي يوارى فيها إلى مكان راحته، لكنهن أدين الشعائر كما هي مطلوبة، بأفضل ما توفر لهن في هذه الظروف البدائية، وكنَّ قانعات بذلك. قمن بواجبهن وحملن الحزن. وهكذا تأكد أن ذكرى المتوفى ستظل حية في أرواح النسوة: الانتماء والتملك حتى بعد القبر: بالنسبة لساكنات وزهره، بدا لهما الأمر كذلك من خلال الألم. شبكت ماجده ذراعيها، وانحنت احتراماً للشعائر. ثم تكورت بدورها على نفسها واستغرقت في نوم عميق.

أيقظ الجوع الجميع خلال ساعات قليلة قصيرة. عقد أصلان اجتماعاً مع أكثر الناجيات لياقة – ماجده، حليمه، حاتخان أرملة

حسن وابنتي حماها، وزوجة المزارع حمزه الضخمة. كان تيمور وعمر مرهقين من الاستكشاف: كان حمزه نفسه قد جرح ساقه وهو يكافح في حمل محفة الأرملة العجوز: ظهر كمال بلياقة مقبولة، أما أصلان فكان بطبيعته سليماً معافى، كأنه غير قابل للأذى.

عبَّرت ماجده عن قلقها "يجب أن نعثر على الطعام. سيموت بعض الناس الأضعف بنية بيننا خلال أيام قليلة إذا لم نفعل".

قالت حليمه "لقد سبق وألقيت نظرة على الأشجار، أرز، لزاب، شجيرات شوكية. لا شيء قابل للأكل. ونحن على ارتفاع أعلى بكثير من إمكانية تواجد النحل المنتج للعسل... وكذلك فالوقت من السنة غير ملائم له".

تبرع كمال بقوله "يمكننا أن ننصب الأفخاخ. أنا أعرف كيف أعملها من قطع الخشب الرفيعة...".

"جيد. خذ معك ساكنات وحليمه. إنهما بارعتان في العمل اليدوي، ويجب عليك أن تريهما الطريقة والمكان الذي يجب نصبها فيه. سيتمكن ثلاثة منكم بالعمل أسرع من واحد".

تلقى كمال هذا الأمر بصعوبة لكنه واجه الأمر الطارئ بطيبة معقولة.

رفعت ماجده يدها. "يا أصلان بك، في بلاد الشابسوغ، فإن معقلاً جبلياً مثل هذا لا بد وأن يحتوي على مصدر مخبأ للطعام. كل قروي شركسي يفعل ذلك، فلماذا لا يقوم هؤلاء الناس بنفس العمل؟".

ضرب أصلان على ركبته "أنت تفكرين مثلي! إذن خذي النساء الأخريات وابحثن حيث تعتقدين أن الطعام سيكون مخبئاً. سآخذ أنا أناساً من مجموعة تسوك واستكشف إلى الأمام في الحقل بحثاً عن الماء النظيف وأية مواد أخرى قابلة للأكل".

ارتعشت النساء قرفاً مع تفكيرهن باحتمال الاضطرار إلى الصراصير، العلق، أوراق الشجر... إذا لم تكن هناك أشياء ممنوعة عندما يكون البديل هو الموت جوعاً.

قادت حليمه الموكب، لأنها كانت معروفة كأفضل طاهية وآمنت النساء بطريقة ما أن هذه الموهبة ستقودها إلى أي مصدر متاح للتغذية. لكن التي قامت باكتشاف ذلك النهار المبهر كانت رسميه، الخجولة، المسالمة.

شعرت بالسرور داخل المخبأ السري الذي تشكله "الدائرة" وطفقت تتجول في ثناياها برشاقتها الناحلة وكأنها أميرة في إحدى الأقاصيص. عند إحدى زوايا الطرف المنحدر لأرضية الدائرة، وجدت مجموعة من المغاور مقفلة بإحكام بقطع الصخر الكبيرة. فطنت رسمية إلى أن هذه الحجارة هي "أبواب" من صنع الإنسان وركضت نحو الآخرين طلباً للمساعدة.

وافقتها حليمه "يجب أن تطلبي من الرجال الحضور". بعد أن حاولت دفع أحد تلك الحجارة بكتفها، ولم يتزحزح.

لكن الرجال كانوا قد ذهبوا للبحث. وعليه فقد جاء حمزه، وقد أنعشته فجأة فكرة احتمال وجود طعام داخل هذا المخبأ. دحرج الصخرة إلى الخلف مستعيناً بغصن كان قد قطعه واستعمله كرافعة. كان هناك مخبأ في الداخل فعلاً، ولكن ليس من الطعام –بضعة براميل من ملح البارود، بعض البنادق المحتاجة إلى الترميم: مطارق، وأدوات أخرى.

تعجبت رسمية بصوت عالٍ "ماذا يمكن لهذا المكان أن يكون؟".

امتلكت ماجده الجواب "أعتقد أنه مخيم مؤقت حتماً لجماعة "الهايدوت" (قطاع الطرق). يحتمل أنهم يختبئون هنا مع عائلاتهم في أشهر الصيف. إنه مخبأ لرجال العصابات". ظهر على رسميه تعبير ملؤه التشكيك. "ذلك أمر رومانسي –مليء بروح المغامرة

كونه يصدر عنك، يا ماجده. لكنني أعتقد أن أصلان بك سيعرف حقيقة هذا المكان، ألا تظنين ذلك أنت؟".

أطلقت ماجده ضحكة على تزمت رسميه، بصوت مرح خرج مخنوقاً في الثلج الذي بدأ يتكوم والطقس الرمادي المشابه للون الحديد.

"يا عزيزتي رسميه، أنا واثقة من أنك محقة. لكني سألقي نظرة على "عرين اللصوص" هذا بكل الأحوال!"

"آه، لا تفعلي ذلك، يا ماجده، فعلاً، لا عليك من الأمر" دخلت ماجده أولاً، وبعد تردد دقيقة أو اثنتين، تبعتها بقية النساء إلى الداخل. منحهن الفضول بعض الشجاعة –ولكن طارت فوق رؤوسهن في تلك اللحظة سحابة من الوطاويط خارجة من المغارة، مما جعلهن يصرخن من القرف.

صاحت رسميه "أنا لا أحتمل هذا!" وعادت أدراجها خارجة باتجاه المدخل.

"كلا، انتظري" نادتها حليمه "انظري يا رسميه!" تحول الرعب إلى الفرح: فقد تعثرت ببرميل من طحين الذرة، وآخر ممتلئ بالملح الجاف. دفعت حليمه بأصابعها داخل الملح، لتجد بضعة شرائط من اللحم المقدد مدفونة عميقاً في قاع البرميل.

قالت حليمه، وقد غلبتها شدة الجوع وخيبة الأمل "لا بد من وجود المزيد! شيء آخر!".

اندفعن إلى الخارج، وهن يقتلعن الشجيرات الشوكية على أمل العثور على مخبأ طعام طبيعي آخر. كادت حليمه أن تسقط في أحد الخنادق –فقد كانت المنطقة بأسرها عبارة عن متاهة من الصخور المقلوبة والتراب المحفور. لا شيء، لا شيء... كانوا يقتربون من طرف الجبل. عثروا على أكوام من القش داخل كهف آخر، وأكوام من أكواز الذرة الجافة، وبضعة أكياس من الشوفان، يحتمل أنها

علف لحيوانات شخص ما. لقد كان ذلك أفضل، على الأقل، من لا شيء.

قالت ماجده "حسناً، لنقفل راجعين الآن، وننتظر الرجال. هذا جيد–الملح جيد بشكل خاص. لقد أحسنَّا صنعاً، فلا تبتئسوا".

قضوا الساعات القليلة التالية يمشون جيئة وذهاباً حاملين بعضاً من القش، لجعله فراشاً أكثر دفئاً للمسنين. رجع أصلان ومجموعته بغنيمة غذائية طازجة:

خيط صيد ممتلئ بأسماك التروية الثلجية اصطادوها من جدول ماؤه في برودة الجليد. لم تسع الدنيا حليمه لشدة فرحها. "لقد تحسن مزاجي منذ الآن! دعوني أنظفها، وبإمكان الأولاد أن يشعلوا بعض النيران.. آه كم أحمدك يا الله، سوف نكون بخير جميعاً، سنكون كلنا بخير!".

شعر أصلان بالانفراج بدوره. "لقد عثرنا على نبع على مسافة باتجاه الجنوب. إنه على مسافة مسيرة الصباح كله، لكن ذلك أمر يمكن القيام به إذا ذهبنا في جماعات".

سألت ماجده "لا وجود للأعداء إذن، لا جنود...".

هز أصلان رأسه نفياً "مهما كانت طبيعة الناس الذين كانوا يعيشون هنا، فقد نزلوا عن الجبل لفصل الشتاء".

"ربما يكونوا قد ذهبوا إلى القتال. يا أصلان بك، تعال وشاهد كهفنا..".

قادته ماجده إلى طرف الدائرة "أترى؟".

التقط أصلان بعضاً من البنادق المعطوبة من المغارة الأولى "هذه من صنع ألماني. أعتقد أنه ربما يكون ثوار الجبل الأسود قد اختبأوا هنا لفترة ما – من يدري، ربما مع عائلاتهم، للعناية بجرحاهم. والآن قد ذهبوا إلى القتال".

"وعلى هذا الأساس يجب أن نبث الحراس، في حالة أنهم عادوا" قالت ماجده، وقد غلبها الوجوم. فقد كانت تأمل في سرها أن يكون اللصوص المتخيَّلون قد غادروا نهائياً، أو أن يكون أصلان منطقياً ويقول إن المكان مجرد مخيم رعاة لمراعي الصيف..".

وافقها بقوله "نعم، ويجب أن نبث الشباك في الجدول، حتى نحظى بتموين يومي من السمك: يمكننا أن نحيا بشكل طيب على هذا... من يعلم، قد نعثر على أشياء أخرى في الأيام القادمة، في المصائد –أو ربما نذهب للصيد، عندما نمتلك القوة لذلك".

جعلها أصلان تنحو بتفكيرها نحو المسائل العملية، وتبعده عن أفكار الاكتشافات. فقد كانوا جميعاً بحاجة إلى الراحة، وبدا أنهم سيتمكنون من الاستفادة القصوى من هذا المخبأ، لمدة قصيرة على الأقل. إذا لم يكن هناك بديل عن قضاء أسوأ أيام الشتاء، قبل الاستمرار في رحلتهم.

ما لم يقله أصلان، ولكنه كان بحثه مع الرجال، هو الحاجة إلى بناء الأسيجة حول الدائرة، لإبقاء الذئاب الجائعة خارجها.

***

حصل العقيد أورهان أتاكوي على إجازة من وحدته في فيدين، لفترة قصيرة هو في أمسِّ الحاجة إليها. ادعى أنه ذاهب للصيد: وبطريقة ما كان ذاهباً للصيد فعلاً. ركب مباشرة عائداً من خلال الخطوط التركية نحو بقايا الجيش التركي، فرقة نيس. بحث في البداية عن الضابط المسؤول وأعطي موقع فرقته في الميدان.

كان الجنرال ليرومينوس صامداً على مسافة حوالي خمسة أميال من الجبهة الروسية –الصربية، وقد أسس مقرات شتوية عبر منطقة طولها ميلين إلى ثلاثة أميال. لقد قاتل من أجل هذه الأرض قتالاً مريراً، وشكلت استعادة رمزية من الصرب. كانت التضاريس الطبيعية المدمرة ملأى بالأكواخ الخشبية المستديرة، المطمورة حتى نصفها في التراب طلباً للدفء والأمان: كانت هذه مهاجع رجال

سلاحي الفرسان والمدفعية. امتدت أمامها صفوف طويلة من الخنادق والاستحكامات عبر الحقول - أو ما بقي منها - وكان بين هذه الخطوط مجموعتين من "الخانات" المحترقة التي كانت قد تلقت إصابات مباشرة من مدفعية العدو خلال المعارك السابقة.

كان لدى القائد التركي - المقدوني "جناح" من الغرف نصف المحفورة في التراب تشكل مقر قيادته. دخل أورهان نازلاً ثلاث درجات إلى ممر ضيق محفور في الأرض، التي حفرت منها ثلاث غرف. محصنة ضد الرصاص وضد القذائف. كانت مساحة السكن الأولى عبارة عن غرفتي نوم وجلوس في واحدة. والثانية غرفة إيجاز مقر قيادة الوحدة. كانت الغرفة الأخرى تؤوي خدمه، وطباخ ومساعد. على الرغم من هذه الترتيبات فقد بدا على الجنرال ليرو مينوس وكأن انحراف الصحة سيودي به إلى حتفه بأسرع من رصاصة قوزاقي.

كان أشد هزالاً مما هو صحي، ويتعرق ويصفر جلده بلون باهت.

أحس أورهان أتاكوي بالكراهية تجاهه على الفور. فقد ظل اليونانيون يعتقدون على الدوام بأنهم أعلى بدرجة كاملة من الأوغاد الآخرين في الإمبراطورية. وكانوا كذلك فعلاً في كثير من المواقف: إذ لم تكن ألسنتهم معقودة مثل البلغار، ولم يكونوا متوحشين بأسلوب مخادع كالصرب، وبشكل ما ذوي علاقة بالأرمن واليهود في مهاراتهم الخلاّقة - مثل الربا، وهو موضوع لا يمكن مجرد التفكير فيه بالنسبة للمسلم. لكن أورهان كان يكرههم أكثر شيء بسبب طريقتهم المتعالية في الكلام.

"وهكذا، يا جنرال ليرومينوس... لقد واجهت سوء الحظ هنا، تعازي، يا سيدي".

لم تقف الرتبة الأدنى حائلاً دون تعبير أورهان عن التنازل تجاه ضابط غير عثماني. كان ليرومينوس مدركاً كل الإدراك

لمشاعر أورهان. فقد واجهها عدة مرات من قبل. "لقد فهمت أنك في إجازة، أيها العقيد أتاكوي. ما السبب الذي نعزو إليه متعة مشاهدتكم؟ أتخيل، لكونك قادماً من بقعة ساخنة أخرى مبتلاة بسوء الحظ –فيدين، أليست كذلك؟ أنك ستفضل بقعة أخرى من الغابة أكثر نفعاً لصحتك حتى تتعافى".

أحمر وجه أورهان. "لست مريضاً، يا سيدي. لست بحاجة إلى التعافي. إنني أقوم بمهمة للسلطان، ولكني حتى هذه اللحظة، يتحتم علي أن أؤدي التزاماتي بصفة غير رسمية. حقيقة الأمر، أنني شديد القلق والاهتمام بشأن اختفاء صديقي القديم ورفيق السلاح، العقيد أصلان بك. لقد قاتلنا سوية في الأناضول، عام 1876، يا سيدي. في حملة مرتفعات ألاجا تحت إمرة الجنرال كندوكوف."

ابتسم ليرومينوس. فهو خبير بهذه الطريقة المشفرة في الحديث عن الحرب. فقد كانت حملة مرتفعات ألاجا كارثة شبه كاملة. فقد أضاع الحاج رشيد، الباشا الأعلى رتبة الذي قاد الأتراك في وقتها، معظم قوات جيشه لصالح الروس. وحده الجنرال كندوكوف الموهوب والسريع التفكير تمكن من تخليص ستة سرايا– 1500 فارس.

"لقد استحقيت وسامك بجدارة حقاً..." أشار ليرومينوس إلى القضبان على صدر أورهان أتاكوي بشيء من الموافقة. ولكن إذا كان هذا التركي العدائي الصغير يعتقد أن بادرته هذه تعني أنه سيتعامل معه بسرية، فيتوجب عليه أن يعيد التفكير.

تكلم ليرومينوس بنعومة "إنه أمر يستحق أشد الإطراء أن تكون على هذه الدرجة من الاهتمام والقلق على رفيقك في السلاح، أيها العقيد أورهان بك. لسوء الحظ ليس هناك الكثير مما يمكنني إخبارك به."

"حسناً، أود على الأقل أن أعرف كيف كانت حالته، في آخر مرة رأيته فيها." حاول أورهان أن يرسم تعبيراً حزيناً متعاطفاً على وجهه.

"هل كانت معنوياته متدنية؟ أكان مريضاً؟ إن احتمالية وقوعه في كمين لا تتناسب مع شخصيته. فقد كان جندياً صلباً. وفارساً رائعاً."

"نعم، أعرف ذلك" زادت حواجب ليرومينوس السوداء قتامة. "إنها خسارة رهيبة. لقد قابلته لفترة قصيرة جداً. وكنا نرزح تحت ضغط شديد جداً - متى كان هذا؟ قبل حوالي ستة أو سبعة أسابيع.."

"ولكن قبل الهجوم المعاكس..."

"نعم، طبعاً. لكن عناصر الثوار كانوا لا يزالون نشيطين جداً."

"وعلى ذلك فأنت واثق من أنه توفي. أعني، أنه قد تم استرداد جثته، وتمت مراعاة الشعائر المناسبة."

كانت أسئلة العقيد أتاكوي محملة بالاهتمام, لكن ليرومينوس كان يجري حساباته الخاصة به. فهذا الضابط عثماني، وصديقه شركسي. من الحكم على استعلاء أتاكوي على شخصه، وهو التركي المقدوني، فإن هذه "الصداقة" تصبح أقل من محتملة.

"للأسف، أنا لا أستطيع أن أعطيك هذه المعلومات. ليس مسموحاً لي بأن أفضي بأية إحصائيات عن الجرحى أو الضحايا - إلا للسلطات العليا، بالطبع."

مرة أخرى، اشتعل وجه أورهان أتاكوي غضباً. إن هذا المتسلق يتصرف بطريقة معيقة، وقحة - إنه يمارس تأثيراً ضاراً. لا عجب أن هزمت فرقة نيس.

"هل هذا كل شيء، أيها العقيد أتاكوي؟" حاول ليرومينوس أن يبسط ملامحه المشعثة إلى ما يشبه ابتسامة اجتماعية مجاملة. "فهل لي أن أطلب صحبتك على العشاء هذا المساء؟ لدي نبيذ ميرلو بلغاري فاخر جداً وسأكون في غاية السعادة أن أجربه معك، كما أن طباخي كان مساعد رئيس طهاة عند سافارين – بريات الشهير في باريس. ولكن في نهاية الأمر، كلهم يدَّعون ذلك...".

كاد حنق أتاكوي على لهجة الجنرال الفرنسية الخالية من العيوب أن يسيطر عليه "أشكرك، أيها الجنرال، شرف عظيم. لكنني مضطر للاعتذار. لأنني لا ألمس الكحول. فهي رذيلة أوروبية وأنا أكرهها."

جاءت ابتسامة ليرومينوس لتزيد في حنقه "إنني نصف يوناني. كانت والدتي تركية، وأنا – "مسلم مقدوني". إن اليوناني بداخلي هو الذي يشرب الكحول: اليوناني الذي نذر حياته للسلطان كما فعل أبي. "نحن" نعيش ونتعايش – ونشكل مثالاً طيباً يحتذى لإخوتنا "الذميين"، كما آمل. أتمنى لك نهاراً سعيداً إذن أيها العقيد."

أدى أورهان أتاكوي التحية العسكرية بقدر كبير من السيطرة على أعصابه، ثم غادر الملجأ الغائر في الأرض. تجول خلال الخطوط، ماراً بمهجع أفراد بطارية مدفعية: سرية مشاة داخل دغل صغير: فوق بعض الاستحكامات الترابية عبر مستشفى ميداني ومركز البرق، وبعدها انجذب نحو جمع من الجنود، المدنيين، الباعة المتجولين، المومسات، العربات، صف من الأمهار، قطعان من الغنم – الفوضى العامة التي تتبع أية قوة رئيسة من الجيش في الميدان.

كان يبحث عن حدَّاد.

عثر على إله الحدادة والنار الضخم الجثة وقد أقام ورشته في ساحة مزرعة مهجورة حيث تم تحويل إحدى الزرائب لتناسب غايته.

ترجل أورهان وقدم جواده.

"لقد ركبتها بقوة لعدة أيام. هناك حذوة رخوة في إحدى قوائمها."

"أمر طيب منك أن تلاحظها يا سيدي! زيرجوت (جيد جداً)! فإن معظم التعساء يمتطونهم حتى يصابوا بالعرج."

أجابه أورهان "أنا أعرف كيف أعتني بالجواد، يا رجلي الطيب." لكنه ظل واقفاً على حدة، يراقب العمل بعناية. كما أن الكير كان دافئاً. "إنها فرس جميلة. لقد حصلت عليها من شخص تشور بادزي على نهر الماريتسا. "كان أورهان عاطفياً حين يتعلق الأمر بممتلكاته.

"تمسك بها جيداً يا سيدي. ستنفعك في هروب سريع! لا، لا، لقد كنت فقط أمزح"

أضاف بسرعة، وقد أدرك أنه قد أساء الحكم على روح النكتة لدى زبونه.

"مثل هذا الكلام يسمم معنويات الجيش. أنت لست عثمانياً. ما الذي تفعله هنا؟"

"لا يا سيدي – أنا ألماني. اسمي هو فيرنر. إنني مع القوات المسلحة منذ خمس سنوات."

(أهمل أن يقول إلى جانب من!)

"ألماني؟ هممم، إنهم يصنعون أسلحة جيدة.."

"لدى كل منا استخداماته. لصالح الإمبراطورية، يا سيدي. الإمبراطورية."

"حسن، حسن، استمر في عملك."

قام فيرنر بواجبه. لو أنه كان بوسعه أن يترك حذوة رخوة وينجو بفعلته، لكان فعل: لكنه يحب الخيل أكثر من أن يفكر في إيذائها، ولا يستحق الأمر تركي مغرور.

"هل أنت متجه شمالاً مرة أخرى، يا سيدي؟"

"ماذا؟"

"حسناً، أنت الشخص القادم من فيدين، ألست هو؟ كيف هو الوضع هناك؟"

"كيف بحق الجحيم-"

"الكلمات تنتقل. فنحن لا نتلقى العديد من الزوار! ها ها!"

كاد أورهان أن يقفز عليه، يعتقله. أن يقوم بعمل شيء – ولكن خطرت له فكرة أفضل.

مازحه قائلاً "أنتم الحدادون! إنكم متشابهون جميعاً! أنتم تعرفون كل شيء. لقد كان لدي صديق شركسي يتجه إلى الكير مثل اتجاه النحل إلى الزهور كلما أراد الحصول على معلومات."

"هل هذا صحيح يا سيدي" بدأ شميدت ينظر إلى يد أتاكوي.

"نعم" أخذت القطع النقدية تهسهس "هل يحتمل أن تكون قد سمعت أي شيء عنه؟ لقد تم تعيينه في هذه الأنحاء – إلى بيرو"

"أنت تقول بيرو"

"نعم"

"حسنا، دعني أفكر...." رفع فيرنر ظهره ليستريح، غطى عينيه بيده المسودة بينما هو "يفكر" سقطت القطع النقدية في جيب مريوله الجلدي. أبقى فيرنر عينيه مغمضتين بتركيز، بينما تعبث أصابعه بالقطع النقدية ليتفقد ما إذا كانت من الحجم والسماكة

المناسبين. لا بأس. لابد وإن هذا الرجل بحاجة ماسة إلى المعلومات. يمكنه أن يستغل ذلك.

قال أتاكوي فجأة "سوف أعود في صباح الغد" وقد قرر أن التأخير ربما يأتي بنتائج أفضل.

"أدخل فرسي في الإسطبل. سوف اذهب إلى مقر إقامتي ماشياً."

"الأمر ما تراه يا سيدي" قال فيرنر، وهو يتفحص شكل العقيد المغادر المتصلب بعين تحاول تقييمه.

أستوقف أتاكوي ملازماً صغير السن كان يتمشى ماراً به.

"قدم احتراماتي إلى الضابط الركن لدى الجنرال ليرومينوس، وأخبره أن أمراً ما أدى إلى تأخير مغادرتي، وإنني سأكون سعيداً بتناول طعام العشاء مع الجنرال هذه الليلة".

"نعم سيدي".

"و – أيها الملازم"

"ماذا يا سيدي؟"

"أرشدني إلى أفضل – مبيت؟"

"نعم سيدي!" أدرك الجندي مقصده، وأشار إلى خيام تابعي المخيم، على مسافة معقولة.

***

مرَّ الوقت سريعاً في الجبال. اتخذت الأسابيع الأولى نمطاً مستقراً كأنما كان اللاجئون متشوقين للتعود على روتين معين. كانوا محرومين من أشياء عديدة: الخبز، اللحم، الفواكه، الشاي، التبغ، القماش، الصابون، لكنهم كانوا بحاجة إلى روتين يومي أكثر من أي شيء آخر. كان بإمكانهم الاستغناء عن الطعام. إذ تكفل

السمك الطازج، والكعكات المستوية المخبوزة من طحين الشوفان، وعصيدة الذرة وماء النبع القراح بالإبقاء على حياتهم. لكن بناء سياج محيطي ضد الذئاب الجائعة، وبناء مخازن للحطب، نصب الأفخاخ في الأحراش أو شباك للنهر، استكشاف الغطاء العشبي للأحراش بحثاً عن أعشاب مفيدة كعلاجات، أو الجلوس ببساطة مع المسنين إلى جانب نيرانهم – شكلت هذه الأنشطة ثوابت تلك الأيام، وجلبت شعوراً بالراحة التي تجدد الحيوية للجميع. على الرغم من الصعوبات، امتلأت الأنفس بدفقة من الأمل لدى الناس.

لم يكن أحد يعلم كم من الوقت ستستمر الإقامة هناك، لكن الصفة التي تميز بها كل يوم يحيونه هي صفة الحرية. فقد عادوا ليصبحوا "شراكسة" مرة أخرى. لم يعودوا محتقرين، ولا ينظر إليهم كمهاجرين، ولا عصاة ثواراً، بل مجرد أناس على طبيعتهم. نشأ بينهم رابط اجتماعي هادف جمعهم إلى بعضهم بعضاً: بحيث جرى اقتسام الواجبات حسب التقاليد القديمة. كان تسوك، الراوية العجوز، يجلس كل ليلة وقد أجلس طفلاً على ركبته، ليقص على الناشئين أساطير الأولين. وتتولى حليمه مسؤولية المطبخ المؤقت محاطة بفتيات صغيرات السن لتنفيذ أوامرها، تماماً كما كانت تفعل في قريتها ببلاد الشابسوغ. ويقوم كل من تيمور وعمر باصطحاب الصغار الآخرين إلى خارج الدائرة لتعليمهم ركوب الخيل، وأداء الحركات الخطرة إضافة إلى مزايا الفروسية. تحسنت حالة صدر إسماعيل المرضية مع مثل هذه التمارين في الطقس البارد والهواء النقي الجاف. وتتكوم كل من رسميه، ساكنات، وأمها زهره سوية مع نساء قرية تسوك، بحثاً عن الدفء في كل يوم، ويقمن برتق الثياب بنفس الاهتمام والعناية التي كان بإمكانهن إسباغها على مخرمات مهورهن الراقية، في الأيام الغابرة.

راقب أصلان تأسيس جميع هذه الإيقاعات الحياتية، مندهشاً من قوة إرادة وتصميم أبناء شعبه. على النقيض من ذلك – أصبحت ماجده أكثر ميلاً إلى الهدوء، والتعالي والغوص في أحلام

اليقظة. عثر عليها أكثر من مرة جالسة في بقعة منعزلة، فيما يفترض أنها تقوم بحراسة "الدائرة"، بينما هي في حقيقة الأمر، تخبئ نفسها عن الأنظار.

حدث هذا في إحدى الأمسيات، حين بدت السماء صافية باردة، والنيران تتقد براقة. كان أصلان جالساً مع الرجال الآخرين في "خان" واسع بناه هو والشبان الآخرين. وأثقلوه بقطع الطين المعشبة المتجمدة على السطح، حتى يتحمل عواصف الشتاء.

في الداخل، كان الجو عابقاً بالدخان، وتفوح فيه رائحة السمك، لكنه دافئ مريح، وكان يستمتع بحالة حليمه النفسية المضيافة.

"إذن، فالليلة يا حليمه، لدينا-"

"سمك ترويته محروق، ترويته مشوية، ترويته بالشوفان، أو ترويته مخللة. تماماً مثل الأمس." جاءت ضحكتها مجلجلة خالية من الشكوى من مكانها إلى جانب النار المفتوحة.

"آه، نعم يا حليمه، وهذا هو السبب الذي يدفعني إلى القدوم إلى مائدتك بهذا التكرار. يالها من تشكيلة! يا له من تنوع وابتكار! إنه يليق "بكافانات" جالاتا!"

"لن نحتمل أياً من سخافاتك التركية هنا، أيها العسكري. إنني أدير منزلاً شركسياً محترماً هنا."

"أنت حقيقة تفعلين ذلك. ولك الحق بأن تفخري... أوه، اللعنة، يا حليمه، إن الثلج يتساقط مرة أخرى. وبغزارة.

"فليذهب أحدكم ويدعو تلك الفتاة للعودة إلى الداخل."

سأل أصلان "ماجده؟ أين هي؟"

"إنها تأخذ دورها في الوقوف للخفارة. حتماً لا توجد حاجة لذلك في هذا الطقس، أليس كذلك؟ إنها في غاية التصميم على أداء دورها."

"سأذهب بنفسي. لا أستطيع أن أجلس وأتناول الطعام بينما هي تتجمد من البرد."

ترك أصلان طبقه وانطلق خارجاً. وهو يلف معطفه العسكري المهترئ حوله بإحكام. انحنى إلى الأمام ضد الريح ومشى مسرعاً نحو طرف الدائرة، سالكاً الطريق الوحيدة المؤدية إلى الداخل. كان الأشخاص الذين يتناوبون أدوار الخفارة هنا قد بنوا نقطة استطلاع مريحة، محاطة بجدار من الأغصان الشوكية اتقاء للريح، وكومة من القش في الداخل لمنع أقدامهم من التجمد.

عثر أصلان على ماجده متكومة على نفسها في وكر النسور هذا، كأنها روح المكان السحرية،وقد اعترتها حالة من السهوم بينما يتكوم الثلج حولها. بدت رائعة رغم شحوبها، ورغم عدم انتباهها إلى نتف الثلج التي وصلت إلى أهدابها ومالت شفتاها إلى اللون الأزرق.

"ماجده!"

قفز أصلان إلى داخل الملجأ، مدفوعاً بمشاعره الجياشة نحوها، وغمر ماجده بدفء معطفه. كان قد فعل ذلك من قبل، بشكل أخوي: فلم تشعر بالخوف ولم تقاومه.

لكن دفقة من الحنان والإعجاب الطاغي انسابت في كيان أصلان بحيث لم يعد يستطيع أن يقاوم مشاعره أكثر مما فعل. انحنى بوجهه نحو وجهها، وقبّل حافة الثلج عن أهدابها بشفتيه الحارتين الممتلئتين بالشغف، ووضع فمه الحار المتدفق بالرغبة على شفتيها المثلجتين.

"ماجده!"

أيقنت أن هذه هي القبلة التي طالما حلمت بها، في كل مرة فكرت فيها بزوجها المتوفى. في كل مرة تذكرت فيها كيف راقبت جسمه القوي بخجل، حينما كان يفلح الحقول، قبل أن يأخذوه بعيداً

عنها، كيف كانت هذه الذكرى تدفع بالرغبة الجامحة داخل كيانها. هذا هو رجلها: لقد ذهب كاظم، لقد كان كاظم واجبها كزوج، لكن أصلان هو فتى أحلامها.

"أصلان" تجرأت على الهمس بأسمه المجرد بتحبب. لم تكن قد خاطبته هكذا من قبل أبداً.

احتضنها، واضعاً رأسه على صدرها، بينما هي تبكي وتكاد تغيب عن الوعي من حدة شغفها "أصلان".

"أنا أحبك يا ماجده. بل أعبدك. أيتها المرأة الأعز – ما كنت أجرؤ...."

"لا بأس عليك. فأنا أيضاً أحبك. قبلني مرة أخرى، يا أصلان، عانقني! أريدك أن تعانقني."

غرق كلاهما في عناق أبدي لا ينتهي صعد بروحيهما نحو قبة السماء، في مثل صفاء البلور وطهارة النتف الثلجية التي غلفتهما بالبياض – كأنها غلالة خمار الزفاف. كانت تلك احتفالية الجبل السحرية– زفاف فضي بارد. نفَّذا أيمانهما وتعهداتهما في تلك اللحظة.

"تعالي. عودي معي إلى داخل الدائرة. لا يمكنك أن تبقي هنا في الخارج طيلة الليل."

لكن ماجده استمرت في التمسك به بصمت وقوة، هنا حيث شكلت كومة القش فراشاً دافئاً، حيث يمكنهما البقاء سوية، في خصوصية – على الأقل بأكثر قدر من الخصوصية التي يمكن أن يحلما بها.

"ماجده. يوماً ما، سوف أخرجك من هذه المعاناة وستكون لنا حياة سوية. سوف نحيا معاً في سلام، وننعم بالسعادة. لن أتخلى عنك أبداً، وسوف أوفر لك الأمان الدائم – ذلك هو ما ترغبين فيه، أليس كذلك، أيتها الأحب؟"

طأطأت ماجده رأسها "سوف تكون لدينا عائلة، وننسى كل ماله علاقة بالقتل و القتال...."

جلسا صامتين فترة طويلة، وهما يفكران في هذا الحلم الرائع بالحياة الطبيعية، بدت بعيدة جداً. "أين، يا أصلان بك؟" خاطبته ماجده كما اعتادت أن تفعل - بصفته القائد، صانع القرار الذي ساعدها في قيادة الناس، بحكم قوة العادة.

"أين؟" بدا صوتها الخفيض حزيناً ويائساً إلى درجة جعلت أصلان يحتضنها بقوة ويمسد لها شعرها.

"لا تقلقي يا ماجده. ثقي بي - هنالك مكان مقدر لنا التواجد فيه، حيث يمكننا أن نعيش فيه كما عاش الشراكسة منذ القدم، بدون أن يعتريهم الخوف من أي أعداء."

"أين يا أصلان؟ أنت إنما تخبرني بهذه الأشياء لأنك تشفق علي! ليس هناك أي مكان لنا في الحقيقة، هل يوجد مثل هذا المكان؟"

رفعت وجهاً مخضباً بالدموع نحو وجهه، وقبّلها.

"أعدك، أقسم بكل ذرة من كياني أن هناك مكان يمكننا فيه أن نعيش سعداء آمنين."

تردد قليلاً، غير واثق مما إذا كانت هذه هي اللحظة المثلى ليخبرها فيها عن أعظم أحلامه.

"أخبرني. أريد أن أعرف الآن، حتى نستطيع كلانا أن نحلم به سوية." قالت، وهي تتخذ موقعها في أفكاره.

"الأمر هو هذا، أعرف أن العديد من الشراكسة قد استقروا في الأناضول، في منطقة سيواس. هنالك قرى - أخبرني بعض المجندين في الأناضول أن أقاربهم قد اتجهوا من سامسون وطرابزون جنوباً، عندما جنحت بعض "سفن التوابيت" إلى الشاطئ

هناك. بمحض الصدفة والحظ أكثر منه بموجب التخطيط، إنني أفكر.. على أية حال، أعتقد أنه توجد هناك أراضي، مساحات واسعة منها. هناك مجال كافي للجميع... وهكذا، ذلك هو المكان الذي أعتقد أنه يمِكننا الذهاب إليه، يا حبيبتي".

نظر أصلان إلى وجهها. كانت ماجده مغمضة عينيها وقد ارتسمت حول فمها بداية ابتسامة قانعة. استمر أصلان في أحلامه.

"إنني أفكر إننا ربما نعثر على سفينة في البحر الأدرياتيكي، وننقل كل هؤلاء الناس الشجعان عبر البحر إلى المناطق الواقعة في ممتلكات السلاطين خلف الأناضول – إلى الجنوب من الأناضول، ونجرب حظنا هناك."

"هممم" فتحت ماجده عينيها واضطجعت متكئة إلى صدره، مستسلمة إلى أمان الاحتضان. داهمها النعاس. همست له "أخبرني بالمزيد" استلقى أصلان بظهره على كومة القش، وترك عقله يجوس خلال أكثر تخيلاته خصوصية. فهو لا يكاد يصدق حسن حظه، لكونه بعد كل سنوات الوحدة والشقاء، يحتضن بين ذراعيه هذه المرأة السحرية، الراغبة بكل أحاسيسها أن تسمح له ببث حبه، وواضح أنها راغبة أكثر من ذلك، في مبادلته ذلك الحب.

تحول صوته إلى ناعم خافت بفعل العاطفة والتأثر بينما هو يعبر عن أفكاره التي ظلت حبيسة صدره طيلة هذه السنوات، ورغباته التي استيقظت مؤخراً.

طافت ماجده بين الوعي والنوم وهي تسمع ما تقدر على السماح لنفسها بسماعه، وتكاد تتجنب الأفكار الصاخبة المضطربة لامرأة مثلها...

امرأة عرفت كل ذلك القدر من الحزن

***

الفصل الحادي عشر

أغلق باب الجناح المخصص له في ثكنة جالاتا خلفه. انهار أورهان أتاكوي على فراشه في الغرفة البيضاء المبلطة المنتعشة بالبرودة. ضرب وساداته بقبضته وهو يسب، ويشتم، ويطلق الأدعية. لم يكن بإمكانه أن يميز بين خوفه وغضبه: فقد كان يشعر بالإعياء والقرف من رأسه وحتى أخمص قدميه. عاوده الألم القديم نفسه بحدة مفاجئة مع حلول الضعف والغضب في كيانه.

هل وصل الأمر إلى هذا الحد؟ لقد اضطر فعلياً إلى أن يقاتل حتى يشق طريقه إلى داخل المدينة ذلك الصباح. فهو لم يشاهد أبداً وضعاً مثل هذا. فقد كانت "مكته" المجيدة، "قسطنطينية" الرائعة، تعج باللاجئين، كلهم هاربين إلى داخل العاصمة هرباً من التقدم الروسي. يوم الحادي والعشرين من كانون الثاني 1878: سقطت أدرنه بيد الغزاة. وكانت المدينة اليوم مزدحمة بالفلاحين الأتراك الهاربين إلى تركيا من بلغاريا، من مقدونيا، وحتى من أمكنة موغلة في البعد مثل أطراف صربيا. لم يعودوا بحاجة لأن يقال لهم أن مستقبلهم في "ولايات الرايا" هذه قد أصبح محفوفاً بالأخطار. لم يكن لديهم الكثير من المال، ولا قدر من القوة أو السلطة، وحده دينهم هو الذي قادهم عائدين إلى السلطان الذي خذلهم في حقيقة الأمر.

كانت امبراطورية عبد الحميد الثاني المترامية الأطراف جاثية على ركبتيها. أصبح الشاب العصبي المزاج، ذو الملامح الرقيقة في وضع سيضطر فيه إلى ثني ركبتيه. كان الباب العالي يطالب بالسلام —وذلك يعني، بكلمات قليلة، تجزئة الامبراطورية المقدسة في أوروبا.

في خضم ذلك الهياج المجنون الذي جسده اللاجئون، صار يجري استدعاء الضباط النافعين المخلصين إلى السيراسكريات

وإعطاؤهم مناصب جديدة، استراتيجيات جديدة، حتى يتمكن السلطان من الاحتفاظ بما يملكه عندما يذهب إلى طاولة المفاوضات مع الروس، النمساويين، البريطانيين – وحتى بسمارك العجوز قائد ألمانيا، إذا اقتضت الضرورة الملجئة.

شعر أورهان بالإطراء لاستدعائه، والذي جاء، كما تخيل، كنتيجة لمقاومته الشرسة العنيدة في فيدين، وفي ملاحقته العنيدة بنفس المقدار لذلك "الفار من الخدمة" أصلان بك الشركسي. لقد سقطت كل من بيرو ونيس في أيدي الصرب. لقد تم التحقق من أن ضابطاً برتبة عالية قد هرب من ذلك الميدان. وهكذا، فكما كان أورهان يأمل، وضعته شكوكه وتقاريره الفضولية، في موقف تفضيلي.

إلى أين يمكن انتدابه؟ بدأ يتعرق من تفكيره في عدة احتمالات لا يحسده أحد عليها.

بعد تناوله طعام العشاء مع الجنرال ليرمينوس، في تلك الأمسية المحددة، خرج أورهان أتاكوي، راكباً من المرافق الشتوية لفرقة نيس في حالة جسدية سيئة. كان قد أقنع نفسه بأنه لا يستهلك الكحول، لكن الطباخ، وهو ملازم بوجه بشوش وأصابع نظيفة سحره بلغته الفرنسية ذات اللكنة الباريسية بحيث أشاح أتاكوي بعينيه عن "الفلامبيه" التي اشتعلت فوق شريحة لحم الخاصرة، و"حرافة" القشدة المخفوقة، و"اندفاع" قهوة آخر الليل وقلب حلوى الشكولاتة "السائل" المصنوعة بيتياً بيد الشيف. إضافة إلى أنشطته المجهدة بعد الظهر (آخذاً في الاعتبار حالته الذهنية التي أنهكتها الحرب) فإن العقيد أتاكوي لم يكن في حالة رائعة تمكنه من التجول في "سنجق" يعج بالثوار المتمردين. أخبره الحداد بأن يحاول العثور على مزارع سوّق خضار إلى الجنوب من بيرو، يتردد على المعسكر بشكل منتظم حاملاً مواد غذائية. كان هذا الرجل قد تذمر من ضابط تركي قام بمصادرة "عرباته" لينقل به حمولة من الرعاع الشراكسة في سنجق نوفي بازار المجاور. اشتكى لفيرنر، من أن

السلطات لم تهتم به: طالب بالتعويض عن تدمير محصول أسبوع من الملفوف وخسارة حارسه الليلي الذي أصيب بالصمم في إحدى أذنيه نتيجة لطمة تلقاها.

كانت هذه تفاصيل تافهة وسط الأزمة الأكبر: كان الضابط المسؤول قد قال له أن أي خارج على القانون يمكنه أن يسرق زياً عسكرياً ليسهل له هروبه. أسرع فيرنر: "ولكن بما أنك سألتني عن صديقك الشركسي هذا، أيها العقيد، فقد تذكرت حكاية "معاناة" هذا المزارع." إن المزرعة أبعد كثيراً عن بيرو باتجاه الجنوب – ولكنني لو كنت شركسياً هارباً، فذلك بالضبط هو الاتجاه الذي كنت سأسلكه!"

غمر أورهان فرح طاغ وقام برحلته حسب تعليمات فيرنر للتحقق من التفاصيل. كان مغرماً بالمعلومات الدقيقة: لتحقيق غايته، يجب على الحكاية أن تتمتع برنين الحقيقة، وأن تلمع حد الكمال. لم يكن يهتم مطلقاً إن كان هذا "الخارج عن القانون" هو أصلان أم لا- لأن الاحتمالات ضعيفة، بصراحه- طالما أن الحكاية تخدم غاياته.

قال المزارع عندما ظهر الضابط التركي الثاني "ماذا تريد؟". فقد كان متهيئاً هذه المرة. أقفل على ثيرانه في داخل اسطبل: وقد تسلح عماله بالكامل واتخذوا مواقعهم.

"لا شيء على الإطلاق!" أرجوك أن تخبر رجالك بأن يخفضوا أسلحتهم. لقد حضرت ممثلاً لقوات السلطات الإمبراطورية المسلحة، للتحقيق في شكواك ضد أحد ضباطنا".

"آها! إذن هناك شخص ما أخيراً ينظر بجدية إلى أقوالي!".

"نعم، حقاً" أخرج أورهان كيساً مليئاً بالقطع المعدنية. لم يؤنبه ضميره على الرشوة. فإن قيمتها لم تؤثر على وضعه المالي بأية حال. فقد كان حاذقاً بما يكفي ليدرك أنه مع وجود الأزمة، فإن

قيمة القطع النقدية في كيسه كانت تتناقص بينما هي تخشخش، وأنه لم يكن يدفع مبلغاً قيماً.

تناول المزارع الكيس، تحسس القطع، عض بعضاً منها، ثم أشار إلى فلاحيه بأن يستأنفوا أعمالهم العادية. قال له أورهان:

"أشكرك يا رجلي الطيب" وترجل عن فرسه ثم أخرج دفتر ملاحظات صغيراً.

سأله المزارع "أتشرب الشاي؟" وهو يمرر يده فوق فمه بحركة عصبية.

تقزز أورهان من الفكرة "كلا، كلا، اشكرك، التفاصيل، هي كل ما أريده منك. كم يبلغ طول هذا الضابط الذي صادر عربتيك؟".

"أوه، إنه أطول منك بكثير! نعم يا سيدي. إنه وغد وسيم أيضاً. يميل إلى اللون الأشقر، أزرق العينين... دعني أفكر... كانت لديه ندبة صغيرة تقطع خلال أحد حاجبيه. هكذا، هل ترى؟".

بينما هو يمرر إصبعه فوق وجهه، أحسّ أورهان بدفقة من الإثارة سبَّبها التعرف. فقد أصبح بإمكانه أن يشاهد أصلان مشاهدة حية، يبتسم، يقص عليه حكاية صغيرة ساخرة، ويتلمس تلك الندبة الصغيرة في بادرة انتقاص من قدر نفسه. كان يمتلك توقيتاً رائعاً حين يروي حكاية. اللعنة، لماذا تحتم عليه أن يصبو، لماذا أصبح متزمتاً إلى تلك الدرجة، وغداً متعجرفاً ذا وجهين؟

"وما الذي يجعلك واثقاً من أنه لم يكن مجرد قاطع طريق عادي؟"

اقترب المزارع منحنياً إلى جهته فأمسك أورهان نفسه بصعوبة عن التراجع بسبب رائحة ثيابه الوسخة. "لقد أخبرتهم في المعسكر! لم يكن قاطع طريق حقيراً – فهو يمتطي جواده كفارس متمرس وكان يتحدث اللغة الشركسية. لست غبياً–أنا أعرف الفارق

بين الرجل المحترم وبين المتشرد،إضافة إلى ذلك، لماذا يتعب قاطع الطريق نفسه بنقل حمولة من النساء الغبيات والعجائز – أطفال وإناث– إلى السنجق؟ ذلك هو ما أريد أن أعرفه! أيتها السموات العلى على الأرض...! أنتم لم تعودوا تعرفون ما يفعله عقداؤكم بعد الآن!".

أحسّ أورهان بقدر هائل من الانفراج حتى أنه أراد لو يصرخ. فقد سيطر عليه – لقد امتلك أصلان بك وكأنه داخل راحة يده...

"أشكرك أيها المزارع. سوق أقدم تقريراً وافياً. سوف يتم العثور على هذا الرجل ويقدم للمحاكمة العسكرية بتهمة الفرار من الخدمة العسكرية, سيرضيك ذلك، ما من شك عندي".

أدرك المزارع أن هذا معناه الموت. أصيب بالذهول حين أدرك أن شكواه قد جلبت مثل تلك النتائج الوخيمة – فكل ما رغب فيه هو كيس من النقود–.

"أتمنى لك نهاراً سعيداً".

لم تسنح له الفرصة لكي يعيد التفكير فيما قاله، لأن العقيد كان قد انصرف.

عاد العقيد أتاكوي أدراجه مسرعاً، مزهواً وقد برئ في لحظة من تأثيرات سكره السابق. عندما اقترب من معسكر الجنرال ليرومينوس الشتوي سمع صرخة بعثت في قلبه السرور. "إلى الجياد! إلى الجياد!" وشاهد عربات المدافع يجري سحبها في خط طويل، وتتحرك مسرعة. كانت مجموعة من سريتين أو ثلاثة من الخيالة تهجم بسرعة شيطانية عبر الحقول المتجمدة، وفي البعد، تناهت إلى سمعه أصوات "بوم بوم" المألوفة من قذائف المدفعية.

"حملة! رائع. إنني متشوق إلى شيء من القتال!".

ارتفعت معنويات أورهان أتاكوي من التفكير في أنه وجد الجواب على مشاكله بأمان في الدليل الدامغ المتمثل في دفتر ملاحظاته، وأضافت فكرة المشاركة في اشتباك ما الرضى المتمم لنهاره.

استدار بفرسه وانطلق ليطارد الخيالة الأتراك. غلا دمه من احتمال وقوعه تحت مرمى النيران على طريقة "الجنود" القديمة. لم يكن متأكداً من سبب القصف المدفعي الذي بدأ في وقت متأخر إلى تلك الدرجة من النهار، لكن ارتفاع معنوياته بالإضافة إلى الفضول دفعاه إلى التقدم.

تسلق طريق عربات في صعودها، ثم تابع الطراد عليها في انحدارها مستعجلاً الدخول في المعترك. وجه فرسه المحذية حديثاً نحو حفرة صغيرة وقفز عنها بسهولة، وجد أمامه تلة صغيرة، وأجمة من الأشجار المتراصة تقوم فيها المشاة بالدوريات في العادة. استدار عند حافة هذا الدغل، فوق قمة التلة – ليجد أمامه البقايا المشوهة لثلة من الجنود الأتراك، سببها أحد المدافع الطويلة المدى التابعة لبطاريات المدفعية الصربية – الروسية المتقدمة. ظهرت خلفهم بقايا قرية تركية، قرر الصرب خطأً أنها مقر إقامة شتوي للجنود الأتراك. ولم يكن فيها في الحقيقة سوى نساء وأطفال بلغار: ولم تعد الآن تصلح لأي سكنى، لا لإنسان ولا حتى لحيوان. لقد كان المكان يصنف ضمن الفئة المحايدة – ولا يتمتع بأية ميزة استراتيجية مطلقاً.

توقف أورهان أتاكوي، حانقاً من حقيقة أن حالة ارتفاع معنوياته لم يقدر لها أن تطول. لكن تردده هذا كان قاتلاً. جاء صفير الإنذار للقذيفة القادمة متأخراً جداً. أدار فرسه، انفجرت القذيفة، ألقت بمطيته في حفرة قذيفة، بترت ذراعه عن كتفه وألقت ببقية جسمه في الحفرة التي وقعت فيها فرسه.

في المستشفى الميداني، علم العقيد أورهان أتاكوي، في وقت لاحق أن سبب إطلاق الصلية هو استسلام تركيا المحتم –فقد وصل نبأ سقوط مدينة أدرنه عبر أسلاك البرق العائدة للجيش. في ذلك اليوم الحادي والعشرين من كانون الثاني المصيري. رقد ليستريح ويتعافى هنا في جالاتا، وقد اعتبر "بطلاً" بسبب جهوده على الجبهة الصربية. كانت ذراعه المبتورة تؤلمه وكأنها ما تزال مرتبطة به، ممزقة وتنبض من كل عصب ممزق.

أدرك أورهان خلال الأسابيع الجهنمية الأخيرة أن الشيء الوحيد الذي يمكنه عمله هو شرب المزيد من المورفين، والانتظار حتى تنقشع التشنجات الموهومة.

تناول الجرعة في عجالة، وهو يمتص الزجاجة البنية بنهم، بحثاً عن آخر قطرة. جاءت تأثيراتها سريعة، مذيبة لمخاوفه، إخفاقه، ومرارته في سكينة الهروب الحسي.

لحسن حظه أنه كان قد "تعافى" بطريقة أو أخرى عندما طرق الضابط الشاب المسؤول عنه على الباب طرقات سريعة.

"العقيد أتاكوي؟ لقد أزف موعد اصطحابك إلى الوزارة، يا سيدي".

تابع أورهان ذلك الدرب الشهير، رحلة أحلامه، والتي طالما وصف تفاصيلها لأصلان بينما هما يستريحان بين المعارك في الأناضول. عبر الجسر القائم في جالاتا، ونزل شارع ديوان يولي العظيم. إلى قصر وزارة الحربية، قرب ساحة بايزيد.

لكن اليوم، كانت الطريق تكاد تنسد لكثرة اللاجئين والمواطنين الذين تبدو عليهم سيماء اليأس، الذين يبحثون خياراتهم في انفعال واضح. ساد المكان جو عام من الفراغ –من غياب الحكومة. كان ذلك العنصر محسوساً، صادماً، حتى مخيفاً لبعض الذين كانوا يبكون جهاراً، جالسين على الأرصفة، يهدهدون أبدانهم ويضربون رؤوسهم المجللة بالعار.

لم يكن الباشا الذي استقبله غير رؤوف باشا، أحد الضباط الشراكسة الأرفع رتبة في الإدارة التركية ومنافس القائد العام للجيش التركي، سليمان باشا.

"لك تعازيَّ على إصابتك، سيدي". كان الباشا، الذي يرتدي الزي الرسمي الاحتفالي المزوق بالذهب في كل بقعة ممكنة، رجلاً مهيب الطلعة. فقد كانت تعلوه سيماء النبالة التي طالما امتلكها أصلان —وكما كانت تغيظ أورهان في حينها، أغاظته الآن.

شعر العقيد أتاكوي بالإطراء على المستوى الرفيع لهذه المقابلة، لكنه بات حذراً. فلماذا يدير هذه المقابلة شركسي بارز؟ من بين الباشوات الذين يمكنهم إدارتها؟

فكر للحظة أن "انتقامه" قد أصبح موضع شك.

"لقد سمعت كذلك أنك أحضرت شهادة تخص ذلك الخائن أصلان بك".

ابتلع أورهان ريقه "نعم سيدي".

كان رؤوف باشا عجوزاً، داهية، وليس سهلاً على الفهم. قابلت نظرته الباردة عينا أورهان وكان التركي هو الذي استسلم للشركسي، إذ غض بصره.

"نحن في غاية الامتنان لتقريرك. لقد كنت على الدوام ضابطاً مخلصاً يحظى بالإعجاب في كل من الأناضول وبلغاريا. يجب أن لا تتسبب إصابتك في إعاقة تقدمك: لقد أمر السلطان بنفسه بذلك. في هذا الوقت العصيب يمكننا بل يتحتم علينا أن نعتمد على رجال من مثل نوعيتك سيدي – وإلا فنحن هالكون".

لم يلحظ أورهان أقل قدر من السخرية في خطابه وبدأ يتنفس بحرية أكثر قليلاً.

"ولذلك، فهل ستفكر في هذا التعيين" – كان العرض مغلفاً وكأن هناك بديل آخر – "حاكماً عسكرياً؟ للساحل الأدرياتيكي؟".

دفع رؤوف باشا بمغلف مختوم عبر سطح الطاولة المراكشي الأحمر، مشيراً إلى أورهان في صمت أن يكسر الختم، يقرأ المحتويات، ولكن بدون أن ينطق بالاسم.

انحنى أورهان إلى الأمام ونزع الغطاء بكل عناية وحرص. لم يستطع أن يصدق حسن حظه. فهو مشوّه، ومعاق، ومع ذلك فهو يكافأ بوظيفة مغرية! ميناء، حيث يلتقي الجحيم والطوفان يومياً! اللاجئون، الفارون من الخدمة، الذين يحاولون الهروب –المرتزقة والسلاح يجري تهريبهم إلى الداخل. سيقوم بإحراز غنيمة عظيمة.

***

كان سكان "الدائرة" قانعين جداً بوضعهم في الواقع. رغم كونهم معلقين في الوقت والمكان – في الجو الصافي الفارغ لمرتفعات الجبل الأسود – فقد كانوا سعداء لكونهم لا يعرفون شيئاً عن المتاعب التي ظلوا يدركون أنها تتفاقم وتتعاظم على جميع جوانبهم.

كانوا بحاجة إلى هذه الاستراحة. إلتهم أصلان وماجده كل يوم ضمن إحساس متعاظم بالأمل. تحسنت صحة زهره، أرملة العجوز حطوط طيلة الوقت لإدراكها أن زوجها راقد رقدته الأبدية في أفضل وضع يمكن تحقيقه، ولكونها قد راعت فترة الحداد البالغة أربعين يوماً بأسلوب بسيط نتيجة مساعدة صديقاتها.

إزدهرت أحوال حليمه: تراخت أعصاب رسميه، واكتسب إسماعيل القوة بتحسن صحته، بينما ظلت نساء حسن يثرثرن ويتخاصمن بين الفينة والأخرى، كعادتهن دوماً.

إلا أن تيمور وعمر، أخذا يشعران بالملل والكبت. إذ لم يكن هناك أي عمل يستلزم الجرأة: لا تهديدات، لا اكتشافات. لا شيء

في مجال المشاريع والأعمال الجدية، بعد أن تم إصلاح جميع "الخانات" إلى حد منظم، وأصبح السياج المحيط قوياً منيعاً، ومخازن الغذاء في الكهوف محتوية على كمية محدودة من التموين الغذائي الصحي. بحلول شهر شباط، تحسن الطقس قليلاً، كما زاد في إحساسهم بالكبت والإحباط. لم يعد انخفاض الحرارة إلى درجة التجمد يزعج أحداً: ولكن خفوت الرياح وظهور أولى بوادر ذوبان الجليد جعل الشباب يطمحون إلى محاولة القيام بشيء جديد.

قال تيمور بابتسامته التي أصبحت احتفالية بحلول هذا الوقت "سيدي، أطلب الإذن بالكلام يا سيدي".

"الإذن ممنوح" استلقى أصلان على طول قامته فوق صخرة دافئة بدرجة مفاجئة، تحت وميض إشراقة شمس شتائية قصيرة رائعة.

"ألا يمكننا، عمر وأنا أن نستكشف إلى الأمام أبعد قليلاً، خاصة بعد أن انكسرت حدة الطقس؟ أعني، أننا هنا بأمان أكثر من أي مكان آخر، لكنني مستعد الآن لأن أعطي ذراعي اليمنى مقابل فخذ غزال!" تدحرج أصلان إلى جانبه "رحلة صيد! فكرة رائعة. سوف أخبر كمال لكي ينضم إليكما، ولكن بدون بنادق. يجب علينا أن ندخر كمية الذخيرة القليلة التي بحوزتنا، كما يجب أن نستمر في كوننا صيادين صامتين..".

ذهب أصلان ليخبر ماجده بأنه سيتغيب لمعظم ساعات النهار. كانت، لمرة واحدة، منشغلة بأمان في ملجأها الصغير المحتوي على الخشب والمخرطة. رافقتها كل من رسميه والصغيرة سوسا، وكن جميعاً منهكمات في تقطيب الأحذية وأغطية السيقان من أكوام من الجلد–التي جرى توفيرها من الأرانب والقوارض الأخرى التي علقت في الأفخاخ بمحض الصدفة.

لقد دأبت النساء على حمل الإبر في كل الأوقات: وعليه فقد أخذ الرجال المسنون يصنعون الخيوط من إمعاء هذه المخلوقات.

"جيد، يا أصلان بك! ولكن توخَّ الحذر، ألا تفعل؟".

تفوقت إشراقة ابتسامة ماجده على الشمس الباهتة في بريقها ودفئها. وجاء منظرها بالنسبة لأصلان مثل مرأى الماء في البيداء القاحلة، أو الملاذ أثناء الإعصار. شعر وكأنه قد عاد إلى وطنه بكيان جديد، بعيد عن العواطف الأكثر شراسة التي استجمعها خلال حياته العسكرية.

كانت لمسته السرية، وهو يغادر "الخان" متكلفة لكنها مليئة بالحنان. كل لمسة قدَّمها كانت تكلفه الكثير، لأن كل لمسة كانت تعني سقوط قشرة حديدية أخرى عن وجوده الداخلي المحصن. فقد صنفته الحياة العسكرية. أصبحت أفكاره ومشاعره بالضرورة جماعية: فرح وافتخار بأداء الواجب، في سبيل الصالح العام. لكن الفرح الذي كان يحسه الآن كان يملأه بالنبل والسمو – ووجد ذلك غريباً عليه، وحتى مخيفاً. فقد ظل يعتقد دوماً أن حبه لامرأة سيكون أمراً ناعماً، ضرباً من الاستسلام. مما دفعه إلى إثبات نفسه المرة تلو الأخرى.

انطلق الرجال الشركس الأربعة إلى الصيد متسلحين "بالقامات"، الأقواس والسهام، والشباك، باتجاه الجانب الجنوبي للدائرة. امتنعوا عن استخدام البنادق خوفاً من تنبيه أية دورية عسكرية إلى وجودهم.

كان كل من تيمور وعمر قد قاما بعدة مهمات استطلاع مع ميل الطقس إلى التحسن، وكان أصلان قد رسم لنفسه خارطة ذهنية دقيقة إلى حد ما عن موقعهم. فقد كانوا على بعد مسيرة حوالي يومين من الألبان إلى الجنوب الشرقي، حيث فصل خط من القلاع التركية أهالي الجبل الأسود عن "الناس البيض" كما كانوا معروفين، في منطقة الحدود المتنازع عليها هذه.

في نهاية المطاف، صار أصلان يخطط للاستمرار في التحرك باتجاه أكثر ميلاً نحو الغرب، بحيث يدور حول هذه الحدود،

ويتوجه إلى الوادي المركزي للجبل الأسود حيث توجد بلدة بورغوريتزا (إذا أسعفته الذاكرة بشكل صحيح). سوف يضطرون إلى الالتفاف حول تلك البلدة أيضاً بطريقة ما، وأن يجدوا طريقاً عبر بحيرة سكوتاري، فهو يعرف من إطلاعه على خارطة كان قد رآها في وقت ما في الماضي، أن هذه البحيرة موجودة، وأنها كبيرة فعلاً.

من هناك، لم تكن لديه أية فكرة.

بينما هم يجوسون خلال الغابة، بات يفكر أين بالضبط سيقررون الاستقرار.

كان "مجلس الدائرة" قد قرر أنهم يجب أن يبقوا سوية. وقعت مسؤولية الاختيار على عاتق أصلان لكونه الأكثر سفراً، والأعمق معرفة بحالة الإمبراطورية العثمانية. إلى اتخاذ القرار بالنسبة له ولماجده أمر معقول: أما اتخاذ قرار يمس حياة خمسين أو أكثر من الشركس فهي مسؤولية من طراز آخر مختلف، ولهذا فقد أراد ليس فقط أن يكون واثقاً في قلبه، بل أن يكون قادراً على إعطاء تبرير منطقي صادر عن عقله.

تمشى تيمور إلى جانبه، سريع الحركة صامتاً كأنه القط. فقد اكتسب جسمه صلابة ونحولاً - وأصبح تحوله إلى الرجولة واضحاً بعد كل التجارب التي مر بها.

"سيدي-"

ضحك أصلان "أوه، بالله عليك، تكلم!".

"حسناً. أعرف أن من ضمن أفكارك أن تجعلنا نهرب إلى مكان آمن، ربما إلى تركيا الآسيوية. لقد سمعت بدوري قصصاً من الجنود في الأناضول عن القرى الشركسية هناك. ولكن يا سيدي وحق الله، كم تنتقل الأخبار بسرعة!".

اعترف تيمور "حليمه، يا سيدي..."

"أفترض أن الأمر طبيعي، فإن ماجده تبوح لها بأسرارها وتثق فيها.."

"سيدي-"

"نعم، استمر في كلامك..."

"أليس الطقس حاراً إلى درجة رهيبة هناك؟ أعني، أنا أحب الجبال. سنكون كلنا في حال أفضل بكثير هنا-" ضرب تيمور على صدره "إنني أتنفس بحرية في الجبال!".

ضحك أصلان مرة أخرى "أنت شخصياً قباردي من وادٍ منخفض مسالم، ولست شيشانياً مولعاً بالقتال!".

احتد تيمور "إنك تنسى يا سيدي. أن جدة والدي كانت شيشانية حقاً- وقد كان والدها ملاً".

تدارك أصلان الوضع بسرعة "سامحني. لقد نسيت القصة حقيقة..."

لم يكن تيمور بحاجة إلى المزيد من التشجيع فانطلق يثرثر بمرح عن عائلة كازبك بينما هما يسيران نحو منطقة الصيد.

بدا أصلان سعيداً لإحساس تيمور المتوازن بالوضع الجيد، لكنه أيضاً عانى من نفس الشكوك المقيمة فيما يتعلق بخطته. فقد خاض اللاجئون الشركس في العديد من المصاعب. فكيف سيعثرون على احتياطي القوة والتحمل لمواجهة رحلة طويلة وإعادة التوطين في أرض غريبة ربما تكون بحاجة إلى عمل قاسٍ مضنٍ حتى تزدهر؟

أمسك تيمور بذراعه بقوة وبلا مجاملة. وقال من خلال تنفسه.

"انظر!". هناك، في وسط الصخور المنحدرة، وعلى طرف أحراش الزان الواقعة أسفلها، وقف أيل صلب الجسم رأسه مثقل بالقرون الضخمة. كان قد تجول أبعد مما يتوجب عليه خلال بحثه

الجائع عن مرعى أكثر خصوبة. لم يكن حذراً لأن المنطقة كلها كانت خالية من الرجال، وشاء حسن الحظ أن يكون الصيادون في عكس اتجاه هبوب الريح من جهته. تسلق عمر وتيمور بخفة إلى الأعلى ليدوروا حول الحيوان الهائل. اتخذ أصلان وكمال موقعهما خلف الصخور التي بيَّضها الشتاء، جاهزين للإيقاع به.

طرد الشابان الأيل إلى الأمام، وهما يسدان طريق هروبه بالسير إلى جانبيه. أطلق كمال، الذي منحه قرمه إلى اللحم عبقرية لم يكن يعرف أنه يمتلكها، سهماً مصنوعاً باليد وأصاب طريدته إصابة مباشرة في عينه.

تأوه الحيوان الهائل، تعثر، نهض من عثرته وبدأ يترنح مبتعداً. تبع ذلك لعبة من المضايقة والإيقاع – وندم جميع الرجال على افتقارهم إلى القوة النارية، لكن كانت هناك مخاطرة كبيرة في أمنهم لو أنهم فعلوا.

فقط لو أنهم عرفوا! ففي المخيم داخل الدائرة، رفعت ماجده عينيها بأمل وهي تتخيل سرور أصلان بالصيد الذي سيحققه لعشائه –لا لشيء إلا لترى مجموعة من رجال الجبل الأسود يدخلون إلى مخيمها، بينما تعلقت بنادقهم بأكتافهم بحركة لا مبالية. لم يكن هناك حد لدهشة الرجال عندما شاهدوا الوضع القائم.

أصغت ماجده، في رعب، إلى الوقع الغريب للغتهم، وحدقت في الوجوه الشرسة المرعبة. كان الرجال يرتدون ألبسة بيضاء وسوداء أصيلة: قمصان نظيفة وتنانير ذات طويات فوق سراويل فضفاضة، وصداري لباد سوداء تحت معاطفهم المصنوعة من جلود الخراف. ظهر هؤلاء الرجال بمظهر المعتنى بمظهرهم، أصحاء أقوياء مقارنة بالشركس. وكان طول قاماتهم وحده يشكل تهديداً.

عاين رجال الجبل الأسود الموقع: "الخانات" النظيفة، هدوء الرجال المسنين، وكثرة النساء اللاتي لم يبد عليهن الخوف. أدركت

ماجده بينما هم – يتجادلون فيما بينهم، أنهم قرروا الاستقصاء بدلاً من أن يدخلوا عنوة وهم يطلقون النار – وقررت بنفس السرعة أن أفضل أسلوب هو مسايرتهم.

"تحية – أنا ماجده، امرأة شركسية. كلنا لاجئون فارون من القتال في السنجق–نحن لا نضمر السوء لأحد". حاولت ذلك بأفضل ما لديها من اللغة التركية.

ضحك رجل ذو عينين براقتين باتجاهها "لا تقصدون الضرر؟ إذن أرجوك أن تغادري مراعينا، أيتها السيدة الحسناء! لقد جئنا لنبدأ في تحضير حقولنا لبذار الربيع! هيا اخرجوا – إنكم محظوظون لأننا لم نذبحكم جميعاً على هذا التعدي!".

على أثر هذا الخطاب التوكيدي الجاف بأكثر صيغة مخاطبة رسمية باللغة التركية، بدأ الرجال الواقفون حول هذا الناطق باسمهم والمعيَّن من قبل نفسه، يميلون أكثر نحو العدائية.

أطلقت ماجده نظرة خاطفة باتجاه حليمه، الواقفة على حده، والتي كانت عيناها المرسلتين إلى الأرض تنقلان إليها التحذير بما يعني "احذري! اخضعي، اخضعي!".

في هذه الأثناء كان معظم الشركس قد انتقلوا بهدوء إلى داخل "خاناتهم" بعيداً عن الأعين: مجرد قلة منهم، بما فيهم تسوك، امتلكت الشجاعة الكافية للاقتراب من ماجده، لإعطائها بعض الدعم المعنوي.

بسط تسوك يديه في إيماءة تهدئه وقال بصوت متعب "اسمع، أنا لم آخذ منك شيئاً. الأمر ببساطة هو أننا مررنا بهذا المكان أثناء هروبنا من الأتراك. سوف نغادر ونستمر في طريقنا، لكنني أتوسل إليك، اتركنا نغادر بسلام".

أضافت ماجده "إن الأتراك هم أعداؤكم. وهم أعداؤنا أيضاً. فلتكن لديكم بعض الشفقة على الآخرين الذين لا يملكون الشجاعة أو القوة لمحاربة هذا العدو الملعون كما تفعلون أنتم".

بثت هذه الكلمات الراقية السرور في رجال الجبل الأسود. رأت ماجده أنهم يقدرون بلاغتها، بنفس مقدار تقييمهم تملقها الصريح.

تحداهم الرجل الأول "ولكنكم كفرة، صحيح؟ ألستم كذلك؟

لم تعر ماجده أي اهتمام للإهانة. بل قالت "ربما يمكنكم أن تخبرونا عن أي طريق يتوجب علينا سلوكه. سأكون سعيدة بتلقي نصيحتكم-وربما ترغبون في تناول الطعام معنا".

صرخ فيها خصمها "أنا لا أريد!"، وقد شعر بالاشمئزاز من فكرة الجلوس لتناول الطعام مع "كافرة" لكن واحداً آخر من الرجال أطلق ضحكة ساخرة "نعم، ولم لا؟ لم لا، أيتها الغادة الحسناء! سوف تخطب ودي "حورية" وسوف أمنحك ليلة طيبة قبل أن تغادري!".

التهب وجه ماجده. لمحت بطرف عينها حليمه وساكنات تخطوان باتجاه بعضهما، وانزلقت يد حليمه إلى "قاما" أبيها التي ظلت تحتفظ بها في حزامها.

دوَّت طلقة فوق رؤوس رجال الجبل الأسود. كشف الفتى إسماعيل عن نفسه واقفاً في مكان عال فوق صخرة. كان الدم يغطي جبهته: واضح أن رجال الجبل الأسود أفقدوه الوعي وتركوه مغشياً عليه عندما دخلوا إلى "الدائرة". أعلن بصوت مخنوق "أنتم تهينون هؤلاء النسوة" .

"أنتم لديكم عدد أكبر من البنادق، ولكن إذا حاولتم أن تطلقوا النار وتردوني، فسيموت واحد منكم على الأقل معي!".

بات التوتر رهيباً. زعق طفل وجرى نحو ذراعي أمه —إحدى نساء تسوك. أطلق إسماعيل النار مرة أخرى، على بعد بوصات قليلة أمام الطفل، الذي ركض عائداً إلى ذراعي أمه بطريقة هستيرية، وهو يزعق بصوت أعلى.

صاح فيهم "سوف أقتلكم، سأفعل! والآن تراجعوا، ست خطوات، ارفعوا أيديكم عن أسلحتكم واعتذروا لصاحبة الولاية، حتى آخر وغد منكم!".

بدأ هذا الموقف يتمادى! استدارت ماجده بسرعة ووضعت نفسها بين رجال الجبل الأسود وخط إطلاق النار لإسماعيل.

"يا إسماعيل الشجاع، إنني أشكرك!" نادت عليه "أنا لم أشعر بالإهانة! لقد قيلت الكلمات بصيغة المزاح وهؤلاء الرجال أهل للثقة. إنهم مضيفونا، ويجب علينا أن نحترمهم. لذلك، انزل يا إسماعيل، ودعنا نتعرف عليهم".

استدارت لتواجه الرجال الجبليين، تردد إسماعيل فوق بقعته المسيطرة.

اقترب تسوك من ماجده مرة أخرى ورفع يده "انا تسوك، وأنا أحد أكبر هؤلاء الناس. إن ماجده هي قائدتنا، لأن ما يقرب من جميع رجالنا قد قتل أو أخذ منا. أخبرونا بأسمائكم، يا رجال الجبل الأسود الشجعان، ودعونا نتصالح..."

وقف أهل الجبل الأسود صامتين، تعلوهم سيماء البرود والأبهة. أعجب تسوك بهذه الطباع. أدرك أن هؤلاء الرجال قادمون من خلفية حياتية لا تختلف كثيراً عن حياته في القفقاس – ولكن طبعاً، لم تكن المقارنة جديرة بالاعتماد بشكل كامل. فهؤلاء الرجال يدينون بالمذهب الكاثوليكي، وبحماس شديد. والشركس مسلمون. كرر تسوك طلبه "أنا تسوك ، ألا تشرفني بإعطائي اسمك، أنت الذي تكلمت أولاً؟".

لم تتراخى ملامح الرجل ذي الأنف الأقنى. بقيت عيناه على غموضهما داكنتان وتلتمعان. "أنا نيكولاس، ورفيقي يدعى ستيفن". ولم يسمِّ الآخرين، كأنما تكفي معرفة اسميهما.

كان الطقس قد ابتدأ يميل إلى البرودة الشديدة. وقد بدأ النور يخبو. كان لدى ماجده همٌّ آخر: كيف سيكون رد فعل هؤلاء "الدخلاء" عندما يعود أصلان ومجموعة الصيد إلى الدائرة؟ لم يظهر على الجبليين أي اهتمام بالبرد أو العتمة المتراكمة. وقفوا مثل شهود الزور، متجمعين، وقد انعقدت أيديهم على فوهات بنادقهم، بينما استرخت السبطانات بين أرجلهم.

ذهلت ماجده. فهل هم ينتظرون فعلاً أن يقوم الجميع بإغلاق المخيم وإخلائه –في منتصف الليل؟ نظرت إلى الأعلى باتجاه الصخرة. كان إسماعيل قد اختفى. أدركت في هينهة أن ذلك معناه أن أصلان ورفاقه قد عادوا وأن إسماعيل قد حذرهم. ندت عنها تنهيدة صغيرة: فقد أدركت أن الإنقاذ أصبح في متناول اليد.

توسلت بقولها "أرجوكم، تعالوا إلى قرب النار–تناولوا بعض الطعام الساخن، نعدكم بالمغادرة في الصباح. ألا تثقون بكلمتي؟".

قطع صوت أصلان الظلمة بقوة نابضة. خرج من العتمة إلى الضوء كأنه مقاتل منتقم في أسطورة قديمة. "إنه قسم أرملة. إنه قسم امرأة عانت من اليتم قبل زواجها. قسم امرأة فقدت طفلها الوحيد".

وضع أسلحته جانباً، بما فيها "القاما"، قريباً من النار. وجلس مولياً ظهره لرجال الجبل الأسود الواجمين، وأخذ يدفئ يديه على النار.

"إذا كنتم تريدون إثباتاً أكثر على صعوبة أوضاعنا، وعلى امتناننا للإيواء الذي نعمنا به من قبلكم –فأنا تحت تصرفكم كسجين عندكم، إنني فار من الخدمة في الجيش التركي. إذا قمتم بتسليمي، فسوف أعدم رمياً بالرصاص وهناك مبلغ من المال لكم".

حدق ابناء الجبل الأسود في ظهره المستقيم. ثم قدم الأول، نيكولاس، إلى النار وركل قطعة حطب مشتعلة. وقال:

"هل لديك بندقية، في مكان ما؟ دعني أراها".

أوما أصلان برأسه إلى تيمور، الذي جرى ليحضرها.

انزلقت يدا الجبلي فوق السلاح في متعة لا تخلو من الحسد.

"أعطني هذه البندقية وبإمكانكم أن تبقوا هنا حتى الصباح:

تكلم أصلان بعفوية: "لا أستطيع أن أفعل ذلك. لدينا القليل من الأسلحة، ولا يكاد يكون معنا أية ذخيرة. ليست لدي فكرة عن المنطقة الواقعة أمامنا، وعلي أن أضمن أن يحصل هؤلاء الناس على الحماية القصوى".

التمعت عينا ستيفن حنقاً من منطق أصلان وذرائعه. كذلك صعقت ماجده من كونه يجرؤ على مجادلة خمسة من رجال الجبل الأسود والمسلحين الواقفين خلف ظهره.

لكن أصلان نظر إلى وجهها من خلال ألسنة اللهب وكان وجهه يعكس قدراً كبيراً من الشجاعة والثقة بحيث تبخر كل الخوف من كيانها.

"قل لي أيها الجبلي الفخور! مؤكد أنك لست حقيقة مزارعاً، جئت إلى هنا لبذار محاصيل الربيع! مؤكد أنك جزء من الجيش العظيم التابع للأمير نيكولاس، الذي دافع عن قلعة نيكسيك وأخرج الأتراك من مملكته، أليس كذلك؟".

انفجر الرجال ضاحكون بصوت مدوٍ فجأة. انكسر الجليد بينهم. جلس ستيفن إلى جانب أصلان وأخرج غليونه الطويل "ربما تكون محقاً، أيها الشركسي! ربما تكون على حق، ولكنني لست مخولاً لأن أخبرك بأي شيء!".

أدركت حليمه أن دورها قد حان، فانطلقت نحوهم حاملة كومة من الأرغفة المسطحة، جاهزة لكي تدفئها على جمرات النار.

قال أصلان "لقد قتلت أيلاً هذا اليوم. شاركونا في هذه الوليمة، يا أبناء الجبل الأسود. سوف نشوي الطريدة على ناركم، وسنأكل نحن المسلمون على أحد الجانبين، وستكون لكم حصة الأسد".

قال ستيفن "ستكفينا حصة الصقر!" مشيراً إلى شعار بلاده الوطني. "نحن لسنا خنازيراً. يمكنكم أن تأكلوا أولاً، وسنرضى بهديتكم".

لم يتمكن الجبليون المفعمون بالغرور من مقاومة البلاغة الشركسية. ومثل كل الشعوب ذات الكبرياء، كانوا متحمسين أقوياء تجاه الفوز ولكنهم مقصرين في الحلول الوسط. وفي هذه المرة فإن ديانتهم بالإضافة إلى شعورهم بالتفوق جعلت من المستحيل عليهم أن يشاركوا في الطعام.

كان الأيل ضخماً، قاسي اللحم مليئاً بالألياف: جرى طبخه حتى النضج التام على نار ذات لهيب مستعر (إذ لم تعد هناك الآن حاجة إلى الخوف من عمود الدخان).

منح الشراكسة ما يكفي لتذكر أيام أفضل، وترك لهم ما يكفي من اللحم لإرضاء أحاسيس الجبليين بالملكية والأولوية.

بينما انشغل نيكولاس ورجاله في تنظيف اللحم عن الأضلاع وباقي المفاصل، تابع أصلان البحث في مسألة طريقهم للخروج من المكان. لم يكن من المفيد أن يطلب منهم الإذن بالبقاء. لأنه إذا كانت هذه العصبة من الجنود، أو قطاع الطرق أو مهما كانت صفتهم، قد بدأت في التحرك، فسوف تبدأ عصابات أخرى من المرتحلين بالتحرك بدورها في الجبال. لقد كان واجب أصلان، بل حلمه، أن يوصل شراكسته إلى مكان آمن على الدوام. والآن الوقت ملائم مثل أي وقت آخر، للانطلاق في طريقه.

أعلن لهم "نحن متجهون نحو الساحل. فأخبرونا بأفضل الطرق التي يجب أن نسلكها. بشرفكم – يا نيكولاس ويا ستيفن – لقد شاركتمونا خبزنا وملحنا".

بصق ستيفن، الذي عوَّض عن افتقاره إلى الكلمات ببوصات من طول القامة، بصق في النار في إيماءة إلى نقض العهد. رفع نيكولاس يداً محذرة إلى صديقه. "إنه محق"، قال، مشيراً إلى أصلان، وشرح بلغة صربية – كرواتية شاعرية لبقية زملائه لماذا هو ملزم لإعطاء أصلان المعلومات التي يحتاجها بشدة. أصبح واضحاً للجميع أن هذا هو محتوى خطابه: لقد أثيرت مسألة الشرف، وأصبح شرفهم في مجال اختبار. في النهاية، بدا أنه تم التوصل إلى درجة لا تكاد تلحظ من التوافق. إيماءة بالرأس؟ كلمة؟ لا–بل صمت معبر مشحون بالكبرياء، تغير في وجومهم هو كل ما أوضح عن موافقتهم.

"يجب أن تتوجه خارجاً نحو بيتش، ثم تتدرج من خلال مضيق روجوفو. بينما أنت تنزل عن هذا المرتفع الذي نحن عليه الآن، سوف تجد ممراً للحمير يتسلق باتجاه الغرب لمدة ساعة أو اثنتين. اتبعه".

قال أصلان مستحسناً "لقد سبق وشاهدت ذلك الممر".

"بعدها تسأل شخصاً آخر. فالطريق معقدة جداً حتى أصفها لك بالكامل".

مع هذه الكلمات، مشى الجبليون نحو أحد "الخانات"، واستعدوا للنوم، بدون حتى كلمة استئذان.

تراجع الشراكسة إلى الظلام لقضاء ليلتهم الأخيرة في الأمان والوحدة. أخذ كل واحد منهم يتلو دعاءً ويصلي طلباً للحظ الجيد لبقية الرحلة –ولم يكن هناك اثنين أكثر من ماجده وأصلان، الراقدين كل لوحده، في "خانه" المخصص له، متلفعاً مع جيرانه

المساكين، شعوراً بالألم نتيجة هذا الاقتلاع المفاجئ من قبل "مزارعي" الدائرة.

في الصباح التالي، أخلى الشراكسة المخيم بسرعة وكفاءة البرق، حسب التقاليد الشركسية العريقة. راقبهم الجبليون، نصف مهددين، نصف متأثرين معجبين بتناغم العملية وانتظامها.

بدأ صف طويل من النساء، الأطفال والمسنين المسير إلى خارج القرية. على الأقل كانوا في هذه المرة أفضل تجهيزاً، يحملون تشكيلة متنوعة متنافرة من الألبسة الواقية والأحذية المصنوعة بيتياً. حمل كل فرد كيساً صغيراً من الأغذية. كانت أم حسن ما تزال برفقتهم، مستلقية على حمالتها، وقد شقَّها الهزال ورغم ذلك بقيت متعلقة بأهداب الحياة.

انطلقوا في الاتجاه الذي حدده لهم ستيفن ونيكولاس، الذي وضع حراساً على المدخل الضيق إلى الدائرة أثناء خروجهم صفاً. كان هنالك عنصر واحد من الخشونة وعدم التسامح في موقفهم النهائي، وقد اعتلوا الصخور، حاملين بنادقهم، وكأنهم يريدون أن يتأكدوا من أن أحداً من الناس لن يقفل راجعاً لاستعادة أشياء من الملاذ.

بكت حاتخان، أرملة حسن: ولم تبك زهره، مع أنها كانت تترك جثمان زوجها خلفها، ولن تشاهد هذه البقعة أو تقترب منها مرة أخرى أبداً.

بعد مسيرة حوالي ساعتين، بدأ أصلان يشعر بعدم الارتياح، لأن الممر الذي أشار إليه نيكولاس قد بدأ يصبح أكثر وعورة وبرية، وفي بعض الأماكن، لم يعد بالإمكان تمييزه عن التضاريس الصخرية الجرداء التي بدت وكأنها تضغط عليهم من كافة الجهات. استمر تيمور وعمر في الركوب إلى الأمام والعودة، ليقدموا وصفهم للأرض الواقعة أمامهم، ولتشجيع الصف الطويل من الناس على الاستمرار في السير.

في النهاية، ركب تيمور عائداً ثم انزلق عن سرجه إلى جانب أصلان وماجده، ليسرَّ إليهما بكلمة. فقال:

"الأمر لا يعجبني. إن هذا الممر يؤدي مباشرة إلى حافة هاوية. لن نتمكن من إنزال المسنين عن ذلك الوجه الصخري الأجرد. ولست أعلم إن كان الجبليون قد أرشدونا إليه بنية سليمة". قالت ماجده بإعياء "إذن يجب علينا أن نعود أدراجنا ونجد طريقاً آخر".

بقي أصلان صامتاً، يفكر، ثم قال "اركب عائداً يا تيمور – بمنتهى الحذر. لا تكشف عن نفسك. سوف ننتظر هنا حتى تعود".

"ما الذي تخشاه، يا أصلان؟".

هز رأسه نفياً "لست متأكداً. أنا فقط لا أشعر بالارتياح تجاه هذا التطور في الأحداث... شيء ما في عظامي يحذرني".

سعد اللاجئون بالحصول على قسط من الراحة. مع أن الأرض ما زالت صلبة، إلا أن شمس الشتاء كانت مدفئة، وللمرة الأولى، شعروا بالحر إلى درجة مزعجة وبالظمأ نتيجة جهودهم، فتناول كل منهم جرعة ماء صغيرة من مطراتهم الثمينة، وهم يتساءلون عن الوقت الذي سيعثرون فيه على مكان طيب آخر للتخييم فيه.

"أنت على حق، يا أصلان. هنالك عصابة كبيرة جداً من الجبليين تتجمع فوق قمة الجبل، وقد وضعوا الحراس على الممر الذي جئنا منه لتونا. لا يمكننا العودة. يبدو أنهم جادين في منعنا".

"تماماً كما فكرت. إننا نسير نحو مصيدة عميقة".

أقعى أصلان لفترة طويلة، وهو يفكر في سبيل جديد للتحرك. في النهاية انتحى بكل من تيمور وعمر جانباً وأعطاهم تعليمات سرية. ركب الشابان مبتعدين بسرعة طارئة كبيرة.

سألت ماجده "ما الذي سنفعله؟" بعد بضعة أسابيع من الهدوء، أصبحت هذه العودة إلى المسير القسري تشكل صعوبة هائلة لكل فرد منهم، خاصة ماجده، التي أحست بعيون الحسد مسلطة عليها، وبثقل القيادة –بثقل الشجاعة والتفكير الهادئ، يضغطان على أعصابها مرة أخرى.

"لقد بدأ الناس يقلقون. يجب أن أتحدث إلى النساء" توقفت قليلاً "سوف أقول لهن أننا نحاول أن نعثر على طريق أسهل للنزول عن الجبل، وأنه لا يوجد ما يدعو إلى القلق".

"حسناً يا ماجده. اذهبي وأعلني لهن – طمئني الجميع. فهم يثقون فيك".

"أعرف. وذلك هو ما يقلقني".

مشت ماجده على طول الصف، مواسية المسنين، وتدردش مع الأمهات الأصغر سناً، وتفعل أقصى ما بوسعها لإزالة الوجوم.

عاد تيمور وعمر مرة أخرى.

قال تيمور "ليست الأخبار طيبة، يا "تحمادا" متحدثاً بما يقرب من الهمس "لقد ابتعدنا باتجاه الغرب أكثر مما يجب. لقد خدعنا أولئك الرجال الأشرار. إن الطريق الوحيدة التي يمكنني رؤيتها للنزول عن الجبل هي الالتفاف باتجاه الشرق–وذلك ما سوف يؤدي بنا إلى خط الحصون التركية".

"حسناً، نحن لا نستطيع أن نعود – إن الصرب يضغطون بشدة على الجانب الآخر من الجبل، على ما أعتقد" قال أصلان، ساهماً.

"نعم يا سيدي – لقد ألقى عمر نظرة على ذلك الجانب. تكلم يا عمر."

"لقد عدت أدراجي قدر ما تمكنت بدون لفت النظر إليّ. شاهدت معسكراً إلى أسفل سفح الجبل –هل تذكر الطريق التي صعدناها؟ هناك العديد من الجنود، سيدي. لا أعتقد أن بإمكاننا المجازفة بالعودة من ذلك الطريق".

تردد تيمور، وهو يحك رأسه "المشكلة هي، أنه يوجد ممر باتجاه الجنوب الغربي، لكنه واقع بين الحصن التركي الأول والذي يليه. إنها الطريق الوحيدة للخروج من هنا على ما أعتقد، وبحكم مشاهدتي".

"هكذا إذن. سوف نضطر إلى الحصول على الإذن من القائد التركي للسماح بمرور هؤلاء الناس". قال أصلان. لقد كان هذا ما يخشاه بالضبط–وأدرك لحظتها أن الجبليين لم يغدروا بهم تماماً، بل أجبروهم على الذهاب إلى الحقيقة.

"هذا ما أعتقده، يا سيدي".

جلس أصلان وماجده والشابين ليستريحوا ويفكروا في مخرج من هذه الورطة. أدرك أصلان أن أسلم طريقة، ستكون عبر الحامية التركية. إذ أنه من المنطقي الافتراض بأن القادة الأتراك سوف يسمحون للاجئين المسلمين بالمرور. ولكن من الذي سيذهب للتحدث إليهم...؟ وكيف سيختفي هو وتيمور إلى درجة تمكنهم من المرور بدون انكشاف أمرهما؟.

كان أصلان يبحث هذه المشاكل مع تيمور بهدوء.

كانت ماجده تصغي إلى كل هذا. فجأة، تكلمت بتصميم هادف:

"حسناً، واضح أنك لا تستطيع أن تذهب، يا أصلان. يتحتم علينا أن نظهر بصورة غير مؤذية وغير مهمة قدر الإمكان. أعتقد أن الأفضل سيكون أن أذهب لمقابلة الضابط المسؤول، وأشرح له قضيتنا. في نهاية الأمر، نحن مجرد ضحايا لهذه الحرب. لا يمكن أن يطلبوا منا أي شيء..".

تكلمت بشجاعة، لكن شفتيها كانتا ترتعشان. ربما لم يلحظ الارتعاش أحد غير أصلان: فقد أحسّ أنه قريب منها إلى درجة تمكنه من الإحساس بأي تغير مهما كان صغيراً في مزاجها، وفي توازنها البدني.

أخذ يستعرض خياراته. حليمه؟ سوف تتحدث بثقة أكثر مما يجب، ولغتها التركية ضعيفة جداً. رسميه، ساكنات –كلاهما صغيرتا السن وضعيفتان. الشبان؟ تيمور؟ عمر؟ إن تيمور في مثل وضعه، فار من الجندية ويخاطر بالقتل إذا قبض عليه: أما عمر فيحتمل أن يتم تجنيده على الفور، فهو شاب في مقتبل العمر وملائم. تسوك؟ لن يمتلك القدرة على القيام بالرحلة بدون إسناد... ولم يكن قادراً، بمنتهى الصراحة، علي الوثوق بكمال وحمزه. يجب أن يقع الاختيار على ماجده. لقد فكرت بهذا الأمر بمنتهى العناية والتمحيص، وبشكل فعال، واحبها أكثر من ذي قبل على هذا التفكير السليم.

"أنت محقة يا ماجده، خذي إسماعيل معك. إنه رام ماهر لكنه أصغر من أن يتم تجنيده. نادي عليه واطلب منه أن يسعل بشدة وأن يظهر مرضه بقدر ما يمكنه من السوء، من أجل السلامة!"

خطا إسماعيل إلى الأمام. وقفت رسميه على مبعدة، وقد عقد الذعر لسانها لفكرة احتمال فقدان ولدها الغالي. لكن التجارب الأخيرة أجبرتها على قبول حقيقة أن إسماعيل راغب في أن يعتبر رجلاً، وأصبحت بذلك مضطرة إلى السماح له بالذهاب –فهو لن يغفر لها لو منعته من الذهاب أو أطلقت لمشاعرها العنان.

قال تيمور "رجل فاضل أنت، يا إسماعيل" وهو يرتب على ظهر رفيقه في الركوب، معجباً بشجاعته.

"شاب طيب، الآن، أعرف أنك شاب في منتهى الفطنة. كذلك أعرف أنك تكره الأتراك. فهل أستطيع أن أثق بك بأن لا تفقد السيطرة على أعصابك، وأنك ستفكر قبل أن تجيب؟"

"نعم يا سيدي، أقسم بشرفي، يا سيدي".

"في هذه الحالة سأعطيك بندقيتي. إنها أفضل ما لدى المجموعة كلها، وأنت أفضل رامٍ قابلته في حياتي. أنا على ثقة من أنك تشكل أفضل حماية يمكن لماجده أن تحصل عليها. احرص على حمايتها يا ولدي، فهي-إنها عزيزة جداً".

"أعرف ذلك يا سيدي. سوف أقوم بواجبي".

غض الجميع أبصارهم بينما ابتعد أصلان وماجده مسافة قليلة للتخطيط لما ستقوله. اصبح واضحاً لكل شخص في المجموعة أن أصلان وماجده يحبان بعضهما بعضاً. وفهموا جميعاً كيف يحس أصلان في هذه اللحظة بالضرورة، لكنهم كانوا يثقون بقدرة قائديهما على القيام بأفضل ما يمكن عمله. ران الصمت على الجميع، وأطلق معظمهم الأدعية بصمت.

"ماجده... حبيبتي..." احتضنها إلى صدره، وقد امتلأ قلبه بالعواطف المتصارعة حتى لم تعد الكلمات تسعفه.

"لا بأس يا أصلان. إنني واثقة من أن هذا هو الشيء الصحيح الذي يتوجب عمله. سأكون بأمان مع إسماعيل، ويمكنك أن تراقبني من هنا، في معظم الطريق النازلة عن التلة."

"سوف أراقبك، يا روحي. سوف أراقبك وأحرسك، في كل خطوة تخطينها، في كل كلمة تخرج من فمك، لأن روحي ترافقك كل الوقت. ليحميك الله سبحانه وتعالى."

"إلى اللقاء، إذن، يا أصلان بك."

"إلى اللقاء يا ماجده."

طبع على شفتيها قبلة، وغادرت.

***

الفصل الثاني عشر

كان الممر النازل من الجرف الصخري أحد أسوأ ما حاولت ماجده أن تسير عليه طيلة مسيرتها. فقد كان مغطى بقطع الحجارة، صوانات حادة تهدد بقطع الجلد عن يديها وركبتيها لو هي سقطت، وكان يتبعثر بشكل مخادع تحت كل خطوة تخطوها. أما إسماعيل فكان يقفز ويتجاوز عن المنحدرات، كأنه جدي، بسبب خفة وزنه، لكن ربما كان ذلك لأنه يحاول جهده ليبدو شجاعاً، ولكونه بطبيعته محباً للمخاطرة.

كانت "القولات" التركية، البيوت المكعبة، موزعة على بعد مسيرة نصف ساعة عن بعضها بعضاً على امتداد هذا الخط الحدودي المتنازع عليه بمرارة بين البانيا والجبل الأسود. تعدى إسماعيل وماجده أحدها وهما متجهين إلى الجنوب: كان الموقع جاثماً على ارتفاع عالٍ فوق رأسيهما، يتدلى منه سلك برق مستند إلى عمود من جذوع الشجر في منتصف المسافة نحو القولا التالية، كأنه حبل غسيل امرأة سلوفينية.

أصبح بإمكان ماجده و إسماعيل أن يشعرا فجأة بأنهما يقتربان من أرض يسيطر عليها الأتراك. عندما وصلا إلى ثلثي الممر النازل من الجرف تغير الهواء وأصبح أقل برودة وصفاءً، وبدأت زخة من المطر في الهطول.

مشيا بثبات نحو بناء حرس الحامية، الذي استطاعا أن يميزاه بوضوح بين مجموعة من الأبنية البسيطة غير المنتظمة على بعد حوالي ميل إلى أسفل الوادي. كان بناء الحرس مطلياً بلون أصفر بائس: وبقية الثكنات ببقع حمراء أو بلون أخضر متآلف مع الصخور ذات اللون الباهت والشجيرات البرية التي تشكل أرضية هذا الوادي الموحش. أصبحا على مسافة قريبة. جاءت كلاب ضامرة نحيلة تتشمم كعبيهما، تتحرك مجرد مسافة بسيطة عن أحد

كوخين بائسين مبنيين قريباً من مقر قيادة الجنود الأتراك، قبل أن يفقدوا الأمل ويعودوا للارتماء عند رقعتهم.

الأرض القاحلة الصخرية، الملابس الرمادية الرثة المتروكة تحت المطر فوق شجيرات لا تحمل الأوراق، "النظاميين" ذوي الهيئات التعيسة- الجنود المجندين بالقوة المتجمعين حول مدخل أحد أوائل المباني المكعبة - كل هذه العناصر نطقت بوضوح عن حالة انهيار المعنويات التي أخذت تنتشر حالياً في كافة أرجاء الإمبراطورية.

حدَّق واحد أو اثنان من الجنود في ماجده بطريقة شهوانية قذرة، لكن معظمهم لم يكن لديه الحماس ليشارك في الإهانة. بدأ إسماعيل يتوتر نتيجة شعوره بالإساءة، لكن ماجده وضعت يدها على ذراعه ونجحت في تهدئته. وقف جندي يؤدي وظيفة الخفارة على قدميه، وعند مشاهدته بندقية إسماعيل، انطلق يعدو نحو جناح القائد- وهو بناء أصغر حجماً مبني وسط البنايات الأربع أو الخمس التي تشكل هذه الحامية.

استمر إسماعيل وماجده في السير إلى الأمام بخطى بطيئة ولكنها ثابتة.

فجأة، وكأنما نتيجة لإشارة خفية، اندفع جنديان آخران خارجين من ثكنتهما وأمسكا بماجده وإسماعيل بقوة فظة.

قالت ماجده "أنت تؤلمني! اتركني! أريد أن أقابل القائد!"

"إخرسي. سوف تقابلينه، أسرع مما تظنين، أنت مقبوض عليك أيتها السيدة."

شعرت ماجده بالوهن لشدة الذعر. تمايلت قليلاً لكن جندياً آخر أمسك بذراعها الأخرى، واقتيدت بشكل اقرب إلى الجرّ بينهما إلى مكتب القائد.

انفتح باب: ألقت بلمحة: أصيبت بالذهول. فكل شيء في الخارج آيل إلى الدمار وانعدام النظام. أما داخل "مقر الإقامة الرسمي" هذا، فكل شيء نظيف لامع ومرتب إلى درجة الفخامة الشريرة.

كانت لديه سجادة صلاة، نسخة من القرآن الكريم موضوعة فوق طاولة ميدان، طقم فاخر من فناجين القهوة والسلطانيات تلتمع فوق صينية من الفضة، زجاجة عرق مفتوحة، وتشكيلة مرعبة من الأسلحة، ملمعة إلى درجة الإبهار ومعلقة في خطوط رياضية صحيحة على جدران المقر الخشبية. ومع ذلك فـــ "هو" القائد، لم يكن ليرى.

لم يجرؤ الجنديان على دخول هذه الصومعة: دفعا بها إلى داخل الغرفة وأغلقا الباب خلفها بطرقة حادة.

خرمشت ماجده الباب بأظافرها وهي تصيح "إسماعيل!"

حاول إسماعيل أن ينادي ويدخل معها، لكن جندياً طبق بيده على فمه، سمعت ماجده صرخته المكبوتة، ثم حصل عراك واقتيد بعيداً.

إتكأت ماجده على الباب بينما قلبها يخفق بعنف وأجالت بصرها في الغرفة. كان هناك باب آخر، مغلق بإحكام. ربما كان الضابط موجوداً خلفه، فهل هو بانتظارها؟ هل هو مشغول؟ لم تعرف ماذا تفعل. وقفت في منتهى السكون، تمسح الغرفة بعينيها بذعر، تنتظر أن تهدأ أنفاسها. في هذه الآونة لاحظت وجود مصباح زيتي من النحاس الأصفر المصقول والزجاج، يومض بضوء محبب، ومدفأة تعمل على الحطب. كانت الغرفة دافئة: فذلك على الأقل عنصر مطمئن مريح. تسرب إليها الهدوء، ورفعت شالها عن كتفيها لتنفض ماء المطر منه.

"غطي نفسك. غطي وجهك. أظهري الاحترام."

نفذت ماجده ما أمرت به، وقد أقشعرَّ بدنها من نبرة الاحتقار في صوت القائد.

أحنت رأسها، وسمعت الرجل يدخل الغرفة ويمشي باتجاهها. صدر عن حذائه صرير رغم أنه كان يتحرك بخفة. مشى نحو الجانب الآخر من الغرفة، إلى جانب الباب، بحيث أصبح يقف خلفها ولا يخاطر بالنظر إلى وجهها.

"لماذا أنت هنا؟ أنت لست من هذه الأنحاء. بالحكم من ثيابك، أقول أنك كنت تعيشين في الجبال."

"نعم يا سيدي، إنني لاجئة شركسية."

"أوه، إنني أشك في ذلك" قال ببساطة تحمل معنى التكذيب "أعتقد أنك تنتمين إلى المقاومة – قاطعة طريق– امرأة ثائرة. إن الجبال المحيطة بنا تعج بهم. يحتمل أن تكوني من جماعة لاكيش، أو حليفة نيكولاس. نيكولاس ولاكيش؟ أستطيع أن أحكم بالنظر إلى يديك، أنك تعلمين بأنني أقول الحقيقة، وأنك لم تفلحي بكذبك."

"أنا لست أكذب. إنني لاجئة شركسية. وأنا هاربة من القتال مع نسوة أخريات مثلي. لقد جئت لألتمس منك أن تمنحنا جواز مرور آمن عبر الممر الواقع إلى الأسفل من هنا."

"لا تتكلمي معي مرة أخرى أبداً إلا بعد أن آذن لك بذلك!"

ارتعدت ماجده من العنف المفاجئ في هذا الوابل من الكلمات، ووقفت ساكنة كتمثال. شعرت بأنفاسه فوق ظهرها.

"ذلك أفضل. والآن عن صديقك الثائر الصغير الموجود خارجاً، إنه يحمل بندقية ثمينة جداً. إنها جديدة، تعبأ بواسطة المشط، من نوع سنايدر، وهي صناعة ألمانية وهي آخر ما تزود به الجيش التركي. أتمنى شخصياً لو كانت لدي واحدة منها! ولكنها لا تعطى إلا للضباط ذوي الرتب الرفيعة. وأنت تعرفين ذلك أيضاً، أليس كذلك؟"

توقف عن الكلام، واستطاعت أن تسمعه وهو يشعل سيجارة ذات رائحة عطرية طيبة. استأنف استجوابه لها- لأن ذلك، بالتأكيد، هو ما كان هذا الموقف يتحول إليه.

"إذن. لا بد وأنك ثائرة. كيف يمكن لصبي يسيل أنفه، هالك الجسم أن يكون بحوزته مثل ذلك السلاح الرائع إذا لم تكونوا قد سرقتم أو قتلتم ضابطاً تركياً محترماً للحصول عليه؟"

"سيدي، أقسم لك-"

"اصمتي!"

عادت ماجدة إلى الوقوف ساكنة.

"انزعي منديلك عن رأسك."

"ماذا؟"

"انزعي المنديل عن رأسك. شالك هذا"

تركته ماجده ينزلق.

"شعر فاتح اللون. هكذا إذن. ربما أنت لست من الجبل الأسود."

اقترب الضابط ببطء، حتى استدار ليواجهها. كان في أواخر عشرينات عمره، نحيل الجسم، أسمر، ناعم البشرة، وسيم التكوين. تركي من الطراز الأول. تركي يمتلك السلطة، التشدد. أدركت على الفور ما يبتغيه منها.

"المرور الآمن". سافرت نظراته عبر جسدها كله.

لم تتكلم ماجده. بل ظلت تركز على فكرة واحدة.

إنها تنعم بالحب: وهي بأمان لأن أصلان يحبها. لن تدوم هذه المهانة. سرعان ما ستكون حرة، وسوف تكون لهما حياة رائعة سوية.

شعرت بيد الضابط على صدرها. خفيفة في البداية، تداعبها بما يقارب الاحترام. تصلّبت حلمتها رغماً عنها. استمر في التحديق بوجهها، وعندما أحسَّ بذلك الشعور اللذيذ الصغير على أطراف أصابعه، ابتسم، واستطاعت أن تشم رائحة حبة تعطير الأنفاس التي تشبه البنفسج من أنفاسه.

ضربته ماجده على يده، وتراجعت خطوة إلى الوراء.

استشاط الضابط غضباً. صفعها بقوة على وجهها، وصرخ بأحد الأوامر بصوت عال على الجنود الواقفين خارجاً.

صرخت مسترحمة "أرجوك، أرجوك، دعني أذهب في سبيلي! دعني أعود إلى قومي! بإمكاني أن أثبت لك بأننا غير قادرين على إيذائكم، أرسل معي جنوداً، أنا لست ثائرة!"

لكنه لم يكن يصغي. فقد عبر الغرفة إلى ناحية المدفأة، حيث وقف يدفئ يديه، ويتجرع العرق على حلقه مباشرة. أسرع جندي آخر بالدخول حاملاً إبريقاً من القهوة يتصاعد منه البخار، لكن الضابط غيَّر رأيه وصاح بمزيد من كلمات لم تفهمها.

ألقي بماجده في زنزانة. ضغطت بيديها على أذنيها حتى لا تضطر إلى الإصغاء إلى المحادثة البذيئة التي كان "النظاميون" يتبادلونها في الخارج. انصرفوا بعد مدة مبتعدين لأداء واجبات أخرى بعد فترة، وتركت في صمت نسبي، تشعر بالبرد والرطوبة، والذعر.

أين هو إسماعيل؟ أصغت إلى أصوات من الزنازين الأخرى الملاصقة لسجنها. لا حركة، لا أنين. فكرت ماجده بسرعة. إن هذا المكان بعيد جداً، والجبليون ذوي مكر شديد، إلى درجة أنه من الواضح أنه لا يصلهم أي "نشاط" في هذه الأنحاء. لا شك أن هذا هو سبب كون هذا الضابط الغبي ذو الرتبة المتدنية مسؤولاً هنا، هذا هو سبب سروره الكبير في وصول هذه "المشتبه بها" المهمة، نازلة من الجبال إليه هذا اليوم.

إنه مجرد سوء حظها. ليست غلطة أحد، وربما، إذا كانت حريصة، سينتهي الأمر إلى نتيجة طيبة فما زالت هناك إمكانية لتصحيح الوضع، إذا هي لم تفقد سيطرتها على أعصابها.

تكورت ماجده على نفسها حتى تحتفظ بالدفء. مرت ساعات، تعبت وجاعت، لأن الشعور بالخوف يستهلك طاقة الجسم بقدر مضاعف.

لم تكن لديها أية فكرة عن الوقت عندما دخل بعض الجنود وفتحوا أقفال زنزانتها، ثم أعادوها إلى تلك الغرفة الصغيرة.

أدركت في هذه المرة السبب في الانطباع الغريب الذي تتركه هذه الغرفة على كل من يدخلها: فقد قام الضابط بطلائها في الداخل بنفس لون غرفة الحراسة الأصفر، وكان اللون في هذه اللحظة يومض بغرابة تحت ضوء المصباح الزيتي.

قال الضابط بهدوء "إذن، اسمك هو ماجده" كان في هذه المرة يجلس خلف طاولته الزجاجية الملمعة، وقد وضع أمامه صفحة بيضاء من الورق ودواة حبر – إلى جانب كأس العرق الذي يتسع لجرعة – الحاضر ممتلئاً على الدوام.

"نعم، أنا ماجده، وأنا شركسية. إنني هاربة مع مجموعة من المسنين، معظمهم نساء، وبعض الأطفال. لقد جئت من قرية على نهر النيسافا، وقد التقينا ببعض اللاجئين الآخرين من منطقة بيرو."

"بيرو" كان يكتب أثناء كلامه، بخط عربي طليق منمق.

"نعم يا سيدي"

"وأنت تريدين جواز مرور حتى تتمكني من عبور الجبال وتذهبي – إلى أين؟"

أجابت بتمهل، "آه، نعم" وهي تتساءل إلى أي مدى تعرض بكلامها حياة الآخرين من قومها للخطر – لقد ثبت أن الجبليين

كانوا مخادعين في نصيحتهم، ولن يكون التركي أفضل. "أنا لست متأكدة من وجهتنا بعد هذه النقطة إلى الجنوب."

"حسناً، بإمكاني أن أريك خارطة. فهل نفعل ذلك؟ ونرى ماذا يمكن أن يشكل أفضل طريق؟" أطلق باتجاهها ابتسامة آسرة.

بدأ قلب ماجده يخفق بجنون. هل هو مجنون، أم أنه ببساطة قد تاب إلى رشده، وينوي أن يساعدها للبلوغ إلى الأمان في نهاية المطاف؟

"انظري هنا. هذا هو موقعنا.." نهض واقفاً وبسط خارطة عسكرية أمامها (آه كيف امتلأت عينا ماجده بالدموع عند مرأى تلك الأوراق العسكرية!) ليوضح الطريق لها. "من خلال الممر... ثم باتجاه بيتش.... ثم نزولاً بذلك الاتجاه نحو بودجوريتزا. سوف تضطرون إلى عبور بحيرة سكوتاري، طبعاً، سوف تحتاجون إلى النقود لأجل العبور لأنه يوجد مئات اللاجئين من كافة الأجناس والأديان المتجهين في ذلك الاتجاه. اقترح أن تتجهوا نحو سبيك. هناك الكثير من القتال في موانئ الأدرياتيك الأخرى، والأمر المؤسف، أن بعضها قد سقط بيد هؤلاء الجبليين المتعصبين خلال الأسابيع القليلة الماضية. لكن سبيك ما تزال لنا. فماذا تقولين؟"

طوى الخارطة، واتكأ على حافة طاولة مكتبه، لكي يستعرض سراويله المكوية إلى درجة ملفتة للنظر، وحذائه الجلدي الناعم.

رفعت ماجده رأسها إليه. هل كان يتلاعب بها، أم أنه يساعدها بإخلاص وصدق؟

"سوف أكتب لك جواز مرور. كم شخصاً يوجد في مجموعتك؟"

"خمسة وخمسين شخصاً في المجموع."

"خمسة وخمسين! وأنت التي تقودينهم! يا للعجب العجاب، أيتها السيدة الشابة، إنه منصب مسؤولية لا يستهان به!"

كانت على وشك أن تخبره بأنها تلقت مساعدة، لكنها أدركت الفخ المنصوب لها في تلك اللحظة. كان يحدق فيها، وقد اشتعل الشر والدهاء في عينيه المجهدتين مرة أخرى.

عرفت ما كان يريده. هناك طريقة واحدة فقط لإنجاز كتابة ذلك التصريح، وهي مستعدة لعمل أي شيء، في هذه اللحظة بالذات، لضمان الحصول عليه. أشارت إليه بفهمها لمراده بنبرة خضوع، لم تتجاوز حدود الهمس. "اكتب التصريح يا سيدي. وسأكون ممتنة جداً جداً إذا أنت فعلت ذلك." خفضت ماجده نظرتها نحو الأرض.

"كم عدد الأشخاص؟"

"خمسة وخمسون. بضعة فتيان، بعض المزارعين الأكبر سناً وغير القادرين على إطلاق النار، ذلك الصبي الطفل المريض الذي حبسته معي – وكل البقية هم من الأطفال والنساء (سامحني الله على الكذب، قالت لنفسها)

عاود التحديق فيها. أبقى ريشته معلقة في الهواء، وأشار بها إلى ثيابها. حلت ماجده حزامها، وفتحت الجهة العليا من قميصها. حدجها الضابط بنظرة اشتهاء جعلت عينيه تغيمان، ثم سالت الكلمات من بين أصابعه. أدركت ماجده أن الرجل قد بدأ يتنوم مغنطيسياً من شدة الرغبة، ويكتب كأنه مدفوع بها، بينما كان عقله غارقاً في تصورات جنسية.

فكر في الموضوع "جواز مرور إلى ميناء سبيك."

"أي مكان تقترحه، يا سيدي. فأنت الأدرى."

"أنا أعرف حقاً." حدق فيها مرة أخرى ، وفي هذه المرة قامت ماجده بتنزيل كتفي قميصها إلى أسفل، بحيث أصبح تكوّر نهديها الممتلئين مكشوفاً جزئياً. طعنت الريشة الهواء باتجاهها عبر

الطاولة، في إشارة بسيطة، ومع ذلك أشعرتها بالرغبة في التقيؤ، فبدأت ترتعش. إن هذا مستحيل: لن تتمكن من المضي فيه.

"انزلي أكثر".

تجمدت عينا ماجده على الورقة، لإرغامه على توقيعها. أنزلت القماش القطني.

وقع الوثيقة، وقفز واقفاً على قدميه، أسرع ليحل حزامه، أغمضت ماجده عينيها وغطت جسدها بيديها المتصالبتين: ثم بدأت تتحرك محاولة أن ترفع قميصها، وهي تصلي طيلة الوقت.

"أرجوك يا سيدي... إنني امرأة مسلمة. أرجوك اتركني اذهب في سبيلي."

"هيا الآن. لا تكوني خجولة معي، أيتها المرأة الثائرة!" فحَّ الضابط في وجهها، وشد قميصها عنها.

صرخت ماجده، فألقى بها إلى الأرض.

في اللحظة التي اعتلاها فيها، بدأت ماجده تقاتل. لم يكن أحد على الإطلاق قد لمسها من قبل غير زوجها وأصلان، ولم يكن أصلان قد فعل أكثر من تقبيل وجهها واحتضانها برفق بين ذراعيه. أما هذا التذلل الحيواني المتوحش فقد كان يفوق احتمالها، حتى من أجل قومها. أرغمتها غريزة طبيعية شرسة للحفاظ على النفس على المقاومة.

فقد أرادت أن تظل كاملة ونقية من أجل أصلان.

قاومت بقوة لم تتوصل إليها من قبل أبداً، بينما حبه يخفق في قلبها. عضته، ركلته، صرخت، لكمته، تملصت من تحته وخرمشت بأظافرها كل ما وصلت إليه من المعتدي المخمور الجاثم فوقها.

استمتع بتلك المقاومة. بدأ يضحك.

صرخت ماجده وقاومت مجدداً. سدد إليها لكمة مباشرة في فمها في استعراض غير مبرر للقوة، فانشقت شفتها وانكسر أحد أسنانها. شرقت بدمها وصمتت. قلّبها على جنبها ومزق الثياب عن ظهرها، رفسته ودفعته بكعبيها.

ضايقه هذا أكثر من احتماله فضربها بقوة على مؤخرة رأسها بقبضتيه المضمومتين، فأذهلها وأفقدها الوعي، ثم رفع ردفيها نحو حضنه. كانت ماجده نصف ميتة عندما ولجها: فاضطر إلى الدفع بقوة حتى مزق لحمها الذي يقاومه، ولكنه ما أن ولج، حتى اغتصبها بسرعة حيوانية، بضعة اندفاعات هوجاء. وقضى وطره.

ركلها إلى ناحية، ثم ذهب إلى غرفة نومه المجاورة حتى يغتسل. كان شيء من الدم قد بقّع أفضل سراويله، لذلك خلع حذاءه الطويل وزيه العسكري، وغسل كل شيء بالإسفنجة حتى نظف ثم علق السترة والبنطال ليجفا. ثم اضطجع لهنيهة، حتى سمع صوت أنينها وعودة الوعي والحياة إليها.

غمرته الشهوة. تناول ثوبه وسار مسرعاً إلى الغرفة الأخرى، وهو يراقب زحفها نحو الزاوية البعيدة من الغرفة وكأنها تحاول الهروب منه.

"والآن، لم يكن ذلك سيئاً جداً، أليس كذلك؟ إلا أنني واثق من أنك قادرة على أن تكوني أكثر إثارة بكثير، أكثر تعاوناً بكثير. تعالي إليّ،يا ثائرتي العاهرة الصغيرة، مارسي الحب معي كما تفعلين مع رجالك الجبليين. هيا لنفتحمها على اتساعهما...."

كان وزنه فوقها أكثر من قدرتها على المقاومة. ولم تصارع ماجده في هذه المرة، خائفة من الضرب مرة أخرى ومحاولة استجماع قواها في يأس تمهيداً لرد فعل بأي شكل عندما يخف عنفه الذي مصدره قوته وشهوته. ولجها بسهولة لأنه كان قد مزقها من قبل، وأصبحت زلقة من دمائها وسائله المنوي. اعتدى عليها في هذه المرة بعنف أكثر شمولية وتصميماً. متنقلاً إلى إيقاع

مزمجر، مندفع بحيث منح نفسه أفضل بلوغ لقمة اللذة مما حصل عليه في حياته كلها. بعد أن تراخى في النهاية، نهض الضابط قائماً عنها.

شكّل فم ماجدة الممتلئ بدمها الكلمات التي اضطرت إلى قولها، بغض النظر عن العواقب. "أنت شرير" همست له "رجل مثلك لا يتمتع بأية رجولة. مهما كان عدد المرات التي تفعل بها هذا لي، أنت لست رجلاً. لست رجلاً. لست رجلاٍ...."

عند هذه الكلمات، ركلها في وجهها، وغابت ماجده عن الوعي.

عندما استعادت ماجده وعيها، وجدت نفسها قد أعيدت إلى زنزانتها وأن جسمها يصرخ من الألم. كانت عارية تماماً، وقد اعتلاها وحش آخر، بينما تحتك الحجارة العارية بجسمها وتقشر جلدها، وتكاد سلسلة ظهرها تتحطم. لم تكن لديها أية فكرة عن هوية هذا الخنزير الذي ينخر فوقها – إذ لم يعد الأمر يشكل فرقاً لديها، لأن كل ما تعيه الآن هو ألم ممض يبدأ من أحشائها نازلاً إلى ساقيها، ثم يصعد عمودها الفقري، لينتهي بالضغط على صدرها. لم تعد قادرة على التنفس: لأن شيئاً ما كان يحفر في رئتيها، من الداخل، مثل رمح مخترق أو عظمة ناتئة.

فقدت الإحساس بلب خصوصيتها: فقد تمزقت أحشاؤها منفتحة، تصب الدم، مخدرة لكثرة الرضوض. لم يعد عدد الرجال الذين قضوا أوطارهم الشريرة يشكل فرقاً لديها في هذه اللحظات. فقد تحولت إلى بقايا، نسيج ممزق، وسخة إلى حد يثير الرغبة في التقيؤ وأي رجل يريد أن يلج هذه الكومة المحطمة لا بد وأن يكون وحشاً مجرداً من أية مشاعر إنسانية.

انتهى الجندي من جهوده وتعثر خارجاً من الغرفة وهو يضحك. بدا لها وكأن المعسكر كله قد سكر وفقد قدرته على التفكير المنطقي. في الخارج وقف رجل آخر ضاحكاً – ربما يكون قد

اغتصبها أثناء غيابها عن الوعي. لم تعد تهتم - فلا شيء من هذا عاد يشكل فرقاً لديها.

انتهت الحياة بالنسبة لها. لأن أصلان لن يراها بهذا الشكل مطلقاً. فهي ستقتل نفسها قبل أن تسمح بحدوث ذلك.

سمعت ضجة خلف باب الزنزانة المجاورة لها. بكاء وتحرك بطيء يؤخره الألم.

"إسماعيل؟" جاء صوتها غير بشري، خفيض وخشن إلى درجة مرعبة، حتى بالنسبة لها، وكأنه صادر عن حيوان يعاني سكرات الموت.

"ماجده!"

"إسماعيل، أخبر أصلان - سبيك. يذهب إلى سبيك."

"لا أستطيع أن أخرج"

لم تتمكن ماجده من البكاء. فقد كان مؤلماً إلى حد لا يطاق. ندَّ عنها صوت هو مزيج من الارتعاش والتثاقل. تكومت مستندة إلى جدار زنزانتها، يائسة. داهمها البرد، إذ أحسَّت بتيار هواء فاسد يهب عليها.

كان الباب مفتوحاً، لم يزعج الوحوش أنفسهم بالإقفال عليها. كان هناك جنديان في الساحة خارجاً، يتأرجحان على كرسيين خشبيين ببنطاليهما المفتوحين وسترتيهما الوسختين.

على الدرجة الكائنة خارج زنزانتها مباشرة كان هناك حزام من الشريط المنسوج. وقد حله أحد هذين الجنديين بسرعة في عجالته - أحد هؤلاء الرجال الذين تحولوا بنعمة الحرب إلى وحوش ضائعين من الجنس البشري، وقد تاهوا عن مشاعرهم الطبيعية.

زحفت ماجده. انزلقت مثل حيوان زاحف جريح، دودة، دودة مسحوقة مداسة بالأرجل، باتجاه الحزام. تعلقت عليه مجموعة مفاتيح. قبضت يداها الوسختان المضمختان بالدم على المفاتيح ثم زحفت عائدة إلى بابها، وقد شكّلت كل حركة منها عذاباً مقيماً لوحده.

زحفت متسطحة بأقصى استطاعتها، مثل دودة مسحوقة، حتى تمكنت من دفع مجموعة المفاتيح تحت باب زنزانة إسماعيل.

"سيعودون لإقفال الباب عليّ، أو فعل المزيد معي. افتح قفل بابك، يا إسماعيل – من الداخل. اذهب – حين أذهب– حينما يصبح الظرف آمناً. أخبر أصلان، سبيك، قل له.. كل... الحب..."

"نعم يا ماجده، آه يا الله، آه يا الله" وصل صوت نحيبه كالطفل إلى مسامعها.

"إخرس.. إفعل ما أقوله لك. لا تحاول – أن تنتظر– تنتظرني!"

بقيت ماجده مستلقية على الأرضية وهي تشهق من الألم حتى سمعت صوت قفل يفتح، وصوت المفاتيح وهي تنزلق خارجة مرة أخرى، وعندما أعاد إسماعيل تمريرها إليها من تحت الباب، أعادت ماجده المجموعة إلى الحزام النسيجي، ودفعته بعيداً عنها بحيث عاد إلى الدرجة وكأنها لم تلمسه. كان عليه بعض الدماء، مما سبب لها القلق.

زحفت عائدة إلى زاويتها وتهالكت، دودة مسحوقة، دودة مسحوقة... ظنت أنها ربما سمعت كلمة "صاحبة الولاية" لكن ذلك جاء في حلمها حيث كانت ترقص وتضحك وتقفز في الماء، تستعيد نظافتها، وتشعر كأنها العصفور، خفيفة مثل ريشة، عائمة فوق الأمواج، نقية ونشيطة وخفيفة مثل–

"فتاة شقية! ألست مرتدية ملابسك!"

وقف الجنديان يتمايلان أمامها. "اللعنة، يجب علينا أن ننظفك، فهو يريد أن يراك مرة أخرى، أيتها العزيزة."

عثرا على بلوزتها الممزقة، وألبساها إياها كيفما اتفق على جسمها الذي كان بإمكانها حتى هي في حالتها اليائسة أن ترى أنه بدأ يتحول إلى الأسود والقرمزي من آثار الضربات والندوب الداكنة. رفعا تنورتها بخشونة، وهما يمسكان بها كأنها دمية من قماش الخرق، فاقدة الإحساس. أصبحت في هذه الآونة تنظر إلى نفسها على أنها "الأخرى" فهذا الشيء ليس ماجده، بل هذا شيء مدمَّر إلى حد الإحراج، جسم هي محشورة بداخله ومجبرة عليه. لم تعرف كم من الوقت بقيت نائمة لكن النوم أفادها بأن جعل تصميمها أكثر دموية وتركيزاً على القتل. تصاعدت الآلام التي تجتاحها حتى أصبحت لا تطاق. لم يعد لديها الكثير من الوقت.

سحبها الجنديان وجرّاها عائدين بها نحو الضابط وهي تتأرجح مثل دمية.

"بحق الشيطان! إنها قذرة! نظفاها!" أحسَّت ماجده من خلال ذهولها المرهق بأنها تسحب من الغرفة الصفراء مرة أخرى وتؤخذ إلى بقعة الغسيل حيث صُبَّ الماء عليها وأعيدت، والماء يتساقط عنها، بدون دماء هذه المرة، إلى "الصومعة" للمرة الثالثة.

كان قد تنظف، وحلق وجهه بحيث بدا وسيماً، لكنه استمر في تجرع العرق. كان يتمايل من السكر، وما زال يبحث عن المتاعب في حالة الملل والخدر التي يعيشها. لم تكن الحكة قد غادرته. بدت عليه الدهشة لهنيهة جراء الفوضى التي تسبب فيها. كانت ثيابها تنقط ماءً. وجهها متورم، شعرها متلبد. ورغم ذلك كان من السهل إعادة الرغبة الطاحنة إلى أعضائه التناسلية، لشدة انحطاطه. كل ما كان عليه عمله هو شرب جرعة أخرى.

"والآن، لو أنك فقط كنت فتاة عاقلة وعملت ما قلته لك. سوف أعاقبك على ذلك. عليك إطاعتي هذه المرة، أيتها العاهرة. هناك المزيد منا ممن يترتب عليك إرضاؤهم وإسعادهم..."

شاهدت ماجده من خلال عينيها الغائمتين جنديين آخرين، ضابطين شابين هذه المرة، خارجين من الغرفة الثانية. كان هناك رهان، نوع من التحدي في عينيهما.

"هلما وعليكما بها" لوَّح القائد بزجاجته باتجاههما "لقد قلتما أنكما رغبتما في فرج ثائرة. خذاه. لقد جرى تزيينه بما يكفي، لن تجدا صعوبة في ولوجه، بعضويكما الصغيرين."

وهكذا استمر الوضع. بقيت ماجده طافية معلقة بين الجحيم والنسيان، وعلى الأغلب، أقرب إلى الجحيم بسبب جروحها. فوجئت عندما اكتشفت كم هو قوي ذلك الشيء المسمى جسدها. مرة أخرى، تحولت إلى انعدام الإحساس مع تجدد الهجمات عليها، متسلحة بأسلوب الطبيعة في حمايتها من الأذى.

بعد بعض الوقت، استفاقت ماجده لترى الغرفة الصفراء وقد حالت إلى اللون البرتقالي المائل إلى السواد من خلال الليل ووميض المدفأة المفتوحة. كان الضابطان مستلقيين وقد غابا عن الوعي، مثخنين من السكر والإشباع.

أين هو عدوها؟ الرجل الذي اعتدى عليها، معذبها؟ اكتشفت ماجده أنها تستطيع أن تنهض وتمشي متعثرة. انفصلت قوة إرادتها عن جسمها بطريقة ما عن كل ما حدث، وتحركت كأنها في حلم. طافت نحو باب الغرفة الثانية، وشاهدت القائد نائماً يشخر منفرد الذراعين والساقين فوق فراشه. زيه الرسمي الفخم معلق على مشجب إلى جانبه، في محاكاة ساخرة فارغة، هازئة من شخصه.

وجدت الخنجر على الطاولة، إلى جانب طاقيته والقفازين الرسميين الأبيضين النظيفين.

مشت متهالكة بهدوء نحو السرير، ثم سحبت نفساً عميقاً في البداية. ثم دفعت بشفرة الخنجر في رقبته من الجانب بينما كان يغط في نومه مثل فتى غبي، وقد تدلى رأسه إلى أحد جانبيه. جعلها اندفاق الدم تقفز – وجدت نفسها تكاد تصاب بالإغماء مع زيادة رد الفعل العصبي الذي تسبب فيه هذا العمل في حالتها المرهقة حد الإعياء. رفس الجسم وقفز قليلاً. ظهر الدم وكأنه يتدفق لمدة طويلة جداً، واقتنعت بعد بعض ثوان أنه لن يتوقف عن التدفق – وأنه لن ينهض عن ذلك السرير حياً أبداً.

اتخذت طريقها وهي تتعثر وتجرجر قدميها مرتجفة حتى وقفت فوق الغبيين القذرين الذين حاولا أن ينحدرا بها إلى مستوى وحشيتهما.

أما هذا الفعل الآخر فقد كان سهلاً. دفعت أحد الرجلين فتدحرج، ولم يقاوم إلا بزمجرة. عثرت على جراب مسدسه، أخرجت السلاح وأمسكت به فوق قلب الرجل مباشرة. طلقة واحدة. سمعت صوت خطوات قادمة خلفها. بسرعة! سقطت على ركبتيها. طلقة ثانية على رأس الآخر. كم هو الموت سهل.

هل قام أصلان بالقتل بهذه الطريقة؟ سيكون فخوراً بها.

كان هناك شخص مغطى بالدم ينقط فوقها. كان وجه الضابط ملتوي القسمات إلى درجة أنها لم تقدر أن تقرر ما إذا كانت ابتسامة صفراء، أم أنها تكشيرة الموت. كانت يده التي تحمل المسدس موجهة نحو صدغها.

رأت ماجده من فورها أن التفسير سيحمل كلا المعنيين. ما عاد يهمها. فسواء كان في الحياة أو الموت، سيكون أصلان فخوراً بها. لقد فقدت شرفها في الحياة: وقد استعادته بالقتل.

***

الفصل الثالث عشر

جلس أصلان ينتظر بفراغ صبر مشوب باليأس، بصحبة اللاجئين الشراكسة على الجبل الأسود. انقضت ساعات، انقشع الظلام. أقنع نفسه سابقاً أن ماجده ستكون بأمان، وتستقبل بكرامة، وربما تبدأ رحلة العودة بعد بزوغ الفجر بوقت قصير. تحول لون السماء إلى الفاتح، لون أصفر بشع مضيء مثل خمار من الموسلين بحاجة إلى الغسيل. أصبح الجو كئيباً، مكفهراً، ملطخاً بتهديد المطر أو المطر المتجمد.

لم تكن هناك أية بادرة على عودة ماجده. حاول أن يصلي، مغمضاً عينيه بشدة: آملاً أنه عندما يفتحهما – ستكون على الممر – هناك إلى جانب الشجرة، أو هناك، قريبة من تلك الصخرة الناتئة. في نهاية المطاف لم يعد يطيق الهدوء في مكانه أكثر من ذلك. أخرج زيه الرسمي المهترئ من خرج سرجه بدون أن يعرف السبب الذي يدفعه إلى ذلك، وارتداه. راقبه تيمور، وبدون أن ينبس بكلمة، اختفى في نهاية الصف وفعل الشيء نفسه.

لم يكن لديهما وقت للتظاهر في هذه المرة – لا وقت لحلاقة الذقن. فإن الزي العسكري سيعطيه وتيمور ببساطة فرصة أفضل في أن لا تطلق النار عليهما من مسافة بعيدة من قبل الخافرين في القولات. بحث أصلان عن حليمه. اندفعت يدها إلى فمها لا إرادياً عند رؤية ملابسه. "ما الذي تفعله؟ هل أنت ذاهب للاستسلام؟ وماذا سيحل بنا؟".

"إنني مضطر للذهاب في إثر ماجده. كان يفترض فيها أن تكون قد غادرت الحامية حتى الآن... ما الذي يؤخرها؟ يفترض أن تكون قد عادت بحلول هذا الوقت".

مررت حليمه أصابعها خلال شعرها المشعث، وقد أسلمت نفسها للأفكار الشاردة. "ربما يريدون منها لائحة مفصلة عن كل لاجئ، الوصف البدني، الأصل، الوجهة – لا أعرف! إنهم مغرمون بالتفاصيل. لا بد وأنه أمر ما – رسمي!".

"إفرضي بأن ذلك ليس هو السبب...."

"لم تقترف ماجده أي خطأ! لو أننا أرسلنا رجلاً ربما ظنوا أنه ثائر، وربما حتى أطلقوا عليه النار في العراء قبل أن يصل إلى الحامية– قبل أن يتمكن من فتح فمه! أنت قلت ذلك بنفسك! كما أنك لا يمكنك أن تذهب وتتركنا بدورك! ولكن لا يفترض أن يكون هناك سبب لأنثى وحيدة أن تكون في خطر –أنت قلت ذلك، ألم تقل ذلك يا أصلان بك؟"

بات وجه حليمه المعذب يتوسل أصلان ليمنحه بعض التطمين.

هي على حق من الناحية المنطقية. أنثى وحيدة، غير مسلحة – بدا أن ذلك هو الأسلوب الأمثل. لكن مع كل لحظة تمر، أخذ أصلان يشعر بذنبه، بإخفاقه، يحفران في وجدانه مثل نصل محمّى حتى الاحمرار.

"اطلبي من تيمور أن يحضر إلى هنا فوراً" كان قد توصل إلى خطة بديلة. فإن القائد المحنك لديه بدائل على الدوام....

سمح صرخة مكبوتة: ركض أصلان إلى طرف النتوء الصخري وشاهد إسماعيل يكاد يختنق من صعوبة التنفس، وهو يمشي على أربع، جاهداً في العودة إليهم. كانت ركبتاه مجرحتان داميتان، وقد غطت الدماء يديه.

رمى أصلان بنفسه إلى الأمام وتناول يد إسماعيل ليرفعه بقوة إلى ظهر الجرف حيث يقفون.

"ما الذي يحدث بحق الجحيم؟ أين هي ماجده؟" أمره بالكلام.

"قبض عليها.. لقد اعتبروها امرأة من "الهايدوت" (العصاة).. لقد..... آذوها..."

تهاوى إسماعيل إلى ركبتيه في انهيار سببه الرعب أكثر من الإرهاق وبدأ ينتحب مثل الصبي الذي ما زال يجسده.

سيطر مزيج من الألم والغضب على أصلان. لكنه أدرك ما يجب عمله: فقد شحذ الغضب العارم تفكيره: أغلقت فكرة الإنقاذ والانتقام كل الاحتمالات الأخرى.

"تيمور وعمر! تعالا معي! بقيتكم تتبعون كمال وحمزة وتنزلون عن هدا الوجه الصخري في مجموعات صغيرة، بأقصى سرعة تقدرون عليها. افرشوا قطع قماش على الحصى الصوانية لتحموا أنفسكم – انزلوا بالتتابع مع مراعاة إنزال النساء المسنات أولاً. يجب أن نتحرك نهاراً – ليس هناك وقت لنضيعه. ولا مجرد ثانية."

حزم اللاجئين ممتلكاتهم القليلة بكفاءة صامتة. فقد أدركوا بطريقة ما أن حياتهم – حياتهم كلهم– تعتمد على ما سيجري في الساعات القليلة القادمة. تنزّل هدوء شامل متوحد على الحشد، الذي نظم نفسه في مجموعات صغيرة بدون أي نزاع ولا أي تأخير.

"حليمه، ناوليني بندقية أبيك القديمة".

لم تتردد.

"حسن. هيا بنا. تيمور وعمر. ثلاثتنا فقط. إسماعيل، لقد فعلت ما يكفي. قم بقيادة اللاجئين بأفضل ما يمكنك، وراءنا، حتى تصل إلى آخر مكان يمكنكم الاختباء فيه قريباً من الحامية. فأنت على الأقل تعرف الطريق."

نهض الصبي واقفاً وهو يمسح الدموع عن عينيه. برز فكه إلى الأمام في إشارة تحدٍ تدل على رغبته في أداء المزيد... في

الذهاب مع الرجال. لكن نظرة أصلان الغاضبة منعته من الاعتراض.

"يا أصلان، لقد قالت ماجده أن نذهب إلى سبيك... تلك كانت آخر كلماتها قبل أن يخرجوا بها مرة أخرى".

"سبيك!" نظر أصلان إلى الفتى بعينين مجنونتين غير واعيتين: غير راغبتين في فهم المعنى الذي توحي به تلك العبارة.

"ماذا تعني بكلامك أيها الفتى؟ هل كانت حية في آخر مرة رأيتها فيها؟"

طأطأ إسماعيل رأسه مؤكداً.

استدار أصلان نحو تيمور وقد ازداد قلقه. "إن مهمتك هي الأصعب، لكنني أعرف أن بإمكاني الاعتماد عليك".

استمع تيمور بانتباه شديد.

"أنزل ثلاثة من جيادنا إلى بطن الوادي. لا أعرف كيف ستفعل ذلك، لكنني لن أتمكن من الدخول إلى تلك الحامية سيراً على قدميّ وأنا أرتدي هذا الزي. سوف يثير الأمر الشبهات على الفور. سوف اصطحب عمر واستولى على تلك "القولا" الأولى، وهي مركز الخفارة. سيسهل ذلك عليك لكي تقطع الأرض المكشوفة بالخيل. سوف أعطيك إشارة من "القولا"، وبعد ذلك يمكنك أن تخرج إلى العراء، تعبر الوادي، وتلتقي بنا."

"لقد فهمت – حاضر يا سيدي."

تشاور الخيالان وهما يسيران في الطريق، مستخدمين منظار أصلان المقرب الممنوح له من الجيش. بعد ذلك ذهب تيمور ليسرج الجياد، بينما دفع أصلان وعمر بنفسيهما نازلين عن الجرف، متدحرجين، ممسكين بسلاحيهما بوضع عمودي باتجاه

جسميهما، ساقطين بدون أن يطالهما أي أذى في وقوع غير مسيطر عليه بحيث انتهيا إلى السفح وقد أصابهما الدوار.

ركضا، بطريقة متعرجة وكأنهما من "الكوميتاس" ويعرفان المنطقة جيداً. ذهب أصلان في المقدمة: قادته غريزة الجندي ذي التدريب الجيد إلى أسرع الطرق، من صخرة إلى الأخرى، ومن جذع ساقط إلى جذر شجرة ما زال واقفاً، عبر أرضية الوادي متسلقين المنحدر التالي باتجاه "القولا" الأولى - مركز الخفارة الواقع بين مكان انتظار اللاجئين الحالي والحامية. تحركا ببطء شديد: استغرقتهم الرحلة الكاملة عدة ساعات. نظر أصلان إلى الأعلى ليرى الشمس الباهتة تصل إلى سمتها: منتصف النهار. توقع في كل لحظة أن يكتشفه أحد الخفراء ويطلب منه التوقف وكلمة السر من خارج هذا "القولا" الأول ولم تكن لديه أية فكرة عن كلمات السر التي تستخدمها هذه الحامية.

كان هناك أمر فظيع قد وقع: لم تكن هناك أية إشارة على أي نشاط مهما كان نوعه طيلة فترة الصباح! وازداد توجسه مع اقترابه من "القولا". أشار إلى عمر أن يوسع الشقة بينهما ويقترب من الموقع الأمامي المتهالك الواقف لوحده والمؤلف من بناء واحد بمنتهى الحذر، من الجهة المقابلة. هنالك خطب شديد الوقع.. ليست هناك أية إشارة على وجود أي نوع من تحركات الأحياء. فهل هذا ببساطة فخ منصوب؟ هل هناك وباء؟ هل الموقع مهجور؟ زحف باتجاه الباب وركله بقوة فانفتح على اتساعه، وقد تهيأ لإطلاق سلاحيه في نفس الوقت. وجد جنديين، لا يزيد عمرهما عن مراهقين، مضطجعين على الأرض بلا حراك عند قدميه. كانا مخمورين حد الموت عندما اقتحم المكان: كان بمقدوره قتلهما ببساطة. يا له من تواجد جهنمي: بناء شبيه بالزنزانة على سفح تلة قذرة تذروها الرياح، ولا شيء يؤنسهما سوى العرق والجرذان. لم يستحقا أن يموتا.....

غمغم أحدهما وبدأ يستفيق من إغماءته المخمورة. تصرف أصلان بسرعة، وناول الفتى ضربة قوية على رأسه ليغيبه عن الوعي مرة أخرى. أشار إلى عمر ليدخل بسرعة.

"دعنا نقوم بتقييد هذين الأحمقين وتكميمهما. اخلع ملابس ذلك الفتى يا عمر، وارتدِ زيه. ستكون بأمان أكثر." بحث أصلان عن مخازن الذخيرة وأعاد تعبئة أسلحتهما. أصبح بحوزتهما الآن ما مجموعه أربع بنادق. ناول بندقية حليمه القديمة الثقيلة إلى عمر: لأن عمر رام ماهر، وبوجود بندقيتين معه، كل واحدة تحت إبط، أصبح أكثر من استثمار مهم.

أخرجا الخفيرين المخمورين من المبنى وأخفياهما بين الشجيرات القريبة. أحضر أصلان فراشهما المليء بالبراغيث وألقاه فوق الشابين المكممين اللذين كانا يحاولان التقيؤ، ليخمد أية أصوات تصدر عنهما من ناحية، ومن ناحية أخرى حتى لا يتضررا من التعرض للطقس. فقد أصيب بالإعياء من القتل في هذه الآونة: حتى قتل الأعداء الذين أساؤوا إليه وإلى قومه. بعد ذلك قام أصلان بمسح خط الأشجار عبر الوادي، حوالي المنطقة التي خمن أن تيمور سينجح في إنزال الجياد إليها. ثبت أن "القولا"، كما تخيله سابقاً، يتمتع بموقع ملائم لكشف أية تحركات على جانب الجبل الأسود من الوادي. فجأة، التقطت عدسات منظاره المقرب ومضة من اللون: شال تيمور فوق شجيرة.

"حسناً يا عمر. تمشى صعوداً ونزولاً وأعط الإشارة ثلاث مرات. لقد لمحت تيمور وهو في المكان الصحيح."

تمشى عمر مثل خفير أمام مبنى "القولا"، سحب منديله ولوح به وكأنه يتهوى به. أبقى أصلان عينيه مسمرتين على المربع الأحمر عبر الوادي. كرر عمر مناورته. في النهاية, شاهد أصلان الشال الأحمر وهو يختفي. وبعد فترة بدت وكأنها ساعة من الزمن،

شاهد "جندياً من الخيالة التركية" يقود ثلاثة جياد عبر أرضية الوادي في سرعة بطيئة، لا يشوبها أي توتر.

في هذه اللحظة، ركض أصلان وعمر بأقصى سرعتهما لمقابلة الجياد، ليس من خلال أرضية الوادي كما فعلت ماجده، بل إلى جانب السلسلة الصخرية الواقعة على الجانب التركي من الوادي حتى وصلا إلى مكان قريب بما يكفي لمراقبة مجريات الحامية التي أصبحت تحتهم مباشرة تقريباً.

ظهر كل شيء مسالماً إلى حد مقنع. أخذ قلب أصلان يخفق بسهولة أكثر. ربما أصيب إسماعيل بالذعر، وربما أن كل ما حدث هو أن ماجده يجري استجوابها. ربما لا يزال في الوقت متسع لإنقاذها. قاوم دافعاً يدعوه إلى العدو بأقصى سرعة إلى داخل المعسكر، وإطلاق النار على كل من يصادفه حتى يصل إليها.

"لقد سكر هذين الأحمقين من شدة الملل لا غير. إن هذا المكان مزبلة حقيقية. أشك في أن يكون قد حدث أي قتال في هذه الأنحاء منذ أشهر." لاحظ أصلان أسلاك البرق المدلاة، والكلاب الهجينة، والغياب الكلي لأية أعمال صيانة رغم وجود الكثير مما يتوجب صيانته بشكل جلي. تمتم بهذه الإمارات إلى عمر، شارحاً الإجراءات العسكرية، للمحافظة على ارتفاع معنويات الشاب، وليطمئن نفسه إلى أن هذا الطاقم من الكسالى التافهين لا يمكنه أن يؤذي ماجدته الجميلة.

ما أقلق أصلان بشدة هو مشهد مربضي مدفعين ثقيلين على كل جانب من الممر، على بعد بضع مئات من الياردات، عن الحامية نفسها. ظهر أن معظم الجنود موجودون في وظيفة مناوبة قرب المدفعين الكبيرين، وأن موقع القيادة مشغول بمجموعة صغيرة من المنتسبين الخدميين، الذين بدوا له متسكعين في المكان، بمعنويات متدنية.

"هل ترى ذلك؟" بيَّن أصلان هذه الترتيبات لعمر.

"يجب أن نحصل على جواز مرور آمن للجميع. ليست هناك طريقة أخرى يتمكن بواسطتها جمع غفير من الناس من المرور عن هذه الفئة." أشار إلى حيث بحلق الثقبان اللذين يشبهان الفمين للمدفعين الضخمين فوق المضيق لمسرب الوادي، وكأنهما وحشان يستريحان، ينتظران فريسة يقبضان عليها.

عاد أصلان إلى النظر إلى أسفل الوادي بمنظاره المقرب.

كان تيمور يقترب أكثر فأكثر.

"هلم بنا يا عمر. لقد حان وقت الكشف عن نفسينا." هذه هي المرحلة الأدق – الركض نازلين سفح التلة للوصول إلى الجياد. سيكتسبوا المصداقية بمجرد أن يمتطوا الجياد، وسيتمكنوا من دخول الحامية بدون أن يثيروا الشكوك.

"حسناً، ها نحن ننطلق" قال أصلان "علينا فقط أن نأمل أن يكون خفراء الحامية في نفس درجة غفلة ذينك الصبيين في "القولا". ادعوا معي أن يكونوا غافلين عنا وينظرون إلى الجهة الأخرى لحظات قليلة."

ركضا منحنيين، ومتعرجين في مسيرهما حتى سقطا على البقعة المملوءة بالشجيرات حيث كان تيمور ينتظرهما.

"لقد نجونا!" ألقى عمر بنفسه على رقبة فرسه وأخفى وجهه في معرفتها. لم يكن جندياً مدرباً: ورغم كونه قبارديا أصيل النسب وقد تلقى التدريب لدى الأتالق، إلا أن مهاراته كانت قد شحذت من أجل المسرات، وليس الحرب، وكان بحاجة إلى بضع لحظات حتى يتعافى من مخاوفه.

للحظة قصيرة، انطوى أصلان على نفسه وقد أحس بوخزة عنيفة في خاصرته. ثم قفز إلى سرجه. "حسناً. لندخل إلى هناك."

أصيب تيمور بلوثة رعب هائلة لهنيهة عابرة. فقد أدرك أنه وأصلان يخاطران بالاعتقال، والتعذيب والحكم عليهما بالإعدام.

وأدرك أيضاً أن حياة الآخرين الكثيرين متعلقة بنجاحهم. لذلك سحب نفساً عميقاً. وأصبح في هذه اللحظة جاهزاً لتقديم حياته، إذا كان بعض من هؤلاء اللاجئين سيصل إلى بر الأمان. فقد توفر لديه الوقت الطويل ليفكر في شؤون الحياة والموت في الأسابيع المنصرمة. وأصبح قلبه نقياً واضح البصيرة، وعقله مركزاً- يكاد يكون مرحاً في هلعه، وفي الواقع: أصبح لديه شيء يفعله.

طبيعي، أنه بسبب التفاؤل البطولي الذي تفرضه روح الشباب، فقد فكر تيمور بكل الاحتمالات السلبية وصرفها عن فكره. إن خطتهم ستنجح بكل بساطة، لأنه يريد لها النجاح وعليه فقد أصبح مخلداً غير قابل للموت من خلال قوة إرادته.

ركب الشراكسة الثلاثة نحو الحامية.

قدَّم الخفير المناوب سلاحه تحية لهم، وقد فوجئ إلى حد ما برؤية ضابط رفيع الرتبة مع مساعدين فتيين يهبطون عليه من الغيب بدون مقدمات. لم يكن هناك أي اتصال برقي يخبر بقدومهم – كيف بحق الجحيم عبروا من أمام مركز الاستطلاع الواقع خلفهم بدون أي إنذار؟

رفع الجندي يده لإيقافهم.

صرخ فيه أصلان "أحمق! هل هذا مركز البرق؟ أين هو القائد؟ آمل أن يكون مناوباً!" كانت خطة أصلان تقضي بأن يبادر بالهجوم.

"نعم – نعم سيدي".

هرب الجنود الذين كانوا يتسكعون أمام مباني الثكنات للاختباء بينما اندفع أصلان ورفيقاه يعدون عبر ساحة استعراضات الحامية باتجاه مقر القيادة.

قفز أصلان عن فرسه وخطا داخلاً مع رفيقيه. كان الضابط جالساً إلى طاولة ميدان مخلعة أمام جهاز إرسال ميداني، وإلى

جانبه زجاجة عرق نصف فارغة. ظن أنه كان قد أصيب بجراح: كانت رقبته مضمدة برباط سميك، وكان الدم ينزف منها إلى مقدمة قميصه. سترته ملقاة على ظهر كرسيه، اندفعت يده غريزياً نحو الزجاجة لتخفيها على الأرض، ثم لتصل إلى سترته، ليقدم نفسه باحترام ولياقة.

وقف عمر خارج الباب عندما أغلقه أصلان بقوة. أخرج أصلان مسدسه بسرعة بينما قفز تيمور خلف ظهر الضابط ليمنع حركته.

"من بحق الجحيم–"

"ليس هذا من شأنك مطلقاً، ما الذي تديره هنا – أهو ملاذ لغير اللائقين لخدمة السلطان؟"

"ليس لديك الحق في أن –"

"أرني المرأة الشركسية"

"ما، ماذا؟"

"لقد سمعتني. أحضر المرأة الشركسية المدعوة ماجده. هذا تحقيق رسمي. لدي أوامري في العثور على جماعة من رعايا السلطان من ضحايا الحروب ومرافقتهم إلى الأمان."

تضيقت عينا الضابط "أنت فار من الخدمة! تلك البندقية السنايدر – لقد كانت بندقيتك!" حاول بحركة متسرعة غير منسقة أن يمد يده إلى جراب مسدسه. صعقه تيمور بضربة عنيفة إلى قفا رقبته، فتهاوى الضابط إلى كرسيه.

تحرك أصلان بسرعة نحو الشباك. لا يزال باقي المعسكر هادئاً. جعله هذا القدر من غياب السيطرة الأمنية يحس بالعصبية: لأن أي شيء يمكن أن يحدث في أية لحظة.

أمسك بالضابط من ياقته وصفعه على وجهه حتى عاد إلى وعيه. "أين هي المرأة! أخبرني وإلا-"

"أرجوك! أرجوك! أقسم لك - أعطني جرعة شراب!"

دلق أصلان قليلاً من العرق في وجهه: بلعه الضابط كأنه رجل غريق خرج من الماء باحثاً عن الهواء.

"اسمع" قال القائد "أقسم إنني سأخبرك بكل شيء - فقط امنحني دقيقة- يا سيدي" أبقى الضابط عينيه معلقتين بمسدس أصلان: كان نابض الأمان مرفوعاً، فأصبح مضطراً لأن يساير أو يواجه خطر الموت.

تجرع العرق مرة أخرى، ثم سحب نفساً لتهدئة روعه.

"حسناً". قال وهو يرفع يديه الراعشتين وكأنما يتوقى ضربة"يؤسفني أن أبلغكم، سيدي، أن اثنين من ضباطي صغار الرتبة قد خرجا عن السيطرة في الليلة الماضية. أنا - أنا شخصياً أصبت بجراح في الاشتباك. لقد كنت على وشك أن أبرق بتفاصيل الحادث إلى قيادة لوائي....."

نهض الضابط واقفاً بغير ثبات، وأصابعه تتكمش ثم يعيد بسطها بينما هو يحاول إقناع أصلان بأكاذيبه.

"أترى، أيها العقيد؟" وأشار بيد مدمن الكحول المرتعشة من خلال الشباك إلى بقعة حجرية من الأرض خلف الثكنات. كانت هناك ثلاثة قبور مغطاة حديثاً.

"لقد اتخذت إجراءً تأديبياً على الفور...."

توقف قلب أصلان عن الخفقان. "أخبرني بالحقيقة وإلا فإنني سوف-"

"أقسم لك! أقسم لك!" وأخذ الضابط يرتجف من الرأس حتى أخمص القدمين.

"إسمع، لقد خرجت الأمور عن السيطرة. اضطررت إلى إصدار أمر بالاستجواب. لقد تمادى – تمادى ضباطي. فقد كانوا مخمورين. وهكذا فقد ماتت المرأة "قاطعة الطريق"!

"ماتت.....!" لم يعد أصلان يستطيع أن يسيطر على انفعاله وصارت يده الممسكة بالمسدس ترتعش بلا سيطرة.

"لقد قمت بإعدام ذينك الضابطين بنفسي، أيها العقيد. لقد – صدمت بما فعلاه. أنا لست بحالة جيدة صحياً... لقد خسرت الكثير من دمي... لكنك سترى كل ذلك في تقريري المفصل."

كانت أكاذيبه التي يرويها أكثر مما يستطيع أصلان أن يتحمله.

شعر برأسه على وشك الانفجار. انفجرت من داخله زمجرة رهيبة ورفع مسدسه ليطلقه.

لكن تيمور كان أسرع. "لا يا أصلان، لا تطلق النار!" سحب "القاما" من حزامه ودفعها بسرعة تحت القفص الصدري للرجل بينما بقي مطبقاً بيده اليسرى بقوة على فم الضابط. قتله علىالفور بدون أن يصدر عنه أدنى صوت.

جحظت عينا الضابط بذلك النوع من المفاجأة المتألمة التي لا يقدر على التعبير عنها سوى النذل. انزلق نحو موته وهو يصدق الأكاذيب التي أطلقها بنفسه، وتعبير انعدام الذنب مكتوب على وجوده بأكمله. بدون أي شعور بالخطيئة.

وقف أصلان فوقه موجهاً يده المرتعشة بالمسدس مباشرة نحو القاتل، مستعداً لإفراغ كل الرصاصات فيه.

فحَّ فيه تيمور "انزل مسدسك يا أصلان! إذا أطلقت النار فسوف نثير الإنذار، وسوف نقتل كلنا، بينما يجب علينا أن ننقذ بني قومنا! لقد ماتت ماجده وهي تسعى إلى مساعدتهم – لا تخذلها!" اغرورقت عينا تيمور بالدموع بينما هو يتكلم.

وقف تيمور بشجاعة هائلة بين الجثة ومسدس أصلان،وهز رئيسه من كتفيه بعنف. تجمد الرجل في مكانه كأنه عمود حجري،كله غضب، كله سواد، كله حزن، إذ لم يبق في قلبه مكان لمشاعر أخرى غير شهوة القتل.

"أرجوك يا سيدي! أيها العقيد! ليس لدينا وقت نضيعه!"

بدأ تيمور يردد حزمة من الصلوات والأدعية. إذا لم يثب أصلان إلى رشده ويستعيد وعيه سريعاً، فلن يستطيع أحد التكهن بما يمكن أن يفعله أي ضابط آخر في الحامية. لأنه لا يمكن لهم أن يظلوا مقفلين على أنفسهم في مقر القيادة هذا طيلة النهار، فقد كانت دقائق الأمان تنقضي بسرعة.

لوح تيمور "بالقاما" الدامية على وجه أصلان قائلاً "سيدي! لقد مات وانتهى أمره!"

ارتعد أصلان وأخرج تنهيدة عميقة هائلة. "أحسنت صنعاً أيها الفتى. أحسنت صنعاً".

علق بندقيته على كتفه وأمسك بذراع تيمور بقوة، محدقاً في "القاما". "أشكرك. إنني بخير الآن." أحاط جذعه بذراعيه لفترة غير قصيرة وكأنه يتجرع الهواء، ليبعد عن نفسه الألم الممض العظيم. فهذه أعظم حسرة في حياته. أغمض عينيه، بينما تنساب الدموع من عينيه على خديه. لم يكن قلبه وحده الذي تحطم. بل إن مستقبله كله قد تشظى، لكنه لم يكن لديه الوقت لمجرد الحزن والحداد. هزت تنهيدة راعدة أخرى كيانه، وبعد ذلك استعاد رباطة جأشه. عاد إلى الحياة التي طالما ألفها- تلك التي لا مكان فيها للأمل أو الأحاسيس، ولا شيء ليحفظه ويبقيه ماضياً في دروب الحياة سوى الواجب. مسح أصلان بيده عبر وجهه، وقام بما يتوجب عليه عمله.

تجول بنظرة في الغرفة باحثاً عما يمكن أن ينفعهم. رقدت على الطاولة معدات إرسال الإشارة البرقية، بعض الأوراق، بما

فيها التقرير المزور عن الحادثة، وريشة. انحنى أصلان إلى الأمام ليقرأ ما كان القاتل يفعله عند دخولهم – لنفترض أنه قام بإنذار "القولا" التالية بأن بعض العصاة يحاولون الاختراق؟

صفا ذهنه – بدأ يتفاعل بسرعة. لم تكن هناك أية إشارة استجابة برقية أثناء وجودهما في الغرفة من معدات البرق. وهذا يشير إلى أن الضابط لم يكن قد أرسل أية رسالة تستلزم الإجابة بعد.

لا شيء عاجل... لا إجراء تم التوكيد عليه. هذا من حسن الطالع.

قلّب أصلان الأوراق الموجودة على الطاولة وعثر على الوثيقة الموقعة- جواز المرور لمجموعة من الشراكسة، طوال الطريق من خلال الخطوط التركية وحتى الساحل.

أمسك برأسه بقوة بين يديه ليوقف تدفق الألم والحزن. لم يتمكن ولو لثانية من التفكير فيما عانت منه ماجده وتحملته لتحصل على تلك الوثيقة مكتوبة وموقَّعة. لكنها نجحت، وبات هو يعرف ما يتوجب عليه عمله بالضبط.

قلب الجثة، بمساعدة تيمور، أجلس الرجل على الطاولة الميدانية، ورأسه مائل إلى الأمام كأنه غارق في السكر حتى الثمالة، وهو ما كان وضعه فعلياً.

"تيمور. أدخل عمر إلى هنا".

إنسل عمر داخلاً بسرعة وهدوء.

"والآن أيها الفتى، عد إلى اللاجئين، وقم بقيادتهم إلى الأمام. لدينا تصريح رسمي للمرور الآمن."

لوَّح بالورقة وأدخلها في جيب سترته. "انتظر حتى مغيب الشمس، بعد ذلك يفترض فيك أن تبدأ المسير ماراً من أمام هذه

الحامية، مباشرة نحو الممر الضيق. إذا تم توقيفك واستجوابك، فقط أذكر أن قائدك الأعلى موجود هنا في الحامية ومعه تصريح المرور، والتزم بأوامرك. سوف أقوم بتعطيل تلك المدافع عن العمل. لا تسألني كيف، لكنني أقسم بالله إنني سأفعلها."

"نعم يا سيدي." هزّ عمر رأسه بالموافقة وغادر مركز إرسال البرق بكل سرعة – رابط الجأش إلى درجة كافية لتبديد مخاوف المجندين والموظفين المنتظرين على مسافة في الخارج. فهم لم يستغربوا أكثر مما كان يجري فعلياً، مع كل هذا الذهاب والإياب بين الضباط رفيعي الرتبة.. واستمروا في الجلوس على كعوبهم.

استمر أصلان في إصدار تعليماته. "والآن، يا تيمور: أنت تعرف ما ينبغي عليك عمله."

"آه نعم يا سيدي. الأمر واضح وضوح النهار. يجب علي أن أقف حارساً هنا وأمنع أي شخص من الدخول والعثور على الجثة. وأنت ذاهب إلى مرابض المدفعية و –"

"بالضبط. سوف لن نفشل. أنت وأنا. لقد لعبت ماجده دورها، وهكذا يجب أن نفعل نحن. يفترض فيك أن تتولى قيادة اللاجئين عندما يصل عمر، وأن لا تغادر مركزك حتى يكون آخر اللاجئين قد عبر من هنا بأمان."

"نعم يا سيدي."

تعانق الشركسيان، اللذين سافرا وقاتلا سوية عبر العديد من آلاف الأميال، كما الأخوة.

ثم أغلق تيمور الباب، وانطلق أصلان راكباً.

لم يعترض الخفير الواقف عند البوابة الرئيسة خروج أصلان هذه المرة، بل أدى التحية العسكرية بلياقة عالية. لم يلقِ أصلان بأية نظرة إلى الخلف – فهو إن يفعل ذلك سيثير الشكوك على الفور.

عدا بجواده إلى الأمام حتى غابت الحامية عن نظره. سوف يهبط الظلام بعد ساعات قليلة: وسيضطر إلى التوقف للتفتيش والنطق بكلمة السر.

وصل إلى مربض المدفع الأول بعد تسلق صعب حاد لمدة حوالي ساعة. وجد هناك جهاراً متكاملاً – طاقمين متناوبين من رجال المدفعية موزعين داخل الخيام، والمدفعين الضخمين مركزين فوق حفرتين ترابيتين عميقتين، مدعمتين بأشجار مقطوعة بالبلطات. أوقفه الخفير المعتاد "كلمة السر، يا سيدي!"

"رجل طيب. لدي هنا وثيقة من القائد جودت. وهذا آخر أمر له – لقد أصيب بجراح! قف باحترام وتهيأ أيها الرجل – إنني القائد المسؤول الآن!"

نفذ الخفير ما أمر به – وقد فوجئ من هذا التطور الدرامي المثير للأحداث بعد شهور من الملل المقيم. بقي أصلان ممتطياً فرسه، أدارها، وشد لجامها إلى فوق بأسلوب عصبي ودرامي مما أدى إلى إثارة إعجاب الجنود الذين يراقبونه.

حضر الضابط المسؤول عن بطارية المدفعية لاهثاً."

"توجد مجموعة كبيرة من المدنيين تنوي المرور من هنا. هذا هو التصريح – موقع من قبل القائد جودت. لقد قمت بالحلول محله – فقد أصيب بجراح قاتلة أثناء قيامه بالإغارة على ثوار الجبل الأسود."

"يؤسفني سماع ذلك يا سيدي–"

"ليس هناك وقت لنضيعه. هذه المنطقة ليست آمنة. ماذا يفعل هؤلاء الرجال، وقد خلعوا ملابس القتال؟"

"نحن في الحقيقة لم–"

"تأكد من تنفيذ ذلك. نظم هذا المكان. يمنع على أي شخص مغادرة مركزه. هل هذا واضح؟"

"نعم يا سيدي، حالاً سيدي"

"آه، وأمر آخر أيها النقيب...."

"نعم سيدي؟" استدار الضابط على عقبيه لتلقي المزيد من الأوامر.

"أرسل إشارة في الحال إلى مربض المدفع الآخر- مكرراً أوامري."

"حاضر سيدي"

"سأمنحك ساعة واحدة لتنظيف هذه البطارية. أريد منك أن تفكك المدفعين، وتقوم بإجراء كشف كامل عليهما، والتدقيق على كل تفاصيل الذخيرة والأفراد من قبلك شخصياً. وبعد ذلك سأقوم بعملية تفتيش كاملة بنفسي. هل هذا واضح؟"

"نعم يا سيدي! نعم يا سيدي!"

"أرشدني الآن إلى خيمتك، وابعث إلي بالطعام والماء. إنني بحاجة إلى الاغتسال، وحلاقة ذقني، وإلى الاطلاع على كافة تقاريرك الأخيرة. بحق الله أيها الرجل، ما الذي تنتظره؟"

"نعم يا سيدي نعم يا سيدي!".

في هذه الأثناء، كان تيمور يحتفظ بموقعه خارج باب غرفة القائد. بعد حوالي نصف ساعة، جاءه جنديان ذوا هيئة رثة: ضابطا صف تبدو عليهما علائم الصلابة والدهاء، ويحتمل أن يسببا له المتاعب.

"مساء الخير"

"مساء الخير"

"ما الذي يحدث إذن أيها الفتى؟ لا تقل لي أننا سنخوض القتال أخيراً – ليعفني الله من ذلك!" بصق أحد الرجلين باتجاه مقدمة بسطاره، فأخطأه بدقة كما هي عادته.

"لست مخولاً بالتكلم، يا سيدي. جل ما أعرفه هو، أن المكان الذي جئنا منه، قد شهد قتالاً عنيفاً، أستطيع أن أقول لك، في غاية السخونة".

بدا على "النظاميين" بعض التردد. "ماذا تعني بقولك "سخونة"؟" سأل الثاني.

"لا أستطيع أن أقول المزيد. لا أريد أن أتهم بنشر الشائعات – التأثير على معنويات الجند. فتلك جريمة." مال إلى الأمام، بشيء من السرية. "هل تعلمان. أعني، أن الأمر يبدو وكأننا خسرنا."

"خسرنا؟" لم يستطع هذان النظاميان أن يصدقا ما تسمعه أذناهما.

"الخسارة" تعني أنهما سيخسران مركزي قوتهما، راتبيهما: ولكن "الخسارة" تعني أيضاً أن بإمكانهما العودة إلى بيتيهما في النهاية.

"لقد وقَّع السلطان على وثيقة استسلام للروس. لا بد وأن قائدكم أخبركم، ألم يفعل؟" لم تكن لدى تيمور أية فكرة عما إذا كان يقول الحقيقة أم لا- ولكن هذا الكلام بدا كفكرة جيدة لخلخلة ثقة هذين الرجلين بنفسيهما.

"الاستسلام؟ منذ متى؟" جحظت عينا الجنديين من هول المفاجأة.

"آه، منذ حوالي أسبوع" قال تيمور باستخفاف "إن القوات تقوم بإعادة التجمع في كافة الميادين. وهذا هو سبب وجودنا هنا. إن خطوط الاتصال إما مقطوعة أو جرى العبث بها، ربما هذا هو

سبب عدم إخباركم". بدأ تيمور يشعر بالسخونة جراء ضخامة كذباته الخطيرة.

"ما الذي تقوله أيها الفتى؟ هل تعني بقولك هذا أن رجال الجبل الأسود على وشك مهاجمتنا؟"

استمر تيمور في التماشي مع الفكرة، وقد ألهمته بما سيقول "يبدو أن الأمر هكذا. لقد ألقينا القبض على بعضهم هناك" وأشار إلى الجبال. "إنهم ممتلئون حماساً. ونحن مضطرون إلى إخلاء اللاجئين خارج نطاق خط النار. سوف يحمى الوطيس، أقول لكما. أنا شخصياً أتمنى أن يتم نقلي خارج هذا المكان بأسرع وقت ممكن."

ألقى كل من "النظاميين" بلمحة سريعة باتجاه الآخر، وتحركا باضطراب. فهذه الحامية مكان جيد لهما، يتحكمان فيه بالمجندين، ويستمتعان بأية أنثى طارئة، ويمارسان كل أنواع الفساد، ولكنه ليس مكاناً يتخيلانه ملائماً في حماة القتال مع حشد من المجندين، عديمي التجارب، ذوي المعنويات الخائرة مثل ما هو موجود بين أيديهم.

"ولماذا لم يوجزنا القائد سوية، نحن أصحاب الرتب؟" سأل أحدهما تيمور بطريقة أكثر حزماً، وتنطوي على شيء من اللؤم.

"أنَّى لي أن أعرف" ونفض كتفيه "ربما لدواعي أمنية. لم لا تذهبان إلى رئيسكما المباشر، وتقفان على ما لديه ليقوله؟"

نظر العسكريان إلى بعضهما بعضاً بنظرات قلقة، ثم ابتعدا ليتشاورا حول تطور الأحداث.

أدرك تيمور أن هذان الرجلان هما اللذان ساعدا على دفن الضابطين خلال الليل – فهما متآمرين مع القائد، ولم يعد واثقاً بعد هذه اللحظة من أفضل الطرق التي عليه سلوكها معهما.

صعَّد تيمور زفرة عصبية. وهو يعجب كم من الوقت سيتمكن فيه من السيطرة على الموقف. كان الظلام قد بدأ ينتشر: حتماً سيمر الشراكسة من هنا قريباً! حدَّق في الظلام مجهداً أذنيه لالتقاط أي صوت يمكن أن يشير إلى حركة الناس، السائرين.. لا شيء.

حضر طباخ القائد حاملاً صينية قهوة. رجل تركي سمين بسراويل عريضة، يعتمر طربوشاً أحمر ويرتدي صدرية مخملية سوداء مهترئة، كان منظره بعيداً عن العسكرية كل البعد.

قال بفضول واضح "تنحى بعيداً، افتح الباب أيها الصبي".

"لا أستطيع أن أفعل ذلك، يا سيدي" أصبح حلق تيمور جافاً إلى حد مؤلم.

كان الطباخ المتمرس أكبر منه سناً، مع أنه أقل ذكاءً. وصحة، وشخصية بشكل عام. ولكن هذا الأمر لم يمنح تيمور أية ميزة في هذا الوقت – وكان يدرك ذلك.

"ولم لا، أحب أن أعرف....."

شرح تيمور بكل الأدب الممكن "الحقيقة يا سيدي، هي أن عندي أوامري، وهي تقضي بأن أمنع أي شخص من دخول مركز القيادة حتى–"

"حتى متى أيها الصبي؟ ها؟ تلك هي النقطة الهامة، أليس كذلك؟"

بقي "النظاميان" اللذان استجوبا تيمور قبلاً واقفين على مسافة، يراقبان بفضول متعاظم".

"حسن جداً. إذا كنت تحب أن تتبعني، يا سيدي" قال تيمور. فتح الباب، وأدخل الطباخ إلى داخل الغرفة.

بقيت جثة القائد حيث وضعاها، ملقاة عبر الطاولة فيما يبدو وكأنها إغماءة السكر الشديد. كان تيمور قد ألقى ببساط على كتفي الضابط، لإخفاء الدماء.

قال الطباخ "آه، لقد فهمت. سكران كالعادة." ابتسم وغمز لتيمور، ووضع صينية القهوة من يده، وغادر موقع القيادة. عاد تيمور إلى الوقوف في موقعه مرة أخرى، وأخرج زفرة انفراج هائلة. مرت ساعة أخرى. فكر تيمور في أن حياة المعسكر قد انحدرت إلى درك جديد. مرَّت به ثلة من النظاميين حاملين الرفوش، ذاهبين لأداء واجب تنظيف المراحيض. بعد نصف ساعة مروا به راجعين، وقد بدا عليهم القرف أكثر من ذي قبل. لم يظهر على أحد أنه يهتم بمسألة غياب الضابطين الصغيرين اللذين يفترض أن يقوما في العادة بأداء مهماتهما، ولم يظهر لهما أثر طيلة النهار. استمر معظم المجندين في القيام بأقل قدر من الواجبات وعدم إزعاج أنفسهم بالتساؤل.

عاد الطباخ صاحب التجربة يحمل المزيد من القهوة، وهذه المرة لتيمور.

قال "هل من أخبار؟ إنني قلق. لماذا لا يقوم القائد بإرسال أية تعليمات إلى الضباط؟ اين هما ذينك التافهين على أية حال؟ من الذي يشرف على خط البرقيات؟ ليس هذا الوضع كما هو مخطط له، أيها الفتى."

قال تيمور "الأمر يبدو خطيراً، اعترف لك" كان على وشك أن يبدأ بنسج أكذوبة أخرى عندما سمع، في اللحظة الأخيرة، صوت حركة العديد من الأقدام. كان الشراكسة يقتربون، يقودهم عمر عبر الطريق.

"ماذا بحق ال-"

استدار الطباخ ليواجه الحشد الذي يقترب من بوابة الحامية، وبينما هو يستدير، لف تيمور يده حول رقبة الرجل، دفع بفكه

بعنف، ثم أدخل القاما تحت أضلاعه. فتح الباب وهو ما زال مسنداً ثقل الرجل إلى جسمه وأدخله إلى مركز البرق وترك جثة الطباخ تسقط عند قدمي قائده.

انتهى الأمر خلال ثوان. لم يلاحظ أحد العراك القصير لأن الجميع التهى بمشاهدة الحشد الكبير الذي تجمع عند بوابة الحامية.

اندفع تيمور نحو فرسه المربوطة مع الأفراس الهزيلة التي تحتفظ بها الحامية.

قال بمرح "لقد صدرت لي الأوامر بالتحرك!" مخاطباً المجند الفتي الواقف إلى جانبه، حاملاً دلواً مليئاً بالعلف، ثم ركب. وقتها فقط لاحظ أنه في مكان تواجد صبية الأسطبل الثلاثة، لم يبق سوى واحد... خطر بباله لحظتها أن سبب هدوء الحامية هو الفرار البطيء، الخفي لأقل الأشخاص أهمية. لم يكد يصدق حسن حظه الذي سمح له بالاحتفاظ بحياته نتيجة تراخي الانضباطية. لقد كانت معجزة بحق.

اندفع تيمور في هذه اللحظة باتجاه حجيرة الخفير وانضم إلى عمر. صرخ بصوت عالٍ حتى يتمكن الخفير من سماعه.

"رجل طيب! هذه هي أوامر القائد – توجهوا نحو الممر فوراً. يحتمل أن تقع غارة هذه الليلة– وردت رسالة برقية بهذا الخصوص –ولديَّ أوامر بإخراجكم من المضيق بعيداً عن الخطر".

كان لكل ذلك تأثيره المخطط له على الحراس. بهتت ألوانهم، توترت أطرافهم، وهم يلعقون شفاههم كأنهم سحالي على وشك القفز مبتعدة. عاين الخفير المناوب القادمين الجدد وتركهم يمضون في سبيلهم بدون أي إزعاج.

استدار تيمور في سرج فرسه، وصرخ بلهجة سلطوية ملحَّة جديدة. "استمروا في التحرك قدماً! ليس هناك وقت نضيعه!"

أظهر الشراكسة قدراً من التفهم والوعي ضمن الظروف. لم يبد على أحد منهم أنه يعرف تيمور، بل أطاعوا الأمر بانصياع تام.

ركض الجنديان المترددان نحو البوابة وأمرا الخفيران باطلاعهما على ما يجري. كرر ما سمع تيمور يقوله. بدأ الجنديان يدركان شيئاً فشيئاً أن هناك عملية خداع هائلة يجري تنفيذها وركضا عائدين إلى مركز القيادة. كان تيمور من الفطنة بحيث أقفل الباب واحتفظ بالمفتاح لكن الأمر لن يطول قبل أن يتمكن هذان الماكران القويان من خلع الباب واكتشاف الجريمة الكبرى.

ثابر تيمور على تحفيز الشراكسة "حباً بالله، أسرعوا" بقي كل من تسوك العجوز، وكمال، وحمزه في آخر الصف. استمروا في التدافع تحت جنح الظلام، بينما انتظر تيمور في وقفة شجاعة مثالية، للتأكد من أنه ليس هناك شيء آخر يمكنه عمله حتى يؤخر الاكتشاف.

وقف يراقب: حدث أمر غريب. انخلع الباب بالقوة، واندفع الجنود داخلين. عثروا على جثة ضابطهم القائد. ترجل تيمور، واستعد لتركيع فرسه واستخدامها دريئة له حتى يتمكن من إطلاق النار على أي جندي يندفع خارج الحامية ويطلق النار عليه.

بدلاً من ذلك، خرج الجنديان بعد لحظات ببطء وأغلقا الباب المحطم خلفهما بدون أي ضجة. كان أحدهما يحمل في يده زجاجة العرق العائدة للقائد القتيل، وضعها "النظامي" على فمه ببطء وشرب منها، قبل أن يمررها إلى رفيقه. بعد ذلك تمشيا بمنتهى التمهل نحو حارس البوابة.

عاد تيمور إلى امتطاء فرسه وألقى نظرة أخيرة باتجاههما قبل أن يعدو مبتعداً.

ألقى الحارس الخافر عند البوابة بندقيته إلى الأرض في إيماءة إثم أخيرة، وانطلق بكل بساطة مع الجنديين في اتجاه الأحياء الفقيرة

الواقعة أسفل الوادي. لقد ظلت الحامية مكاناً منحطاً لوقت طويل. وانتهى في هذه اللحظة كل مؤشر على الانضباط.

عند مرابض المدفعية في أعلى الجبل، أجهد أصلان نفسه في التفتيش على كل قطعة من المعدات أمكنة الوصول إليها. فجأة، صاح أحد الحراس بكلمة التنبيه – هناك طابور يقترب.

"الحمد لله والشكر" صلى أصلان صامتاً، ومشى نحو مقدمة مربض المدفع بأقل قدر من الانفعال قدر عليه، حتى يتمكن من إلقاء نظرة إلى الخارج.

تجمعت الدموع وملأت مآقيه بينما هو يراقب صف الإنسانية الذي يعاني أثناء مسيره البطيء، المشوب بالخوف، تحت المدفعين التركيين.

سمع أصلان صوت إطلاق نار سريع متتابع مصدره الحامية البعيدة. تردد الصف أمامه للحظات، ترك الناس أمكنتهم وبدأوا يختبئون على جوانب الممر الضيق.

قال الضابط المسؤول "ما الذي يحدث بحق الجحيم؟" وهو ضابط أناضولي قصير القامة أتعبه وأربكه هجوم أصلان اللفظي على معسكره الخامل المريح.

خطف أصلان منظار الرجل لكسب الوقت قائلاً "سألقي نظرة" وشاهد تيمور يعدو مبتعداً عن الحامية، وهو يركب مائلاً إلى الأمام قدر استطاعته أمام صف الشراكسة. تشاور تيمور مع عمر، ثم بدأ هجومه الصاعد على سفح التلة شبه العمودية بهدف الوصول إلى مربض المدفع.

قال أصلان "سرعان ما سنعرف..." حتى يعيق قائد بطارية المدفعية. استمر صف الشراكسة في المرور تحت مدافعهم متجهين نحو موقع أكثر أماناً، بينما هم ينتظرون تيمور حتى يظهر ويوجز لهم مجريات الأحداث.

بعد انتظار طويل دخل تيمور إلى داخل مربض المدفع وأدى التحية وهو ما زال جالساً في سرجه - وفي هذا العمل مخالفة لقواعد التصرف قصد منها الإيحاء إلى أنه يحمل أنباء في غاية الإلحاح والأهمية.

"إن اللاجئين مستمرين في المرور يا سيدي. لقد تلقينا أوامر بالاستمرار في مرافقتهم باتجاه الجنوب" قال أصلان بجلافة "حسن! يجب علي أن أقدم تقريراً إلى قيادة اللواء بأن هذا الأمر قد تم تنفيذه بنجاح! توقف عن إطلاق النار أيها القائد، حتى يكمل هذا الطابور عبوره بالتمام، ومرر هذا الأمر إلى المربض الآخر- هل تفهم؟"

"نعم، سيدي" قال الضابط المشدوه. كان الملل قد أدى إلى خبو ذكائه... استدار ومشى نحو كوخه ليرسل الأمر.

نزل أصلان وتيمور مسرعين عن الجبل وعادا للانضمام إلى الشراكسة. بدأوا يحملون الأطفال، المرضى، الضعفاء، بالتناوب، كما فعلوا قبلاً في سنجق نوفي بازار، لزيادة سرعة حركة الصف إلى الأمام. ركضت الأمهات خلف الجياد، صائحات: زعق الأطفال احتجاجاً على فصلهم عن أمهاتهم. أخذ الوضع النفسي للصف الشركسي يتحول إلى الإرهاق، الهيجان - سقط رجل مسن إلى جانب الطريق، ممسكاً صدره بقوة. جرى تسوك نحوه ليسعفه، لكن موت الرجل السريع، جاء رحمة له وللبقية.

صاح فيه أصلان "اتركه! إنك تخاطر بحياة الكثيرين، لأجل جثة رجل واحد!"

انتزع أقارب الميت وهم يصرخون عن جانبه. ركض كمال وحمزه عائدين للسيطرة على النسوة، اللاتي كن أصلاً ضمن مجموعتهما.

وهكذا استمرت المجموعة في التحرك قدماً، في كابوس مظلم الخوف، من صرخاتهم، وحتى همساتهم، تتجاوب أصداؤها عن الصخر القاتم المحدق بهم من الجبل الأسود الذي ما برح يضغط

عليهم. أحسّ الشراكسة وكأنهم يسيرون داخل نفق من اليأس، بدون أمل، ولا ضوء عند نهايته. لم تعد ماجده معهم. أدرك الجميع، في خضم اهتمامهم بأقاربهم، بأطفالهم ومسنيهم، أدركوا حتى آخر فرد منهم أنها لن تعود أبداً لرعايتهم مرة أخرى.

انطلق الخبر في طول الصف مثل تيار منقط من الماء المثلج، مجمداً أرواح الناس أثناء انتشاره. همس الشراكسة لبعضهم "أين هي؟ هل رأيتموها؟ انظر خلفك- هناك! لا- انظر إلى أصلان، إنه وحده في المقدمة!"

كان تيمور هو الذي أفضى إليهم بالنبأ في النهاية عندما طلبت منه حليمه أن يخبرها بالحقيقة. قال بصوت متكسر تخنقه العبرات والتأثر "لقد توفيت ماجده. ماتت وهي تعمل على إنقاذنا كلنا."

***

الفصل الرابع عشر

سار اللاجئون عبر أراضي ريفية وعرة باتجاه بلدة بودجو ريتزا الجبلية. كانت التضاريس التي عبروها تبدو وكأنها مصممة لتعكس عذاباتهم الذهنية. أصبح الوضع كما لو أن الأرض نفسها قد انفجرت في ثوران بركاني: فقد لبست مظهر الفوضى المسيطر عليها. كانت الصخور الكبيرة ملقاة ذات اليمين وذات اليسار: نمت الأشجار في اتجاه يكاد يكون أفقياً صاعدة من نتف من التربة المحشورة بين طبقات الصخور. لم يتمكن الشراكسة من إتمام هذه الرحلة إلا بأسلوب التعربش، والتعارك، بل والانزلاق صعوداً ونزولاً عند كل عقبة، متصارعين مع الطبيعة التي يعبرونها نفسها.

وقع بينهم العديد من الإصابات. كانت الأولى والدة حسن، تلك المرأة العجوز الشفافة المرتعشة التي تحملت قدراً هائلاً من المعاناة وحملت مئات الأميال. أصبحت رمزاً للقدرة على البقاء حية للمجموعة كلها. لم يخبرها أحد بموت ماجده، لكن المرأة العجوز استكنهت الأمر، وبحلول صباح اليوم التالي لبدء المسير، انسابت نحو الموت هي الأخرى.

غمر الحزن ساكنات وباقي نساء عائلة حسن حتى سيطر عليهن. وأضاف البكاء المتقطع وانهيار هاته النسوة الشجاعات خلال النهار مزيداً من العبء إلى الإرهاق العصبي الذي يحسه كل شخص منهم. بدأ أصلان يشعر بأن المهمة تكاد تقترب من المستحيل. فإن المجموعة كلها تكاد تنتهي كل مواردها. وصارت نهاية هذه الرحلة - عند ميناء على الساحل، الحصول على سفينة تقلهم عائدين إلى الأمان، بعيداً عن هذه الصراعات البلقانية- أمراً بعيد المنال جداً.

غير أن تيمور وعمر كانا يشعران بالتيه والفخار من نجاح مهمتهما في خداع الأتراك والمرور من تحت المدفعين الضخمين. عادا إلى واجبهما السابق في الركوب أمام الجمع في واجبات استكشاف، للعودة بالأنباء المشجعة التي يتمكنان من العثور عليها، لإبقاء الشراكسة في حالة تحرك.

في النهاية وصل تيمور إلى نهر عريض، يجري عبر أراض مستوية واقعة تحت شرفات من الصخور ذات الطبقات المتعددة. كان لون هذا المجرى غير عادي – فهو لون أخضر يفيض بالحيوية، مختلفاً عن مجرى أي نهر شاهده قبلاً. ركب عائداً إلى أصلان بسرعة، ليخبره عما شاهده.

تفحص أصلان الخارطة التي أخذها من مكتب القائد التركي.

قال بعد فترة "إننا نحرز تقدماً. أعتقد أن ذلك النهر لا بد وأن يكون الموراشا. سوف ندخل إلى الوادي المؤدي إلى الساحل – ولكن قبل ذلك يجب أن نعبر بحيرة، هنا؟ هل تراها؟ إنها تدعى سكوتاري. توقف عن الكلام، وقد داهمه القلق.

رأى تيمور الإرهاق، الخطوط العميقة الداكنة التي تحفر في وجه أصلان. فمنذ وفاة ماجده، أصبح واضحاً أن قدرة أصلان على الابتكار تحتاج إلى جهد هائل لإخراجها إلى السطح، أكثر من كونها قد استهلكت – وكأنها مياه داخل بئر عميق جداً.

توجب عليهم التحلي بمقدار عظيم من الصبر، بينما جلس أصلان هادئاً يتعامل مع مستويات مختلفة من اليأس، الحزن، الغضب والمرارة، قبل أن يتمكن من استحداث خطة ما، تكون إيجابية وقابلة للفهم.

في نهاية المطاف، قال: "تيمور، ادخل أنت وعمر بلدة بودجوريتزا، واستطلعا ما يجري. خذا معكما أي شيء تبقى معنا مما يمكن بيعه– بعض السيوف، بعض المجوهرات– أي شيء يعطيك إياه الناس– وعودا إلينا بالطعام! لا يمكن لشابين مثلكما

يرتديان ثياب الفلاحين أن يثيرا الارتياب أو الذعر. حاولا أن تعثرا على أفضل طريق يمكننا أن نسلكها للوصول إلى الساحل. سوف نستريح نحن هنا."

"هنا" كان بقعة غريبة تضيئها الشمس في فسحة داخل حرش من أشجار الزان، حيث كان معظم الشراكسة راقدين على الأرض، نائمين أو صامتين. كانت هناك بضعة نيران قد أشعلت فوق الصخور العارية التي برزت بين أجمات الأشجار - عارية وقد صقلتها الريح إلى درجة أنها بدت مثل مسطحات بيضاء، مواقع تعبُّد لبعض المتعبدين المغرقين في القدم والبدائية.

في هذه اللحظة، لم يكن تأثير الموقع على أصلان أكثر من إعادة تمثيل لصورة حيوية عن قدسية الحياة. فقد كان هؤلاء الناس يتعلقون بوجودهم بأظافرهم. قابضين على التراب، باكين، هامسين لها بصلواتهم، يجب أن يجيء الفرح بسرعة.

فقد مشوا لمدة ثلاثة أيام، بدون أي طعام تقريباً.

بدأ كمال، حمزة، تسوك، حليمة، ساكنات - وكل الرجال والنساء القادرين البحث عما يمكن أكله في الأحراش المحيطة مثل الأعشاب، التوت البري، الفطر، أي شيء يمكن أن يقيم أود الناس إلى أن يعود الكشافان حاملين المؤن الأساسية.

على الأقل كان الماء متوفراً، وبكثرة: عثروا على خزان ماء ضخم من صخر الجرانيت في مكان قريب. واضح أنه كان يستخدم من قبال رعاة الأغنام في الجبل الأسود، بالحكم من كثرة وجود بعر الأغنام وروث الحيوانات والأعشاب المقضومة المحيطة به.

كانوا قريبين من مكان مأهول - وهي مخاطرة أخرى.

رقد أصلان في إغماءة من الإرهاق. كانت فترات انعدام النشاط هذه أسوأ الأوقات بالنسبة له. فقد كان يستسلم للحزن الأليم، نتيجة لما شكلته وفاة ماجده من خسارة لم يكن قادراً على احتمالها.

فهو لن يحتضنها مرة أخرى، أبداً، وبينما كانت تلك الفكرة تتبلور في ذهنه، كانت كل ذرة في كيانه تخضع لتشنجات لا إرادية من الألم الممض. لحسن حظه كان الإرهاق ينقذه بأن يغرقه في نوم النسيان.

سقط ظل على وجهه. كان هذا تيمور، وقد عاد في وقت أبكر مما كان متوقعا.

همس الشاب له "أصلان، لقد تلقى الأتراك هزيمة نكراء. لقد خسروا الحرب – إنهم يطالبون الروس بالسلام! لقد وقع قتال شرس على الشاطئ أيضاً – ولكن الظاهر أن بعض الموانئ لا تزال تحت سيطرة الأتراك. وعليه فإن وثيقة المرور الآمن التي بحوزتنا ربما تنفعنا. إذا استطعنا أن نصل إلى الميناء الملائم."

راقب أصلان وجه الشاب بدون أي تعاطف.

"حسن. تلك أخبار طيبة. ما الذي يقلقك أيها الفتى؟"

اكفهر وجه تيمور "على طريق عودتنا إلى هنا، عمر وأنا، اعترضتنا عصابة من الأتراك. لا أستطيع الجزم إن كانوا قطاع طرق "هايدوت" أو لصوصاً أو ثوار. لقد أخذوا كل النقود التي بقيت معنا. أنا آسف. إنها الفوضى الشاملة يا أصلان. فبعد هزيمة الجيش، وانتهاء الحرب، أصبح كل رجل يعمل لصالحه."

"لقد لمسنا ذلك ورأيناه في الحامية. استمر في كلامك." طوى أصلان ذراعيه على صدره، محاولاً أن يركز تفكيره. فليس الكثير مما يقوله تيمور يشكل أنباءً مستغربة بالنسبة له.

تردد تيمور، وقد ظهرت الجدية وعدم التأكد على وجهه الأسمر فجأة. "الأمر هو، أن هذه العصابة من الرجال: ربما يكونون ستة – لقد رأيت حوالي ستة – لست متأكداً من أنني رأيت جميع الأفراد. إنهم يعيشون في بعض البيوت المدمرة قريباً من هنا. أخشى أنه إذا لم نتعامل معهم، يحتمل أن يهاجمونا– لا شك

عندي أنهم تبعونا أثناء عودتنا إلى هنا، وسوف يراقب هؤلاء الرجال كل حركة نقوم بها. ربما يفكرون- إننا نمتلك أسلحة وذخائر. إنهم قادرون على قتل العديد منا."

"هل تعني أنهم ربما يفكرون بأننا نسافر حاملين الأموال والأشياء الثمينة؟"

"نعم، أعني أنه حتى حفنة من الرجال قادرة على مهاجمتنا خلال الليل. إننا مكشوفون جداً هنا."

تلفت أصلان حواليه على المجموعة المرهقة من الشراكسة، بعضهم راقد بلا حراك، وبعضهم الآخر يوقد النار لطبخ طحين الذرة الذي ابتاعه تيمور، بينما آخرون يعتنون بأقاربهم المرضى. لا تمنحهم التضاريس الطبيعية هنا أية حماية أو مخبأ آمن.

لم تكن توجد أية "دائرة" جبلية هنا. أخذ يفكر في بدائله من وجهة نظر عسكرية، مرهقاً.

"حسناً، نحن حتماً لا نستطيع أن نكسب أية مواجهة مع هؤلاء العصاة. إن ذخيرتنا تكاد تنفذ. هل تستطيع أن ترشدني إلى مخبأهم؟"

نهض تيمور واقفاً "نعم سيدي!" ثم توقف وفكر مرة أخرى. "ربما إذا اكتفينا بالانتظار، ربما سيغادرون المنطقة بأنفسهم. إنهم تواقون للذهاب إلى الساحل أيضاً. فقد قالوا أن تلك هي وجهتهم – للصعود إلى سفينة ما".

ابتسم أصلان وهز رأسه "اسمع يا تيمور، ليس هناك من فارق كبير سواء كانوا ثواراً سياسيين، مجرمين، أو فارين من الخدمة العسكرية، لأن الواضح أنهم خارجون على القانون. ليس لديهم أي شيء يفقدونه: فالنهب، السرقة، والقتل، كلها سيان بالنسبة لهم. إذا فكروا بأنه توجد أية فرصة مهما صغرت للحصول على المال أو الذهب أو أي شيء له قيمة منا، فلن يترددوا مطلقاً."

ظهر على تيمور عدم الارتياح، تضارب الأفكار، ومع ذلك لم يكن قادراً على التعبير عن رأيه:

"إنني أرى المشكلة يا سيدي."

استمر أصلان في طرح رأيه. "إضافة إلى ذلك، نحن مضطرون إلى التحرك نحو الشاطئ. ليس لدينا ما نأكله هنا غير ما ندفع ثمنه. إن النقود تكاد تنفذ منا. كل يوم نتأخر فيه، يؤدي إلى إصابة قومنا بمزيد من الوهن."

تردد تيمور مرة أخرى "سيدي، اسمح لي بـــ–"

وضع أصلان يداً على ذراعه "ما الأمر، يا تيمور؟"

احمر وجه الشاب بشدة "الأمر هو، يا سيدي، هو أنك – أنك لست بصحة جيدة سيدي. أنت بحاجة إلى أن تهون على نفسك بعض الشيء!"

تأثر أصلان بعمق "أشكرك أيها الملازم. إنني أفهم ما تحاول أن تقوله. أنت تعجب مما إذا كنت قادراً على اتخاذ القرارات، ومما إذا كان حزني يؤثر على حكمي على الأمور. ذلك تفكير شجاع وحكيم من طرفك."

غامت عينا تيمور بالدموع. أراح أصلان ذراعه على كتفي صديقه لفترة وجيزة. "أنا معجب بك. إن مخاطبة ضابط أعلى رتبة كما فعلت تتطلب شجاعة. ولكن، لا تقلق علي، يا تيمور، فأنا بخير: أقول لك، أنا لدي غاية واحدة. سوف أنقذ هؤلاء الناس. ذلك ما قد تريد ماجده أن أفعله، وأقسم لك بالله، إنني سأنجح في ذلك، ولن توقفني عصبة من المجرمين التافهين في هذا الوقت."

تشجع تيمور لدى سماعه النبرات المتهدجة في صوت قائده تعود لتنقذ الموقف مرة أخرى. أحضرت فرس أصلان إليه مسرجة وجاهزة.

كانت الفرس البلغارية الجميلة ذات اللون الكميت في حالة مزرية محزنة، وقد برزت أضلاعها، ووبرها قاتماً ومغبراً. لكنها تعوَّدت بحلول هذا الوقت على مهارات أصلان الفائقة في الفروسية ولم تعد بحاجة إلا إلى أقل طقطقة من لسانه، أو أقل حركة من كعبيه، لتنفذ أوامره. قاد تيمور الطريق نحو مخيم اللصوص. كانت رحلتهما بطيئة ومؤلمة، عبر تضاريس طبيعية وعرة، متوجهة نحو الجنوب.

بعد لأي اقترب أصلان ودليله من الصخور ذات اللون الأزرق التي بدت وكأنها بيوت طبيعية - أشكال ذات زوايا مائلة إلى الأسفل، مثل البيوت المصنوعة من ورق اللعب، إلا أنها مبنية من الصخور المنفلقة. إلى الجنوب من هذا المكان الصخري، ومن خلال فتحة بين الجبال، استطاع أصلان أن يحظى بلمحة من المياه التي تغذي بحيرة سكوتاري إذ تصب فيها - كتلة جيلاتينية هائلة، تحتوي على الطين والطمي أكثر من المياه، خضراء كبركة خيل، وبنفس قذارتها. برزت عند مدخل البحيرة قمم الجزر الصغيرة المثلثة، مثل حطام السفن أو ما يطرح منها، انغرز في هذا الحساء الوسخ من بقايا الخضروات الفاسدة.

قفز تيمور مترجلاً عن فرسه وربطها إلى شجيرة شوكية. أشار إلى أصلان لكي يزحف إلى الأمام قريباً منه، حيث برزت مجموعة من الصخور وكأنما كان هناك وحش أرضي يحفر أنفاقاً خلال الصخر الجرانيتي في الأسفل. هذا هو مخبأ الأتراك. استطاع أصلان من خلال منظاره الميداني أن يرى أن الأتراك كانوا في حالة قميئة - غير مغتسلين وبعيون منهكة جراء العديد من الإغارات على المستوطنات القريبة التي لم يغنموا منها سوى العرق والطعام الرخيص.

فالظاهر أن فلاحي الجبل الأسود كانوا بارعين في إخفاء أي شيء ذي قيمة عن المجرمين أمثال هؤلاء، كما ظن أنهم لمرة أو اثنتين، أعطوا مثلما أخذوا وحصلوا عليه. فقد علق أحدهم ذراعه

في جبيرة إلى رقبته: وعصب آخر عينه وصدغه برباط شرير المنظر.

"حسناً يا تيمور. إبق أنت هنا. إنني داخل لوحدي."

"سيدي!" أصيب تيمور بذعر رهيب.

"سوف تنفذ ما أقوله. إذا أصابني أي ضرر، يتعين علي أن أترك شخصاً قوياً ولائقاً مسؤولاً عن قومنا. أنت القائد الطبيعي، إذا وقع أي مكروه. والآن نفذ ما أقوله."

لم يبق لدى تيمور أي خيار غير الإطاعة.

أمره أصلان "انتظر حتى مغيب الشمس. بعد ذلك توجه إلى موقعنا بدوني واتخذ قراراتك الخاصة بعد المشاورة."

"نعم سيدي."

ابتسم أصلان بمرح. دهش تيمور من هدوء أعصاب الرجل. رفعت الفرس الكميت رأسها حين امتطاها سيدها وانطلق بها في خطوة مسير ثابتة. بقي المنظار الميداني مع تيمور حتى يتمكن من مراقبة ما يحدث من مكان مراقبته المشرف.

ركب أصلان رأساً إلى قلب مخيم اللصوص وهو يلوح بمنديل أبيض فوق رأسه. أدرك أنه بطريقة أو بأخرى "مقبوض عليه" – فهو لن يخرج من هذا الموقف ما لم يكونوا راغبين في تركه يذهب. لم يطلقوا عليه النار. مما يعني أنهم كانوا جنوداً.

ترجل متمهلاً حتى لا يعطيهم أي سبب لأن يتصرفوا بعدائية. ما رآه تيمور كتهديد من جانب هؤلاء العصاة، عرف فيه أصلان قناعاً ليأسهم. لقد حولت الحرب هؤلاء الرجال إلى قتلة: فهم يقاتلون الآن من أجل الحفاظ على حياتهم، مع وجود مرارة الاستسلام التي تطاردهم بشكل حثيث. ولكن بقيت لديهم بعض معايير الشرف: فهم لم يطلقوا النار على رجل خيال يلوح بعلم

أبيض، خاصة شخص يرتدي زي عقيد تركي. فهو لا يريد سوى التحدث. سأل أصلان "من هو قائدكم؟" عندما اقترب منه شخص، رث الهيئة يحمل بندقية جاهزة للإطلاق وقد عصب إحدى عينيه برباط مشبع بالدم.

زمجر الرجل قائلاً "نحن سواسية هنا. ليس لدينا أي من مسائل الضباط والرتب الحقيرة. من أنت بحق الجحيم، وما الذي تريده منا؟"

"مجرد طلب النصيحة منكم، أيها الصديق"

بصق الرجل بقوة "أنا لست صديقك"

"حسناً. دعني أصوغ الأمر بهذه الطريقة. أنا لست عدوك."

تفحصه الرجل بكراهية وكأنه مارد سايكلوبس ذو العين الواحدة لهنيهة طويلة. شاهد الندبة فوق عين أصلان، وقفته الصحيحة، والعدة الجلدية الفاخرة لجواده.

"حسناً. فهمت قصدك. أنت فار من الخدمة أيضاً! ومن سلاح الفرسان، كما يظهر على ذاك الحيوان."

"ذلك صحيح."

"تعال إلى هنا. يجب أن يسمع رفيقي أدهم هذا الموضوع أيضاً."

كان واضحاً أن أدهم هو الرجل المسؤول. وهو رجل ضخم الجثة بذراعين قصيرتين في منتهى القوة، وكرش هائل، ويحمل في حزامه مجموعة سكاكين وخناجر تجمد الدم في العروق، بشرته صفراء واهنة ودبقة من التعرق، ربما هي نتيجة نوبات من الحمى العائدة، تجيء وتروح، لكنها لا تغادره أبداً. دلّت عيناه الصغيرتان، القريبتان من بعضهما على ذكاء قاس ومخطط.

قرفص أدهم وأصلان إلى جانب النار. ومع أن الوقت كان منتصف ما بعد الظهيرة، والنور ما زال منتشراً، إلا أن حرارة النار ذكرته بمقدار البرد الذي ينخر عظامه والجوع الذي يكاد يهلكه. أخذ يرتعش بلا سيطرة.

"طعام. ذلك هو ما تحتاجه، أيها العقيد. أمين!"

دفع صديق أدهم، الذي لم يكن قد عرَّف بنفسه، بطبق سيء الرائحة من الملفوف والفاصولياء المسلوقة باتجاه أصلان. التهم أصلان الطعام بلقيمات سريعة، وبدون مراعاة آداب المائدة، بينما الآخرين يراقبونه.

أخذ يحصيهم: لقد كاد تيمور أن يكون مصيباً. فهم يبلغون السبعة في الم•جموع. بنادق أكثر مما يستطيع أصدقاؤه الشراكسة صدها.

شعر أصلان بالرغبة في التقيؤ للحظات. فهو لم يأكل بهذا القدر منذ عدة أيام.

أدار برأسه إلى جانب،وهو يظن أنه سيتقيأ. لكن أدهم ألقى إليه بمطرة ماء، فاستطاع، بعد بضع جرعات، أن يحافظ على وجبته.

قال أدهم، ساخراً "هل أنت بحال أفضل الآن؟ أظن أنك مع هذين الفارسين الناحلين اللذين أوقفناهما صبيحة هذا اليوم. لقد تركتهم يذهبون لطيبة قلبي. أترى؟ أنا لست ذلك المجرم الشرير."

تسبب الضحك الخالي من المرح الذي تبع هذه الملاحظة في جعل معدة أصلان تتقلب. فهي ضحكة نوعية من الرجال الذين كانوا شهوداً لمرات عديدة على"الأعمال الحانية" لهذا الرجل المجرم.

قال أصلان "اسمع، سوف أخبرك بالحقيقة كاملة، لدي مجموعة من اللاجئين تحت عهدتي. إنهم جميعاً نساء عواجيز،

رجال مرضى، وأطفال. ليس لدينا أية نقود - يمكنك أن ترى، أنا لم أذق الطعام منذ عدة أيام. فهل ستسمح لنا بالمرور في أمان؟"

"إلى أين؟" تكلم أدهم بصوت خفيض مصمم للأحاديث الشائنة المتبادلة في الليل البهيم.

أجابه أصلان بهدوء "لقد كنت أفكر أنك ربما تخبرني بذلك بنفسك"

"أوه هو! إذن أنت تريد مني النصيحة! حسناً سوف تكلفك المعلومات كثيراً، أيها السيد. إن ما أعرفه قيِّم جداً." أخرج أدهم سكين صيد ذات حد مسنن قاتل ومشى بإصبعه فوق النصل كأنه خبير بكل أساليب بقر البطون. كانت بادرة مبالغ فيها إلى حد أنها يمكن أن تكون نكتة لو اختلفت الظروف - لكن أدهم، مثله كمثل أي شخص فقد كل إحساس بالشرف واللياقة، فقد أيضاً كل إحساس بالتناسب.

كان أصلان جاهزاً لمثل هذا التصرف. ألقى "بالقاما" التي يملكها على الأرض التي شوتها النار. "إنها من الفضة الخالصة. وهي لك. يمكنك أن تقتلني- ولكنني قادر على أن أكون مفيداً لك. خذ هذه القاما، ودعنا نتفاوض على الأقل."

أعجب أدهم بهذه البادرة. أما "القاما"، وهي الخنجر الشركسي الثمين، فقد اختطفت على الفور.

استطرد أصلان "إن اسمي هو أصلان بك، وأنا شركسي، وفار من القوات العثمانية، وأنا أظنك فاراً أنت الآخر. لقد تركت سلاح الفرسان التركي لكي أساعد في إنقاذ البعض من قومي الذين اضطهدوا في كل من بلغاريا وصربيا. إنهم لاجئون. نحن نحاول أن نصل إلى الساحل. أعتقد أنكم تفعلون نفس الشيء. إلى أين أنتم متجهون؟ ذلك كل ما أسألكم إياه."

تأثر أدهم بهذا التصريح إلى حد بعيد. فقد صدق حدسه، بأن هذا الغريب الذي يتضور جوعاً هو شخصية مهمة لكنه لم يكن يتوقع أن يعثر على غنيمة بمثل هذا الحجم تماماً......

"حسناً، يا لمحاسن الصدف..." ومال إلى الأمام. لم يكن قد بقي لدى أصلان أي إحساس بالقرف في هذا الوقت. لذلك لم يشمئز ويتراجع. لأن من المهم معاملة هذا الرجل على أساس أنه "رفيق سلاح" واقع في نفس المأزق الذي تردى هو فيه. وعليه فقد مال هو بدوره إلى الأمام، على الرغم من الرائحة النتنة الرهيبة التي احتوته عند اقترابه من أدهم.

قال أدهم بنوع من الانتصار "ربما تكون مفيداً فعلاً. ولكنك إذا أخذتني إلى مكيدة أو فخ – فإنني أعدك أيها العقيد، بأن أحد رجالي سوف يعثر عليك ولن يبق لديك أي شكل من أشكال الحياة بعد أن ينتهي منك. إن لدى أمين هنا، على سبيل المثال، مزاج في غاية العصبية، فهو سريع الغضب...."

"لن أغرر بك. لأن ذلك لن يكون في صالحي ولن يساعد أحداً ممن هم تحت رعايتي". قال أصلان.

"فعلاً. ذلك أمر صحيح جداً. الأمر هو هكذا أترى..." كانت رائحة أدهم العفنة تسبب لأصلان الدوخة وتقربه من الإغماء لكنه تحملها.

"لدينا – لنقل– أنه استثمار ضخم في مستقبلنا، في حوزتنا الآن." قال أدهم. "ونحن متجهون إلى سبيك. إنها ما تزال في أيدي الأتراك. لكن الحاكم العسكري هناك وغد صغير بكل معاني الكلمة. إنه فاسد إلى درجة أنه لا يكاد شيء يدخل أو يخرج من الميناء إلا ويتقاضى عليه نسبة مئوية سواء كان قانونياً، غير قانوني، عسكري، مدني، أو مهرب!"

"هل هو ضابط تركي؟ عثماني؟"

"نعم – ومن أسوأ الأنواع. لقد رأيت أمثاله من هذا الطراز عدة مرات من قبل عندما كنت جندياً. النقطة المهمة هي، أن بقية الساحل كله تقريباً تحت سيطرة رجال الجبل الأسود، ويستحيل علينا أن نتجاوز هؤلاء المجانين."

"افهم ذلك".

"يمكنك أن تحاول ذلك، لكنهم في حالة فوران، ولسوف يضعون الأصفاد في يديك إذا اكتشفوا أنك "مسلمان"– وفوق ذلك، ضابط تركي."

"ينطبق نفس الشيء على رجالك...."

"تماماً." أحب أدهم أن تتم مخاطبته على أنه "رفيق سلاح" وزميل. استأنف بقوله "لا، إنه سبيك. لا بد من أن يكون سبيك. لكنه مراوغ ماكر، هذا الحاكم، قلما شاهدت رجلاً قادراً على تغطية آثاره وتحقيق ربح هائل مثل ها الرجل. كان في سلاح الفرسان فيما مضى، لكنه فقد ذراعه. الذراع اليسرى – لكن ذلك لا يوقف ذراعه اليمنى عن جمع كل رشوة... السافل...."

"هل هو من سلاح الفرسان؟"

"إيه... اسمه.. أتا – شيء ما... هيا أيها الشباب... ما هو اسمه.... أمين!"

لكن أمين كان منشغلاً في وضع الرباط وإزالته عن عينه ثم بمسح القذى والقيح عن عينه، حتى يزعج نفسه بالإجابة.

في تلك اللحظة أدرك أصلان الحقيقة: إنه القدر. "هل يمكن أن يكون اسمه العقيد أورهان أتاكوي؟"

"نعم، ذلك هو! هل تعرفه؟" تحولت عينا أدهم إلى كرتين زجاجيتين لشدة تحديقه القاتل. لأنه بالنسبة له، فإن هذا تطور في غاية الأهمية وإثارة الاهتمام.

"آه نعم" ابتسم أصلان في مرارة. "إنني أعرف الحاكم معرفة وثيقة. إذا كان هو حقاً نفس الرجل. إنني أجد صعوبة في تصديق الأمر."

"هل يمكنك أن تعقد اتفاقية معه، في هذه الحالة؟"

جلس أصلان ساكناً تماماً بينما كان تضارب أفكاره يحجب المنطق. شعر بالذهول، وكأنما قد أصابته يد القدر مباشرة.

كرر القول "أعقد اتفاقية؟"

"في الواقع أن هذا الأتاكوي قد يأمر بقتلنا جميعاً إذا تكونت لديه أية فكرة عن حجم –"

"الغنيمة."

"إيه، يمكنك أن تقول ذلك. انظر، نحن راغبون في إعطائه بعضاً منها مقابل تنظيم الأمور لصالحنا. لكن سمعته سيئة وسوف يحاول أن يستولي عليها كلها. إذا كنت تستطيع أن تساوم نيابة عنا، فربما تؤدي لنا جميعاً خدمة جلى". داعب أدهم "القاما" بأصابعه، ليذكر أصلان بأن هذه المحادثة "السرية" يستحسن أن تبقى محصورة بين شخصيهما بالتحديد.

تدخل أمين ذو الوجه المجدور، صديق أدهم "لحظة، انتظر دقيقة يا أدهم، هل أنت واثق من أنه يجدر بك أن تخبر هذا الغريب كل هذا؟ كيف لنا أن نعرف أنه فار من الخدمة حقيقة....؟"

اقترب الرجال الخمسة الآخرون وتحلقوا حول النار. كان الضياء قد بدأ يخبو. شعر أصلان بالتوتر: فهؤلاء المجرمون عصاة وقد يقرر واحد منهم في أية لحظة أن أصلان لا يستحق المخاطرة. عبرته موجة من الإرهاق. ربما يجدر به أن يتخلى عن المحاولة – يتركهم يقتلونه. ماجده، ماجده......

دفعه أدهم في صدره بمقبض القاما. "إليك، أفق يا هذا. هل أنت مريض؟ نحن لا نرغب في المزيد من إصابات الحمى هنا...."

"كلا، لست مريضاً." أيقظ أصلان نفسه من بلادة اليأس التي استحوذت عليه.

"اسمع، سأبرم معك صفقة. أنت تعرف الطريق إلى سبيك. إذا أرشدتنا إلى سبيل النزول إلى الشاطئ. فسأذهب معك لمقابلة هذا العقيد. لا أستطيع أن أعدك بأنه نفس الرجل الذي أعرفه، إذ ربما عرّفنا الرجل بطريقة خاطئة. ولكن إذا كان هو أورهان أتاكوي – إذا كان هو حقيقة– وقتها أعتقد بوجود إمكانية صغيرة لأن أتمكن من التفاوض على عبور آمن لكم جميعاً مع قومي.

أقعى أدهم إلى الوراء على كعبيه، وسدد القاما نحو أصلان.

"أنت لديك مستمسك على ذلك اللص المنحرف. فهل أنا مصيب أم مخطئ؟"

جاء رد أصلان جلفاً "ذلك شأني أنا."

كشف أدهم عن أسنانه العفنة البشعة – منظر كريه في شراسته مثل بشاعة مياه بحيرة سكوتاري الخضراء.

"أنت لديك ميزة، أيها العقيد. أنا يعجبني الرجل ذو الميزة. أرجو فقط أن تتمكن من توظيفها، لأنك إذا أخفقت، فكل واحد منا قادر على أن يقتل عدداً لا بأس به من قومك. ستة أشخاص لكل واحد منا لا تتمكن من إخراجه......"

نهض أصلان واقفاً "لا أستطيع أن أقطع بوعد. فأنا قادر فقط على أن أقدم أفضل جهودي."

بسط أدهم قامته بدوره "ذلك صحيح أيها العقيد – ذلك موقف إيجابي. والآن، دعونا نتوصل إلى خطة حول التعامل مع هذا الأمر بدقة..."

أخذت المياه تحوم حول قاعدة ال "لوندراس": قارب الإبحار ذو الغاطس قليل العمق، والقاعدة العريضة الذي يستعمل في العادة لأعمال المتاجرة عبر بحيرة سكوتاري، والذي أخذ يئن تحت ثقل اللاجئين المتكومين فوقه. كان لهذه السفن صواري طويلة رشيقة، شراع رئيس وشكل من الأشرعة المثلثة، ولكن عندما تهدأ الريح، كما حدث الآن، فإن طاقم البحارة يضطرون إلى التجديف لدفع القوارب قدماً بصعوبة بالغة عبر مياه البحيرة المحملة بالقاذورات، بينما كل شيء في السفينة يصدر صريراً: الصواري. المجاذيف، والعظام التي تشكل ظهورهم.

كانت ليلة حالكة السواد: والسفن مغطاة بشوادر يابسة لإبعاد ضباب البحيرة الدبق المرطب. بذل اللاجئون الشراكسة، والبالغ عددهم حوالي عشرين شخصاً لكل "لوندرا"، أقصى جهودهم حتى لا يصرخوا من الرعب والألم خلال هذه المحنة المشحونة بالمخاطر. فقد كان يجري نقلهم عبر الجهة الجنوبية لبحيرة سكوتاري – على مسافة قريبة من الشاطئ وميناء سبيك، وهي رحلة تستغرق حوالي أربع إلى خمس ساعات.

لقد تم إنجاز صفقة عملية النقل هذه بكاملها في الأكواخ السوداء الواقعة ضمن مساكن صيادي الأسماك في المنطقة الخاضعة للحكم التركي من البحيرة، والمحاذي للحدود مع المناطق الألبانية. كان أدهم قد أدى واجبه، وأرشد أصلان إلى ناقل على البحيرة يمتلك (أو يمكنه أن يستأجر) عدة مراكب صدئة مهترئة. ويمخر بها عبر البحيرة في متاجرة مربحة بالمواد غير القانونية- البنادق، غنائم الحرب، الناس – إلى جانب تصدير البضائع ذات الصبغة الرسمية مثل السمك المجفف وحشيشة الحمى المبيدة للحشرات. وكان هذان الصنفان من البضائع ذوا رائحة في منتهى البشاعة، بالحكم على الجو المحيط بأكواخ البحارة وسفنهم.

ضمن الشراكسة المنتحبين بصمت في أحشاء "اللوندرا" الثلاثة، تعلقت رسميه بابنها، إسماعيل، في محاولة لكبت نوبة

السعال التي اجتاحته. لأن أجواء بحيرة سكوتاري الرطبة ذات الهواء الفاسد لم تكن تلائمه.

جلست حليمه بمحاذاتهما، وهي تمسح الدموع عن عيني رسميه بيدين خشنتين.

قالت مشجعة "لقد وصلنا إلى هذا الحد. لا تستسلمي، يا رسميه. فكري بماجده. إنها لن تكون راغبة في أن نفقد الأمل – خاصة ونحن قد اقتربنا من غايتنا."

عندما سمعت رسميه باسم ماجده يذكر، بدأت تنتحب. كانت ترتجف هي الأخرى. فقد أصبحت ثيابها التي كانت فيما مضى أنيقة ومخيطة بغرز راقية، أسمالاً بالية، وامتلأ شالها بالثقوب: أضحى مستحيلاً عليها أن تبقى مغطاة ومحمية من هواء الليل الشديد البرودة. لكنها استمرت في النحيب.

حاولت أن تسيطر على نفسها، لكنها لم تستطع. "يا حليمه، إنني أكره هذه القوارب، فهي تذكرني بوقت مجيئنا إلى بلغاريا، عندما أجبرنا الجنود على الإبحار أعلى النهر على تلك المراكب الرهيبة...."

نسيت ماجده في هذه اللحظات وأخذت تبكي جراء ذلك البؤس القديم.

غطت حليمه وجهها هي الأخرى. "لا تفعلي، يا رسمية لقد كان ذلك كابوساً..."

"وهذا هو الآخر كابوس!"

كان الناس من حولهم يئنون، وقد تيبس بعضهم ومرض من انعدام الهواء النقي. فقد كان المركب قد حمل لتوه إحدى حمولاته ذات الرائحة النتنة بشكل خاص فكان الهواء محملاً برائحة عفونة نفاذة رهيبة: وكانت هذه الرائحة آتية من "السكورانزه": السمك

الفضي الصغير الحجم الذي يصاد بكميات هائلة ليجفف ويملح ويشحن للتصدير في مثل هذه الهياكل القديمة.

أعادت الرحلة ذكريات مرعبة إلى كثير من الآخرين بالإضافة إلى رسميه. ونتيجة لذلك فقد كان أقل اهتزاز أو تمايل لأي من السفن يجعلهم يعيشون لحظات الرعب والهول القديمة عندما كادوا يغرقون قبل أعوام عديدة – حين انفلتت المراكب من مرابطها، واختفت عائلات بأكملها في اللجة المزبدة لنهر الدانوب.

أما هنا، في بحيرة سكوتاري، فقد كانت البحيرة خطيرة حد الموت بأسلوب آخر. فقد أخفى السطح الأصفر المائل إلى الخضرة مخاطر عديدة: عندما تمكنوا من استخدام الريح لدفع أشرعتهم. فقد كانت الأعشاب الأفعوانية تلتف على دفة السفينة لتوقفهم في القناة الضيقة. فيضطر مشحِّم، وهو أقل البحارة رتبة، للغطس أحياناً من جانب السفينة ويبدأ بتقطيع الأثقال الهائلة من الأعشاب التي التفت على هذا المقود الخشبي. يتنزل الصمت على الجميع بينما هم ينتظرون تقريره بصمت- هل بإمكانهم أن يتحركوا إلى الأمام أم لا.... بعدها كانت تأتي أجنحة طيور البلشون، أو طيور أبو ملعقة أو أي من طيور الماء مرفرفة بأجنحتها الضخمة الشريرة التي حلقت في انزعاج من شواطئها المعتمة البعيدة، ملجأ قطاع الطرق، القراصنة،المهربين وعصابات الجنود المسلحة القادمة من عدة جيوش متخاصمة، لتجفلهم.

في نهاية معاناتهم تلك، وصلوا إلى الجانب الأدرياتيكي من البحيرة –وقد استغرقتهم الرحلة التي تأخذ في العادة أربع إلى خمس ساعات، ثماني ساعات، لأن القبطان ظل يتوقف أما بسبب الأعشاب، أو انعدام الريح، أو حتى لا يمكن قارب الدورية التركي الذي يصادف مروره في الجوار، من سماع طرطشة مجاذيفهم.

قفز أدهم وجلاوزته من القارب أولاً، وراقبوا الجموع البائسة من الشراكسة وهم يتعثرون في سيرهم نحو الشاطئ، على وشك الإغماء.

قال أدهم بقرف "لا أستطيع أن أتخيل لماذا تتعب نفسك" موجهاً كلامه إلى أصلان، الواقف قريباً منه.

"لا، أتخيل أن ليس بإمكانك." أجابه العقيد بهدوء، واستدار مبتعداً.

أنزلت الجياد من فوق ألواح وعوارض خشبية تلتوي وتتقافز تحتها لتقفز في الماء الضحل مذعورة عند طرف الشاطئ.

استسلم اللاجئون للنوم بضع ساعات على الشاطئ المشبع بالرطوبة: أراد أصلان أن يصل إلى الساحل بأسرع وقت ممكن، لكن ثبت أن رحلة المعدية كانت أكثر صعوبة مما تخيل على الإطلاق – ليس فقط من الناحية البدنية، ولكن من حيث الشقاء والرعب الذي سببته لقومه.

بحلول الصباح، تحسنت الروح المعنوية العامة. شعر اللاجئون بأنه قد أنعم عليهم بيوم أكثر دفئاً وإشراقاً من أي يوم خبروه منذ شهور طويلة، وانطلقوا نحو الشاطئ بمعنويات عالية. وكلما ابتعدوا عن شاطئ بحيرة سكوتاري، تنامى شعورهم بالأمان. كانت هذه المنطقة آمنة بالمقارنة مع غيرها من المناطق المتاخمة، على الرغم من أنها غير بعيدة عن الجبهة الساحلية، وهي منطقة زاخرة بالحقول الخصبة وأحراش الأشجار ذات الأوراق المتساقطة التي ترويها الجداول المتعرجة. كان لعلامات الزراعة والرعي المسالمين تأثير مهدئ على الجميع.

كذلك لم تصادفهم أية أعمال عدوانية. فقد كان سكان هذه الأنحاء مختلطين تماماً من حيث الأجناس والأديان: فلاحون ألبان بتنانير سميكة ذات طيات وصديريات سوداء قصيرة، ينتعلون أحذية ذات مقدمات ملتوية إلى الأعلى: تجار أتراك بشراشيب

سوداء سميكة تتدلى من طرابيشهم الحمراء المستديرة المائلة إلى التسطيح، يمرون راكبين عربات محملة، وقد حشروا مسدساتهم في أحزمتهم العريضة: أهل الجبل الأسود، المتميزون بقبعاتهم السوداء المستديرة المسطحة، وأرديتهم الطويلة المحتشمة وشواربهم الخشنة المتدلية إلى أسفل: امرأة مسلمة بين الفينة والأخرى، تركب حماراً، قاصدة السوق بسلال محملة، وقد غطت وجهها بنقاب. بدا جلياً أن جموع اللاجئين تمر من هذه الأنحاء بكثرة: واضح أن وجودهم لا يشكل تهديداً للقوميات الكثيرة الأخرى التي تحاول أن تستمر في حياتها بينما يتقاتل الأباطرة، الملوك، الأمراء والسلاطين للسيطرة على الأقاليم إلى يمينهم وإلى يسارهم.

بينما هم يسيرون مارين من خلال مجموعة سكنية صغيرة، توقفت مجموعة من نساء الجبل الأسود اللاتي كن جالسات يخيطن فوق درجات بيت سكني عالٍ، توقفن رافعات إبرهن في الهواء، وراقبنهم يمرون، بسلبية. فعلى الرغم من افتخارهن بنصرهن، إلا أنهن كن يشعرن بالأسى لمشاهدة مثل هذا المنظر العقابي الرهيب – الأطفال الهزّل المتضورون جوعاً، والمسنون الذين يمشون بصعوبة ويعرجون.

بعد مسيرة ساعات طويلة وصلوا أخيراً إلى المنطقة الساحلية حيث ضواحي ميناء سبيك.

مرة أخرى ظهر تأثير الحرب في إخراج الناس من أوطانها. كل بوصة من هذا اللسان من الأرض الواقعة بين بحيرة سكوتاري والساحل قد أصبحت مسرحاً للتنازع عليها من قبل رجال الجبل الأسود والأتراك ضد مصالح الألمان، الإيطاليين، الألبان، والنمسويين، مما أضاف إلى الفوضى القائمة زيادة كبيرة. تشاور أصلان، تيمور وعمر حول نتف الأخبار التي تلقطوها من المسافرين على الطريق.

لقد تعرض ميناء انتيفاري القريب، وهو مستوطنة جميلة أسستها الإمبراطورية الرومانية، فوق مرتفع من الأرض، محاطة بسور للمدينة يضم في داخله العديد من الجوامع والكنائس، إلى الدمار والتحطيم جراء قصف مدفعي من قبل قوات الجبل الأسود خلال شهر كانون الثاني الفائت: بعد ذلك، سقط ميناء دولسينيو الرئيس: شاركت نساء الجبل الأسود في ذلك الهجوم، كما قيل لهم، فقد حملن القذائف إلى ظهر أسوار تلك المدينة لتلقيم بطاريات مدافع رجالهن.

ثم جاءت الهدنة: نتيجة للاتفاق، نجا ميناء سبيك من الدمار، وبقي هذا الميناء في أيدي الأتراك. مما يفسر وجود الأعداد الهائلة من اللاجئين المحتشدين حول أسوار الميناء، كما يختبئ الأطفال المذعورون في ثنايا تنانير أمهاتهم.

ذهل الشراكسة من مرأى مئات الناس الآخرين في نفس حالتهم. فقد كانت تنشأ مدينة حقيقية ثانية وتتنامى تحت ظل المتاريس العائدة للقرون الوسطى. أسقف خشنة من الأشرعة المصنوعة من الشوادر: طباخات تعمل بالفحم النباتي لطهي المقالي المبهرة، تحركها نسوة سوداوات البشرة في هدوء مستوطن: أطفال يجرون هنا وهناك نصف عراة حاملين آنية فخارية لجلب الماء من الجدول العكر الذي يشكل السبب الوحيد لوجود هذا المخيم الزاخر بالناس: وفي كل جهة، أناس مسنون نائمون، مسنون نائمون على الدوام.

بدافع من استعلائهم الطبيعي على الدهماء، تحرك الشراكسة صوب الأطراف البعيدة لهذه الفوضى. اتخذوا لأنفسهم مقراً بالتوافق المتبادل فوق بقعة حجرية من الأرض أقرب إلى الشاطئ، حيث كانت رائحة عشب البحر حادة نفاذة، لكنها مفضلة من نواحي عديدة على نتانة البراز البشري.

انتهى الشاطئ الرملي إلى صخور سميكة، وفوقها، المتاريس العالية لسور ميناء سبيك نفسه. خلف هذه الأبنية الحجرية التي تبلغ سماكتها مقدار قامة ثلاثة رجال، ارتفعت المباني العالية، الرشيقة، ذات الطراز المعماري القريب من الإيطالي لبيوت التجار، المستودعات، المساكن الرسمية، وكل المعابد، الجوامع، الكاتدرائيات، الكنائس، العائدة للديانات العالمية الأعظم.

كان سكان سبيك، كما هو الحال في جميع الموانئ على الساحل الأدرياتيكي، يعبدون آلهة مختلفة بكل اللغات الأوروبية.

لم يضيع أصلان أي وقت في وضع خطته قيد التنفيذ. فقد كان المفروض أن يركب قدماً مع أدهم إلى مقابلة مع حاكم سبيك العسكري – كائناً من كان. ويفترض في جلاوزة أدهم أن يقفوا حراساً على الشراكسة – فقد أصبحوا، في واقع الأمر، أشبه بالرهائن.

وصل اللاجئون إلى حالة من الإرهاق بحلول هذا الوقت، بحيث ارتفعت صرخة نحيب هائلة لدى رؤية أصلان يرسم الخطط لرحيله. فعل تيمور كل ما بوسعه لفرض الهدوء، منادياً على حليمه وتسوك العجوز لمساعدته.

كان تسوك يحضهم "أرجوكم، أيها الأصدقاء، أرجوكم، لا تستسلموا الآن! سيعود أصلان بك بأخبار عن سفينة ما! لقد كاد الأمر ينتهي، بالنسبة إلينا!" حاولت حليمه أن تخبر النساء بهذا بدورها، ولكن على غير طائل.

كان الحشد يقترب من الهستيريا – فإن مثل هذا الأمر لم يحدث قبلاً: كان أصلان ينوي مغادرتهم ليدخل إلى المدينة نفسها، ليعثر على سفينة. بلدة! أناس آخرين! اجتاحت القوم كلهم، نساءً، رجالاً وأطفالاً، موجة رعب ، من مرأى أصلان محاطاً برجال محرمين لا يمتون إليهم بأية صلة. الأتراك: المجرمون المرتدون المصابون بمرض الأسقربوط، الذين قادوهم إلى هذا الثقب الأسود،

صخرة نتنة شاطئ الجبل الأسود الثائر، حيث ستأكلهم أسراب الناموس وهم أحياء وتتركهم ليتعفنوا ويموتوا. قلة قليلة منهم هي التي أزعجت نفسها بإحضار عيدان الحطب لعمل أغطية مؤقتة للخيام مثلما فعل أبناء الشعب التركي الآخرين. رقد معظمهم على الحجارة، يبكون أو صامتين بعد أن فقدوا الأمل ومعه الطاقة.

حاول أصلان أن يناقش الحشد، متمشياً بينهم، مادًّاً يديه لتطمين الناس والتفاهم معهم، أثناء مشيه بينهم، مادًّاً يده المطمئنة حيثما ذهب.

"إسمع، سوف يتولى تيمور المسؤولية. وحدنا أنا وأدهم سنذهب لمقابلة الحاكم. لسنا اللاجئين الوحيدين – أنا واثق من وجود ترتيبات يجري إعدادها لشحن كل هؤلاء الناس الذين يشبهون وضعنا إلى مناطق آمنة. سأعود قريباً، حاملاً أخباراً طيبة...

نهضت كل من زهرة وساكنات واقفتين بين الحشد. طلب أصلان من أولئك الذين ما زالوا يعترضون التزام الصمت. تقدمت زهرة من أصلان وناولته حزمة صغيرة.

"هذا كل ما بقي لدينا، مجرد بضعة قروش قليلة، يا أصلان بك... لقد كانت تخص زوج ماجده، وقد طلب مني أن أهتم "بصندوق المخاطر" هذا لصالحها. أرجوك، أرجوك أن تأخذه. ربما يساعدنا على الوصول إلى بر الأمان في نهاية المطاف."

كانت تلك إشارة. إذ قامت النسوة بفتق أطراف فساتينهن، وأخرجن قطعاً نقدية، بضع قطع الحلي، أساور من الذهب والفضة مخبأة داخل ملابسهن منذ وقت طويل.

سخر أصلان من هذه العملية. إذ لم يكن المجموع النهائي لهذه القطع كافياً لشراء وجبة واحدة جيدة على الساحل الأدرياتيكي لكل شخص منهم، ناهيك عن توفير سفينة تقلهم إلى السلامة. غبيات – لقد كن كلهن على درجة كبيرة من الغباء.

لكن أصلان قام بجمع التبرعات المغرقة في الصغر، الخواتم، الخرزات، القطع النقدية: أدرك أن هذا الإجراء يعطي الشراكسة إحساساً بالسيطرة على مصيرهم، بالمساهمة، بتقديم التضحية الأخيرة. تأثر بعمق، وشعر بثقل مسؤوليته تجاه هؤلاء الناس يخف حمله. لم يعد حملاً، بل تشريفاً له أن يقودهم جميعاً نحو السلامة.

في هذه الأثناء أسرع أدهم مبتعداً نازلاً نحو الشاطئ، قافزاً من فوق الصخور مثل جرذ ميناء متبوع بتقارب سريع من قبل أتباعه. عندما ابتعدوا عن الأنظار كلياً، أفرغوا رزمهم، آخذين منها بضعة قطع مختارة "لتحفيز شهية" الحاكم. كانت لديهم كمية كبيرة من القطع النقدية الذهبية، الشريفية، والطرة، والزنجيرلي، التي وصل مجموعها إلى ثروة لا يستهان بها. لكن النقود لم تكن ذات فائدة لهم، إذا كانوا سيظلوا هاربين مطلوبين للعدالة...

كذلك كانت لديهم حقائب مليئة بالمجوهرات، الأحجار الكريمة، اللآلئ، حتى بعض الأيقونات المرصعة، كلها مسروقة من مزارع الراياه الغنية التي هرب أصحابها من الوحدات العثمانية الغازية. كانت هذه غنائم حرب من ثلاثة أقطار: بلغاريا، صربيا، وألبانيا: كل ما تبقى من أنماط حياة مترفة سابقة.

قال أصلان "إن الحجارة الكريمة جذابة جداً" بشكل فاجأهم. كان قد لحقهم بحذر شديد، وعلى مسافة، عبر الصخور، ثم وقف فوقهم، واضعاً يديه على خاصرتيه من الجهتين. "ما كنت لآخذ الأيقونات، لو كنت في مكانك، مع أنها ربما تكون أكثر قيمة. إن لدى العقيد أتاكوي أنماطاً مستهجنة من الذوق.. ولا أظن أنني أرغب في إثارة عدائه..." كانت ابتسامته محيِّرة، تكاد تتسم بالطيبة. تضيقت عينا أدهم بشيء من اللؤم.

أمره أدهم "ابتعد إلى الوراء أنت يا هذا. ولا تساورنك أية أفكار سخيفة حول سرقة أي من هذه الأشياء. تذكر، لقد قلت لك:

وحدنا أنت وأنا سندخل إلى سبيك. سيبقى رجالي هنا، وإذا لم أعد، سيدفع قومك الثمن بحياتهم. هذا هو الاتفاق."

"إنها بالكاد صفقة. لكنني سأفعل أفضل ما بوسعي". عاد أصلان إلى امتطاء فرسه، واستعد الرجلان للدخول إلى سبيك.

وجه أدهم لكمة إلى كتف رفيقه أمين "ستكون أنت المسؤول أثناء غيابي، يا أمين، إذا لم أعد خلال أسبوع، لك حرية التصرف في كل شيء".

ابتسم أمين، الذي كان قد استقبل أصلان بعين معصوبة، بكل ثقة، ملمحاً إلى أنه سيقوم بما يؤمر به بالضبط.

***

الفصل الخامس عشر

شوارع سبيك أسوأ من الجحيم. ضيقة، وعرة، مبنية في الأصل فقط لإيواء عدد صغير من السكان، ولكنها تعرضت في الأسابيع الأخيرة للغزو من قبل اللاجئين الأتراك القادمين من جميع المناطق المرفأية التي استولى عليها مقاتلو الجبل الأسود. حرص أولئك الذين استولوا على موطئ قدم داخل المتاريس على أن لا يمكنوا أياً من الهاربين الآخرين من الحصول على موطئ قدم في الداخل. وقفت الأنانية التي ولدها الذعر وراء كل التصرفات. فقد أصبح الناس أعداء في خضم صراعهم على البقاء: يسرقون الطعام من بعضهم بعضاً، يتركون الضعيف والمريض خلفهم ليتدبر أمره. باتت الشوارع مزدحمة بالناس الذين يستجدون، يحاولون أن يبيعوا كل ما لديهم، لمجرد الحصول على مكان في سفينة مغادرة المدينة للعودة إلى تركيا الأصلية، للعودة إلى استنبول-أو إلى أي مكان آمن عبر البحر.

دفعت امرأتان بشمعدانات فضية باتجاه أصلان، صارخات بالثمن بينما كان هو وأدهم يدفعان جواديهما عبر الحشود. عرض رجل آخر كيساً مليئاً بالذهب - ثم عرض ابنته. أجفل جواد أدهم وأصاب فتى صغير السن يحمل سلتين مملوئتين بالفواكه، كان ينادي عليها ليبيعها بسعر يفوق كل منطق. سقط الصبي على الأرض: رفع رجل الفتى إلى قدميه ثم بدأ الاثنان في ملاحقة أدهم، صارخين مطالبين بالتعويض - وهي طريقة أخرى للحصول على مال لمقعد في سفينة إلى خارج هذا الجحر الجهنمي النتن-اتضح لأصلان بجلاء أن جميع مظاهر السلطة المدنية قد انهارت كلياً. لأن الحضور العسكري الكثيف في أية مدينة قمين بأن يجعل أية مدينة مكاناً غير متحضر، حتى في أيام السلم: فقد شاهد الرذيلة تنتشر وتتكاثر في مدن الحاميات العسكرية. لكن الضجيج هو الذي

قضى على أعصابه قضاءً تاماً: الصراخ، الزعيق، الغياب الكلي للكرامة الإنسانية. فقد سببت له هذه الكتلة المتنقلة من الناس غماً شديداً حتى وجد صعوبة في التنفس نتيجة الإحساس برهاب الأماكن المغلقة الذي بان عليه للمرة الأولى في حياته، خاصة بعد الأسابيع الطويلة من العزلة والاختباء.

تجاوزا زاوية: دفع أدهم في عجالته المشهورة عربة ذات شمسية وقلبها مع حمولتها المتقلقلة من الطناجر والمقالي. تسبب صوت الانقلاب في حدوث هيجان. اشتبك الصبي و"بطله" الذي يطالب بالتعويضات في الفوضى التي عمت، وسرعان ما خلفاهم وراءهما.

لم تكن سبيك مدينة كبيرة: إذ يستطيع الرجل في الظروف العادية أن يحوّم حول المتاريس في مساء صيفي، يستمتع بالغروب والتلال القرمزية البعيدة الملتهبة، وأن يعود إلى بيته في وقت ملائم لتناول عشائه. لكن الوصول إلى حامية القيادة في هذا اليوم الربيعي استغرق صبيحة النهار كلها. قرر أصلان أن الجياد لن تفيدهم في هذه الشوارع المزدحمة وأقنع أدهم أن يودعهما لدى أول "خان" يصلان إليه.

استأنفا السير على الأقدام بسرعة أكبر. بحلول الوقت الذي تمكنا فيه من إلقاء لمحة على البنايات التي تدلت منها رايات السلطان ذات الهلال بكبرياء، كان كلا الرجلين يتعرقان بشدة. كانت الضجة أصعب على الاحتمال من الزحام: فقد اهتديا إلى طريقهما عند الشوارع القليلة الأخيرة بمجرد الانجذاب إلى الضجيج الذي لا ينتهي الصادر عن الجماهير التي تزحم البوابات الرئيسة، حاملين أوراقهم ووعود الصعود إلى السفن. ازدحم اللاجئون بسماكة خمسة صفوف أمام البوابات الحديدية، يصرخون منادين على الخفراء الذين كانوا يتمشون جيئة وذهاباً في الداخل، لمجرد تزجية الوقت في وجه هذا التجمع الفوضوي.

لم يكن لدى أدهم أي إحساس اجتماعي. فقد عمد بكل بساطة إلى سحب خنجره والاندفاع عبر الحشد المؤلف من الأجساد بمجرد توجيه نخزات حادة وركلات شريرة لكل من وقف في طريقه. ظهر على الناس إدراك العنف الكامن فيه وتراجعوا ليسمحوا له بالمرور. ران على الجزء القريب منه من الحشد صمت مؤقت. استمر أصلان في المسير خلف أدهم مباشرة، متجنباً النظر إلى عيون أي من هؤلاء المشردين التعساء، الذين كانت لديهم عائلات ليهتموا بشؤونها بقدر ما كان لديه.

أشار أدهم إلى أحد الخفراء. "أنظر إليّ! لقد حضر عقيد الفرسان أصلان بك لمقابلة الحاكم! كونوا يقظين، أظهروا بعض الحيوية أيها الفتية!" زمجر مطلقاً ضحكة وقحة. سمع أصلان هذه الكلمات وكأنه يحلم. لم يكن قد ارتدى زيه العسكري: فقد راودته فكرة احتمال أن يتمكن من الحصول على مساحة في سفينة لقومه بدون أن يكشف عن هويته. لكنه من ناحية أخرى كان يعلم طيلة الوقت بأن أدهم سوف يستخدم هذه الورقة ليؤمن الحظوة لنفسه- الركوب المجاني لرجاله ولغنيمته.

وعليه فقد ظل أصلان يأمل في أن يتمكن من إقناع الحاكم – كائناً من كان- بأن حياة بضع عشرات من الشراكسة لا ينبغي أن تهدر، فهو جائزة كافية في المقابل. كان يدرك ذلك.

كان الخفير في موقف، يشابه مواقف كل الخفراء في وضعه، ليس فقط منهمكاً بل مجبراً على اتخاذ قرارات متعجلة في سبيل الحفاظ على سلطته وهيبته. فقد كان ضجيج الرعاع المهتاجين يزعجه طيلة النهار. وقد حلت الظهيرة. والشمس في كبد السماء، وعلى أشد حرارة لها. لاحت له هذه الفرصة المثالية لخلق بعض الإلهاء وتعليم كل شخص ينهق على البوابات درساً في اللاجدوى، استدعى أربعة جنود. "افتحوا البوابة وألقوا القبض على هذين الرجلين! انتحال شخصية ضابط تركي! إضاعة وقت القوات

المسلحة سدى! أريد أن تجلدوهم وتضعوهم في الأصفاد قبل أن يرفع المؤذن أذان الظهر!".

حدث هذا الأمر خلال دقائق. أصاب الحشد الصمت من الرعب عندما سحب أصلان وأدهم إلى داخل البوابات. تم تجريدهما من ملابسهما حتى الخصر بسرعة، وتثبيتهما من قبل جنديين تركيين ضخمي الجثة وتلقى كل منهما ست جلدات من قبل الخفير المناوب المتوتر حد الجنون. لم يستطع أصلان أن يقاوم الجلد في حالته الضعيفة. ربما كان سيحاول الإفلات من القبض عليه لو كان يعرف ماهية العقوبة القادمة. لكنه ساير الأمر بدلاً من ذلك آملاً أن يؤتى به أمام الحاكم. أما أدهم، من الناحية الأخرى، فقد سمح باقتياده ضاحكاً وتلقى العقوبة مثل رجل معتاد على العديد من هذه المحن.

صرخ الخفير "خذوهما إلى السراديب - وأنتم جميعكم، هيا انصرفوا!" مخاطباً الحشد.

أدى هذا المشهد الواجم إلى تخفيض أعداد أصحاب العرائض إلى النصف. أما البقية (والذين ربما كانوا أبعد في المؤخرة من أن يتمكنوا من رؤية الدماء) فقد وقفت خرساء إلى أن تم سحب أصلان وأدهم بعيداً عن الأنظار-وبعد ذلك تصاعدت الضوضاء والصرخات مرة أخرى مثل ذي قبل.

في السراديب، تم تقييد أرجل أصلان وأدهم، وغلت معاصمهما بالأصفاد مواجهين لبعضهما بعضاً عبر الأرضية القذرة الزلقة.

أنكمش لحم أصلان المسلوخ عند ملامسة الخشونة الباردة للجدار الحجري عندما صفق الباب منغلقاً عليهما. لم يعد هناك إلا نزر يسير من النور، وانحبس الهواء.

انفجر أدهم في ضحكة مدوية، وكأنه قرصان متمكن.

"كيف كان وقع ذلك عليك، أيها العقيد؟ أراهن على أنك أمرت بجلد الرجال مرات عديدة في أيام عزك. كيف تشعر وأنت تتلقى الجلد؟".

همس أصلان بخشونة عبر الظلام "ما هي أعلى رتبة حصلت عليها، يا أدهم؟".

قهقه قائلاً "لم أصل أبداً إلى أعلى من رقيب في الخيالة، لكنني رأيت الدنيا... آه يا رجل، كم رأيت من الدنيا...".

بدأ أصلان يدرك وجود جانب شيطاني في شخصية وطبيعة أدهم: فقد كان في كل الاعتبارات ولكل الغايات، مجنوناً. لأنه كلما ساء الظرف، فإن إحساسه بجنون الحياة يتعاظم. وقد كان هذا الحسّ بالدعابة السوداء ردة فعله الوحيدة تجاه الحرب. بحيث انمسخ كل رد فعل آخر وتحول إلى هذه الآلية الوحيدة.. جنون الضحك.

لكن أدهم كان محقاً في عدم خوفه. "أنظر إليَّ! أنت!" صاح مجلجلاً. "من هو المعوق المناوب هنا حالياً! استمع إليَّ! هذا الرجل خائن، عقيد في سلاح الفرسان التركي وفار من الخدمة! هل تعرف ما يعنيه ذلك بالنسبة لحاكمكم؟ إذا كانت لديكم بقية من دماغ داخل تلك الكومة المخدرة من العظم الفارغ التي تشكل جمجمة فوق أكتافكم، تعالوا واختبروني! هيا بنا! اختبروا ما أقوله! اركضوا إلى الأعلى وأخبروا الحاكم أن لديكم أصلان بك وقد قدم لشرب الشاي! أم أنكم أبناء قحبة ضاجعت لواءً ثم...".

استمر أدهم في الصياح، مكرراً شتائمه، وقد بدا أنه لم يعد يشعر بالتعب خاصة وأنه منهمك في مهمة تتعلق بنجاته شخصياً. فقد كانت القوة المجردة لثقته بنفسه بحد ذاتها... مذهلة. في تلك الأثناء ظل أصلان يصارع ألمه. فقد كان ظهره ينبض: معصماه يحترقان وكأنما قد سلطت عليهما شعلة ملتهبة. فكرة واحدة وحيدة أبقت على معنوياته. وهي أن ماجده قد عانت أكثر من هذا، وقد

استطاعت أن تقربهم من الحرية خطوة كبيرة. ذلك ما كان يهمه الآن، بغض النظر عن الثمن الذي سيدفعه هو: الحرية، العبور الآمن للشراكسة الذين قادتهم إلى جانبه.

أخيراً وصل إلى سمعيهما طرق الرصاص، دار المفتاح داخل قفل الباب المرصع بالمسامير لجحر الجرذان الذي يضمهما.

لم يدخل مدير السجن: فقد ضربته نتانة أدهم الشيطانية الشرسة وكأنها هراوة. وقف على بعد قدم أو اثنين إلى الخلف وزوّر بعينه.

"أخرج هذين الرجلين إلى فوق. يريد الحاكم أن يراهما".

استطاع أصلان أن يتعرف على المكان الذي هو فيه، بعد أن رمشت عيناه أمام ملايين الشموس قبل أن يعود إليهما الصفاء في ضياء الظهيرة الساطع. كانت الحامية نفسها تسكن داخل ثكنات بنيت داخل سور ميناء سبيك نفسه: القصبة أو القلعة. كان موقع القصر قد حفرت جوانبه لخلق المزيد من المساحة لإيواء المزيد من الجنود، لكن هذا الجزء الذي يسحبان من خلاله كان السراليو فيما مضى -جناح النساء- حين كانت هذه المدينة ميناءً مزدهراً في القرون الوسطى وكان العرب يتاجرون فيه مع أهل البندقية.

وجهت إلى أصلان وأدهم اللكمات أثناء جرهما، أحدهما صامت، والآخر يتفوه بشتائم بذيئة بعضها مفهوم والبعض الآخر مخترع، باتجاه البوابة المقفلة التي تفصل هذا الجناح عن أجنحة سيد هذا القصر. وكان هذا حالياً الحاكم العسكري، ضابط تركي، وهو عدو أصلان اللدود، العقيد أورهان أتاكوي بشحمه ولحمه، ولا أحد غيره.

دفع قائد السجن بوجه اصلان إلى الشبك الحديدي. تمشى أورهان أتاكوي جيئة وذهاباً بضع مرات، محدقاً في وجه أصلان أكثر من مرة، حتى يتأكد من أنه محق. ففي نهاية المطاف، لم تكن

ملامح الشركسي سهلة على التعرف، فقد كان وجهه مغطى بالدماء والجروح والرضوض.

تماماً كما توقع منه أصلان، كان أورهان يشعر بنشوة النصر والقرف في نفس الوقت.

"أمر لا يصدق! عصيّ على الفهم! القدر! الحمد لله والشكر! ولكن قسماً بالله، كل هذا الغباء! كيف تجرؤ أن تحضر لي سجيناً في هذه الحالة الرهيبة؟ خذ هذين الرجلين من هنا، نظفهما، أعطهما ملابس محترمة! ما الذي أديره هنا -هل هي محمية لإمبراطورية السلطان أم مسلخ راياه؟

أغمض أصلان عينيه. حفرت دمعة حرّى خديه. فقد بدأ هو الآخر يدرك مقدار جنون هذه الحرب. نبرات أورهان الأنيقة المنمقة، مشيته المختالة، (والتي أصبحت أكثر مدعاة للضحك بعد اختفاء إحدى ذراعيه) ورغبته المتوقعة بشكل واضح في "المكافأة المؤجلة" أصبحت كلها العناصر الجديدة المضحكة لهذه الملهاة الغبية، القاتلة.

بينما كان يجري تنظيفه، تنبأ أصلان مسبقاً بأن أورهان سوف يتلهى به بتلذذ قططي: سيعذبه باستمتاع وحشي. نظر إلى أدهم ورأى فيه رجلاً يدرك مدى الاحتقار للجنس البشري بطريقة لم يختبرها أو يجربها هو من قبل أبداً. كان أدهم مستعداً ذهنياً للأسوأ. كان مثاراً، يرتجف، يكاد يعانق كل ما هو قادم. شعر أصلان بالغثيان.

ألبس أصلان زي عقيد، مناسب لقياسه، مكوي جيداً. وألبس أدهم زي رقيب.

أقتيد كلاهما إلى مكتب الحاكم -غرفة جميلة وسط برج في المتاريس القديمة، بجدران مائلة مقوسة، وقد تعلقت البسط التركية من حجارة الجدران، ووضع مكتب كبير وسط منحنى بين شباكين مزينين بالمنحوتات، يخترقهما شعاع الشمس الذي تسلط عليهما،

محيلاً شكل أتاكوي إلى مجرد صورة ظليلة باهتة المعالم. هدأ روع أصلان بعض الشيء وسط هذا المحيط المتحضر، لكنه شعر بفقدان المزية لأنه لم يكن قادراً على رؤية سجانه بوضوح.

"حسناً، حسناً..." وتوقف أتاكوي.

ضحك أدهم وتدخل بوقاحة، ساخراً منه" هيا، تكلم، قل ها نحن نلتقي ثانية –أليست تلك هي القصة؟ أيها الحاكم؟ لقد أديت لك صنيعاً كبيراً، أيها العقيد، ألا ترى؟".

لم يزعج أتاكوي نفسه بالرد على هذا الكلام. رفع يده فقام جندي يقف خلف أدهم بضرب بعقب بندقيته على مؤخرة رقبته. نفر الدم من الجلد المشقوق على الفور، مخططاً زيه العسكري النظيف وناثراً الدم على زي أصلان.

"في غاية الأسف" قال أتاكوي بنعومة "كما كنت أقول: إنني متفاجئ منك يا أصلان. لقد كنت دوماً في منتهى التفاني والإخلاص، فما الذي حدث وغيَّرك؟ ربما كان ذلك مرده أصولك التراثية – كل تلك اللصوصية، ما كان لها مفر من أن تظهر على السطح..."

"أنت لا تعرف معنى كلمة الأصول التراثية".

"هل أنت تتهمني بأنني ابن حرام؟".

نفض أصلان كتفيه. حان الآن دوره في تلقي ضربة مخرسة، ولكن حتى يتجنب الجندي توسيخ المكان، وجه عقب بندقيته إلى ظهر أصلان، محطماً عظمة لوح. سقط أصلان إلى الأمام مطلقاً صرخة ألم.

رفعه أدهم حتى أوقفه على قدميه. "والآن أنظر إليّ أيها العقيد، بإمكانك أن تحطمنا نحن الاثنين، ولكن إلى أين سيوصلك ذلك؟ لن يوصلك ذلك أقرب إلى ذهبي خطوة واحدة، أليس كذلك؟ وإذا أعدت هذا الرجل إلى تركيا وقد كسرت كل عظمة في جسمه،

كيف سيبدو ذلك؟ خاصة بوجود الهدنة وكل تلك الأشياء؟ فكر يا صديقي، فكر...".

التهب وجه أورهان أتاكوي المتغطرس على مخاطبته بهذه الدرجة من الألفة، لكن المجرم الكامن في داخله أدرك قيمة ما قاله أدهم لتوه.

"ذهب؟" نطق الطمع مجلدات من خلال الصوت الصادر عن تلك الكلمة الواحدة.

"إيه، الذهب".

نفض أورهان رأسه، آمراً الحراس أن يحضروا شيئاً ما. عادوا يحملون جراباً جلدياً كانوا قد صادروه من أدهم عندما فتشوه وخلعوا ثيابه عنه.

نبح أتاكوي بالأمر "انصراف!" وهرب الجنود.

قال أورهان "هذا الذهب؟" وهو يقلب محتويات الجراب فوق طاولة مكتبه.

"هذا مجرد البداية! إن لدي وأصحابي مبلغاً محترماً. غنيمة. قطع نقدية، مجوهرات، ما تشتهيه نفسك تماماً".

"أين؟" انحنى أورهان إلى الأمام قليلاً، كما ينحني الشره فوق طبق حساء ليشمه، وارتعشت شفتاه. "كم تود لو تعرف. هناك الكثير المزيد من حيث جاءت هذه".

فكر أتاكوي قليلاً، ثم استدار نحو أصلان.

"هكذا إذن. أنت لص متحالف مع لص".

"كلا. لقد دلني هذا الرجل على ميناء سبيك. كل ما أطلبه هو العفو الآمن لبعض اللاجئين. قومي".

تغلف وجه أورهان بابتسامة مزيفة "شراكسة! كم هذا مؤثر. يا للإخلاص".

كبح أصلان لسانه.

"يا له من موقف إيثاري من جانبك، أيها العقيد أصلان. ولكن كيف يمكن أن يؤخذ مثل هذا الإخلاص على محمل الجد، في الوقت الذي قمت فيه بالقرار من منصب قيادة عالي الشأن في مثل هذا الوقت المحرج؟ أنت خائن من أسوأ الأنواع!" كان أورهان يوصل نفسه إلى حالة من الاستنكار العميق – وأدرك أصلان ما يعنيه ذلك. إنه مقدمة لعمل سادي من نوع ما.

"أيها الحرس!" عاد الجنود بطرفة عين.

"أعد هذين الرجلين إلى مكانهما! أنت –أيها الرقيب– انتظر!"

اقتاد الحرس أصلان وأدهم عائدين إلى زنزانتهم. انتظر أورهان حتى ابتعدا عن مرمى السمع قبل أن يصدر أوامره.

"أجلدهما مرة أخرى. خاصة ذلك التركي. عذبه إذا رأيت الأمر ضروريا. إنه يخفي أملاكاً تخص الدولة وأنا أريدها. وأريدك أن ترسل قوة من الجند للعثور على زمرة من اللاجئين الشراكسة. أصلان بك–ذلك هو الاسم الذي يستجيبون له. أعثر عليهم. ربما تكون عصابة اللصوص التابعة للتركي مختبئة بينهم."

"أمرك سيدي!".

تحركت القوة خارجة بينما كان يجري جلد أصلان وأدهم للمرة الثانية. لم يخطر ببال أصلان مطلقاً أنه سيكون في ظروف تؤدي به إلى الإعجاب برفيقه القذر، لكن قوة احتمال أدهم الجسدية كانت أمراً يفوق المنطق. فقد ساعدت قوة احتماله أصلان على تركيز ذهنه على مقاومته. نادى عليه أدهم، وكأنه يخوض لعبة رائعة:

"سأراهنك بخمسين قرش على أنك ستصرخ قبلي، أيها العقيد!".

"وأنا قبلت الرهان، يا ابن الزنى..."

مرت الساعات، الليالي، وتلتها الأيام. صرخات، ضربات، ضروب مختلفة من التعذيب. خلاّقة وقاسية، أسواط، سلاسل، آليات خشبية، ماء، ضجيج، وفي الختام، حديد محمى. فقد أصلان إحساسه بالوقت وتركزت كل جهوده على إبقاء جسمه في مكان واحد. بدأ يحس وكأن ساقاه قد تورمتا وانفصلتا: ثم يجري تعذيبه في جزء آخر، فيشغل ذهنه في يد، أو حتى في إصبع، فيحدق في شلو مكسور من جسمه لساعات، وهو يحضه على أن لا يتحول إلى اللون الأسود، الغرغريني، كما شاهد الأمر يحدث مرات عديدة للعديد من الجنود في ساحات المعارك.

خلال كل هذا الوقت، أبقى أدهم على سيل من الشتائم بذيء إلى درجة أن أصلان أصبح محصناً ضد قرفه الشخصي وأحب الرجل لأجل طاقته الرهيبة تلك. فإذا توقف أدهم عن السباب، فإن أصلان يعتريه القلق: لأن القذارة اللفظية أصبحت وسيلتهم الوحيدة للبقاء على قيد الحياة، لأن أدهم يحمل المفتاح: الكنز، الذهب، الفضة والأحجار الكريمة، وهي الوسيلة التي ستحررهم.

كان عقل أصلان، الذي يصاب بالهذيان أحياناً، يموج بصور الأحجار، الصخور، المجوهرات البراقة، الخناجر التي تخترق الجلد، كابوس من الدماء، العصائر المتلألئة، العيون الضاحكة تنقلب إلى عيون ميتة، المخالب تغوص في اللحم ثم ترتفع بينما تعض الشفاه على حبات الكرز، وأصابع تلتمع فيها حجارة الياقوت التي تتحول إلى كتل من الدم المتجمد...

قام العقيد أورهان أتاكوي باستدعاء أصلان للمرة الثانية. مما وفر له فترة استراحة: ثم جرى تغسيل جسم أصلان المسودّ، وألبس

زياً نظيفاً لائقاً مرة أخرى. فقد تم غسل الزي وتنظيفه من دماء أدهم التي نثرت عليه.

كانت كراهية أصلان واحتقاره للرجل تتعاظم مع كل جريمة يقترفها. مرضه النفسي، جبنه في عدم تمكنه من مواجهة "عمل يديه"، تلك كانت البذاءة العظمى. لم يكد أصلان يتخيل الرحلة التي قطعها صديقه السابق في انحداره نحو الحقارة إلى هذا الدرك من خداع النفس.

ذهل من قدرته على المشي بعد كل الضرب الذي تلقاه عبر قدميه في الليلة الفائتة. أحسّ لحظتها كمن يمشي على جمرات حارة، لكن الغضب والكبرياء حفظاه طيلة الطريق.

قال أورهان "هكذا إذن، آمل أن تكون أحوالك طيبة؟"

"آه طبعاً" أجابه أصلان، من خلال شفتيه المجرحتين "لقد حولت الجميع هنا إلى منحرفين بما يناسب ذوقك".

طقطق أورهان بلسانه معارضاً "هيا يا أصلان. أنت غنيمة كبيرة. خائن. يجب أن تتوقع أن تعامل بخشونة. لقد جلبت كل هذا على نفسك".

"ما الذي تريده مني؟".

لف أورهان ذراعه السليمة فوق الأخرى المبتورة.

"إسمع أيها الرفيق القديم، هوِّن هذا الأمر عليك. إنني أكره كل هذا العنف. أنت تعرف أنني ذكي، وأنني أمتلك كل السلطة. لماذا لا تخبرني أين خبأ ذلك المجرم غنيمته - والتي هي، حسب القانون، ملكية السلطان - ومن يدري، ربما يجلب ذلك العفو".

لم يقل أصلان أي شيء.

تنهد أورهان "لقد دربت مجموعتك من الدهماء جيداً. هناك العديد جداً من اللاجئين في الخارج. إن الأمر أشبه بالبحث عن

إبرة في كومة من التبن، لم يسمع أحد باسمك وأنا حتماً لن أعثر على ملكية الدولة بهذه الطريقة". تنهد مرة أخرى، وكأنه يستشير أصلان حول مسألة غامضة، من ضابط إلى الآخر.

"إن ما تقوم به غير قانوني. سواء طال الزمان أم قصر، فإن السلطات سوف تكتشف أنك احتفظت بي هنا لمصلحتك الشخصية. هنالك العديد جداً من الشهود على هذه الحقيقة". ضرب أورهان على طاولته "إنني أمارس سلطة مطلقة على هؤلاء الرجال! إن أحداً لا يشكك في أساليبي!".

ضحك أصلان "لقد فقدت إدراكك للمنطق، إذا كنت تعتقد ذلك يا أورهان. إنك تخدع نفسك بالأوهام نتيجة طمعك وغرورك."

هجم أورهان من خلف مكتبه وصفع أصلان على وجهه بقوة. "أنت تظن نفسك في منتهى الذكاء! أنك أسمى مني بكثير! سوف تنحني أمامي، يا أصلان بك، سوف تبتهل إلي على ركبتيك، قبل أن أنتهي منك!"

مرة أخرى – عقب البندقية إلى أسفل جمجمته: مرة أخرى، الألم الذي يعمي البصر. استمر الكابوس: كانت بقية ذلك النهار تهويمة عذاب مستمرة.

في وقت لاحق، وفي داخل زنزانتهما الضيقة الحقيرة، كان أدهم أقرب قليلاً إلى الخضوع.

"ذلك المأفون الخرائي. المطعون في رجولته، المجنون. أبن القحـ–"

"اخرس يا أدهم، استمع إليَّ"

"المطعون في شرفه–"

"اسمع. سوف أبرم مع أورهان صفقة."

"إذا خدعتني فسوف–"

"أعرف ما ستفعله، فلا تضيع لي وقتي سدى"

"موافق، ماذا سيكون الاتفاق، أيها العقيد." بصق أدهم كتلة هائلة من الدم والمخاط.

"يجب علينا أن نبرم اتفاقاً. إن الوقت ينفذ منا. سوف يصل القلق بجماعتنا إلى حد اليأس، خاصة إذا كان الجنود قد استجوبوهم."

"وماذا في ذلك؟"

"سوف استرحم. سوف استسلم، سأعطيهم الكنز. في مقابل سفينة تخرجك أنت وكل الآخرين."

"لن تفعل ذلك إلا عبر جثتي."

"تماماً. ذلك هو البديل. إنه مجنون. لن يحل الموضوع بمشاركته في الغنيمة. سرعان ما سيقتلك إذا لم تذعن. لقد رأيت حالته النفسية بنفسك."

"المجنون المطعون في شرفه. لماذا يتوجب علي أن أعطيه كل المال الذي تعبت في..."

"إخرس يا أدهم. إما أن تفعلها أو تموت."

أقنع سيل الشتائم الذي وقع على رأس أصلان، بأن أدهم سوف يوافق على الخطة. فداهمه النوم. ولكن لبرهة قصيرة فقط. فقد استدعاه أتاكوي في منتصف الليل. كان يرتدي ملابس من الحرير الصيني، مع خفين مطعمين بالذهب، ويدخن إحدى سجائره ذات الرائحة الجميلة المعهودة. وقفت على طاولته قارورة عرق نصف فارغة.

ظهر عليه هدوء مستغرب "تناول قليلاً".

"لا، أشكرك."

"ما زلت مسلماً متمسكاً بدينه."

"سيحكم الله سبحانه وتعالى"

توقف أتاكوي وحدق في جسم أصلان. فقد بان الكثير من خلال قميص أسيره الموسلين القذر، الممزق، أكثر مما رآه سابقاً. تجمد الدم والقيح على ساقي أصلان: بضعة أصابع متورمة وحائلة إلى السواد. أحد كتفيه محدودب وخارج عن مفصله. الندوب المسوَّدة والسحجات الحمراء تلتمع من على صدره وذراعيه. ورأسه محني إلى الأمام باستمرار من أثر الجرح الغائر في الجزء الخلفي من رقبته.

"يا له من أمر مؤسف" اقترب أتاكوي، وأخذ يمسد كتف أصلان. "لقد كنا صديقين حميمين."

"حسناً يا أورهان. أنت الرابح."

قفز أتاكوي إلى الوراء مجفلاً، وهو لا يكاد يصدق أذنيه "ما الذي تعنيه؟"

"أنت الرابح. سوف أرشدك إلى مكان الغنيمة"

"رائع، رائع"

ابتلع أصلان ريقه، وهو يجبر نفسه أن يتكلم مثل رجل مهزوم محطم "ما عدت أستطيع أن أتحمل المزيد من الألم. بإمكانك أن تقتلني، يا أورهان، بيديك الاثنتين. فقط أترك الشراكسة يذهبون. أنت لا تهتم لشعبي. ادفع بهم إلى قارب ما – إلى أي مكان– على بعد أميال كثيرة – لماذا تهتم بهم؟ إذا قضيت على حياتي، فإن ذلك سيكون كافياً لك، أليس كذلك؟"

نصب أورهان قامته بصلف "إركع، أيها الوغد".

نفذ أصلان ما طلب منه، خلع أورهان حذاءه، وأخذ يتجول حوله حافي القدمين. راقب أصلان تلك الأطراف البيضاء، الناحلة.

"كانت أظافر قدميه معتنى بها: كان أورهان قد حلق شعر ساقيه. وتفوح منه رائحة العرق ودهون الشعر. فقد كان فاسقاً، خليعاً، يهوى التعذيب. إن الله يرى. وكذلك سترى ماجده. لم يكن يهمه سوى هاتين الفكرتين: لم يعد أي شيء يقوله في هذه الغرفة ذا أهمية إطلاقاً بعد هذه اللحظة.

حاول أصلان مرة أخرى. "إنني أتوسل إليك، أن تدعني أحضر الكنز إليك. أتوسل إليك أن تعفو عن قومي. خلّص الأراضي العثمانية من هؤلاء الناس المفسدين الضارِّين – أنا أعرف أننا لم نجلب عليكم سوى الفوضى. خلص نفسك من الشراكسة يا أورهان. إلى أي مكان– إنفيهم."

"فكرة مثيرة للاهتمام. قبِّل قدميّ." حوَّمت حلقات من دخان السجائر حول رأس أصلان. أغمض أصلان عينيه، وحاول، لكنه لم يستطع أن يجبر نفسه على تنفيذ الأمر.

"يمكنك أن تذلني لاحقاً يا أورهان. سوف أعود وأحضر لك نصف الكنز. وسيكون النصف الثاني ملكاً لك بمجرد أن تكون جماعتي من الشراكسة المزعجين كثيري الغلبة قد ألقي بها على متن سفينة ذاهبة إلى مكان ما – اختر أنت المكان – يا أورهان. مكان بعيد من هنا."

"مكان قصي ناءٍ. قبِّل طرف ردائي أيها الخائن. قبّل قدميّ."

"نعم، مكان مثل سوريا أو فلسطين أو إفريقيا. صحراء، بلا جبال، لا شيء. تخلص منهم."

"إن الطقس حار جداً في سوريا" ظهرت نبرة الفضول في صوت أورهان، لكنه أيضاً بدا مندهشاً.

"وماذا إذا كانت حارة، من يهمه ذلك"

ضحك أورهان وعاد إلى مكتبه ليحضر كأساً آخر.

سأل بعفوية "هل رأيت الكنز؟"

"آه طبعاً. ستكون في مثل غنى كروسوس. إن لدى أدهم ما يكفي لكل عصابته – هنالك سبعة منهم. غنيمة سبعة رجال لك وحدك، يا أورهان. ستعيش حياة مترفة. "حياة وردية"، إلى الأبد – أليس ذلك ما كنت تقوله على الدوام؟"

"سوف تقبل قدميّ قبل أن تموت أيها الخائن"

سمع أصلان صوت ضحكة أورهان.

"كيف لي أن أعرف أنك لن تهرب. سوف أرسل معك قوة من الجند" قال أورهان بعد أن شرب جرعة كبيرة من العرق.

"اهرب إلى أين....؟ ليس هناك أي مخرج من هنا لأي إنسان إلا من خلال الميناء! أنت تعرف هذا كما أعرفه. إضافة إلى هذا، فإن عصابة أدهم سوف تختفي مع الكنز إذا شاهد أفرادها الجنود...!"

"لا، ربما أنت لن تهرب. أنت بحاجة إلى واسطة نقل لقومك. وأنا الوحيد القادر على توفيرها لك."

***

قبيل الفجر بدقائق، تم الإفراج عن أصلان وأدهم من خلال باب صغير في جدار القصبة. شقا طريقهما ببطء مؤلم عبر ممرات السوق المزدحمة، حيث كان أصلان يتكئ حيناً على أدهم، ثم يعود أدهم ليتكئ على ذراع أصلان لبعض الطريق. أرهقهم الضجيج، الحرارة، وازدحام الحشود، ناهيك عن المجهود الذي بذلاه في المشيء. قررا العودة إلى "الخان" حيث كان جواداهما مودعين ليعودا راكبين في راحة معقولة.

وصلا في نهاية الأمر إلى الشاطئ، الذي أصبح في هذه الآونة مزدحماً بضعفي العدد الذي يذكره أصلان أنه رآه عندما وصلوا. لقد استمر غيابهما خمس ليالي وخمسة أيام.

كان قومهما متفرقين، تقسموا إلى مجموعات صغيرة و"تنكروا" بين العائلات التركية، من أجل درجة أكبر من الأمان والسلامة الشخصية. بدوا لأصلان مثل الزهور بين الأعشاب: عند رؤيته، نهضت مجموعة كبيرة من الناس ذوي الوجوه المليحة، والعيون الزرقاء، من بين جموع الناس ذوي الهيئات الرثة، وتقدم أفرادها لتحيته.

حليمه، ساكنات، رسميه، العجوز تسوك، حمزه، كمال... إسماعيل الصغير، عمر، وتيمور تجمعوا كلهم حوله.

لم يأت أحد على ذكر مظهره. فقد بات واضحاً من الصدمة التي علت وجوههم لرؤيته أنه في حالة فظيعة.

اقترب جلاوزة أدهم. فقد ظلوا يتناوبون الحراسة على الثروة المخبأة بين صخور الشاطئ.

أمسك مساعد أدهم،المدعو أمين، بسيده وهزه بعنف "أين كنت بحق الجحيم؟ لقد مرضنا لشدة قلقنا عليك! لقد حضر الجنود إلى هنا خمس أو ست مرات، محاولين التلصص علينا!"

"إخرس. ليس لدينا الكثير من الوقت. هيا بنا نذهب ونتفقد المواد. ونتأكد من أن أحداً لا يرانا."

"المواد؟"

"لقد سمعتني، فلا تعارض، ينبغي علي أن أخرج نصفها – ولا تقم بأية ألاعيب، وإلا هلكنا جميعاً."

كان أمين يعرف سيده جيداً بما يكفي لأن يدرك بأن هذه هي نهاية المطاف. لذلك ذهب مع الأتراك الفارين الآخرين نحو الصخور متمهلين، كأنهم يبحثون عن السمك....

تهاوى أصلان فوق لفة من الحبال ليسند نفسه ومد يديه نحو زملائه الشراكسة. عانقته النساء: أحضر له بعضهم الماء وقليلاً من

الطعام. وانهال عليه الجميع بأسئلة قلقة، مدركين ومشاهدين أنه قد تعرض للتعذيب. رشف أصلان الماء على مهل، وبقي صامتاً.

بعد لأي دفعت حليمه الناس بعيداً عنه. "إنه لا يمتلك القوة لكل هذا الاستجواب. دعوه يتكلم مع تيمور بهدوء."

ابتعدوا كلهم، وذابوا بين الجموع، متكومين في مجموعات صغيرة داخل ملاجئهم المؤقته.

"أشكرك يا حليمه. إنك من أورع ما خلق الله." جاء صوت أصلان أجشا مخنوقاً.

"وأنت كذلك، أيها الصديق الوفي، كذلك أنت." أخفت حليمه وجهها داخل غطاء رأسها واستدارت مبتعدة وسط دموعها. لم يبق إلا تيمور. جلس إلى جانب أصلان، يقاوم التهدج في صوته.

"ما الذي حدث لك يا أصلان بك؟"

"استمع إلي أيها الفتى. هذه هي لحظة الحقيقة. سأعود بجزء من الذهب، على شكل دفعة أولى.كمية مغرية. يجب أن تكون مجزية، حتى يقتنع أورهان."

أصيب تيمور بصدمة جعلته يتصلب "العقيد أتاكوي؟ هنا؟"

"نعم. من الحصافة القول – سوف تجري لي محاكمة عسكرية. يجب أن نجمع أكبر عدد من الشراكسة نقدر عليه، ونجهز قائمة بالمسافرين. سوف أحملها إلى أورهان حتى يصادق عليها ويعتمدها رسمياً. يفترض فيه أن يجهز لنا سفينة. لتنقل الجميع إلى خارج ميناء سبيك. لقد أعطى كلمته."

"كيف يمكنك أن تثق–"

"لأنه يقوم بما يريد هو القيام به. يفترض في السفينة أن تأخذ الجميع إلى فلسطين. إنه يقوم بنقلنا جميعاً إلى أبعد ما يمكنه أن يرمي بنا، مقابل غنيمة أدهم. لن تقبل سلطات الميناء بشحن غير

الأتراك لتعيدهم إلى تركيا، ولن توافق وزارة الحربية على استخدام أية سفن لغايات غير أساسية. لذلك – فإن أتاكوي سيقوم بالتعاقد مع سفينة شحن أجنبية، لتأخذ قومنا إلى آسيا. إنها ليست الفردوس، لكنها أفضل ما يمكنني عمله."

"لكنك ستأتي معنا!"

"كلا، لا يمكنني الذهاب معكم. إنه يريدني شخصياً. بتعبير أدق، أنا والغنيمة. إنه يريد الانتقام والمجد كذلك. وأنا أشكل الريشة في طاقيته.. وقد أعطيته كلمتي."

أخفى تيمور وجهه.

"لا، لا يمكن أبداً."

"لا تقل ذلك. هذه أفضل طريقة. سوف تكونون أحراراً. إنه يظن أنه يقدم للإمبراطورية العثمانية خدمة جلى، بتخليصها من الشراكسة غير الموالين. هذه هي الطريقة التي "أقنعته" بها."

"لن يقبل قومنا بهذا الاتفاق. أنا لا أقبل. فإما أن تذهب معنا أو نبقى كلنا. أرجوك يا أصلان.... فكر في خطة أخرى."

"ليس هناك أي خيار آخر، أيها الفتى.. ألا تفهم؟ إذا بقينا هنا سنموت جميعاً... أو معظمنا على أية حال، فكر يا تيمور. لقد ماتت ماجده لهذه الغاية. وسوف أموت لها بدوري."

ندت عن حلقه تنهيدة هائلة. فقد كان أصلان يتوسل ليصل إلى تفهم من قبل الشاب "أريد أن أرى قومي آمنين بعيداً عن هذه الشواطئ. والآن أعمل ما أقوله لك."

"ولكن.. فلسطين! ليس هناك سوى الرمل الأجرد! صحراء! سنهلك جوعاً!" أصبح تيمور في حالة لا يكاد يصدق فيها ما تسمعه أذناه.

"ستكونون أحياء. ذلك هو ما يهم. سينجو البعض منا بحياته."

"صحيح، ولكن-"

"عندما تصبحون على متن السفينة، احرص على أن يبقى أدهم معكم! أجبره على البقاء معك! سوف تحتاج إلى ذكائه في هذه الرحلة. سيحافظ على حياة الناس، سوف يكون عوناً كبيراً لك!"

قهقه أصلان، وهو يسمع نفس تلك السخرية الشيطانية التي تعود على سماعها من رفيقه في الزنزانة خلال الأيام القليلة الماضية، في نفس ضحكته.

"كيف يمكنك أن تفعل هذا، تسير بقدميك إلى الفخ؟"

"ليس لدي أي خيار. يفترض أن تجري محاكمتي عسكرياً، والعقوبة هي الموت بكل الأحوال. لقد كنت أعرف ذلك منذ اللحظة التي ابتعدت فيها عن بيرو.

أخفى تيمور وجهه مرة أخرى "إنها غلطتي وذنبي"

"كلا، لم تكن ذنبك أيها الفتى. إن كل شيء محكوم بإرادة الله عز وجل. بالإضافة..."

ندت عن شفتيه تنهيدة أخرى.

رفع تيمور رأسه، وقال في صوت غاية في اللطف "الأمر متعلق بماجده، أليس كذلك؟".

أغمض أصلان عينيه، وصلى في صمت لمدة طويلة، ثم فتحهما ونظر إلى تيمور بفراغ صبر متجدد. "إسمع، ليس لدينا وقت كثير. يفترض فيّ أن أجهز قائمة بأسماء الركاب، ويجب بعد ذلك أن أعود إلى الحامية لتجرى محاكمتي عسكرياً وآخذ معي نصف الكنز كدليل على حسن نيتي. عندما أغادركم، يفترض فيكم جميعاً أن تتوجهوا إلى رصيف الميناء. كلكم. بمجرد أن أتلقى خبراً بأنكم قد أقلعتم في السفينة هاربين، سوف أكشف عن مكان "النصف الثاني" من غنيمة أورهان. مكافأة على مساعدتنا...".

"ألا أستطيع أنا الذهاب معك...؟".

"بل يمكنك ذلك" أمسك أصلان الفتى اليافع بقوة من كتفيه "لقد عشت حياتي كلها وأنا أؤدي وجبي. كان ذلك يضايقني أحياناً، ولكن الآن، في هذه اللحظة، فإنني قادر على رؤية كل الأشكال والأمور بوضوح، أستطيع أن أموت رجلاً حراً، يا تيمور، وأنا مدرك لكوني قد عرفت الحب، أحببت بكل قدراتي وبادلتني امرأة كل ذلك الحب. ليس كل الرجال يتمتعون بهذه النعمة في قلوبهم. هل ترى ذلك؟ إنني أريك الطريقة الصحيحة في الحياة. فلا تقاومني. هذه هي الهدية الوحيدة التي أملكها لأعطيك إياها. إنها أهم شيء قلته لك على الإطلاق".

بكى تيمور.

"الآن توضح كل شيء. إذهب وأخبر الناس الأنباء، وشكل فرقة بحث من المتطوعين للذهاب إلى داخل البلدة والعثور على أي شركسي بداخلها." لعق أصلان شفتيه، وقد داهمه العطش والإرهاق. "والآن قل لأدهم أن يحضر للتباحث معي".

التفت أذرع رفيقي السلاح حول كل منهما في عناق حميم. أمسك تيمور بكتفي قائده بلطف، لأن كل لمسة كانت تجلب جفلة وتنهيدة صاعدة من شفتي أصلان.

"أشكرك يا سيدي".

"لا داعي لأن تشكرني يا تيمور، أنت أديغه رائع".

حضر إلى جانبهما أدهم المتذمر.

"أقسم بالله، أنكم تأخذون كل الوقت الذي تريدونه، أيها الشراكسة! هذه قطعة أخرى لإغواء الوغد المنحرف بها. سوف يحب هذه، أليس كذلك؟".

أقعى أدهم إلى جانب أصلان ليكشف عن صليب بيزنطي هائل من داخل سترته، مطعَّم بالياقوت واللآلئ "لقد انتزعته من بضعة أناس شبه مجانين عندما كنا في بلغاريا. إنه يساوي ثروة لعينة، إنني أشعر بالأسى للتخلي عنه...".

"لكن الاتفاق يجب أن يحترم.." همس أصلان، وهو ينهض واقفاً على قدميه بصعوبة بالغة. أسنده أدهم ليقف منتصباً، ظهر وكأن جسمه الذي ناله قسط رهيب من التعذيب غير قادر على الإحساس بالألم. كانت جروحه سوداء ولكنها جافة: وبشرته جلدية رمادية منتظمة وتكاد تكون خالية من أية ندوب أو سحجات.

تكلم أصلان بحزم. "اذهب مع قومي يا أدهم. خذ نصف الغنيمة الآخر معك. لن أترك أتاكوي يضع يديه على أكثر مما هو ضروري ومحتوم! خلّص حياتك البائسة لهذه المرة واجعل لها قيمة. ساعد قومي."

"أنا في العادة لا أقدم أية أعمال خيرية. لكنك وغد طيب، رفيق سلاح ممتاز، وقد أنجيتني ومعي رفاقي من المصير الأسود. لذلك، فأنا مدين لك. أعطيك كلمتي كلص –وكجندي، أيها العقيد".

"أشكرك، يا أدهم. أين خبأت الجزء الذي سنعطيه للحاكم؟".

"سوف أريك...".

قاد أدهم الطريق إلى مسافة بعيدة عن حشود اللاجئين باتجاه شريط ساحلي صخري قريب من البحر، رفع بصره إلى أسوار المدينة، ليتأكد من أن أحداً لا يراقب تحركاته ثم قفز فوق الصخور وأشار إلى قطعة حبل غليظة، تتلوى في طريقها مثل سمكة أنقليس عملاقة تحت صخور مكومة بعناية دأبت أمواج البحر الأدرياتيكي ذات اللون الضارب إلى الخضرة على ملامستها برقة. "أنها هناك، تحت الرمال، ستعرف أنك قد وصلت إلى المكان الصحيح عندما تعثر على شريط جلدي أحمر. تلك هي البقعة. لا يمكنك أن تصل إليها إلا في حالة انحسار المد".

"تفكير طيب يا أدهم. فقط عندما تكون السفن قد أخلت الميناء بمسافة طيبة...".

"أنا لست غبياً".

عرج أصلان راجعاً فوق الصخور وهو يعاني من الآلام المبرحة.

"أعتقد أأني سوف..." دخل أصلان إلى البحر وقد أذهله المجهود الذي بذله في تفسير خطته، لسع الماء المالح أطرافه لكن برودة الماء خففت حدة الآلام في مفاصله، والقروح التي تملأ كتفيه.

شعر أنه إنسان جديد، وقد غسله الأدرياتيكي حتى نظف كلياً، نهض من بين الأمواج وهو يمسد شعره المتلبد ورفع وجهه نحو السماء. اندفع الفرح والانفراج من خلال جسده. فقد كاد واجبه يكتمل.

***

الفصل السادس عشر

قام عمر وتيمور بتمشيط شوارع المدينة الضيقة، بينما بحث أصلان، وحمزه وكمال في مخيمات اللاجئين خارج أسوار مدينة ميناء سبيك، باحثين عن شراكسة آخرين. حتى في الأيام القليلة التي تلت وصولهم، تضاعفت أعداد اللاجئين الذين يزحمون المدينة أكثر من مرتين. ففي كل مكان يذهبون إليه، كان المواطنون الأتراك يشتكون من أنهم بالرغم من كونهم أول الواصلين، إلا أنهم لم يحصلوا على مقاعد في السفن التي يمكن أن تحملهم إلى الأمان في وطنهم. فأي أمل بقي لهذا التدفق المستمر؟

كان أصلان ينعم بتجربة أول أيامه في الحرية. أدرك أن أيامه الباقية له في الحرية معدودة، وأراد أن يستغل كل واحد منها خير استغلال. فأخذ يتمشى متمهلاً ولكن بشكل متعمد باتجاه مخيم كبير بعيد عن خط الشاطئ حيث كان قومه ينتظرون بقلق إتمام الخطط لرحيلهم. كان هناك مخيم ثانٍ على مسافة أبعد على امتداد الشاطئ، قريباً من الميناء، الذي تشرف عليه أسوار القصبة العالية وحامية الحاكم العسكري، تشكل الامتداد الصخري الضيق المشرف على السفن الكبيرة الراسية في الميناء. لقد قاد القرب من وسيلة الهروب الناس إلى هذه البقعة.

بينما هو يسير ويستعلم عن أبناء جلدته، سمع أصلان قصصاً عن شباب يائسين يسبحون في الليل نحو السفن الراسية في الخليج. وقد غرق العديد منهم من شدة الإجهاد لعدم استطاعتهم قطع المسافة كلها، وألقي القبض على آخرين وأودعوا السجن لعدم وجود أوراق ثبوتية بحوزتهم. البيروقراطية، انعدام الاهتمام، الفساد: كل هذه الأمور شكلت الأسلوب الذي استمر فيه العقيد أورهان أتاكوي في متابعة مصالحه الشخصية وثرائه، وترك بقية السكان المدنيين لمصائرهم السوداء.

تذكر أصلان أمنيته السرية الأعز إلى قلبه حينما وطئت قدماه الإقليم العثماني في الروميلي، التي هي بلاد البلقان هذه. لقد تمحورت حول الاستعلام عن والديه، الحاج دانيل وماريان...

لقد ظل على يقين من أن فرص العثور عليهما كانت ضيقة جداً، ولكن بما أنه كان شاباً صغير السن حينما افترقوا، فقد ظل يهدهد الأمنية الخيالية في أنه سيدخل يوماً ما إلى قرية شركسية مصانة بشكلٍ منظم نظيف، وأنهما سيكونان هناك، جالسين تحت أشعة الشمس، بشعورهم البيضاء، يبتسمان، في دعة وأمان، ويحظيان برعاية محترمة. ملأت المرارة قلبه واعتصره الألم منذ قدومه إلى هذه الأرض اللعينة المنسية، لم يشاهد سوى الموت، الأمراض، النهب والسلب. لم تكن لديه أية فكرة عن عدد الشراكسة الذين ذبحوا أو توفوا نتيجة الأمراض في السنوات العشر الماضية. قدرهم بعشرات الآلاف –ربما حتى مئات الآلاف.

والدليل هنا. ففي كل مكان حوله رقدت مجموعات من الناس المرضى والمحزونين. كان الكثير منهم من مجموعات عرَقية أخرى. كان بإمكانه تمييز مجموعات كبيرة من مسلمي بلغاريا البوماك: بشناقيون تعرف عليهم من لغتهم الصربية–الكرواتية، ومسلمون البان أجبروا على الفرار من الأراضي الحدودية من قبل أهالي الجبل الأسود الكاثوليك، والعديد، العديد من المسلمين الصرب، لكن العنصر الرئيس الذي استخدم كحاجز بين الفئات المتحاربه، من بين هذه الجموع البائسة، كان من بني جلدته: الشراكسة.

من بين هذا الخليط العجيب من الكلمات، من كل مفردات البؤس، كان أحياناً يسمع عبارة من لغته. ولكن حتى حينها، كان من الصعب عليه إنجاز مهمته. لأن الناس كان ينكمشون ويمتنعون عن التحدث إليه. كان يتجه من أحدهم إلى الآخر، باحثاً عن شخص يرضى بالاستماع إليه. في قمة يأسه، اقترب من رجل طويل القامة أزرق العينين تحيط به كومة من الأطفال وعدة شيوخ وعجائز،

يحدقون في البحر بيأس من فوق الحافة الصخرية الواقعة تحت أسوار القصبة.

كان جلياً أن هؤلاء الناس لم يأكلوا أي طعام منذ أيام. لم تكن لديهم أية نار، لا علب للطبخ، مجرد بضع بطانيات رقيقة. كانوا قد فقدوا كل شيء، في مكان ما، في رحلة كابوسية، للوصول إلى هذه المرحلة الأخيرة.

ألح في طلبهم "لا داعي لأن تخافوا مني-لا تبتعدوا عني".

انكمش الرجل مبتعداً، وقد تجلى الرعب في عينيه. وهز رأسه نفياً.

لم يضغط عليه أصلان. بل سار ببطء فوق الحجارة ذات اللون الرملي، وجلس عليها، في محاولة لاستعادة توازنه النفسي. جاء طفل صغير وجلس إلى جانبه. فتاة صغيرة، على وجهها بثور، قدماها حافيتان، وملابسها ممزقة. ولأنها أقل شعوراً بالرعب من أبيها، شدته من كمه ومدت يدها، تستجدي.

أخرج بضع حبات من القطين من جيبه سراً وأعطاها إلى الفتاة.

قال بصوت ناعم خفيض، وبلغته الأصلية "إنني من الشابسوغ. اسمي أصلان بك... أصلان... فما هو اسمك إذن؟".

أجابته الطفلة، وهي فتاة جميلة في نواحي السنوات الست من عمرها بطلاقة "أنا نفيسه".

واختطفت الطعام بسرعة. تناولت قضمة من حبة قطين، ثم، وبجهد هائل للسيطرة على نوازعها مررت بقيتها إلى أختها، الطفلة الشاحبة ذات الأعوام الثلاثة.

صاح الرجل المذعور "اتركها بحالها! أنت جاسوس-ألست كذلك؟"

"كلا، بل أنا أصلان بك من الشابسوغ، ابن الحجي دانيل. لقد جئت لكي أساعدكم على الخروج والابتعاد من هنا. إسمع، ليس معي سلاح، لا شيء – مجرد قليل من الفاكهة المجففة. خذها، أرجوك".

على الأقل، فالرجل يتحدث إليه!

سأله أصلان "من أين أنتم؟".

أجابه الرجل بمرارة "نحن من الجحيم، من دوبروجا–بقينا فيها إلى أن جاء الروس".

"تلك على الحدود الصربية، أليست كذلك؟"

"نعم" أغرورقت عينا الرجل بالدموع "لماذا؟ هل أرسلت لكي تقوم بترحيلنا؟ أنت لا تنوي إعادتنا إلى هناك، أليس ذلك صحيحاً؟".

وصل الرجل إلى حافة فقدان المنطق، فقد كانت معاناته رهيبة إلى ذلك الحد. فقد تأصلت لديه فكرة أساسية مفادها أن الأغراب يريدون به شراً.

حاول أصلان أن يهدئ مخاوفه. "لست مضطراً لأن تخبرني باسمك. تعال فقط لتزور جماعتي. لدي عدة عائلات من الشراكسة برفقتي، مثل عائلتك بالضبط – نحن مخيمون على الشاطئ في الجهة الأخرى من البلدة. أرجوك أن تحضر وتتحدث مع جماعتي، اسمع ما لديهم ليقولوه لك".

هز الرجل رأسه رافضاً "كلا، نحن في أمان هنا. سنبقى على هذه الصخرة. لن يضايقنا أحد هنا".

"لكنكم ستموتون جوعاً".

"لا أحد سيضايقنا هنا".

نظر أصلان إلى زوجة الرجل في رجاء صامت. هزت رأسها. "لا فائدة ترجى. أنا لا أستطيع أن أتركه".

"ولكن ماذا عن أطفالك!".

"خذهم أنت" كان وجه المرأة هادئاً. واضح أنها موقنة بأن هذا هو واجبها، طريقتها الوحيدة لإنقاذهم.

في نفس اللحظة أثارت الفتاتان ضجة استرعت انتباه العديد من الأسر الأخرى الجالسة على الحافة الصخرية الجافة. "ماما! بابا! لن نذهب. لا نريد أن نذهب، فلا تبعدونا عنكم...!".

اهتاج الأب الشركسي، وانتابه حزن شديد إلى درجة أنه وضع يديه على أذنيه حتى لا تصل إليه اعتراضات الفتاتين الصغيرتين.

"اسكتيهما عن البكاء، يا أمهما! إذا أصدرتا أية ضجة فسوف يتم أسرنا! صه... أيها الأطفال! سوف يسمعنا الجنود!".

بدأت المرأة نفسها تنتحب. تجمع حشد صغير من باقي الشراكسة، جذبتهم صرخات يفهمون فحواها بعمق مؤلم، تحلقوا حول العائلة بأفضل ما يستطيعون على الحافة الصخرية الضيقة. ماذا سيحدث؟ من هذا الرجل الطويل المليء بالندوب وآثار الجراح؟ تجمهروا وتقدموا: أصبحت الحافة الصخرية مزدحمة بدرجة خطيرة. في الأسفل، كان المد يزحف والرغوة الخضراء تنمو وتكبر.

سرَّ أصلان بهذه النتيجة، فعلى الأقل أصبح لديه جمهور. رفع ذراعيه طالباً الهدوء، شغوفاً مصمماً. "استمعوا إليَّ! هنالك حشد آخر من الشراكسة – شابسوغ مثلي، مثلكم – يستريحون على الشاطئ الشرقي من سبيك. أتوسل إليكم أن تتبعوني وتلتحقوا بهم. أستطيع أن أعدكم بقارب – سفينة تحملكم وتفر بكم من هنا! أرجوكم أن تجيئوا وتتكلموا معنا. ربما تكون هذه طريقكم الوحيد للخروج من هنا!".

حمل الفتاتين الباكيتين. "اسمعوا، لا تتخلوا عن الأمل. إن هؤلاء الأطفال بحاجة إلى مستقبل. إن أمر استمراركم في محاربة مخاوفكم منوط بكم! لم يستسلم الأديغة مطلقاً، لقد حاربوا مئات السنين، ولا يمكنكم أن تسمحوا لهؤلاء المجرمين البائسين أن يهزموكم! تعالوا معي، استمعوا إلى خطتي، وبعدها اتخذوا قراراتكم.".

أحاطت البنت الصغيرة رقبته بذراعيها. "أعطني حبة قطين، يا سيد، ألا تعطيني حبة قطين؟".

أنزل أصلان الصغيرة نفيسه إلى جانب أمها، وهو يعاني من الآلام الجسدية والإجهاد العاطفي "سوف تحصلان أنتما الاثنتان على آخر حبات القطين التي بحوزتي إذا تبعتماني. أرجوك، أيتها الأم الشركسيه العزيزة، إذا جئت، فربما يتبعك الآخرون، خذي بيد الصغيرة نفيسه وتعالي معي. سوف أساعدك على طريق الحرية".

بدأ أصلان يقود هؤلاء اللاجئين الشراكسة بالاسترضاء، بالرجاء، وحتى أحياناً بتحريك من يتمكن من دفعه حتى يصطف خلفه، عبر الحافة الصخرية وحول أسوار المدينة نحو مخيمه.

إنتشر الخبر في طول سبيك وعرضها. لم يقم الموطنون الأتراك بأية محاولة للحاق بالشراكسة، مما شكل مؤشراً قوياً على مدى كراهيتهم لهم. بل اكتفوا بالمراقبة بفضول خامل بينما كانت الجموع ذات الثياب الرثة تمر من أمامهم، ربما اكتفوا بأن يفترضروا أن هؤلاء البؤساء يتجمعون بأعداد كبيرة لمجرد المعاناة أو الموت بين أبناء جلدتهم. في تلك الأثناء قرر تيمور وعمر أن لا يفترقا، بل يفتشان البلدة سوياً. كانت شوارع سبيك الضيقة في حالة هيجان، وكل يوم يضيف عنصراً جديداً ودرجة أخرى من الهلع. كل موجة جديدة من اللاجئين تأتي بالمزيد من أخبار الاعتداءات من قبل رجال الجبل الأسود. بغض النظر عن ماهية اتفاق وقف إطلاق النار في استنبول، فقد استمرت الاشتباكات هنا في الساحل

الإدرياتيكي، وظلت عمليات الثأر وتسوية الأحقاد المحلية القديمة قائمة.

كانت الشوارع شنيعة، وجوّها العام يحمل التهديد. كان تيمور، بوصفه جندياً مدرباً، أقدر على التناغم مع هذه الأجواء ذات الانفلات القانوني من عمر، وكان يعرف من ذكرياته عن الأيام الكابوسية في بلغاريا، أن شغباً أو مذبحة يمكن أن تبدأ في أية لحظة.

فقد وصلت الأمور إلى تلك النقطة من الفراغ الأخلاقي: فراغ كبير إلى درجة، أنه، باقترانه باليأس، فتح الاحتمالات على مصراعيها لأي شيء يمكن أن يحدث للبريء.

دفع هو وعمر بكتفيهما شاقين طريقهما من خلال البسطات شبه الفارغة في السوق. كان الطعام قليلاً وأسعاره ابتزازية. في الفسحات التي كان يمكن فيها عرض المنتجات الريفية على شكل أكوام، تكدست أكوام من المفروشات والأدوات المنزلية القيمة معروضة لبيعها بأثمان زهيدة.

فجأة، أبصر تيمور فتاة مليحة الوجه. كان أبوها، الرجل الناحل، يعرضها بيدين مرتعشتين على رجل تركي يرتدي ملابس أوروبية تحت معطف ثمين وعلى رأسه الأصلع طربوش أحمر.

استطاع تيمور أن يميز سترة الفتاة ذات التطريز الراقي —وهو اللباس المميز لفتاة ريفية شركسية، غادة شابسوغ عذراء.

اندفع وسط الحشد، مما سبب لعمر قدراً من الدهشة.

"ماذا بحق الـــ.." أعوزت عمر الكلمات وهو يمسح الحشود بعينيه —فقد اختفى تيمور وابتلعته الجماهير كما لو كانت لجة من الماء، ولم يعد يراه. ركض عمر إلى حافة شباك واستطاع بمساعدة صرخة هائلة أن يجمع ما يكفي من الطاقة لاعتلاء الإفريز. ذكره الصراع النابض الذي تلا هذا الجهد بمقدار حاجته إلى وجبة طعام

دسمة. تعلق بذراع واحدة على الشبك الحديدي الذي يحمي الشباك الحجري، باحثاً وسط الرؤوس المتنططة أمامه عن الوجه المألوف الوحيد الذي يحتاج إليه.

دفع تيمور بنفسه بفظاظة بين الرجلين التركي والشركسي "إنني قباردي! لا تتخل عن قريبتك - بإمكاني أن أساعدك! إسمع، أطرد هذا الرجل عنك. امنحني فرصة..".

لم يفهم الشركسي الكلام بسهولة، فقد كان حزنه على اضطراره إلى الاستغناء عن الفتاة أقوى من احتماله، وقد حطمت هذه المقاطعة أعصابه كلياً.

أخذت هي الأخرى تتوسل - ليسمح لها بالذهاب مع التركي! "يا تحمادا لا تصغي له! سأكون بخير - إنني عاملة مجدة وعندما تصل إلى الأمان، يمكنك أن ترسل في طلبي". استدارت نحو التركي متوسلة إياه بأصابع مطبقة. "أرجوك، يا شوكت باشا، لا تأبه لهذا الفظ! إنه لا يعني شيئاً بالنسبة لي!" بلغ الإحباط بتيمور إلى مداه. امتدت يده بدون تفكير إلى القاما واستلتها من غمدها، لكنه عاد وعدل عن هذا العمل بعد أن حسب عواقبه، فأعادها إلى غمدها بزمجرة غاضبة.

ولكن، على أية حال، كان التهديد كافياً لأن يبعد شوكت باشا مذعوراً، الذي رفض استرحامات الفتاة بأكفها المرفوعة إليه "إسمع، أنا لست بحاجة إلى البحث عن المتاعب. هنالك العديد من الفتيات الشركسيات اللاتي يمكنني شراءهن بدون مشاكل! آسف، أيها الشركسي، لكنك خسرت هذه الصفقة لصالح هذا الثائر! لماذا لا تقوم بتزويجها له ما دام على هذه الدرجة من الاهتمام!" جاءت ضحكة التركي محملة بالبذاءة، والنكتة التي قصدها واضحة. ربما كان رجلاً نزيهاً، ووحدها الأزمة دفعته إلى هذا الفجور: كان ذلك هو استنتاج تيمور، لأن رد فعل الشركسي جاء وكأنه قد أصيب بالذهول من هذا الكلام الجارح.

"لماذا يا شوكت باشا؟ كيف تجرؤ على التحدث بهذه الطريقة! لقد فهمت بأن ابنة أخي ستكون خادمة لدى والدتك!".

"ها! أيها العجوز الغبي!" هزّ شوكت باشا رأسه كأنما يوحي بأن لا حدود للغباء البشري، وتراجع مبتعداً ليختفي بين الحشود المتدافعة.

اضطر تيمور في هذه اللحظة إلى مواجهة غضب الشركسي ـ وهو شابسوغ آخر مثله.

"ما الذي تعنيه بتوجيهك الاتهام إلى الباشا التركي!" صاح فيه الرجل "أنت لا تعرفه مطلقاً! أين هي أخلاقك، أيها الشاب!".

قال تيمور، بصدق "إنني آسف، ولكن اسمح لي أن أشرح موقفي..." وشرح خطة الصعود إلى السفينة. وقفت الفتاة إلى جانبهما باكية.

اتكأ الرجل الشركسي إلى الجدار، وقد غطى وجهه بيديه، يتمتم ببعض تفاصيل محنته. لقد كان منهكاً، فقد شق طريقه نحو سبيك بنفس الصعوبة التي عانى فيها تيمور ورفاقه للوصول إلى هنا.

سأل تيمور "من أين جئتم؟" لكن الرجل كان أشد إرهاقاً من أن يعطي التفاصيل، فقد أكفهر وجهه بالمشاعر المتضاربة عندما سئل عن مثل هذه الترهات.

"لقد توفيت زوجتي. وتوفيت شقيقتي. وهذه ابنتها، فيروز. هناك أحد عشر شخصاً هم مجموعنا، ونقيم تحت الجسر... لقد أتت الجرذان على كل أطعمتنا. وجاء شوكت باشا يبحث عن خدم بيتيين...".

"وهل تعاقد مع كثيرات أخريات؟".

"أعتقد أنه يوجد العديد. لديه منزل جميل بداخل البلدة قريباً من القصبة، على ما يقول..."

"منزل جميل داخل البلدة، محض هراء" تفحص تيمور الناس المحتشدين بحثاً عن حليفه "عمر! يا عمر! إنني هنا!".

فجأة، لمح عمر، وهو ما زال متعلقاً من شباكه، تيمور الغاضب يأمره أن يخترق الحشد المتدفق. غاص عمر وقد غمره السرور وسط المعمعة وانتهى به المطاف على الجانب الآخر من الطريق، وقد احمر وجهه من الانفعال، تعلو وجهه ابتسامة ظفر.

"هذا هو صديقي عمر" قال تيمور "إنه قباردي أيضاً. أديغه – نحن كلنا أديغه. والآن، إذهب يا عمر مع هذا الرجل الفاضل إلى قومه، وأرشدهم جميعاً إلى مخيمنا على الشاطئ. لدي مهمة صغيرة يجب علي أداؤها. سوف ألحق بكم سريعاً".

ترك تيمور عمر فاغراً فاه، لكنه لم يكن كثير الامتعاض لكونه سيقود فتاة جميلة شابة "والتحمادا" عائداً بهما إلى الأمان. فأدى الدور وظهر بمظهر "الفارس الشهم" بشجاعة أصيلة واهتمام. وجد كل من فيروز وخالها أن مخاوفهم تتلاشى ببطء واستمعا إلى كلماته المشجعة أثناء عودتهما إلى مخيمهما.

في هذه الأثناء، طفق تيمور يتصيد في هذه الناحية وتلك حتى لمح الشكل الطويل النحيل لشوكت باشا، يمشي بخطى متمهلة عابراً زقاقاً آخر من أزقة السوق. توقف شوكت باشا بين الفينة والأخرى ليفسح المجال لرجال يتقاتلون أو يتساومون حتى يمروا: متعالياً، غير مهتم ولا معني بالرعب الذي يخيم على مشاعر الناس من كل جهة حوله. كان تركياً أدرياتيكياً نموذجياً: انتهازياً، يتقن أربع لغات على الأقل، جاهز لشحن أية سلع أو التعامل بها في أي وقت – وبفضل هذه الحرب، تصاعدت أرباحه وتعاظمت طيلة الوقت.

ترصده تيمور وهو يضمر له القتل في قلبه. شيء ما في ملامح تلك الفتاة ذكره بذلك المخلوق المسكين الآخر، آدايف، التي

أنقذها هو وأصلان من مخالب الموت في قرية الموت تلك في بلغاريا.

تسامى قلب تيمور وامتلأ حبوراً بداخل صدره. عندما حدث ذلك، كان مجرد صبي (بدا ذلك وكأنه قبل سنين طويلة). لم يفهم وقتها تضارب العواطف الذي اجتاحه خلال رحلته المبتسرة طلباً للنجدة والتعاطف خلال جبال البلقان. ولكنه فهم الآن لماذا كره احتمال الأذى الذي يمكن أن يلحق بهذه الفتاة المهزولة، فيروز، والأخريات اللواتي على شاكلتها، لقد حدث ذلك لأنه قادر على الإتيان بأفكار وأخيلة شهوانية مغرية، واحتقر أي رجل يخضع لمثل هذه الغرائز البدائية. ثم هناك ماجده. نعم. لقد كانت أكثر امرأة جديرة بالإعجاب قابلها في حياته – وقد أحبها بنفس القدر الذي أحبها به أصلان نفسه، تقريباً. ربما أحبها أكثر، لأنه رأى فيها الشريك المثالي لقائده المحبوب أصلان، وارتضى لنفسه بالحب غير المتبادل.

تهاوى صوت أدايف الغنائي العذب إلى أذنيه مثل مرثية طيف. ثم تلاه صوت ماجده الأهدأ، الأكثر إقناعاً وثقة مستجيباً بالضحك. هذه كانت أصداء حلوة في داخل رأسه مثل غناء الحوريات، لا تشده نحو الدمار بل باتجاه الانتقام المحق.

انتظر الفرصة السانحة بدون استعجال. توقف شوكت باشا لتناول فنجان من القهوة في سوق صغير ليقرأ جريدة إيطالية – الصفحة التي تنشر أسعار السوق السائدة للمواد الغذائية الأساسية في الإقليم.

تسلل تيمور إلى داخل الحانوت بعد إيماءة صغيرة مؤدبة إلى صاحب المحل. طلب كوباً من الماء بصيغة اعتذارية. امتعض وجه صاحب المقهى لكن لأن تيمور شاب بهي الطلعة، لم يستطع الرجل أن يفشله، ولذلك قدم له كوب الماء. شرب تيمور بسرعة. ثم، بدون

أن يلاحظه أحد، اتخذ موقعه خلف جسم شوكت باشا، الذي كان متكئاً بكل سهولة إلى البلاط الأزرق الذي أشعره بالبرودة.

همس له تيمور "لدي القاما، وهي مصوبة إلى منتصب أسفل ظهرك. وكذلك مسدسي المحشو موجود في حزامي. فقط تحرك خارجاً من هنا بكل هدوء، يا شوكت باشا، وإلا فإنك ستموت". طوى التركي الصحيفة بعناية ثم مشى خارجاً من المقهى، وتيمور يتبعه كظله.

بدأ شوكت باشا يتكلم، وهو يلوي رأسه إلى الخلف لعله يحظى بمشاهدة مهاجمه "إسمع، لقد كنت أحاول أن أسدي إلى الرجل العجوز صنيعاً..."

"إخرس. خذني إلى الفتيات الأخريات".

"ها! وماذا تظنني؟".

ضغط تيمور على القاما بما يكفي لأن تشق ثقباً عبر طبقات ثياب شوكت باشا المخيطة بذوق رفيع، وتقرض في لحمه، ليس بعمق - ربما بمقدار نصف بوصة. لكن المؤكد أن تيمور قد مزق لحم هذا الرجل الأنيق الحسن الهندام، بحيث أرعبه حد الموت.

كان تيمور قد خمن بشكل صحيح أن شوكت باشا كثير الكلام والمهاترة لكنه يخاف من العنف الجسدي بما لا يطاف. تجمد وجه التركي بلحظة عنف مرعبة مفاجئة. انفتح فمه وانغلق بينما هو يحاول جاهداً أن يند عنه صوت يطلب النجدة والعون. لكن صوتاً واحداً لم يخرج.

"لا بأس عليك، أيها الحثالة. لم أقتلك. لكنني سأفعل، على الفور، إذا لم تنطلق ماشياً".

"إنني أنزف!" تلعثم شوكت باشا. ربما كانت هذه هي المرة الأولى التي أجبر فيها على التفكير واعتبار نفسه من دم ولحم مثل

كل الآخرين، مثل كل الناس المساكين والفقراء الذين ظلمهم واستغلهم.

تمايل وكأنه على وشك أن يغيب عن الوعي، ممسكاً بخاصرته. حتى يتأكد تيمور من أن الرجل لا يخادع، تراجع تيمور وانتظره حتى يسقط على الأرض. انهار شوكت باشا إلى جدار، وقد فقد السيطرة على نفسه كلياً. مما سهل على تيمور الوضع برمته إذ احتواه بذراعه، وكأنه مخمور أو مخدر، ثم دفع القاما بحزم أكبر داخل تجويف الرجل الصدري الهزيل.

"حسناً، هيّا انطلق".

استمر شوكت باشا في التمتمة وهو في حالة ذهول غبي: "إنني أنزف!" لكنه احتفظ بما يكفي من الحرص على حياته بحيث نفذ ما طلب منه. تقدم الرجلان ببطء (ويسرعان الخطى كل هنيهة عندما يدفع تيمور القاما أقرب إلى لحم الرجل) حتى وصلا إلى بوابة مهيبة من الواضح أنها مبنية داخل سور القصبة نفسه.

كان هذا مقر إقامة شوكت باشا- وهو قصر صغير كان فيما مضى جزءاً من أمكنة إقامة حكام سبيك. كنت البوابة مشغولة بأعمال حديدية فنية تثير الإعجاب، وبشبك حديدي فوق القوس الحجري، تناهت إلى سمع تيمور من خلال هذه البوابة الفخمة، أصوات عدة فتيات باكيات يطلبن المساعدة.

لم ينتبه أحد من المارة في هذا الطريق المتلوي الضيق. فقد كانت صرخات النساء أمراً غاية في الشيوع هذه الأيام.

وجه تيمور ركلة قوية إلى مؤخرة شوكت باشا . "المفتاح".

قام التركي بحركة عبثية على أحدى جيوبه، لكنه لم يعثر عليه. دفعه تيمور إلى أحد الجدران، فتشه، وعثر على المفتاح.

الفوضى مطبقة في الداخل. فقد كانت هناك حوالي عشرين فتاة محشورات في غرفة أمامية خلف أبواب مقفلة من الحديد

المطروق. وقف اثنان من خدم الباشا حراساً. عندما شاهدا تيمور والدم المتفصد من خاصرة سيدهما، ألقى كلا الرجلين حزمتي مفاتيحهما وعصاتي الضرب وانطلقا يجريان في الممر المؤدي إلى الفناء الخلفي للمنزل. قال تيمور بمرح:

"سوف يقفز هذان الاثنان من فوق سور حديقتك فارين! أشك في أنهما سيعودان ومعهما أية تعزيزات".

خطف رزمتي المفاتيح عن الأرض ليفتح الأبواب، يخرج الفتيات المذعورات، ويحبس شوكت باشا في مقصورة نسائه.

تعلقت الفتيات ببعضهن في رعب، وهن يتعجبن مما سيحدث لهن تالياً.

أمرهن تيمور قائلاً "ارجعن إلى أهاليكن، أرجوكن، وأخبروهم أن هناك عائلات شركسية تتجمع عند الشاطئ الضحل-الكائن في آخر مدينة سبيك. لا تتأخرن، فليس لدينا الكثير من الوقت" ثم حثهن مضيفاً "أخبرن أهاليكن بأنه توجد سفينة تنتظر لتحملكم جميعاً إلى مكان آمن. هيا نفذن ما اقوله، الآن، هذه هي فرصتكن الوحيدة في الهروب!" فتح الباب الذي يفضي إلى الشارع وظل ممسكاً به. ظنت الفتيات الذاهلات أنها مكيدة. فلم تغادر واحدة منهن البيت. بدأ بعضهن بالبكاء. أصيب تيمور بالإحباط قال: "إنني قباردي. الناس الذين بصحبتي، إنهم من الشابسوغ. صدقوني، أريد أن أساعدكن وليس لدينا الكثير من الوقت".

أفلتت إحدى الفتيات، جميلة ذات وجه يشع بالذكاء والعينين الخضراوين الضاربتين إلى الرمادي، من أترابها، وخاطبته بنبرات خجولة متقطعة "إذا كنت تخبرنا بالحقيقة، فلا بد وأنك تعرف كيف وصلت عائلاتنا إلى تركيا".

"أنا حقاً أعرف. لقد أعطى الجنرالات الروس إلى قومكم الخيار بين الارتحال إلى مستنقعات الكوبان أو التهجير إلى تركيا.

وقد اختارت عائلاتكم تركيا. لكنكم شحنتم مباشرة إلى الروميلي، على قوارب تركية".

استطاع تيمور، رويداً رويداً، وبقوة المنطق المتأنية عن شرح تاريخه الشخصي، أن يقنع الفتيات بأنه ليس جاسوساً أو عميلاً تركياً مأجوراً. بدأن بطرح الأسئلة عليه، واحدة إثر الأخرى، لكن لم تتحرك ولا واحدة منهن إلى خارج الرواق.

صاح شوكت باشا من سجنه "لا تستمعن إليه! أنتن لا تعرفن شيئاً عن هذا الشخص! لقد دفعت لعائلاتكن مبالغ نقدية مجزية! سوف أعثر لكن على وظائف محترمة، وربما أزواج محترمين! هل أسأت معاملتكن؟ ألم أطعمكن جميعاً ولعدة أيام؟".

استدار تيمور نحو التاجر الشرير الذي كان يجوس جيئة وذهاباً، غاضباً من أن يجد نفسه سجيناً في منزله. تحداه تيمور قائلاً:

"إذا كان الأمر كذلك، يا شوكت باشا، فلماذا وضعت الحراس ليراقبوا هاته النسوة الشابات؟" شعر شوكت باشا بالانتصار في النقاش "من أجل سلامتهن! ليست سبيك مكاناً ملائماً لفتيات مسلمات محترمات صغيرات السن يتجولن في شوارعها بدون أصدقاء! لقد ائتمنني أهالي هاته الفتيات عليهن! وأنت شاب شرير لكونك تحاول أن تلغي وصاية الأهل عليهن!".

أمسك تيمور برأسه بقوة. ماذا يمكن أن يقول أو يفعل ليقنع هاته النسوة بأنهن على وشك السقوط في فخ من الرذيلة، قد لا يتمكنَّ من الهروب منه إطلاقاً؟

في النهاية، ألهمته المأساة فكرة النجاة "هل تسمح مجرد اثنتان منكن بالخروج من هنا والعودة بآبائكن حتى أتحدث إليهم؟ هل تذهب اثنتان منكن إلى الشاطئ، وتشاهدان بنفسكما ما يجري هناك؟ سوف أبقى أنا هنا - في الواقع، بإمكانكن أخذ هذه المفاتيح - إحبسنني خلف هذه القضبان مع هذا المجرم هنا، وسوف أنتظر

حتى تتأكدوا من صحة قصتي إلى حد الإقناع!" ألقى بالمفاتيح إلى الأرض، وركلها. انزلقت على الأرضية المبلطة حتى توقفت عند أقدام النساء لشركسيات ذوات الشبشب.

انحنت الفتاة التي كانت قد تكلمت أولاً، ذات العينين الخضراوين - الرماديتين، والتقطت المفاتيح. تحسست المفاتيح، وهي تديرها واحداً بعد الآخر حول الحلقة المعدنية التي تعلقت بها. أشارت إلى الفتيات أن يبتعدن - فأسرعن إلى الممر المؤدي إلى جناح الخدم، حيث تهامسن في انفعال ظاهر.

في نهاية الأمر، عادت إليه ذات العينين الخضراوين - الرماديتين. تحدثت إليه بنبرات خفيضة مترددة، مركزة بصرها على الأرضية، وقالت بكلمات لم تعوزها الشجاعة "سنفعل ما تقوله. ستذهب اثنتان منا إلى الشاطئ. وتذهب اثنتان إلى عائلاتنا. تفضل البقية البقاء هنا، حتى يقتنع بشكل قاطع ويتم اصطحابهن بطريقة ملائمة. نحن لا نريد أن نحبسك مع شوكت باشا، لأنه حانق جداً وربما يرغب في مقاتلتك. ولكن أرجوك، اسمح لنا أن نبقيك في هذا الصالون الخصوصي، كما أننا سنقفل الباب الأمامي حفاظاً على سلامة صديقاتنا".

"حسن جداً - سوف أحترم رغباتكن" صعد تيمور إلى الطابق الأعلى تنفيذاً للتعليمات، مع أنه أحسّ بفراغ الصبر بسبب تفكيره بالشراكسة الآخرين الذين كان يمكنه العثور عليهم وإقناعهم بالمساعدة أثناء حصول كل هذا التدقيق في صحةِ أقواله.

صالة شوكت باشا في غاية الفخامة، كان الضوء المنعكس من البحر يترقرق على السقف في أشكال معينية من البريق، نافذاً من خلال ثقوب مصاريع النوافذ. وتتألف عناصر الزينة الرئيسة من قطع سجاد ثمينة وآنية زجاجية من صنع مدينة البندقية. على الرغم من نفاذ صبره وعجالته، لم يستطع تيمور أن يقاوم الاستلقاء على أريكة عثمانية مزوقة بالأغطية والوسائد الحريرية والمخملية،

وخلال دقائق قليلة، غط في نوم عميق لتعويض ما فاته. في تلك الأثناء، كان أصلان ينتظر على الشاطئ بقلق. بات منهكاً من رحلته عبر المدينة، لكن ظهر أن الشاطئ قد بدأ يمتلئ بالناس بما يفوق توقعاته – أحصى أكثر من خمسين عائلة شركسية جديدة. كل ما بقي له ليفعله الآن هو انتظار الأخبار حتى يبدأ بلعب دوره.

لم يستطع أن يشاهد تيمور في أي مكان، لكن عمر عاد في آخر الأمر مصطحباً خمسين شخصاً – عائلات مختلفة في حالة صحية مزرية، يكاد بعضهم يهلك من الجوع أو ينهار من الإرهاق.

قال أصلان "حسناً فعلت" ليشجع عمر، الذي ظهر عليه الانبهار من حجم المعاناة الذي كان يشهده قال عمر "أصلان بك... إنني قلق على تيمور. لقد انفصلنا – أرسلني لإحضار هذه العائلات، بينما ذهب هو مقتفياً أثر رجل تركي، باشا غني شرير. لنفرض أن مكروهاً قد أحاق به؟".

هز أصلان رأسه نفياً "إن تيمور ذكي واسع الحيلة وغير متهور. سوف يعود، فلا تقلق".

مسح أصلان الشاطئ بعينيه، فجأة، وبدون مقدمات، أخذ المكان يمتلئ بالناس بأعداد مذهلة. أصبح العدد أكبر بكثير من حمولة سفينة واحدة. أصبح يقلق من أن يرفع أورهان أتاكوي ذراعيه يأساً. ولكن الغنيمة.. لم يبق إلا أن يأمل في أن يتمكن طمع أورهان من تحقيق أمنيته.

حضر أدهم، دافعاً الناس من أمامه، مطلقاً الشتائم بحرية في نفس الوقت. "اسمعني هنا، ألم تحصل على ما يكفيك؟ ما الجدوى من الانتظار؟ سوف يظن العقيد اللعين أنك قد نقضت الاتفاق وهربت إن لم تعد في وقت مبكر!".

لم يبد على هذا الخائن أن معرفته باحتمال عودة أصلان إلى تلقي حكم بالإعدام، تضايقه بأقل قدر. انفرج وجه أصلان المكدود

عن ابتسامة "لقد كنت أعجب متى ستبدأ في القلق على نفسك مرة أخرى. لقد كانت فترة ظهور أحاسيسك النبيلة قليلة جداً".

"حسن، لقد قلتها بنفسك – أنت هالك لا محالة! فما فائدة إضاعة الأنفاس والكلمات!".

"فعلاً. ولكن يا أدهم – أريد منك شيئاً واحداً. إن هؤلاء الناس في حالة جسدية مزرية. أعتقد أنك ستضطر إلى الاستغناء عن بعض الذهب قبل أن تصعدوا إلى السفينة جميعاً. إذا أحسّ الحاكم بأن هناك أي نوع من الأمراض – أو الأوبئة – بين هذا الجمع، فإنكم لن تغادروا على الإطلاق".

زمجر فيه أدهم "أعمى الله عينيك، تظن أنك في غاية الذكاء أيها اللعين، وأنت تخبرني كيف أنفق نقودي على هذه الزمرة البائسة!".

"حسناً، إما أن تفعل أو تترك الأمر". لم يتزحزح أصلان عن مقعده فوق لفة الحبال. كان يعلم أنه حشر أدهم في زاوية، وأنه سرعان ما سينفذ ما طلب منه.

"أوافق" قال أدهم أخيراً، مع إطلاق كتلة البصاق المعتادة "ولكن هذه المرة فقط".

"حتماً. إن نيتي تتجه للعودة إلى الحامية غداً – بمجرد أن يعود تيمور، وأتمكن من إنهاء لائحة الأسماء. والآن أتركني بحالي، يا أدهم – لم لا تصطحب مجموعة من الرجال وتحاول أن تعثر على ما بقي من طعام في هذه المدينة التي تخلى الحق تعالى عنها!".

زمجر أدهم وأطلق سيلاً من السباب، لكنه نفذ ما أمر به. كان قد ألقى نظرة فاحصة متعمقة على مرفأ سبيك، الفوضى العارمة والفزع، واستنتج أن أصلان على حق – وأن أفضل فرصة له تقع في حصوله على مغادرة منتظمة وبأوراق رسمية. فقد كان يوجد العديد جداً من الجنود الأتراك المستعدين لإطلاق النار لمجرد

للتسلية (والعديد من الهاربين من القانون) مما يجعل دروب الفرار البديلة تبدو غير مغرية أو جذابة على الإطلاق.

تمدد أصلان تحت الشمس، يستمع إلى لعق المياه للشاطئ عند قدميه، وحضور الشراكسة المخفوت الذي بالكاد يسمع. فقد كانت قدرة هذا الجمع الكبير على خلق مثل هذا الجدار من الصمت أمراً يحمل على الإعجاب. إذ كان بإمكان الشخص أن يسمع طنين نحلة على هذا الجانب من الشاطئ. جلس الشراكسة في مجموعات عائلية. يتلون الصلوات، ينامون، يواسون مسنيهم وصغارهم. كان معظم الأطفال الأصغر سناً في حالة من الوهن بحيث لا يستطيعون أن يشتكوا أو يبكوا. إن أدهم محق في نفاذ صبره على المغادرة: أدرك أصلان أن هذه الجموع قد وصلت إلى نقطة الانهيار الكلي.

نقر أحدهم على كتفه بلطف. نظر إلى الأعلى ليجد عينين خضراوين – رماديتين تحدقان في عينيه، انحنت امرأة شابة فوقه، تحمل على محياها ملامح استفسار خجول. عندما صفا بصره واستطاع أن يراها بجلاء وتركيز، رفعت شالها إلى ملامحها الراقية في خفر. احتفر ألم حاد لنفسه مكاناً في صدره، ماجده، ماجده...

"إن إسمي هو يلمزخان، لقد جئت من قبل – صديقك الشاب، تيمور..."

استند أصلان في جلسته بسرعة "هل تحملين رسالة منه؟ هل هو يتعرض لأي خطر؟".

"لا، إنه – ينتظر. هناك العديد من الفتيات الشركسيات اليافعات بصحبته. نحن – نحن لم نصدق روايته وكنا خائفات من مغادرة المنزل..."

"ولكنك تعلمين الآن أنه يقول الحقيقة".

"نعم يا سيدي... إنني آسفة".

"لا داعي للأسف. لكن ليس لدينا الكثير من الوقت. تعالي، دليني على الطريق، وسوف نقوم بإحضار صديقاتك إلى الأمان".

استدار أصلان نحو جماعته "عمر! حليمه! تعاليا معي!".

اقتيد ثلاثي الأصدقاء بسرعة خلال الشوارع الشريرة البشعة لمدينة سبيك، إلى منزل شوكت باشا. استجابت الفتيات اللاتي بقين في المنزل إلى صوت يملزخان وفتحن الباب بين صرخات الانفراج. "آه يا يلزمخان! إنه لم يتوقف عن قول أشياء رهيبة لنا! نحمد الله على سلامتك! الحمد الله والشكر!".

كان شوكت باشا قد نفَّس عن الكثير من المرارة على هاته النساء الصغيرات المذعورات الباقيات في البيت: فقد ضعفت مقاومتهن وأعصابهن إلى ما يقرب من نقطة الإفراج عنه.

"أين هو تيمور؟".

"لقد احتجزناه في الطابق العلوي... كرهينة". قالت فتاة يافعة تنام على أحد كتفيها جديلة ذهبية سميكة.

قالت أخرى لفت كتفيها بشال أحمر فاقع "هذه هي المفاتيح، يا تحمادا".

ضحك أصلان – مدللاً مرة أخرى على قدرة مذهلة على المرح وسط الأزمة "حسناً، يا فتياتي الجميلات، يبدو أنكن قد توليتن إدارة هذه المسألة بشكل جيد جداً...".

صعد الدرجات بصعوبة، وفتح الباب على مساعده العسكري. انتفض تيمور جالساً، ويده على القاما. "على رسلك، أيها الجندي" ابتسم أصلان في مزاج طيب "يبدو أنك تمكنت من ملء سفينة ثانية لي أثناء نومك!".

استطاع تيمور بعد لأي، أن يعثر على ساقيه فنهض وألقى بذراعيه حول أصلان للمرة الأخيرة، لحظتهما الودية الخصوصية

الأخيرة، بعدها توليا قيادة الجمع عائدين إلى الشاطئ عبر بلدة سبيك.

تلك هي المرة الأخيرة التي تحادث فيها أصلان وتيمور سوية بمرح وحبور. لأنه خلال ساعات، كان أصلان وتيمور قد قادا الحشد الشركسي بأكمله إلى ناحية ميناء سبيك، وأنهيا قائمة الركاب في السفينة.

صعد أصلان إلى بالة بضاعة، حتى يودع قومه.

حثهم بقوله "ليعتني كل منكم بالآخر. لا شك أن بينكم أناساً شجعان رائعين. لقد عينت تيمور قائداً جديداً لكم. لقد أثبت جدارته الحقيقية كأديغه أصيل للعديد منا، على الرغم من حداثة سنه. أرجوكم، لا تسمحوا لأي خلاف أو صراع داخلي أن يقسم صفوفكم. أنتم محظوظون إذ بقيتم على قيد الحياة: فقد مات العديد من أفراد عوائلكم واصدقائكم، من أجلهم، من أجلي، كونوا شجعاناً، كونوا واثقين، وانجوا بأرواحكم".

ساعد الآخرون أصلان على النزول، وسط عويل من الحزن واليأس. أدرك أنه مضطر للمغادرة على عجل. عرف هذه الحقيقة أقرب الناس إليه أيضاً: حليمه، تيمور، عمر، ساكنات، وتسوك - سيطر الكثير من الآخرين على مشاعرهم، بينما تفيض أعينهم بالدموع، وهو يلوح لهم مودعاً.

لم يلمسه أحد منهم، لأن ذلك كان سيجعل توديعه أكثر صعوبة بكثير.

بالإضافة إلى أن النساء عرفن أن اللمسة الجسدية الوحيدة التي كانت تعني كل شيء بالنسبة لأصلان، قد حرمت عليه.

إبتسم أصلان لكل أصدقائه الأعزاء، ثم طواه الليل. مشى لوحده باتجاه الحامية خلال الشوارع الكئيبة، كأنما يرتحل إلى الجحيم، لكنه كان يثق بخلاصه الشخصي. فهناك، في مكان ما،

ينتظره حب عظيم، وفي نهاية الأمر، سوف ينضوي داخل نور الحب النقي... الله أكبر، لا إله إلا الله، ولا حياة إلا حياة الخلود.

قدمت شوارع سبيك رؤيتها الكابوسية لأسوأ ما في الحياة البشرية. الطمع الذي لا يعرف الحدود، الكآبة واليأس: وجوه حزينة، أجساد تالفة، أكواخ قذرة. كان الميناء يستسلم إلى جو تفوح منه روائح انتصار الشر، على كافة الجهات.

شعر بالسعادة لمغادرته هذه الحياة.

كانوا بانتظاره في الحامية. قاد الخفراء أصلان مباشرة إلى حضرة أورهان أتاكوي. وضع أصلان قائمته المحتوية على الأسماء الشركسية على طاولة المكتب، بينما قام أورهان بإشعال سيجارة معطرة، وصب لنفسه كأساً من العرق. هتف أورهان صائحاً:

"لقد أيقنت بطريقة ما أنك ستعود ولا بد. يا إلهي الطيب، ما هذا يا رجل! هناك المئات منهم!".

"يا أورهان، الاتفاق ملزم، لقد أعطيتني كلمتك. أنظر، إليك هذه العينة..."

حلّ أصلان أزرار سترته وأخرج الصليب البيزنظي، المطعم بالياقوت واللآلئ –بالدم والدموع، كما بدا له.

جحظت عينا أورهان بالجشع، "استثنائي..." تمتم لنفسه. ثم التوت شفتاه في قرف وامتعاض "أمر مثير للغضب، كل ذلك التزوق والتباهي بالنسبة لقسيس...".

"أعرف ذلك. يمكنك طبعاً أن تطلب إذابته...".

"نعم..." فكر أورهان للحظة قصيرة باقتراح أصلان، وكأنهما تاجران في حانوت للقطع الفنية الراقية، وليس سجاناً واسيره.

"آه، حسناً يا أصلان" أطلق أورهان تنهيدة طويلة. كان يمتلك سرور السادي ضمن "كرمه" المتعمد. "سوف نحتاج إلى سفينتين وليس فقط إلى واحدة لتكفي لحمل كل هؤلاء الناس. ذلك مكلف يا صديقي، إضافة إلى أنه صعب التحقيق".

تحسس أورهان قطع الياقوت والجواهر المغروزة في الصليب مرة بعد الأخرى وعيناه تقدحان.

"سفينتان. وماذا في ذلك. لأجل صديق قديم...؟".

"أشكرك يا أورهان، ولكن، في الحقيقة، فإن الله سبحانه وتعالى سيكافؤك أكثر مما أستطيع...".

"أوه، لا تكن فاضلاً، يا أصلان، استرخ. هذه آخر ليلة لك في الحرية". شرب جرعة كبيرة مطولة "حسناً، والآن وقد نفذنا لك طلبك. أين هي الأموال؟ المجوهرات؟ الجزء الذي يخصني من الاتفاق؟ أين هو يا أصلان؟".

وصف أصلان موقع "النصف الأول" من الغنيمة. أصدر أورهان أوامره إلى الخفراء بالذهاب إلى الشاطئ والحفر لإخراجها على الفور.

رفع أصلان يده "سوف يتحتم عليك الانتظار، حتى ينحسر المد، يا أورهان. لن تستطيع أن تصل إلى الكنز إلا وقت الجزر. أريد أن يصعد قومي إلى السفن هذه الليلة - يجب أن تكون السفينتان قد خرجتا من الميناء، جاهزتين لرفع المراسي - لا خدع، سوف ألزمك بالحفاظ على وعدك".

لدهشته المطبقة، وجد أورهان نفسه متأثراً بهذه المطالب والاحتياجات.

"حسن جداً يا أصلان! أهنؤك على رقيك! تناول معي كأساً من العرق".

تردد أصلان. فهو إذا رفض سيخاطر كما لو أنه يلقي بقطعة نقد في الهواء: بقلب "المزاج الشهم" لأورهان إلى جنون يتخذ مساراً آخر. تمتم لنفسه قائلاً: سامحني الله، وتناول القدح. ماجده، أغفري لي.

احرق العرق شفتيه، لم يستطع أن يشربه، ضحك أورهان.

"آه يا صديقي المسكين...!" وكما تنبأ أصلان، انقلب أورهان إلى مزاج عنيف. بإشارة صغيرة منه، أمسك الحراس الواقفون خلف أصلان بكتفيه ومنعاه من الحركة، وأجبروه على إرجاع رأسه إلى الوراء. وقف أورهان قبالته حاملاً قنينة العرق، ثم أغلق منخريه ودفع بالكحول في حلق أصلان. أحرقه السائل: تقيأ: كاد يختنق. جعله الإحساس بالسائل الشرير يفور في معدته يحس بالغثيان.

كانت عملية الإذلال القصوى في بدايتها.

فقد إحساسه بالوقت. في وقت ما من الصباح التالي، اندفع الزبانية إلى الزنزانة التي جروه إليها في إحدى لحظات الغياب عن الوعي.

"إنهض"

"ما الأمر؟"

"إخرس. اخرج. اصعد الدرجات..." لكزه أحد الحراس ليجبره على التحرك بسرعة أكبر. تعثر أصلان من زنزانته وتهالك صاعداً الدرج الحجري الذي أصبح مألوفاً لديه، ويؤدي إلى جناح أورهان. لكن الحرس أغلقوا طريقه عندما وصل إلى المتاريس العليا.

لم يتمكن أصلان من فتح عينيه في نور الشمس المبهر

سألهم "ما الأمر الآن؟"

"انتظر هنا."

خشي أصلان للحظة أن يجري إعدامه بشكل ارتجالي هناك وفي نفس اللحظة. وقف مستنداً إلى الجدار، يرتعش لا إرادياً.

لكن ذلك كان جزءاً من إجراءات أورهان أتاكوي المتعمدة. أجبر أصلان على أن يقف في حالة تهيؤ لمدة ساعة كاملة، تحت أشعة الشمس الحارقة المباشرة، فوق تلك التحصينات الحجرية المطلية بالجير الأبيض. جاء الخفراء وذهبوا عند تبديل نوباتهم، بدون أن يتعب أحد منهم نفسه بمجرد النظر إليه. إلا إذا تحرك من موضعه ووقفته، وقتها كان أقربهم إليه يضربه بعقب بندقيته ليعدل من وقفته.

بعد انقضاء الساعة، ظهر أورهان أتاكوي. "يا أصلان، ما الفائدة من وقوفك معطياً ظهرك للخليج؟"

لحظتها فهم أصلان. بينما هو يتحمل مخاوف إعدامه. تحركت السفينتان اللتين تحملان شحنتهما الثمينة بقوة محركيهما، إلى خارج مرفأ سبيك. فقد انحسر المد. انفتل بجسمه إلى الوراء، مواجهاً البحر وهو يكاد يغيب عن الوعي بينما يداه تمسكان بحجارة المتراس الساخنة.

شكلت السفينتان على بعد عدة فراسخ خارج الخليج، ريشتين من الدخان بينما هما تتجاوزان الأسوار القديمة التي بنتها إمارة البندقية متجهتين نحو البحر المفتوح على مداه، وقد نشرتا أشرعتهما، وانطلق محركاهما يعملان بأقصى قوتهما.

كاد أصلان أن يشرق بدموعه، وبدأ يؤدي صلاة امتنان صامتة في قلبه.

أمسك أورهان بصحيفة ورق، هي قائمة ركاب السفينة، رفعها قريباً من وجه أصلان، حتى يجعل اللحظة أكثر إمعاناً في الحزن، وحجب بها قدرته على رؤية الخليج. كانت قائمة الركاب قد

استنسخت بالتمام والكمال من قبل كاتب رئيس الميناء، وتم توقيعها حسب الأصول. كل واحد، كل واحد، كان قد ارتحل.

قال أورهان "لقد وفيت بوعدي، يا أصلان" بنبرة المريض العصابي الخفيفة، التافهة.

أجابه أصلان بمنتهى الاحتقار "وقد كوفئت بشكل جيد".

"كوفئت؟ يا أصلان؟ ما الذي تعنيه؟ أنا لم أحصل إلا على نصف (عمولتي) على هذه الشحنة الصغيرة...".

"أخشى أن ذلك غير صحيح، يا أورهان. الأمر كما ترى، هو أنه لم يعد هناك المزيد من الكنوز. ما حصلت عليه هو كل ما هو موجود. لكنني على ثقة من أنه أكثر من كافٍ لدفع أجور حمولة سفينتين من "الحشرات الطفيلية".

كان الألم في رأسه أشبه باللسعات. فقد خطف بندقية أحد الخفراء وطوح بها ليضرب أصلان ضربة هائلة من شدة غضبه. سقط أصلان مغشياً عليه على رصيف المتراس، واحترق خده على الحجارة الساخنة حيث سقط.

الياقوت واللآلئ... احتفظ أصلان بصورة الصليب في ذهنه على الدوام أثناء ساعات التعذيب الطويلة التي تلت. لم يغادر أورهان جانبة لحظة. بل ظل يصدر التعليمات الشخصية "لفريق خبرائه" بكل تفاصيل التعذيب الذي طبقه. كسرت اصابع أصلان الواحد بعد الآخر - أشد أنواع الألم كانت إعادة كسر الأصبع الذي تم تحطيمه في مرة سابقة. جيء بالشعلات وأحرقت بها قدماه، ولكن ليس أصابعه أو وجهه، حيث يمكن أن تظهر آثار الحروق. لم تكن لدى اصلان أية فكرة إن كان قد صرخ في الأثناء: كما يحدث في الكوابيس، فكل صوت أصدره لم يكن له أي أثر في اذنيه. غلفه فراغ التعذيب العجيب: فقد كان بوسعه أن يلاحظ ما يفعلونه به، ولكن بعد مرحلة معينة، لم يعد جسمه يستجيب للألم.

حتى عندما غرز القضيب المحمي في أحشائه، واخترق عموده الفقري.

ماجده، يا ماجده، والآن أنا أيضاً محطم. ما زلت أحبك، رغم أنك ملوثة وأنني أصبحت بدرجة أقل من البشر. ما زال الحب يربط بيننا، بصرف النظر عما حصل ويحصل لجسدينا. سوف أنضم إليك عما قريب، سأكون معك.

شعر أصلان بأصابع تفوح منها رائحة حلوة تفتح له جفنيه بالقوة. كان ذلك أورهان نفسه، يحدق في عينيه بنظراته الشيطانية الذكية.

"أنت حقيقة لا تعرف أين هي بقية الكنز، أليس كذلك؟".

"كلا".

"ولكن مع ذلك، كان هناك نصف آخر للكنز، أليس هذا صحيحاً؟".

"نعم، كان هناك. ولكنك لن تحصل عليه مطلقاً".

"إنه موجود على تلك السفينة الملعونة".

"ربما. ولكن ربما لا. أنا لست أدري".

نهض أورهان واقفاً، وفي تلك اللحظة سقط ضوء مبهر على وجه أصلان.

"حسناً جداً. سوف أضطر إلى إضافة اليمين الكاذب إلى التهم الموجهة إليك. لن يشكل ذلك فرقاً يذكر في حالتك، أليس كذلك؟ فأنت ميت لا محالة".

استمراراً في الكابوس الدائم نفسه، رُفع اصلان واقفاً على قدميه وألبس الزي الرسمي الكامل لعقيد في سلاح الفرسان. قام الخفراء ومعذبيه بتضميد صدره وفخذيه وردفيه بأربطة أغشية كتانية سميكة حتى لا ينزف أو ينضح أثناء الاستجواب في غرفة

المحكمة العسكرية. كان هذا أحد التفاصيل التي توقعها أصلان من معذبه.

لم يتمكن من المشي. جره عسكريان ضخما الجثة. وقد أسنداه بينهما في حضور المسؤولين العسكريين.

كانوا قد استدعوا على عجل، وأصبح واضحاً أنهم سيتخذون قرارهم على عجل أيضاً.

تليت الاتهامات: لم يرد أصلان على أي من الاستجوابات.

اسمه: عمره: رتبته ومركزه في بلغاريا: هروبه من الخدمة في بيرو: سرقته للمتلكات المدنية: رفضه تسليم منهوبات حصل عليها بوسائل غير قانونية إلى الدولة: إيوائه للمرتدين والهاربين من الخدمة العسكرية: احتقاره الكامل لقواعد وأنظمة قوات السلطان الإمبراطورية.

"كيف ترد على هذه الاتهامات؟".

مسح أصلان الغرفة بعينيه: الغبار يلتمع في أعمدة النور السميكة المتسربة من الشمس والنازلة بميلان قطري بينه وبين الضباط الأتراك الجالسين في صفين مكتظين أمامه. ألقى بنظرة إلى القبة التي تشكل سقف الغرفة، الواضح أنها كانت صالة استقبال في قصر سبيك. كم تاجر قد ساوم على وسائل معيشته، كم ملاّك عقار طلب تصاريح، وثائق، سندات ملكية، أغنتهم جميعاً على حساب ثوار الجبل الأسود الذين بدأوا الآن يضغطون على بوابات البلدة؟

"رد على المحكمة!" صاح به أورهان أتاكوي وقد مال إلى الأمام من مقعده على المنصة، حيث جلس بوصفه القاضي الرئيس. وكانت هيئة المحلفين، القاضي، القرار – كل ذلك طوع بنانه.

بلع أصلان ريقه، في محاولة أخيرة لتجميع ما يكفي من النسغ في جسده الخائر لينطق بكلماته الأخيرة أصبح أشبه بشجرة بلوط

هائلة آيلة إلى السقوط، بعد أن نشرت جذورها واقتلعت من الأرض، لكنها لم تقع على الأرض بعد.

"أنت لم تكن رجلاً أبداً. يا أتاكوي. هناك ثلاثة أنواع من الناس في هذه الدنيا.

ثلاث طبقات من الوجود. طبقة العنف، طبقة القوة، وطبقة الحب. من يرتبط بالأولى هو من فصيلة الحيوانات: فالرجال الحقيقيون يرفضون إغراء الثانية ويتطلعون فقط إلى الثالثة.

"الصمت! إنك تنطق بالكفر والخيانة! النظام والواجب! حياة موهوبة ومكرسة للسلطان! ذلك هو واجبنا الإلهي!".

رفع أورهان قبضته: صدرت عن زملائه الضباط صرخة تشجيع آلية. فأورهان يسيطر عليهم بالترهيب: ولم يكن بالإمكان التصدي لفساده.

لم يجرؤ ضابط واحد على النظر في وجه اصلان عندما صدر عليه الحكم بالإعدام. فإن النظر كان معناه التعرف على الإنسانية التي كانوا قد فقدوها سلفاً.

تم تنفيذ حكم الإعدام بإطلاق النار من قبل ثلة جنود بأصلان بك، العقيد في الجيش الإمبراطوري العثماني، فوق متاريس حامية سبيك، ساعة الظهر من اليوم نفسه.

***

الفصل السابع عشر

مشاعر تيمور وعواطفه متلاطمة بقدر تلاطم أمواج البحر الذي يمخر عبابه. تمسك بجانب السفينة، يراقب الساحل حتى لم يعد يظهر من سبيك إلا خط الأفق. مآذن المساجد، المرتفعة فوق أسوار المدينة السميكة: السفن التجارية المتجمعة حول الميناء وقد أفردت أشرعتها بزاوية الميل التقليدية في الأشرعة الرئيسة: بضع سفن شحن عسكرية "مصفحة" عثمانية ما تزال تحضر المؤن واللوازم لتدعيم المقاومة التركية، تبحر ببطء بحمولاتها الثقيلة من بنادق ومدافع كروب وسنايدر.

كيف يمكن لمدينة سبيك أن تبدو بهذا الجمال الذي يخطف الأنفاس، بينما ترتكب في قلبها كل تلك الآثام والشرور على نطاق يومي؟ انهمرت الدموع على وجه تيمور، بدون استحياء. نشطت الريح الخفيفة لدى وصول سفينتي اللاجئين إلى المياه المفتوحة، وخففت البلل عن خديه، بلسعة حارقة. بدا له وكأن العناصر المهملة قد سلبت منه حزنه. إن العالم مكان قاسٍ، على يدي الإنسان وفي مجاهل الطبيعة على حد سواء.

أدرك تيمور أنه بمجرد أن يكتشف العقيد أورهان أتاكوي الخديعة المتعلقة بالغنيمة، فإن أصلان سيصبح في عداد الأموات – سواء تم ذلك بإجراءات رسمية، ومهما تأخر موعد تنفيذ الإعدام.

مضت السفينتان تشقان الماء بتثاقل، تلوكان مياه بحر الأدرياتيك الداكنة الزرقة وتحولانها إلى رغوة لؤلؤية. راقب تيمور، ماداً رقبته، ومجهداً عينيه ليملأهما بآخر لمحة له لبلاد البلقان – البلاد التي لم تكشف له عن شيء أكثر من قسوتها وشهوتها إلى الدماء. لكن بينما وقف متعلقاً بالحاجز، وذرات السخام السوداء الآتية من مدخنة السفينة تلقي باللسعات في عينيه،

بكى مرة ثانية على ذكريات الحب والشجاعة اللتين شاهدهما في ساحات القتال خلال إقامته لتلك السنة القصيرة.

ماجده وأصلان. لن يكونا والديه، ولكنهما شيء أكثر قوة – رؤيا للحب المثالي سيقوده قدماً في رحلته نحو "أرضه الموعودة".

استدار في نهاية سهومه ليواجه حشود الشراكسة المتكومين على دكة السفينة. نصبت مظلات بدائية من الشوادر لحماية الناس من الرذاذ المبلل الذي تنثره السفينة كلما غطت في الأودية المنخفضة وارتفعت إلى القمم في تضاريس العباب.

كانت الرحلة البحرية الوحيدة التي قام بها الناس الأكبر سناً هي الرحلة الكابوسية قبل أكثر من عشر سنوات عندما غادروا مواطنهم في القفقاس. استعادوا كل الذكريات المؤلمة في سرية وبشاعة تلك الرحلة عند عبورهم بحيرة سكوتاري. لكن هذه تختلف: فالشمس هنا مشرقة بارقة، وتلسع الناس بلا توقف، ولدى البحر طاقة واتساع مما أقنعهم بالانقطاع النهائي عن المناطق المألوفة، على الرغم من عدوانيتها تجاههم.

لم تعد هناك أية جبال: لا مزيد من الأيام الباردة الصافية، الغارقة في الثلج: لا مزيد من الجداول الباردة الرقراقة، التي تلسع برودة مائها الوجه واللسان.

رائحة البحر الملحية، الأدخنة الخانقة الصادرة عن غرف محركات السفن، والرائحة القطرانية للأشرعة المشرعة ولفات الحبال، تضاعفت جميعها من تأثير هذا الاتساع البراق للبحر والسماء.

هاجمت كل هذه العناصر حواسَّ الشراكسة، بحيث أدت إلى تأجيج شعور معظمهم بالرعب، والضعف وخوار القوى، تائهين بلا هدف، غرباء في الدنيا.

كانت بينهم قلة قليلة احتفظت بقواها الداخلية واحترامها لنفسها في الصميم. أما العجوز تسوك فقد أصبح في غاية الوهن لكثرة الترحال، طول الأسفار وقلة الطعام، حتى حال جلده إلى جفاف أشبه بالورق. أصبحت يداه في نحول أرجل الطيور: تشققت أظافره وامتلأت بالنتوءات لقلة التغذية. تساقط شعره في حفنات،تاركاً خصلات هزيلة على صدغيه وجانبي وجهه، وبضع خصلات شكلت لحيته.

لكن كل إمارات الحرمان هذه جعلت منه شخصية ذات طابع فتان بالنسبة للأعضاء الجدد الأصغر سناً في المجموعة. جلست ثلة منهم عند قدميه، بينما اضطجع تسوك على ظهره فوق حزمة من الممتلكات، موزعاً جسمه الناحل وأطرافه المهزولة فوق النتوءات والكتل كأنه دمية من الخرق، بكل راحة. طفق يحدث عصبته الصغيرة المأخوذة به من المستمعين، قصصاً عن النارتيين، أولئك الساكنين الأسطوريين في جبال القفقاس، والأبطال الذين قاتلوا ضد الغزاة الروس، بدءاً بمنصور بك، إلى شامل، وصولاً إلى البطل القباردي الذي احتضنه الشابسوغ، كازبك. أخبرهم عن الإنجليزيَّين بيل ولانجوورث، اللذين أحضرا البنادق وحاربا إلى جانب الشابسوغ. وكيف، بمساعدة الدبلوماسي البريطاني "داود بك" المعروف باسم دافيد أوركهارت، حاولا أن يقنعا ملك إنجلترا أن يهبَّ لمساعدتهم ويحمل السلاح ضد القيصر. أخبرهم كيف سافر وفد من مقاتلي الشراكسة قاطعاً كل المسافة إلى إنجلترا، وارتحل في طول البلاد وعرضها، يجمع الأموال الضرورية لاستمرار القتال. وصف لهم المحرك الحديدي الهائل، القطار البخاري، الذي حمل هؤلاء الرجال الشجعان كل الطريق إلى سكوتلندا وعاد بهم إلى لندن، حيث ارتدت ملكة إنجلترا فساتين تكشف عن صدرها وتنانير عريضة إلى درجة أنها كانت تضطر إلى دخول الأبواب مواربة – تفاصيل وأوصاف كانت تجعل الأطفال يصرخون ضاحكين ويتدحرجون على ظهر المركب المالح. إتكأ تيمور إلى

الحاجز الجانبي للسفينة،معجباً من طاقة تسوك، التي تمكّنه، بعد كل الذي عاناه، من الرغبة في وجود جمهور من المستمعين، يقدر على إضحاكهم.

"فقط إنج بحياتك.." ظل صدى الكلمات يتردد داخل رأسه. فقد أخبره أصلان بأن واجبه ظل وسيبقى، قبل كل شيء، التيقن من بقاء قومه على قيد الحياة.

بدا لتيمور أن كل شخص آخر توفرت لديه الوسيلة ليفعل ذلك، ما عدا أصلان نفسه.

مسحت عيناه ظهر السفينة مرة أخرى. شاهد رسميه، الشقراء الناحلة، تجمع بعض الصغار الجدد حولها، توزع الإبر والخيوط على أولئك الذين كانت ثيابهم ممزقة نتيجة عجالتهم في الهروب. رأى حليمه، ما تزال تؤدب التوأمين الشقيين، تامبي وأزرات اللذين كبرا سنة بحلول هذا الوقت، وأصبحا أكثر شقاوة بمقدار سنة، لتجبرهما على توضيب فراشهما.

بقيت ساكنات وجمعها من النساء على حدة. فهي لم تكن بصحة جيدة: إذ أصابها دوار البحر بحالة مرضية تعيسة، كما حدث للعديد من النسوة. اضطجعت تحت أحد الشوادر متدثرة بكومة من الشالات، رافضة أن يراها أحد أو يحاول تمريضها في حالتها التعيسة هذه. كانت أحياناً تتقيأ خفية ثم تبكي وقد خبأت وجهها.

بقي كمال وحمزه مع مجموعة الأتراك الخارجين على القانون، أدهم، أمين وجلاوزتهما. أبقى تيمور عينيه مسمرتين على هذه العصبة لوقت أطول مما راقب به النساء. ظل يتعجب كم من الوقت سينقضي قبل أن تنفجر مشكلة ما بين هؤلاء اللصوص. فهل سيلجأ هؤلاء إلى استغلال الفرصة السانحة، خاصة وقد زال الخطر عن أرواحهم؟

جرى تدوين أسماء أدهم وعصابته على سجل السفينة باعتبارهم "شراكسة". جلس بعض القادمين الجدد، غير المدركين "لمساهمة أدهم المالية" في خطة الهروب، على مبعدة من المجرمين، ينظرون إليهم شزراً. شعر البعض بالاحتقار تجاه حمزه وكمال بسبب اختلاطهم بالأتراك. لكن الرجلين كانا يستمتعان بقصص الجنود التي تخفف وطأة الوضع ببساطتها. بتنوعها وفظاعتها. لقد كانت تساعد على قضاء الوقت. لم يكن أحد منهما يمانع بكون قصص أدهم أكاذيب مختلقة لتعظيم ذاته. فقد كان يعرف كيف ينجو بروحه. كان حمزه وكمال مزارعين بسيطين، ولم يكونا مقاتلين، وقد سحرهم هذا الرجل بطبيعته الشرسة التي لا تعرف الندم ولا الرحمة.

ظل تيمور يامل بأن لا تنطلي عليهم تلك القصص، أو أسوأ من ذلك، أن ينجرفا إلى الهاوية مع هذا العنصر الإجرامي. لذلك صمم على أن يظل يراقبهم بحرص شديد. نظر إلى البحر مرة أخرى. كانت السفينة الأخرى الممتلئة بعائلات الشراكسة الذين انضموا إليهم في الساعات القليلة الأخيرة، تكدح إلى جانب سفينته بتثاقل، على بعد بضعة فراسخ لجهة اليمين.

من بين ذلك الجمع، كانت الفتاة التي أنقذها من براثن شوكت باشا: ماذا كان اسمها؟ ذات العينين الخضراوين، يلمزخان. شعر بالسرور لكونها في السفينة الأخرى- فوجودهما هناك يخفف من انشغاله بها! ذكره ذلك بعمر، الذي لاحظ أنه أعجب بالفتاة الضئيلة الجميلة، فيروز، التي قابلاها في الشارع بمدينة سبيك وأنقذاها من ذلك المجرم التركي الجبان. ألفى تيمور نفسه وقد انتابه الفضول فيما إذا كان صديقه وحليفه قد نجح في التعرف بطريقة رسمية على عائلتها حتى الآن – فهو يعرف أنهما موجودين على هذه السفينة نفسها. قرر أن يذهب ليستطلع، ويرفه عن نفسه قليلاً.

بينما هو يمر بصعوبة بين الأجساد المضطجعة على ظهر السفينة، خطرت له غرابة مسعاه. كيف يمكنه أن يشغل نفسه بأفكار

عمر الغرامية؟ فهم هنا، كلهم، وسط محيط غريب، يتوجهون إلى أرض لا يعرفونها – وكل ما أراد معرفته هو من يهتم بمن! الأمر المؤكد هو أن عائلات الشراكسة سوف تفعل كل ما بوسعها للحفاظ على التصرفات اللائقة. سوف يتم تقديم عمر والتعرف عليه، لكنه سيبقى على مسافة. سوف يتم الاستعلام عن نسبه. وكل هذا، فوق ظهر سفينة متهالكة صدئة! إن هذه إحدى وسائل الإبقاء على الحياة: وسيلة للتحمل مع الاحتفاظ بالكرامة والكبرياء. بدأت معنويات تيمور ترتفع، وقد أخذه التفكير إلى محصلة مفادها إن واجبه لم يكن ثقيلاً ومرعباً في نهاية المطاف. فهؤلاء أناس مبدعون، أصحاب ذوق رفيع.

وهم ينظرون إليه باحترام على أنه المعيَّن من قبل أصلان، ولكن، في الحقيقة، فقد كان كل واحد من الرجال يمتلك المقدرة على أن يكون قائداً. حتى النساء – ألم تبرهن له ماجده على ذلك أيضاً؟ خطا تيمور بحذر بين الناس النائمين والذين يستريحون باحثاً عن عمر. وبكل تأكيد، كان الشاب يجلس على ما يبدو في وضعية من عين نفسه خفيراً ومرشداً، مرتكزاً بأناقة إلى مقدمة السفينة، حيث يمكن له أن يرى عائلة فيروز وتراه العائلة بدورها، من مكانها في السطح السفلي. كانت فيروز تفعل كل ما بوسعها لتجنب التحديق في عمر. كانت لعبة "النظر وعدم النظر" القديمة قدم الزمن تبقيهما مسحورين ساعات طويلة.

وعلى أية حالة، حين شاهد عمر صديقه، طارت كل أفكار الهراء الرومانسي من رأسه.

هتف قائلاً " أليس هذا رائعاً؟ أليس رائعاً أن نكون في الهواء الطلق، بعيداً عن ذلك الثقب الوسخ؟" نظر إلى التعبير الصارم على وجه تيمور ثم وقف احتراماً. "لا أستطيع أن أتوقف عن التفكير في أصلان. هل تعتقد أنه بخير؟"

جلس تيمور إلى جانبه. "آمل أن يكون بخير. إنني أصلي لأجل ذلك." قال هذا وهو واثق كل الثقة من أنه لا يوجد أساس لمثل هذه الأفكار المتفائلة.

***

انقضت أيام وأيام بنفس الوتيرة. تجمع بعض الشباب الذين يتمتعون بصحة جيدة وآمال عريضة بصحبة عمر وأخذوا يمارسون بعض الألعاب أو يروون النكات للحفاظ على معنويات بعضهم بعضاً.

اهتمت النساء بالمرضى، أو قمن بالخياطة، أو الطبخ، أو رواية القصص. اكتفى كبار السن برواية القصص. كانت الموهبة المشتركة الشائعة بين جميع المجموعات على ظهر السفينتين هي الخطابة: كان الجميع يتحدث إلى الجميع، أو يغني، أو يتلو الأشعار – أي شيء يساهم في استذكار السيرَ، رفع المعنويات، والقضاء على الملل.

كان هناك الكثير مما يتوجب عمله في الأيام القليلة الأولى، التعامل مع الدوار البحري، توضيب الأمتعة، التآلف مع غرابة وضع السفينة وتمايلها. كان الشراكسة يجلسون أحياناً، مسحورين حين توقف السفينة محركاتها عن العمل ويركض البحارة صاعدين إلى الأشرعة لينشروها على ثلاثة صواري عملاقة، حيث الشراعان الأماميان أكبر بكثير من الثالث الخلفي. كان يجري إيقاف المحركات لتوفير الوقود: لم تكن السفينتان قادرتين على الرسو في الامتداد اليوناني للساحل، إذ لم يكن الغاطس عميقاً بما يكفي لرسوهما.

ثم بدأت الأيام تبهت. عمل تيمور ما بوسعه للحفاظ على النظام، وتلقي النصائح من جميع الجهات المعنية. بدأ يقدِّر الجهد الذي تحملته ماجده، والذي اضطر أصلان إلى النهوض به حتى

عندما كان يشعر بالحداد والحزن عليها. أصبح احترام تيمور لمواطنيه الموتى يتعمق مع كل تجربة جديدة تشكل تحدياً له.

لاحظ تشكل الإحساس بالفتور المتزايد بين المسافرين. فقد انخفضت أصوات الثرثرة بدرجة ملحوظة.

نهض تيمور، كعادته كل يوم، صباح أحد الأيام ليقوم "بجولة تفتيش" ليعطي ليومه "شكلاً" ويحافظ على مظاهر النظام، أكثر من كونها حاجة حقيقية.

اقتربت منه رسميه في هذا الصباح، وقد ظهر عليها التعب وقلة النوم.

"تيمور، يجب عليك أن تفعل شيئاً ما من أجل إسماعيل... إنني في منتهى القلق عليه."

"ألم يتحسن بعد؟" كان تيمور يعرف، كما يعرف كل الشراكسة في الدائرة القريبة منه، إن الشاب الفتي لم يتعافى من مغامرته إلى الحامية التركية، ومن وفاة ماجده. ومع أن الالتهاب في صدره قد خف ظاهرياً لفترة قصيرة، إلا أنه استسلم للحزن، وعدم الاهتمام، ولم تعد لديه رغبة في النوم أو الطعام.

همست له رسميه "إنه ما زال عرضة للكوابيس. ومنذ أن ركبنا السفينة، وهو يرفض أن يأكل."

"الحقيقة هي أن حصصنا التموينية صغيرة" وافق تيمور "ويريد إسماعيل أن يتأكد من أن كل شخص يحصل على ما يكفيه... ألا يضرب بذلك مثالاً يحتذى؟"

ابتسمت رسميه بوهن، وقد امتلأت عيناها بالدموع "آه، نعم، أعرف أن هذا هو ما يقوله... لكنه أصبح ناحلاً جداً. لا أعتقد أنه يهتم حتى بتناول الكميات القليلة التي تعطى له. ألا تتحدث معه؟ إنه يكنُّ لك إعجاباً شديداً."

"حسناً جداً!"

قادت رسميه الطريق نحو طرف السطح الأمامي للسفينة حيث استلقى إسماعيل بين برميلين، في مساحة صغيرة من الظل. أوقع تيمور اللوم على نفسه لأنه كان "منشغلاً جداً" عن قضاء المزيد من الوقت مع رفيقه الموثوق. ذهل عندما رأى مقدار التغير الذي طرأ على إسماعيل خلال الأسابيع الأخيرة منذ وصولهم إلى سبيك.

"هيه، يا صديقي! ما هذا! انهض واجلس، كلمني – إنني بحاجة إلى أن تمد لي يد العون!"

هز إسماعيل رأسه نفياً "لا يا تيمور، لا تتظاهر. إنني مقضيٌ علي. ما عدت أستطيع أن أشارك في هذه الملهاة أكثر مما فعلت."

"ما الذي تقصده بقولك "ملهاه"؟" استغرب تيمور من اختيار إسماعيل للكلمات ومن الهدوء العجيب المنعزل الذي بدا وكأنه صديقه قد وقع فيه. لم يكن إسماعيل قوياً أبداً، لكنه كان فارساً ماهراً ورامياً لا يشق له غبار. وقد ظل على الدوام نحيلاً أكثر مما هو طبيعي، لكن الناس (بما فيهم والدته) كانوا يفترضون أنه يعوض عن هزاله، ونقص وزنه بالصلابة: وهو في العادة ذو طاقة تعج بالحيوية، وصوت واثق، كما أنه بارع وسريع في الصيد. أما الآن فإن خديه غائران، وعينيه قد ماتت فيهما الحياة، يداه ترتعشان كأنه يعاني من الحمى، ومع ذلك فقد كان وجهه جافاً وبارداً.

همس له إسماعيل "ألا يمكنك أن ترى؟ حيثما نظرت، فإنني أرى الجماجم تحت الجلد. عندما يضحك الناس، اسمع أنات وعويلاً. الريح تصفر داخل عظامي: إنني أتحول إلى هيكل عظمي! إنني أفقد عقلي، يا تيمور!"

"لا تقلق، أعتقد أنك متعب لا غير وكذلك لم تكن تأكل بشكل جيد، يجب أن تأكل يا إسماعيل – إن أمك المسكينة تكاد تجن من جزعها عليك."

"لا أستطيع أن آكل. إن الطعام يشعرني بالقرف. عندما أضع الطعام في فمي، أشعر بالرغبة في التقيؤ."

نهض تيمور واقفاً. ليست هذه المشكلة من النوع الذي تعود على مواجهته مطلقاً. شعر بالجهل التام أزاء الموقف، ممزقاً بين رغبته في إصدار أمر قصير حاد إلى إسماعيل، وبين إدراكه بأنه ما لم يحدث شيء بسرعة ليغير طريقة الفتى في التفكير، فإنه سوف يجوّع نفسه حتى الموت فعلاً.

حدقت فيه رسميه "أترى؟ الأمر خطير، أليس كذلك يا تيمور؟".

"آه، أنا واثق من أنه سوف يستعيد مرحه وتفاؤله. اتركي الأمر لي، يا رسميه، سأعثر على شخص هنا يمكنه أن يساعد."

بحث تيمور عن حليمه. فهي معين لا ينضب من المعرفة حول الأعشاب الطبية والصحة، وهي مصدر المراهم والأدوية، وقد عيَّنت نفسها، "طبيبة للسفينة"، بحيث تكوَّن طابور من الناس المقرفصين أمام زاويتها الواقعة إلى جانب طرف السطح الخلفي، الذي اختارته بيتاً لها.

وصف تيمور ما يحدث لإسماعيل. أصغت حليمه بجدية تامة.

"ليس هو الوحيد. هنالك عدة فتيان يافعون يعانون من هذه الحالة. هل تعرف ما هي المشكلة، يا تيمور؟"

هز تيمور رأسه نفياً. داهمه شعور حاد بتوقع الأسوأ، بحيث وقف ينتظر أن تفسر حليمه أمراً يفوق قدرته على الاستيعاب. أمر يسبب الصدمة...

"لقد فقدوا إرادة البقاء على قيد الحياة. إن بعضهم يتعمد أن يجوع نفسه إلى حد الموت، مفضلين ذلك على مواجهة المزيد من الصراعات."

"ولكننا سنكون بأمان الآن!" صرخ تيمور وقد تملكه اليأس.

"إنهم مرهقون كلهم. أعتقد أن كل ما بوسعنا فعله هو الأمل في أن يمكّنهم الهواء النقي، وهذه الرحلة الآمنة، من الإبلال والتعافي. ولكن يتوجب علينا أن نحصل على المزيد من الطعام المغذي. انظر!"

رفعت إليه حليمه طبقاً يحتوي على جعالة ذلك اليوم. قطعة بسكويت جافة، نخرها السوس: شريحة من السجق الجاف، غير قابلة للهضم بدون الكثير من السوائل: قطعة خيار مخلل.

سأل تيمور "ألم يتبق شيء من الخبز؟"

"ليس لدي خبز. بعض الناس لديهم خبز، لكن الجميع كاد يستهلك كل ما لديه من طعام. لقد أنفقنا كلنا آخر قطع نقدية معدنية بحوزتنا للتحضير لهذه الرحلة. ما الذي سنفعله؟" سألته حليمه.

"إن مصادر الماء تقل في الوضع الحالي. أعرف لأنني طلبت حصة إضافية حتى أغلي بعش المشروبات العشبية للمصابين بدوار البحر. إن هؤلاء الناس يتهاوون بسرعة، يفرغون أمعاءهم مرات عديدة متكررة حتى باتوا يخسرون السوائل من أجسامهم!"

سألت شقيقة ساكنات الواقفة قريباً منهما. "كم من الوقت سوف تستغرق هذه الرحلة البحرية، يا تيمور؟ إن شقيقتي في غاية الوهن – إنني قلقة!"

لم يكن تيمور واثقاً من الإجابة "سأذهب وأتحدث إلى القبطان".

شق طريقه نحو منصة الربان حيث وجد تركياً آخر، هو القبطان رضوان، جالساً يلعب طاولة النرد مع أحد البحارة. كان تيمور قد طوَّر شعوراً حاداً بالعداء تجاه هؤلاء الأوغاد الساحليين: بحيث أصبح ينظر إلى هذا الجنس بكامله على أنهم انتهازيون بلا أخلاق. لم يكن في مزاج يمكنه من التفكير بإيجابية تجاه أي شخص ينتمي إلى إقليم شاهده لتوه واقعاً في قبضة الهزيمة، الهجران، والخديعة.

القبطان رضوان، الأدرياتيكي النموذجي، رجل شرير بلحية وخطها الشيب، معتاد على اعتباره محايداً. رأى في تيمور القائد الطبيعي لهؤلاء الركاب التعساء ولم يضيع أي وقت في شرح طبيعة وضعه الشخصي، وأين تقع السلطة على متن سفينته.

ألقت الصدفة بعائلة رضوان كمستوطنين في موقع بوش دي كاتارو الحصين المنيع التابع للجبل الأسود (إلى مسافة أبعد من سبيك على الساحل)، نتيجة لبعض "الانتكاسات في الحظ" واضح أن القبطان لم يشرح طبيعتها لأحد. طوَّر لنفسه وسيلة للبقاء حياً والنجاة في حصن الجبل الأسود هذا، وبسرعة: فهو يتقن أربع أو خمس لغات أوروبية إضافة إلى لغته التركية الأصلية منذ بلوغه سن الثانية عشرة. وعمل بحاراً، قرصاناً، جندياً ومهرب أسلحة في مراحل مختلفة من حياته – وكان يمارس كل هذه الوظائف والمهن في نفس الوقت، في أحيان كثيرة

يستطيع رضوان أن يمثل دور "البوكيزي" الكلاسيكي، كما كان مواطنو كاتارو يعرفون على الأدرياتيكي، بشاربيه المتدليين، قامه الضخمة الطويلة، وقدميه المفلطحتين الهائلتين: لقد حارب هو الآخر إلى جانب ثوار البوكيزي ضد النمساويين في ستينات القرن التاسع عشر وجدع بضعة أنوف بوهيمية، وهي ممارسة وحشية مفضلة محلياً. بدَّل ولاءاته وقاتل إلى جانب الأتراك ضد أهل الجبل الأسود، مؤدياً دور الدليل والجاسوس للسفن الحربية التركية.

لقد تولي رضوان هذه المهمة حالياً، والمدفوعة أجرتها من قبل الحاكم، العقيد أورهان أتاكوي، لأنه كان مديناً للحاكم بصنيع مقابل غض طرفه كلياً عن أنشطته المتعددة في مجال التهريب.

كل هذه المعلومات وغيرها، انتقلت إلى تيمور بين صرخات الفرح التي أطلقها القبطان، عند انتصاراته التي لا تنتهي على رقعة طاولة النرد، أو بينما هو يحشو غليونه الصلصالي الطويل بنوع من عشبة التنباك ذات الرائحة المريعة، أو وهو يقذف سيلاً من

الشتائم أو الإهانات بأية لغة تناسب هذا الخليط من بحارته اللقطاء المشردين، والذين بدا عليهم إنهم أرواح تائهة بلا استثناء، على شاكلته تماماً.

علق تيمور قائلاً "حسناً أيها القبطان" وهو يرى عجلة دفة السفينة وقد قيدت إلى عمودها بحبل قوي "يبدو أننا محظوظين لكوننا وقعنا بين يدي بحار كفؤ – وهذه السفينة لائقة قطعاً للإبحار في المحيطات. خلافاً للعديد من السفن التي استؤجرت للشراكسة في الأيام الخوالي."

"آه، لا حاجة بك لأن ينتابك القلق من تلك الناحية" لوَّح القبطان رضوان بغليونه حواليه ناثراً المزيد من الرائحة الخانقة. "يفترض فينا أن نتمم العبور نحو الشواطئ الفلسطينية في أقل من الأسبوعين العاديين، إذا استمرت حالة الطقس الحسنة."

لم يكد تيمور يصدق ما تسمعه أذناه. فعلى الرغم من أنه قاتل في الأناضول، وكانت لديه فكرة عامة عن موقعه على الدوام، إلا أن طول الرحلة وضعه في حالة يأس مطبق.

"ولكن ماذا يفترض فينا أن نعمل بشأن المزيد من المؤن؟. إننا نكاد نكشط قعر البرميل في وضعنا الحالي..."

نفض القبطان رضوان كتفيه. "سوف أقوم بتوقف عادي قريباً من أجل التزود بالماء. ليست لدي "ميزانية" لإطعامكم أيها الناس. لم تصدر لي أية تعليمات بهذا الخصوص."

واضح أن الحاكم أتاكوي قد قال للقبطان رضوان أن الشراكسة سيتدبرون أمر إطعام أنفسهم. لكن البريق في عيني القبطان جعل تيمور يشك في أمر آخر.

اتهمه تيمور "لماذا لم تصدر لنا أية تعليمات بشأن المؤن؟ لا بد وأنك توقعت أن تساهم في مخزوننا – أو بالأحرى، أن ندفع لك مرغمين حتى تجلب تموينا محترماً إلى السفينة!"

"لا تبدأ باتهامي بأمور لا تعرف عنها أي شيء أيها الشركسي. إنني مكلف بمهمة أنفذها – لقد أخرجتكم من مضائق أوترانتو، مع أنها ليست من أمكنتي المفضلة، وها أنذا الآن يفترض فيَّ أن أعبر رأس ماتابان بدون أن يصعد القراصنة إلى سفينتي! وكل ما بوسعك عمله هو أن تثرثر لي حول الخبز الطازج والوجبات المحترمة! هيا ابتعد عن منصة القيادة!" وبإشارة غاضبة، ضرب القبطان طاولة النرد (فقد كان يخسر على أية حال) وبدأ يحل عجلة الدفة.

استدار تيمور وغادر، والغضب يعتمل في قلبه قسوة. اتجه مباشرة نحو أدهم، الذي كان قد غط في نومة سكرى، ساعدته عليها بقية العرق الذي اشتراه عن الشاطئ.

ركل تيمور الرجل التركي بقوة "أدهم! قم استيقظ!"

فتح أدهم عيناً واحدة فقط "آه. قائدنا الأكثر حدة من المستردة".

تجاهل تيمور الإهانة وأقعى إلى جانبه. كالعادة، كانت رائحة أدهم الشخصية سيئة بما يكفي للتغلب على كل روائح التبغ والأشرعة المبتلة المنسابة على طول السطح.

"سوف تضطر إلى الدفع مرة أخرى."

"تقصد نقوداً؟ لا يمكن."

"أقسم لك أنني سأقتلك إذا لم تهب لمساعدتنا. يبدو لي أن القبطان ينوي أن يميت أكبر عدد منا يقدر عليه جوعاً، وفي نفس لوقت يطالب بأجوره عن لائحة الركاب الكاملة."

"هل تعني أنه مدفوع له ليسلم عدداً معيناً من الأشخاص، ولكن ليس بالضرورة أن يكونوا أحياء!"

انفجر أدهم ضاحكاً لإعجابه بالمكيدة البحتة. "وطبعاً هناك الوفر في الأطعمة....".

"أعتقد أنك ربما تكون على صواب. سوف نضطر إلى إجبار القبطان على الرسو في نقطة ما على الطريق من أجل شراء التموين."

"وهناك يأتي دوري مرة أخرى، آه، أنتم الشراكسة الملاعين."

ابيضّ وجه تيمور. استل القاما بحزم ومال نحو أدهم. بينما بقي أمين والجلاوزة الآخرون يغطون في النوم مشخرين عند قدمي أدهم، غير واعين ولا مدركين لهذه الدراما.

"أعرف أنك صعدت إلى ظهر السفينة ومعك الغنيمة. لقد أخبرني أصلان بذلك بنفسه. لقد وهب حياته لأجلك ولأجلي. لن تكون عندي أية مشكلة مطلقاً في قتلك أنت وكل رجالك، يا أدهم، إذا لم تتعاون معي. المسألة متعلقة بالأعداد – هل ترى؟ هذه ليست سفينة كبيرة. لا يمكنك أن تتهرب وتختفي عني... ليس طيلة الوقت. لا في الليل ولا في النهار، يا أدهم. فإما أن تساعدني أو أقسم بالله، أنك ستصحو يوماً ما لتجد أن لديك شقاً كبيراً في حلقك."

كان أدهم غائم العينين لكنه كان واعياً. أطلق زمجرة هائلة ودفع تيمور بعيداً عن صدره وبدأ يتصارع معه على السطح الزلق. على أية حال، كانت لدى أدهم نقطة ضعف تتعلق بالحجم: كان ثقيل الجثة، فقد توازنه وسقط، وعندما نهض تيمور وارتمى فوقه، ظهر وكأنه لا يستطيع أن يجد شيئاً يتمسك به، حتى يثبت نفسه وتكون له اليد العليا.

قاتله تيمور كما الشيطان. منحته الطاقة المكبوتة وكراهيته المتأصلة لأدهم إمكانيات بدنية استثنائية. فإن يكون أدهم على الدرجة من اللؤم ويعترض بهذه الدرجة من التفاهة، بينما عانى قائده أصلان، الرجل الأعظم منه بدرجات، وضحى بحياته، هو أمر أبعد من القدرة على الاحتمال. تجمع حشد في حلقه: بدأ الرجال الذين حرموا من القتال لفترات طويلة بالصراخ بأصوات

خشنة، لمجرد الاستمتاع بالمبارزة. حتى رجال أدهم، بمجرد أن استفاقوا، لم يروا الخطر المحدق بزعيمهم واكتفوا بتشجيعه.

حدق أدهم فيهم، وقد جحظت عيناه من محجريهما لشدة الضغط الذي أحدثته قبضة ذراع تيمور على رقبته. لكنه لم تخرج أية كلمات من فمه - بالإضافة إلى أن عمر ظهر بشكل غامض، ووقف إلى جانب الجزار أمين، وقد أراح يده على مقبض "القاما" التي في حزامه.

"ابق ساكناً مكانك، يا أمين. ليكن هذا عراكاً متكافئاً - لا داعي للانتقال إلى الاحتكام للسلاح."

تنحنح أمين وبصق ثم جمع لعابه في فمه، لكنه فعل ما أمر به.

فليس هناك مكان يمكن الهرب إليه: ليس من مكان للاختباء فيه.

في نهاية الأمر صاح أدهم بصوته الجهوري "كفى!" وترك كتفيه يسقطان على السطح الدهني الزلق تحت ثقل وضغط ذراعي تيمور.

صعدت من الحشد صيحة تشجيع. تركي، يهزمه شركسي! ربما كانت هناك رمزية صغيرة في هذا العمل - مؤشر على أن الأمور ستصبح حسنة بالنسبة لهم. تثاقل العجائز والصبية الصغار متجهين إلى زواياهم، وهم يشعرون بالقناعة لمرة واحدة.

مسح تيمور أنفه المدمي واستدار مواجهاً أدهم.

"حسناً، ماذا سيكون ردك؟" طالبه تيمور.

شد أدهم حزامه المتهاوي "إذا لم يغير القبطان نغمته في اليومين القادمين، سنرى ما يجب عمله. نستطيع أنا ورفاقي أن

نصمد حتى ذلك الحين – وسوف تضطرون أنتم أيضاً إلى الصمود، يا رفيقي."

استمرت الرحلة في طريقها الممل، غير المريح. أصبحت المؤن قليلة إلى درجة تسبب الذعر. ألقت السفينة بمرساتها قرب إحدى الجزر في بحر ايجه، وجدف بحارة قاربين صغيرين منها إلى الشاطئ لتعبئة براميل الماء. تجمع الركاب على جانبي السفينتين، يحدقون في الساحل بشوق. لكن القبطان لم يسمح لأحد بالنزول: لأن ذلك مخالف لأوامره.

بعد ذلك بيوم، ذهب تيمور وأدهم للتحدث إليه في قمرته تحت السطح. وحدهم أفراد الطاقم لديهم أجنحة هناك: فمن ناحية كانوا يتمتعون بالحماية من الشمس والبرد، ولكن من الناحية الأخرى. فقد كانت الرائحة لا تطاق، وبالنسبة لأناس مثل الشراكسة، فالوضع برمته يسبب الرهاب من الأماكن المغلقة.

القبطان منظم ونظيف في قمرته، على الرغم من ضخامة جسمه. الخرائط مثبتة على الجدران بالدبابيس: كؤوس زجاجية لامعة داخل لوازم نحاسية صفراء فوق طاولة عمله. الجدران مغطاة بقماش أخضر متمدن راقٍ نسبياً، مع أنه كان مطبوعاً ببقع من الدخان. "أيها القبطان، يجب أن أصر على أن تغير مسارك وترسو في أحد الموانئ خلال الساعات الأربع والعشرين القادمة" قال تيمور بدون مقدمات.

رفع القبطان رأسه، مندهشا من التدخل، وقد أضافت نظارته الطبية ذات الإطار الذهبي بعداً جديداً إلى شخصيته. لقد كان في الواقع يدقق في مساره عندما تدخل عليه تيمور.

سأل بهدوء "ولماذا يفترض فيّ أن أفعل ذلك؟" ثم أزال نظارته عن عينيه (وهو إجراء حكيم، لأن النظارات تنتقص من قسوة تعابير وجهه).

أخرج أدهم قطعة كبيرة من ذهب الكنائس البيزنطي من داخل سترته بكل بساطة.

"هذا سبب كافٍ. ولكن إذا أردت سبباً آخر – فإنني على ثقة أنني ورجالي قادرون على توفيره لك." ووضع إصبعه على الخنجر البارز من حزامه القماشي.

صاح فيه رضوان "أنت تركي! أنت متسلل إلى السفينة."

"ليس هذا من شأنك في شيء. فقط نفذ ما يقال لك."

"كم شخصاً-"

"ولا هذا من شأنك أيضاً" فحَّ فيه أدهم "أنا جائع. ذلك كل ما أنت بحاجة لمعرفته. وعندما أجوع، فإنني أصبح لئيماً."

"إن أوامري تقضي بإيصال هؤلاء الشراكسة إلى فلسطين."

"إنك لا تقوم بالابتعاد عن خط سيرك كثيراً إذا وصلت إلى واحدة من هذه الجزر الواقعة على الطريق."

قال تيمور، مشيراً إلى الخارطة.

"أنت مجنون! هذه المنطقة تعج بالعصاة اليونانيين، بالقراصنة، وتوجد فيها حتى سفينة حربية بريطانية. لن أتوقف في أي مكان قريب من هنا- المكان الوحيد الذي يمكن أن أفكر فيه هو هنا- قبرص، في ميناء فماغوستا. يجب أن تنتظروا يوماً آخر ريثما أتمكن من الإبحار حول الجزيرة."

مال أدهم على القبطان. كانا شبه متعادلين، جسماً لجسم.

"لا بأس عليك أيها القبطان، فقط تأكد من أنك ستقوم بذلك، لأن لدي ما يكفي من الرجال للتسبب بمتاعب جمة لك. فماذا سيقول أسيادك وقتها، إيه؟"

استطاع أدهم، بدهائه المبني على معرفته بالدنيا والناس، أن يحسم النقاش لصالحه. لأن المصلحة الشخصية تعادل قوة التهديد بالعنف. لم يكن القبطان رضوان يرغب في إلحاق أي أذى بسفينته أو بشخصه: لأن السفينة هي مصدر رزقه، ولن يكون الناس الذين شاركوه في تمويلها - مصرفيون من مدينة كاتارو - سعداء إذا أضاع استثمارهم.

"حسناً جداً. ستكون قبرص. على الأقل لا تزال آمنة بين يدي الأتراك. سوف أنفذ ما تطلبونه".

انزلق الذهب عن الطاولة إلى داخل صندوق مصفح.

"لمجرد التأكد أيها القبطان: سوف يراقبك كلانا بينما تبرق إلى السفينة الزميلة هناك. فنحن لا نريدك أن تضيع أصدقاءنا، كما ترى..."

اضطر القبطان رضوان إلى الانصياع.

بمجرد أن انتشرت أخبار نجاح تيمور بين الركاب، أصبحت تلك الليلة هي الأطول على الإطلاق. فقد جعلت فكرة الحصول على الطعام الشراكسة في وضع أضعف، وليس أقوى. لم يستطيعوا أن يمنعوا أنفسهم من التركيز على مؤشراتهم، الدوار، الغثيان، الطنين في آذانهم، الآلام في أطرافهم ومفاصلهم. قريباً. قريباً، سينتهي الأمر،...

قرابة الظهيرة من اليوم التالي، دخلت السفينتان إلى مرفأ فماغوستا الصغير، بقيادة مرشدين أتراك.

مع أن المرفأ كان صغيراً، فقد تواجدت فيه عدة قطع بحرية حربية تركية، تحوم في الخليج - وكان المرفأ عبارة عن خليط غير متجانس من السفن التجارية والسفن الحربية الأصغر حجماً التابعة للبحرية التركية. في الجهة الخلفية - كانت فتحات إطلاق النار القديمة في القلعة قد عززت بالمزيد من التسليح بالأبنية

الحجرية. وفوهات المدافع تلتمع في كل منصة. فقد جرى تحويل فماغوستا، بلدة الميناء، الصغيرة الناعسة، إلى قيادة للقوات البحرية. بسبب ضخامة حجمها، فقد أمرت سفينتا الشراكسة بالرسو إلى رصيف طويل مبني من الحجر، حيث كان الغاطس كافياً ولم يكونوا قريبين جداً من الرصيف الرئيس. بينما كان يجري دفع السفينتين إلى موضعهما، واحدة خلف الأخرى، بدأ الشراكسة بالبحث بين مقتنياتهم عن أي شيء يمكنهم بيعه، لشراء القليل من الذرة، قطعة لحم، بعض من الحليب أو الجبنة للأطفال. استدعي تيمور لمقابلة القبطان.

"لقد تلقيت تعليمات من قائد الحامية هنا. الموقف هنا يتميز بالخطورة – ليس مسموحاً لنا أن ننزل أي لاجئ عن ظهر السفينة، خوفاً من اندلاع شغب بين المدنيين. سيسمح فقط لمجموعة صغيرة منكم أن تنزل إلى الشاطئ لتتمون. فهل هذا واضح؟".

"ولكن...".

"بدون ولكن. إنني أخبرك بالحقيقة، أيها الشركسي: إن حياتي نفسها في خطر هنا. إن الجزيرة في حالة هيجان ولا يريد الحاكم أية مشاكل إضافية في منطقته. سيعطي أوامر بإطلاق النار على أي شخص يغادر السفينة بدون تصريح منه – إحرص على نفسك".

كانت الحراسة على ميناء فماغوستا هذا مشددة من قبل القوات العسكرية والشرطة الخاصة على السواء.

حدَّق تيمور في الشمس بعينين نصف مغمضتين، واستعمل منظاره الميداني لمسح نقاط التفتيش، خطوط من الجنود فوق المتاريس القديمة، مجموعات من الضابطية يدققون في أوراق كل شخص متواجد على الرصيف. كان ضباط أتراك آخرون يصعدون إلى السفن يتفحصون قوائم الركاب ويفتشون الحمولات بحثاً عن البضائع الممنوعة والمهربة – خاصة البنادق المرسلة إلى الثوار اليونانيين. في ناحية الميناء، استطاع أن يرى مجموعات عمال

الميناء اليونانيين الغاضبين لإجبارهم على التخلي عن مواقعهم وأعمالهم لأولئك الرؤساء الأجانب.

سأل تيمور "ما الذي يجري هنا؟ لست أعرف شيئاً عن هذا المكان. إن الجزيرة تابعة لتركيا، أليست كذلك؟ بالتأكيد؟".

أجابه رضوان "إن قبرص تركية بكل تأكيد لكن الجميع قد وضع نصب عينه احتلال هذا الموقع، اليونانيون، الروس، حتى البريطانيون عليهم لعنة الله! إنها مفتاح الأمن لكل هذه المنطقة... ولا يريد السلطان أن يتهاون ويخاطر. الأفضل لنا أن نعيد تموينننا ونخرج من هنا بسرعة".

عاد تيمور إلى جماعته، المنتظرين بصبر على السطح العلوي حتى توضع خشبات العبور على الجانب تمهيداً لنزولهم إلى البر.

أعلن لهم "لا يمكننا أن ننزل إلى الشاطئ. مجرد قلة منتقاة، لإحضار التموين والعودة. الوضع هنا خطير جداً. أعتقد أن هذا هو السبب في عدم رسو القبطان هنا من قبل".

تهاوت حليمه مقرفصة على عجزها في مقدمة الصف.

"يا تيمور! هل هناك مكان في كل الدنيا لا توجد فيه حرب!".

للمرة الأولى، بكت حليمه.

ران على حشد الركاب الصمت. تراجع معظمهم إلى أمكنة استراحتهم، واكتفوا بالتكور فوق مقتنياتهم. أدرك تيمور أن عليه أن يتصرف بسرعة "من الذي سيتطوع؟ أدهم – يجب أن تجيء معي أنت وأربعة آخرين!".

لكن أدهم رفض "لست ذاهباً، ولا أحد من رجالي أيضاً. لست أرغب في أن يقبض علي هؤلاء الجنود أو "الضابطية" الواقفين تحت. ما تزال هذه هي تركيا – وأنا ما زلت رجلاً هارباً مطلوباً".

لقد كان محقاً – وكان يمتلك الذهب.

قال تيمور "حسناً. سأذهب أنا وآخذ عمر معي. حمزه؟ من غيره؟"

في نهاية المطاف غادرت مجموعة من ستة شراكسة المركب، حاملين كيسين أو ثلاثة من المقتنيات التي تثير الشفقة، المقصود بها المبادلة بالطعام. وحده تيمور كان يحمل أي شيء له قيمة حقيقية – بعضاً من مسكوكات أدهم الذهبية النفيسة.

سمح لبحارة السفينتين بإعادة ملء جميع البراميل بالماء من قبل رئيس المرفأ – فهنا على الأقل، جعلت خزانات المياه العميقة المبنية تحت البلدة منذ العصور الوسطى، المياه الحلوة متوفرة بسهولة لجميع المسافرين.

أثناء ذهاب تيمور إلى سوق فماغوستا، حضر "الضابطية" للتدقيق في قوائم ركاب السفينتين. لعن أدهم وجلاوزته أنفسهم في هذه اللحظة على عدم الذهاب مع تيمور. ذهب أدهم إلى القبطان. "إذا صدر عنك ما يشير إلى أنك تحمل أحداً غير اللاجئين الشراكسة على ظهر السفينة، فلن تعيش لتشاهد يوماً آخر أيها القبطان".

امتدحه رضوان قائلاً "لا بد وأنك ذلك يساوي مبلغاً ما بالنسبة لك".

أجابه أدهم بشراسة "لن أعطيك قرشاً صغيراً واحداً". واستدار مبتعداً.

أسرع مخترقاً جموع الشراكسة المحتشدين على السطح الأمامي حتى عثر على رفاقه.

"تسلقوا جانب السفينة من الخارج، يا شباب، الجهة اليسرى".

سأله أمين "ما الذي ستفعله؟".

"فقط تعلقوا هناك حتى يزول الخطر. هل رأيت أولئك "الضابطية"؟ أنا لست مغرماً بالاقتراب من هذه البزات الرسمية...".

علّق أدهم غنائمه حول جسمه، وبدون أن يسمح لرجاله بالوقت بالوقت الكافي لمناقشته، انزلق إلى جانب السفينة على حبل مربوط إلى وسطه، منعقد من الطرف الآخر إلى كلاّب تحميل.

لم يتعب أحد نفسه بالتعليق على أفعاله. فقد كان الشراكسة ينظرون إلى عصابة أدهم باحتقار. وكل ما يفعله كان شائناً ولا يهمهم في شيء.

صعد "الضابطية" بعد ذلك بوقت قصير لتفحص قائمة الركاب. ألقوا نظرة واحدة على وجوه الشراكسة التي تعاني المجاعة، وتراجعوا مذعورين.

صرخ الضابط المسؤول "يا قبطان! سوف نرسل طبيباً عسكرياً إلى ظهر السفينة هنا – لن أسمح لرجالي أن يتفحصوا هويات هذه المجموعات المصابة بالإسقربوط. يا الله! إن النتانة هنا لا تحتمل!".

دفعت حليمه بنفسها إلى الأمام بشجاعة "لسنا مصابين بأية حمى" وهزت قبضتها في وجه الضابطية "فلا تتجرأ على إهانتنا، أيها الشاب! نحن جميعاً أناس نظيفون وشرفاء، كل ما نحتاجه هو الماء والطعام!". اندفعت منها الكلمات بلغة تركية أثقلتها اللهجة.

بدأ العديد من الشراكسة الآخرين يغمغمون معترضين. عدل "الضابطية" المرهقون في العمل (والذين هم في العادة كسالى) عن متابعة الأمر، مخافة إثارة المتاعب، وتراجعوا نازلين إلى الرصيف مرة أخرى.

بقي أدهم ورجاله ممسكين بالحبال، عائمين في المياه قريبين من هيكل سفينة رضوان. عامت أوساخ السفينة وفضلاتها قريباً منهم: كان وضعهم مقرفاً فعلاً، لكن أدهم لم يمانع.

"فقط انتظروا حتى هبوط الظلام، يا شباب، بعدها سنكون في أمان".

عاد تيمور ومجموعته من الباحثين عن الطعام في آخر النهار إلى السفينة ومعهم ثلاث من أربع عربات محملة بالمؤن. صعدت من حناجر اللاجئين صرخة تشجيع واهنة. سرعان ما انشغلت جميع الأيدي في تحميل المؤن إلى ظهر السفينة، وتحضير طعام ساخن خفيف للمرضى، وتقسيم الحصص بأكثر ما يمكن من الإنصاف.

سحب أدهم ورجاله أنفسهم متسلقين الحبال، وتعربشوا متساقطين من فوق جانب السفينة والماء ينقط من أبدانهم.

قال تيمور "ها أنت ذا" بدون أي تلميح بالسخرية.

"نعم، ها أنذا. أين هي أطعمتي؟".

ركض أمين وخطف رغيف خبز من يد رجل. بدأ يقطعه ويلتهمه، يحشو به فمه بدون تفكير، كأنه حيوان ما.

كاد الشركسي أن يعترض، لكن تيمور رفع يده. "أعط لهؤلاء الرجال نصيبهم. لقد استحقوه". قال بحزم. وهكذا نفذ الأمر. خالف أدهم ورجاله الطابور، ثم عادوا إلى زاويتهم بدون أي ينبسوا ببنت شفة.

هبط الليل – ليلة دافئة، فوقها سماء صافية تلتمع فيها النجوم. معظم الشراكسة يغطون في نوم عميق، ببطون ممتلئة.

كان أدهم ورجاله يحتفلون. معظم التموين الذي طلبوا إحضاره من سبيك كان يحتوي على تشكيلة من المشروبات الكحولية. وقد رفعت فكرة السهرة طول الليل، مع وجبة محترمة تصاحب العرق والبراندي الذي يخزنونه، من معنوياتهم إلى درجة كبيرة. كانت هناك مشكلة صغيرة تتعلق بثيابهم الوسخة. تعرّى العصاة – فرشوا ثيابهم على البالات والصناديق، وتحلقوا حول نار

صغيرة أشعلوها في مدفأة حديدية صغيرة تعمل بالفحم النباتي. لم يكن على السفينة سوى بضعة من هذه المدافئ – واحدة منها تستعملها حليمه لتحضير الأدوية، وبعض منها يتشارك فيه الركاب لتحضير الأطعمة الساخنة.

سجى الليل – وزاد صخب العصاة، لعبوا الورق: رووا النكات القذرة، وأطلقوا العنان لأخيلتهم الشهوانية.

في حوالي الرابعة صباحاً، نهض أدهم على قدميه وبدأ يؤدي رقصة ريفية. يفقش بأصابعه ويتمايل بفعل الخمرة، ويزأر بأغنيته بكل ما في رئتيه من قوة. انضم إليه رفاقه، مخمورين إلى درجة لم يعودوا فيها مبالين بكونهم يزعجون ملء سفينة من الناس المهزولين، المرضى.

صرخ فيه أحدهم "اهدأ!".

صاح آخر "أنت مجلبة للخزي!".

زمجر أدهم مجيباً "لقد أطعمتكم أيها الأنذال وملأت بطونكم!" استمر في الصراخ، والرقص في دوائر. لكنه وقع، وانطلقت قدمه بلا سيطرة، لتضرب المدفأة، تطايرت جمرات الفحم النباتي والرماد، بيضاء وحمراء، في كل الاتجاهات.

زعقت إحدى الفتيات. فقد سقط بعض الفحم على ظهرها المكشوف. نهض رجل محنقاً، يظن أن الفتاة قد هوجمت من قبل العصاة التافهين – فقد كان التهديد الذي يمثله مثل هذا الهجوم يراود معظم الفتيات على ظهر السفينة لأيام عديدة.

انفجرت الفوضى. اندفع جمع من الرجال الغاضبين باتجاه العصاة.

لكنهم تأخروا، كلهم. انطلقت الأدخنة الخانقة فوق الحبال، صاعدة نحو الشادر – فقد كانت السفينة جافة مثل عيدان الإشعال

بعد يوم في الميناء، وأصبحت جافة قابلة للاشتعال في طقس فماغوستا الصافي الجاف.

بدأت ألسنة اللهب تجري فوق الأشرعة، والحبال، نزولاً على الصواري – اشتعلت الخرق المشبعة بالزيوت، اندفعت ألسنة اللهب نازلة نحو الفتحات، منجذبة إلى الآلات المدهنة المزيتة في غرفة المحركات البخارية.

تأثير فراغي، أعقبه انفجار. ارتعدت السفينة وبدأت تميل بشكل خطر. عند طرف الرصيف، جاهد خفراء الميناء في قطع حبال الرسو، حتى تستطيع السفينة المشتعلة أن تطفو مبتعدة عن تسببها في المزيد من الأذى، باتجاه البحر المفتوح.

لم يفكر أحد في إنقاذ اللاجئين. أراد القبارصة أن يسيطروا على الأضرار ويحتووها، وأن يمنعوا النار من الانتشار نحو البضاعة وجماعة التجار، على الرصيف.

أصبح الوضع محرجاً، وكل إنسان يبحث عن خلاصه. ركض تيمور، الذي أيقظته الصرخات الطارئة الملحة، من نوم عميق، نحو مشهد الحريق في وقت كاد أن يكون متأخراً جداً.

صاح بهم "اقفزوا عن جانب السفينة! اقفزوا في البحر!".

قام بنفسه بإلقاء العديد من الأطفال والمسنين إلى داخل الماء. أدرك وهو يقوم بذلك أن العديد سيغرقون – لكن بعضهم يحتمل أن ينجو بحياته. "انج بحياتك، انج بحياتك!" كان باستطاعته أن يسمع كلمات أصلان كأنها قسم في أذنيه، بينما هو يعاني الاختناق من الأدخنة، ورأسه يحوم بالأصوات الرهيبة لأصدقائه المحبوبين، يحترقون أحياء.

***

الفصل الثامن عشر

صارع تيمور في وسط المياه، ممسكاً بالأطفال، ليرفعهم إلى درجات الرصيف، صارخاً بأعلى صوته طالباً العون من القبارصة. فجأة، لاح خطر داهم أعظم تهديداً: فقد أحرقت السفينة المشتعلة الحبال التي تمسكها إلى الرصيف وبدأت تتيه مبتعدة عن الرصيف. رأى تيمور هيكلها الهائل يلوح فوقه، ولوَّح بذراعيه بجنون ليبتعد عن مسارها. لم يكن بعض من الآخرين محظوظين إلى هذه الدرجة، فانسحبوا تحت السفينة، وهم يصرخون في مسارها التائه. ظهر الشراكسة الذين بقوا على ظهرها أن أحداً لا يفعل شيئاً ليوقف السفينة عن الانزياح – فهي بهذا على الأقل تجنب خطر إشعال الحريق في أبنية المرسى أو البضائع التي تنتظر التحميل. في النهاية، تولى رئيس الميناء السيطرة على الموقف. سمع تيمور الأوامر التي تصدر بصوت خافت من فوق رأسه.

أرسلت قوارب القطر لإلقاء حبال جديدة على السفينة المشتعلة، وتم سحبها إلى مسافة آمنة. لم يبق كبير أمل في إطفاء اللهيب، أو في إنقاذ المزيد من الناس المحاصرين على ظهر السفينة.

"آه يا إلهي!" سبح تيمور داخل الماء وهو يراقب بهلع بينما بدأت موجة إثر موجة من النساء والأطفال المذعورين يسقطون من السفينة المشتعلة إلى مياه الميناء.

كان أولئك آخر من يجازف – الآخيرين، لأنهم لا يستطيعون السباحة، والقفز بالنسبة إليهم كان يعني الانتحار.

ومع ذلك فإن الذين قفزوا إلى الماء هم الوحيدون الذين كانت لديهم أية فرصة في النجاة بأرواحهم. تحدى العديد من رجال السفينة الأخرى، اللائقون صحياً، الأوامر القاضية بعدم مغادرة

سفينتهم وغطسوا في الماء للمساعدة في إنقاذ الناس الغارقين، مما أثلج صدر تيمور. بما أن كلا السفينتين كانتا راسيتين في المياه العميقة، فإن الغطس كان حاداً، ولم تجرؤ إلا حفنة صغيرة من الرجال الشجعان على تقديم العون – وحدها تلك الحفنة قادرة على السباحة على الإطلاق. أما البقية فقد احتشدوا عند الحاجز، متألمين، مدركين أن القفز معناه المخاطرة بحياتهم وإضافة المزيد من الآلام للمأساة التي تجري أمام أعينهم.

كان يمكن للعديد من النساء، لشدة فزعهم وصدمتهم، أن يغرقوا في بضع بوصات من الماء. اندفع معظمهم إلى الماء ولم يصعدوا أبداً.

حتى أولئك الذين تمكنوا من البقاء طافين فوق الماء كانوا مقهورين بآلام الحروق التي اصابتهم، لدرجة أنهم تركوا أجسامهم تنجرف بإرادتهم في المياه الخضراء العميقة، معانقين الموت كبديل مرحب به على حياة لم يبد أنها تحمل لهم أي وعد بالسلام بعد شهور من العذاب والخوف.

صاح رئيس الميناء بالمزيد من الأوامر. ألقى عمال الميناء القبارصة على الجهة اليسرى بأطواق النجاة إلى الماء، حتى يعطوا الفرصة لبعض الشراكسة على الأقل للتعلق بها لحين قدوم قوارب الإنقاذ ووصولها إليهم. خبَّط تيمور وقاوم في المياه المختلطة بالزيوت، والتي أضيئت بنور برتقالي مريع من هيكل السفينة المشتعل. لقد كان قومه على مبعدة بضع ياردات من اليابسة – ياردات قليلة عن الحياة والسلامة، ومع ذلك فأينما نظر، كان يرى وجهاً متألماً متطلعاً إلى الأعلى، يتخلى عن الروح، ثم يغرق.

"عمر! حليمه! تسوك! رسميه! إسماعيل! بحق الله فليجبني أحد منكم! أين أنتم".

بقي تيمور يسبح في دوائر... اصطدم أحدهم به وتمسك به بقوة اليائس بحيث غطس كلاهما تحت سطح الماء. صعد تيمور

فوق وجه الماء، يشهق باحثاً عن النفس، ليواجه شكلاً يصارع. في هذه المرة كانت - يلمزخان، الفتاة ذات العينين الخضراوين من سبيك.

"الحمد الله والشكر! آه، الحمد لله والشكر!".

رفس تيمور الماء برجليه، وهو يكاد يحمل الفتاة نصف المغمى عليها إلى جانب الرصيف، حيث رفعها بضعة رجال اتراك ضخام الأجسام إلى خارج الماء. تحول لون الماء في هذه اللحظة إلى اللون الأحمر، فقد اصطبغ بدماء الشراكسة المحترقين.

غطس تيمور مرة أخرى، وقد تملكته قوى غير طبيعية لا تحل إلا في رجل يتمتع ببطولة خالصة من الأنانية. سمع صرخة طفل.

أخذ يدور صائحاً "أين، أين!" إلى أن سمع صوتاً صغيراً يتغرغر ويصدر الفقاعات قريباً منه. كان ذلك تامبي، ابن حليمه.

أمسك بالصبي بقوة، ثم أحس باندفاعة في الماء قريباً منه. صعدت حليمة إلى السطح فجأة.

"هل أمسكت به، يا تيمور؟ أنا لا أستطيع الإمساك به...!" سمع صرخة الأم الملتاعة، بينما غاصت حليمه في الماء مرة أخرى، ممسكة بتوأمها الآخر، أزرات. تأوه تيمور وغاص مرة أخرى، في محاولة لمساعدة حليمه. كان ثقل ثيابها يعيقها - لم تكن لديه فكرة كم بقيت تصارع، بينما ساقاها ملتفتين بأثوابها. آه يا إلهي، سيغرق العديد من النساء لأنهن مقيدات بهذه الطريقة....

أفلت تامبي من قبضة تيمور - فهو مذعور، يصارع، يصرخ للوصول إلى أمه وشقيقه- بدأ أزرات يصارع بدوره، وهو بعمله هذا يجبر حليمه على النزول إلى الأسفل مرة بعد الأخرى. بدأت حليمه تفقد قواها...

شهقت صارخة بتيمور "خذه!" ثم ابتعدت، وهي ما زالت تتصارع مع تامبي.

لم يكن هناك ما يمكن أن يفعله. استدار تيمور متوجهاً نحو الرصيف، ممسكاً بأزرات فوق رأسه، دافعاً الماء برجليه بكل قوته.

استمر الكابوس يتفاعل. بدا الأمر وكأنه استغرق ساعات. لكن تيمور اكتشف لاحقاً أن كل شيء حدث في أقل من ساعة من الزمن. حدثت الأزمة النهائية عندما انقلب الهيكل المحترق للسفينة في الماء، وتسبب في حصول تأثير يشبه الحوّام في البحر تسبب في اندفاع الماء إلى داخل الميناء في موجة مد عملاقة. امتصت الموجة القلة من الناجين الذين كانوا متعلقين بدرجات الرصيف - حتى واحد أو اثنين راقدين على حافة جدار الميناء، إلى داخل تلك الموجة الوحشية الأخيرة، ولم يعودوا يشاهدون أو يسمعون بعدها إلى الأبد.

في النهاية، قرابة الفجر، اكتسى ميناء فماغوستا بصمت شرير. انسحبت القلة من الأتراك القبارصة الذين أتعبوا أنفسهم ليساعدوا، وقد روّعهم الحطام البشري الراقد، ينقط الماء فوق حجارتهم القديمة المهترئة.

من مجموع يزيد عن الأنفس المئة التي كانت على ظهر سفينة تيمور، لم ينج إلا بضع وثلاثين. رقد تيمور منهكاً، وقد تملكه الأسى، يعاتب نفسه على أنه لم ينظم الأمور بطريقة أفضل. كان يفترض فيه أن يعين حراساً على أدهم ومجموعة العصاة التي معه...

رفع رأسه، وقد تملكته رغبة وحشية مفاجئة في الانتقام. إذا نجا أي من هؤلاء اللصوص الملاعين فسيقتلهم بيديه العاريتين.

صاح بذعر "لا ــ لا!" ثم سقط على ظهره مرة أخرى، ليريح وجهه على الحجارة الرطبة. كيف يمكنه أن يقول شيئاً كهذا؟ فهم في هذه اللحظة كيف أن أصلان رفض كافة الأفكار المتعلقة

بالانتقام في تلك الأسابيع الأخيرة من حياته. تمنى تيمور لو أن الله سبحانه وتعالى يسخط عليه بسبب عنف أفكاره الخارج عن السيطرة – أن يرغب في أخذ حياة شخص ما، في حين أنه لا يشاهد سوى مأساة الموت في كل مكان من حوله! إن الحياة شيء مقدس! حتى حياة الخائن التركي! لم يعد تيمور يرغب في شيء في هذه اللحظة أكثر من العثور على أصدقائه المحببين إلى قلبه، ليعرف أنه ما زال هناك ناجين يمكنه الوثوق بهم. شعر بالعزلة تطبق عليه إلى درجة أن صرخ، بصوت خارج من روحه، صوت لم يصدر عنه ولم يعرفه من قبل أبداً.

نهض واقفاً، متأرجحاً من شدة اليأس والفشل، ليبدأ بحثه بين الشراكسة الراقدين على الرصيف. احتضنه ذراعان قويتان أطبقا عليه "تيمور! آه، أحمد الله واشكره على تلطفه ورحمته!".

بكر عمر على كتفه، وقبل وجهه مراراً وتكراراً.

غمغم تيمور "لقد رايت تلك الفتاة – فتاتك، فيروز..." وهو يريح رأسه على كتف عمر العريض.

انتحب عمر "لقد أنقذت حليمه..".

"هل فعلت حقاً، الحمد لله والشكر! يجب أن ننقل الشراكسة إلى السفينة الثانية لتساعدنا – نطلب من رئيس الميناء أن يسمح لهم بالخروج!".

"إسماعيل؟ رسميه؟" سأل عمر، بعينين مفتوحتين على اتساعهما.

"تعم، لقد رأيتهما – أظن ...".

"أزرات... نعم..."

"ساعدني!" تعلق بتيمور رجل آخر، ذهب الخوف بعقله – كان ذاك حمزه، المزارع، يحمل بين ذراعيه أحد أطفاله، في حالة

غيبوبة. صاح عمر منادياً على أحد القبارصة – فهؤلاء البحارة يعرفون ما يجب عمله، دسّ الرجل إصبعيه في حلق الطفل ليجبره على تقيؤ ماء البحر وملء رئتيه بالهواء. أمسك حمزه برأسه وقد أصابه مسٌ من الجنون "زوجتي!" صرخ ملتاعاً "أين هي زوجتي وأين ابنتي! يا الله، الله، الله..."

استمر الوضع على هذا الحال طيلة الليل، وصلت الصرخات من السفينة الثانية إلى حد الشغب.

أمسك تيمور ببحار وصاح به ليذهب إلى قائد الحامية ويطلب منه إلغاء الأمر بعدم نزولهم إلى الشاطئ.

بات تيمور يلقي بالأوامر يمنة ويسرة، أمسك بالناس بقوة ليجبرهم على تنفيذ مطالبة، حاول أن يهدئ الرعب العام. لحقه عمر بنفس الأسلوب، ولكن مع تصاعد أرقام الخسائر، لم يعد أي منهما قادراً على التعامل مع الوضع. في نهاية الأمر، تثاقل تيمور نحو زاوية في الرصيف، وانهار. بعدها حملته أيدٍ حازمة جافة، وأخذته بعيداً عن المناظر الجهنمية. فقد سمح في النهاية لشراكسة السفينة الثانية بالنزول عن السفينة لمساعدة بني جلدتهم. سرعان ما أخذ الشراكسة يعتنون ببعضهم، وابتدأت حالة الذعر تتراجع. بمجرد أن أدرك تيمور ذلك، سمح لنفسه أن تنزلق في اللاوعي. أبناء جلدته... لقد كان بعض من أبناء جلدته يتولون تصريف الأمور.

عندما استفاق تيمور، شعر بحركة تحته. نهض جالساً فاصطدم رأسه بسرير مهجع. كان على ظهر سفينة، في سطحها السفلي، مجرداً من ثيابه وملفوفاً بملاءة قطنية.

صارع تيمور للخروج من القمرة.

"من هناك! أين أنا بحق الجحيم!".

خرج قبطان السفينة، لم يكن رضوان، بل شخص آخر من أصول يونانية، من قمرة مجاورة، يحمل بوصلة وريشة كتابة في كل يد.

"لقد استيقظت. اجلس مكانك. فأنت لست في وضع صحي يسمح لك بالتجوال". أمر القبطان.

"كم من الوقت مضى علي وأنا نائم؟".

"نائم؟ بل قل غائباً عن الوعي! مصاب بالهذيان! لا بد ونك أصبت بعدوى حمى من نوع ما في فماغوستا".

هز تيمور رأسه نفياً "لم تكن حمى...".

نفض القبطان كتفيه "على أية حال. لقد أمرنا حاكم فماغوستا بمغادرة الميناء. فهو لم يكن بالضبط- متعاطفاً".

لم يستطع تيمور أن يصدق ما تسمعه أذناه. "أين أنا؟"

"هذه هي الباخرة الثانية في القافلة. لقد التقطنا ما استطعنا جمعه من الناجين ثم خرجنا بسرعة من هناك. تقوم النساء بتمريض المرضى والجرحى بأفضل ما يستطعن على السطح الخلفي. أملنا الوحيد هو في الوصول إلى فلسطين بأسرع ما نستطيع. خمسة أيام، إذا لم تهب عواصف. يبدو الطقس حسناً حالياً. والحمد والشكر لله."

نظر القبطان خارجاً من شباك قمرته إلى خط أفقي أزرق بحري – بركة الطاحون الهادئة في البحر الأبيض المتوسط.

بدأ تيمور يرتجف "أنا لا أصدق ما يجري."

وضع القبطان يداً ضخمة على كتفيه "نحن لم نتعارف. اسمي أدامو. لست مسلماً مثل قبطانكم رضوان، ولكنني قبطان حاذق وسوف أحاول أن أساعدكم أيها الناس: إنني من سالونيك – لقد

رأيت الكثير جداً من الشراكسة هناك. لقد عانوا بشدة. أنا لست رجلاً سيئاً. الحقيقة هي، إنني لا أحب العثمانيين كثيراً أنا الآخر."

استمر في الدردشة، محاولاً أن يهدئ أعصاب تيمور قليلاً، لأنه أدرك أنه بمجرد خروجه من القمرة، سوف يضطر إلى تولي قيادة ظرف في منتهى الجدية. فقد كان الشراكسة الجرحى يعانون بدرجة رهيبة. لم يشعر القبطان أدامو بأي حسد تجاه هذا الشاب على مهمته في الحفاظ على معنويات جماعته التي دهمتها الخطوب المدلهمة.

سحب تيمور نفسه بصعوبة بالغة وهو ذاهل، ويعاني من آلام نفسية وبدنية مبرحة، وخرج إلى سطح السفينة. لسعت الشمس عينيه. من كل مكان حوله، رفع الشراكسة الذين لم يكن يعرفهم وجوههم إليه وكأنما يفعلون ذلك لشخص ما يجسد منقذهم وملاذهم الأخير.

كانوا أناساً طيبين كلهم، هؤلاء الشراكسة – وهم في معظمهم القادمون الجدد الذين تجمعوا في سبيك. أجال تيمور بصره في الحشد باحثاً عن لمحة لوجوه مألوفة. الحمد لله– كان هناك العديد ممن يعرفهم ويحبهم. كانت حليمه هناك مع توأميها: كذلك هناك رسميه وابنها إسماعيل، وابنتها المتبناة الشقراء الصغيرة سوسا – كذلك لاحظ وجود ساكنات، شقيقة زوج ماجده – لكنه لم ير زهره، حماة ماجده، ولا العديد من النساء والأطفال الآخرين، قريبات حسن، ولا كمال ولا زوجته، مع أنه تم إخراج ابنتيه الصغيرتين من الماء: ولا تسوك، ولا حتى العجوز تامبي، والد حليمه...

وهكذا استمر التعداد، وذاكرة تيمور تجري مستعرضة أسماء العائلات التي ساعدها في عبور الجبال، وجرها عبر السهول، دفعها صاعداً بهم الصخور والحجارة التي يستحيل تسلقها... لم يكن أدهم وعصابته على ظهر السفينة، فكر تيمور أنهم لا بد أنهم قد غرقوا في البحر، مع غنيمتهم.

اقتربت منه فتاة صغيرة "أين هو الرجل الضخم؟" سألت هامسة "ذلك الرجل الذي أطعمني حبات القطين؟ إنني جائعة.." خرج أبوها من بين كومة من الأجساد النائمة، ووبخها لتعود "نفيسة! اذهبي إلى أمك!" استدار إلى تيمور "إنني آسف، لقد تذكرت أصلان بك. لقد تقابلنا في ميناء سبيك. أنا ماميلا. من دوبروجا، أصلاً... لقد تشرفت بمقابلتك، يا تيمور القباردي".

كان وجه الرجل محفوراً بعمق بخطوط المعاناة والتضحية، ومع ذلك فهو هنا، يمد يداً دافئة ملؤها الصداقة، ويقدم لتيمور دعمه واحترامه.

اعترف ماميلا "لقد كدنا أن لا نجيء، فقد كنت مذهولاً" بدا عليه الخجل من نفسه. "لقد أقنعني رفيقك أصلان بك كما أقنع عائلتي. ما كنت سأبقى على قيد الحياة بدونكما أيها الرجلان الفاضلان. إنني مستعد وراغب في عمل أي شيء، أي شيء لمساعدتكم...".

عادت الفتاة الصغيرة الجريئة راكضة مرة أخرى وسحبت كم تيمور "إن أبي يستطيع السباحة، لقد رأيته. سحب الأطفال من الماء، هكذا، هل رأيت؟" رفعت يدها ولوحت بذراعيها، كأنها تسبح.

ركع تيمور وداعبها "إن أباك رجل شجاع جداً، وأنت فتاة شجاعة، يؤسفني أنني لا أحمل أي حبات قطين لك، لكننا سرعان ما سنأخذك إلى حيث السلامة والأمان".

شق طريقه نحو حليمه، التي كانت مسؤولة عن تمريض أولئك الذين عانوا مثله من الهذيان. يبدو أن العديد من الناس قد مرضوا بأنواع الحمى بعد تجاربهم المرعبة في ميناء فماغوستا. رفعت حليمه يدها في حبور "آه، تيمور! أرى أنك نهضت وبصحة جيدة... أنت شاب قوي البنية والحمد والشكر لله".

تبادلا عناقاً سريعاً. نظرت حليمه بعمق في عينيه. فهم تيمور ما كانت تفكر فيه، وهو أنه بتعاونهما، تمكنا من إنقاذ ولديها – غاية وجودها كله، وأن عرفانها لا يعرف الحدود، لم تكن هناك أية حاجة لقول أي شيء، فقد كان تيار التفاهم بينهما قوياً عميقاً.

سألته حليمه بصوت ناعم "كم يوماً بقي لنا حتى نر سو، يا تيمور؟".

"أظن أن القبطان قال خمسة أيام أو ستة...".

هزت حليمه رأسها بأسى "هنالك العديد ممن لن يتمكنوا من الوصول أحياء. ليس لدينا ما يكفي من الماء لجميع ضحايا الحمى هؤلاء. ولا ما يكفي من الطعام. فقد غادرت السفينة في عجالة، ولم يتسع الوقت لتحميل مؤن إضافية لنا نحن الناجين... الناس الطيبون يشاركوننا زادهم، ولكن ببساطة، لا يوجد لدينا ما يكفي الجميع".

"حسناً، يجب أن نفعل أفضل ما بوسعنا".

"إذن ساعدني في الحصول على المزيد من غطاء الشوادر فوق هؤلاء الناس المرضى، لإبعاد الشمس عنهم، سيكون بينهم بعض من سيموتون عطشاً...".

وهكذا أصبحت مهمة تيمور الأولى هي الطلب من القبطان أمادو بعض قطع الشراع الإضافية، وأن يأمر مجموعة من الشراكسة بنصب مظلات بأفضل ما يمكنهم، فوق المرضى... والمشرفين على الموت، لم يتخيل أحد إمكانية أن تصبح الرحلة أكثر سوءاً مما هي عليه، لكنها ساءت. فقد سكنت الريح واضطرت السفينة إلى الاعتماد على محركاتها البخارية. فأصبحت نتانة المدخنة أمراً لا يصدق، والضجيج لا يعرف الاستكانة.

خلال هذا الوقت كله، لم تتوقف الشمس عن لسعهم بسياط اشعتها. فالوقت أواخر الربيع في شرق المتوسط... والأيام في

Twitter: @ketab_n

منتهى الهدوء والروعة، حين بدأت النوارس والطيور الجائعة الأخرى تلاحق السفينة.

وكانت للطيور أسبابها، لأنه في كل يوم، كانت تجرى عمليات دفن في عرض البحر.

ابقى خطر انتشار الأمراض وأنواع الحمى بالعدوى كل فرد على الباخرة في قبضة التوجس. اضطروا إلى التخلص من الجثث فوراً، حسب أوامر القبطان.

أخذ الأكبر سناً ثم الأصغر يضعفون واحداً بعد الآخر. أن ينجو أحدهم من حريق المرفأ – ويموت الآن! كثيراً ما جلس تيمور إلى جانب عمر، في الليل البهيم، يصارع غضبه تجاه الآلهة العظمى على هذا العذاب الإضافي الذي أنزلته فيه حتى بات لا يحتمل.

قال له عمر مشجعاً "يجب أن نستمر" بأسلوبه اللطيف وكلماته المنتقاة بعناية. غطى تيمور وجهه، وقد تذكر كم مرة جلس إلى جانب أصلان، وكيف نجح كلاهما في أن يبقي أحدهما معنويات الآخر في مستوى عالٍ.

في إحدى الليالي، جاء القبطان أدامو يبحث عنهما. كانت السماء سوداء لكن الطقس كان دافئاً، والنجوم براقة إلى درجة أن المرء يخالها تدور على محاورها فوق الرؤوس. كان تيمور مذهولاً برهبة الكون وعظمته، كبره غير المتناهي، ولذلك لم يستطع في البداية أن يعثر على الكلمات التي يرد بها على القبطان أدامو حين كلمه.

"هل تسمعني، أيها الشاب؟ إنني أقول أنه يفترض فينا أن نصل اليابسة بحلول الغد. بعيد الظهيرة، هذا إذا صمدت المحركات. اللعنة على هذا الهدوء – لو كان لدينا بعض الريح، لكنّا قد وصلنا منذ زمن".

"لو كان لدينا بعض الريح..." لم يستطع تيمور أن يتكلم. كان يراقب حليمه وزوجة ذلك الرجل الوافد الجديد، الآتي من دوبروجا، يحممون فتاة صغيرة، يجهزونها لطقوس الجنازة. نفيسة الصغيرة... لا حبات قطين جديدة لنفيسة بعد الآن.

كان بوسعه أن يسمع رسميه تنتحب قريباً منه. كان إسماعيل قد وصل إلى الرمق الأخير. أنقذ من البحر، لكنه الآن جاهز للذهاب.

زحف تيمور مقترباً، وجلس إلى جانبه "هل سمعت يا إسماعيل، ما قاله القبطان لتوه؟ سوف نرى اليابسة غداً. هيا يا صديقي، لا تستسلم الآن".

أدار إسماعيل وجهه إلى ناحية. "أعرف ذلك، يا تيمور. إنني أحاول جهدي. لقد بذلت والدتي الحبيبة جهوداً مضنية لتمريضي. يجب أن لا أخذلها،ولكن كيف أستطيع –" توقف عن الكلام إذ داهمته نوبة من السعال.

"ما الأمر يا إسماعيل؟ لا تستعجل، خذ وقتك..." انحنى تيمور مقترباً من رفيقه في الفروسية، شريكه الشجاع في الغارات العديدة ورحلات الصيد في ثنايا الجبل الأسود.

"كيف سأعيش هنا؟ إنها الحرارة يا تيمور. أنا لا أستطيع العيش في الحرارة العالية..."

لم يتمكن تيمور من التفكير في شيء يقوله. فقد كان هذا بالنسبة له هو الآخر، التخوف الأكبر. كان قد فاتح أصلان به قبل عدة أشهر. فهو جبلي في قلبه – يحتاج إلى البرودة، الخشونة، الجبال العالية التي ينتعش فيها ويرفع صوته صارخاً. حتى في هذه اللحظة، أصبح بوسعه أن يشم رائحة الأرض، وكانت رائحتها جافة، مغبرة، نتنة، جعلته يحس أنه قريب من الاختناق. نظر حواليه. رأى نفس الإحساس ينتشر بين العديد من الشراكسة الآخرين مثله. تخيل، وهو جالس في العتمة، ما كان ينتظره

مستقبلاً. ساحل صحراوي، الاتساع الحار الميت لبلاد قاحلة. لم يتمكن تيمور أن يفكر في أي شيء مخفف يمكنه أن يقوله لإسماعيل حول مستقبله. اكتفى بالاستلقاء إلى جانب صديقه واضعاً ذراعه على كتفه، راجياً أن ينتقل بعض من إرادة العيش لديه إلى إسماعيل.

لم ينم من الشراكسة إلا القلة في تلك الليلة الأخيرة. كانوا مدركين أنه ما أن تشرق الشمس، حتى يشاهدوا وجهتهم - بغض النظر عن مقدار بعدها وخلوها من التضاريس المميزة. ستكون هناك اليابسة.

عندما بدأت خيوط النور الأولى تنتشر على شكل أصابع مترددة عبر البحر، مثل يد سارقة خفيفة متلصصة، تحاول الوصول إلى كنز، شاهدوا وجهتهم. عثرت أشعة النور على سفينتهم، وكأنها تسحبهم إلى الأمام، تجرهم إلى قدرهم.

خيط متماوج من الصفرة فوق امتداد عريض من الفضة والذهب المتلألئين هو البحر. أصبح الخيط شريطاً، قطعة رفيعة من الرمال، مثل وشاح ذهبي ملقى على نصل فضي يتلألأ عندما تمسه الشمس. هي منَّة، كأنما هبطت عليهم من يد عظمى. منظر دفع بالدموع إلى أعينهم، لشدة بريقه. اضطروا إلى ترفيف أهدابهم، حتى لا يصابوا بالعمى، مع كل لمحة اضطروا إلى الإتيان بها. شريط ساحلي خالٍ من الملامح البارزة - وفي المدى جدران رملية متهالكة لأسوار حصن مدينة قديمة.

ركض تيمور نحو منصة القبطان، وسأله بحدة "أين نحن؟"

نفض القبطان أدامو كتفيه "نحن في فلسطين. وتلك هي عكا - المدينة الكبيرة التالية إلى الجنوب من هنا هي حيفا. إن المدن كلها متشابهة بالنسبة لي في فلسطين. يتحتم علي أن أنزلكم على اليابسة خارج أسوار المدينة. لا تستطيع سفينتي أن ترسو في المرفأ. صغير جداً. ستخرج بعض القوارب لإنزالكم - تأكد من أنك لا

تدفع أكثر من قرشين أجرة حمولة كاملة للقارب، ويجب أن تحاول أن تحصل على أفضل صفقة".

شعر تيمور بالامتنان. "أشكرك، أيها القبطان" لأنه أدرك أن ما فعله القبطان أدامو يفوق بكثير ما كان القبطان الآخر، رضوان، سيفعله، بالنظر إلى الأمراض ومعدل الوفيات بين أولئك الذين بقوا على ظهر السفينة.

هز القبطان أدامو رأسه باتجاه الشريط الساحلي "هل ترى؟ لقد قلت لك. سيفعلون أي شيء مقابل قطعة نقدية أو أكثر."

انطلق العديد من أفقر سكان مدينة عكا مستخدمين كل ما توفر لهم من وسائط نقل بحرية، يجدفون بكل قواهم، للوصول إلى السفينة البخارية وعرض خدمات "الإنزال".

ما ظهر وكأنه مسافة رهيبة – الشاطئ – ثبت أنه قريب نسبياً. كان الشاطئ مخضراً بدرجة مفاجئة، وليس صحراء كما توقع الجميع. أصبح باستطاعته أن يرى الأشجار الخضراء العالية تتأرجح مع النسائم البحرية. ارتفعت معنويات تيمور. حين تلفت حواليه، استطاع أن يرى حليمه وباقي النساء من مجموعته ينظرن إلى الشاطئ، وقد علت وجوههن المكدودة الابتسامات وبدأت تنتشر رويداً رويداً.

اقترب الأسطول الصغير خلال دقائق معدودات، وطغت الضجة التي صدرت عن رجال المراكب المحليين على باقي الأصوات حتى أزعجت أعصاب الجميع على السفينة.

اندفع تيمور خلال حشد الشراكسة الذي تجمع على الجهة اليمنى في السفينة، يلوحون ويشيرون ويتساومون مع أصحاب المعديات ذوي البشرات السمراء الواقفين تحت السفينة. لم يتمكن تيمور من معرفة مصدر الطاقة التي أحسَّ بها في كيانه. أحسَّ بالتعب والأمل وقت واحد. عاد إلى إسماعيل، الراقد في سكون تام بين ذراعي والدته.

"والآن، يا إسماعيل، أريد منك أن تأخذ الأمور بمنتهى الهدوء وتهون على نفسك. سوف انتظر حتى يخف الحشد، ثم أحاول أن أعثر لك على قارب مزود بمظلة."

اكتفى إسماعيل، الذي كان يشعر بالذهول إلى حد ما لكونه يجد نفسه ما يزال جزءاً من العالم البشري الحي بعد ليلة تيقن فيها من أنه سيموت، اكتفى بهز رأسه موافقاً. لم يجرؤ على الابتسام، لأن شفتيه كانتا متشققتين إلى درجة أنهما ستنزفان لو ابتسم.

جاءت حليمه متثاقلة، محاطة بولديها من الجهتين.

"ستجلسان كلاكما إلى جانب رسميه الآن، والويل لكما أن تحركتما."

هز تامبي وأزرات رأسيهما. فقد تسببت مواجهتهما للموت المحتوم في فماغوستا بتهدئتهما بما لا يتفق مع شخصيتهما. لم يكثرا من الكلام، بل اتجها إلى الالتصاق ببعضهما بعضاً، ليلاً ونهاراً. تكوما قرب إسماعيل في هذه اللحظة، بدون أن يبديا أي اهتمام بمراقبة النشاط المحموم للعائلات الشركسية الأخرى، بينما يرمي أفرادها أمتعتهم إلى الأيدي المنتظرة في القوارب، وينزلون نساءهم وأطفالهم بالحبال من على جانب السفينة، يتعانقون ويتبادلون القبل قبل أن يتفرقوا في مجموعات أصغر عدداً.

استغرق العبور ساعات طويلة. غادر السفينة آخر المرضى والمصابين بحلول العصر. انضموا إلى بقية الشراكسة على امتداد من الأرض موحش، رملي، على مرمى البصر من أسوار عكا الضخمة، القلعة المسورة القديمة، المشهورة في العالم الإسلامي بمقاومتها للغزاة الأوروبيين الذين قاموا بحملاتهم باسم المسيحية – الصليبيين.

لم تعد الآن أكثر من مجرد ميناء متهدم مغبر، ممتد بمحاذاة الساحل، وواقع في خضم كومة من الصخر والمتاريس المدمرة،

وكأنما المدينة نفسها تجري استعادتها من قبل البحر ذي الأمواج اللطيفة. بعد العنف والمجد الذي شهدته في ماضيها، اكتسب اندثارها الحالي نوعاً خاصاً من السحر المتهالك، ضمن رتابة فوضوية غير متميزة.

ران صمت موحش. جلس الشراكسة في مجموعات ذاهلة، أو استلقوا تحت ظلال البطانيات والأقمشة المنصوبة على عجل. كانت الحرارة لا تطاق،لكن معنويات اللاجئين بدأت تتحسن تدريجياً. على الرغم من جو التفاؤل السائد، أدرك تيمور أن العديد من قومه سيموت ما لم يحصل على العون في وقت قريب.

مع بدء الشمس مسارها البطيء باتجاه المغيب محيلة الأفق إلى لون الذهب القرمزي، بدأت النساء في إيقاد نيران الطبخ، ووجد الأطفال الطاقة في أنفسهم لمطاردة بعضهم بعضاً قرب الأمواج التي أخذت تميل إلى الابتراد.

تناهت إلى الأسماع نغمات أكورديون عذبة شجية في المدى، تحمل لحناً شركسياً مميزاً. صاحبتها ترويدة شركسية تختلط بهبات النسيم البحري والأمواج التي تضرب الشاطئ بحياء. أضفت الشمس الغاربة شعوراً بالسلام والهدوء على الجمع، أحاسيس كان هؤلاء الناس قد نسوها لزمن مغرق في البعد.

حضر رهط من سكان عكا يسوقون أمامهم قطيعاً من عشرة خراف باتجاه المخيم. وهكذا سيتعرف الشراكسة في هذه الليلة على كرم الضيافة العربي. سيتناولون اللحم لعشائهم هذه الليلة، وربما عزفوا الموسيقى وغنوا الأغاني التي تتغنى بخلاصهم.

أغمض تيمور عينيه. فقد كان بوسعه أن يسمع كلمات صديقه ومعلمه، أصلان بك، واضحة كالناقوس "فقط تحمّل. يجب أن تنجو بحياتك. يجب أن ينجو بعضنا." لقد بر تيمور بوعده لأصلان. وها هم قومه ينعمون أخيراً بالأمان.

انفرجت أساريره عن ابتسامة كبيرة صادقة. فقد شاهد عمر وفيروز ممسكين بيدي بعضهما، جالسين على صخرة وحدهما، ينظران إلى المدى فوق البحر.

سيحيا قومه.

***

بقي الشراكسة على ذلك الشريط الساحلي من الأرض لعدة أيام. كان هناك عدد كبير من حالات الحمى التي حالت دون قيام تيمور بتحريكهم قدماً. تبع الليل النهار في سلسلة من التناقصات: الحرارة اللاسعة والبرودة المجمدة تحت النجوم.

توفي بضعة آخرون من الشراكسة على ذلك الشاطئ الرملي قرب عكا. ارتفعت الأرقام، ثم تناقصت ببطء، حتى مر يوم لم تحدث فيه أية وفاة.

ما زالت مقبرتهم موجودة حتى اليوم، ومعروفة باسم "مقبرة الشركس".

في نهاية المطاف، وصل المسؤولون العثمانيون إلى المخيم ونظموا تحرك اللاجئين إلى داخل البلاد. أعطوا بعض المال واقطعوا مساحة من الأرض قرب بحيرة طبريا لإقامتهم الدائمة.

لكن مستنقعات بحيرة طبريا لم تلائم قوم تيمور الشراكسة. فارتحلوا في مجموعتين، واحدة لتستقر في قرية كفاركما، في فلسطين نفسها - وعبر الباقون نهر الأردن إلى شرق الأردن لينتهي بهم المطاف في خرائب مدينة فيلادلفيا الرومانية.

استقروا في البداية وسكنوا الكهوف الكائنة في المدرج الروماني وحوله، لكنهم بنوا فيما بعد بيوتاً وأسسوا نمط حياة جديد يعتمد على الزراعة وتربية المواشي.

تقاطر تجار دمشق والقدس إلى هذه المنطقة، الموجودة ضمن الإقليم العثماني الإداري لبلدة السلط، للمتاجرة مع المجتمع "الأشقر" الجديد. وهكذا نشأ مركز تجاري، شكل نواة مدينة عمان العاصمة المستقبلية للمملكة الأردنية الهاشمية.

يعيش المتحدرون من هؤلاء الشراكسة الشابسوغ في بحبوحة اليوم ضمن مجتمع شمولي في ظلال الحكم الملكي المتساهل الطيب للأسرة الهاشمية المالكة.

بعد استتباب السلام أخيراً بين الأردن وإسرائيل، أصبحت مجموعتا الشراكسة في كل من عمان وكفر كما قادرتين مرة أخرى على إعادة وصل العلاقات المقطوعة منذ زمن طويل.

* * *

المؤلف في سطور

محي الدين عزت قندور هو شركسي هاجر أجداده من القفقاس إلى تركيا العثمانية ثم إلى الأردن، قرابة مطلع القــرن الماضـــي. سافر إلى الولايات المتحدة الأمريكية في فترة مراهقته وأتم دراساته الجامعية الأولى والعليا في ولايتي أنديانا وكاليفورنيا حيث حـــصل على شهادة الماجستير في الدراســـات الدوليـــة والـــدكتوراه فـــي الاقتصاد والتاريخ.

عمل قندور في حقل إدارة الأعمال مع عدة شركات متعـــددة الجنسيات في نيويورك وفي لندن لحوالي خمسة وعــشرين عامـــاً كمدير تنفيذي و/أو مستشار.

قضى أربع سنوات في أوائل السبعينات يعمل كاتب ســـيناريو ومخرج/منتج في هوليوود. كتب عدة أعمال غير روائية وله إحدى عشرة رواية تاريخية.

يوم الحادي والثلاثين من أيار عام ٢٠٠٤، منح الدكتور قندور وسام الصليب الذهبي (فوزرايديني روسّي) مـــن وزارة الثقافـــة الروسية على مساهماته الأدبية في روسيا.



M. I. Quandour

محي الدين قندور

قصة شراكسة البلقان

لم تعرف أية منطقة أوروبية هذا القدر من المعاناة والدمار اللذين شهدهما اقليم البلقان, وبشكل خاص منذ نهاية الحرب العالمية الثانية. ربما تكون الفظاعات التي حدثت - وتستمر في الحدوث - في هذه المساحة من الأرض, التي كانت تسمى يوغوسلافيا سابقاً, متفردة في شراستها وانعدام انسانيتها, حيث يمكن استعراض انعدام انسانية بني البشر تجاه بعضهم بكل المظاهر الرهيبة, ويحتمل بثها احياناً عن طريق التلفاز الى العالم.

ما هو غير معروف للغالبية منا هو أن انواع الوحشية نفسها قد حدثت قبل حوالي ١١٧ سنة في اقليم البلقان. كانت القضايا نفسها كما هي الآن: تطهير عرقي بمعدل مدمر. كانت بذور "الكراهية" والعنصرية منغرسة بعمق في ذلك الوقت, لتظهر مرة أخرى بعد اكثر من مئة عام بكامل عنفها.

على أية حال, لم تكن هناك أية تغطية تلفزيونية ولاوسائط إعلامية حديثة عامي ١٨٧٧-١٨٧٨ لبث الأعمال الوحشية: لم تكن هناك قوات حفظ سلام من الأمم المتحدة لتشهد على المذبحة. كانت اطراف النزاع هم المسيحيون والمسلمون أنفسهم. لم يطلق على الضحايا وقتها اسم البشناق: بل كانوا الشراكسة.

جرت كتابة بضعة كتب ومقالات حول "الفظائع البلقانية" بعد هزيمة الأمبراطورية العثمانية في أوروبا. لكن أحداً لم يزعج نفسه لأن يبحث في خلفية الناس "المزعومين" الذين إقترفوا تلك الفظائع أو الذين أقترفت بحقهم تلك الفظائع. لقد دونت تلك الفظائع على اعتبارها حرب إستنزاف بين المسلمين (الأتراك) والمسيحين (الصرب): شكلاً من الصليبية السلافية حينما قدمت روسيا لنجدة أشقائها السلافيين بقوة السلاح.

ينبغي أن يكون السؤال الذي يدور في عقل كل شخص اليوم هو: هل سيكرر التارخ نفسه؟ هل سيجر اقليم البلقان العالم الى حرب أخرى ذات أبعاد كارثية؟ قد لا تحوي هذه الرواية التاريخية جميع الأجوبة. لكنها تقدم الخلفية التي تتكشف عنها أحداث الحاضر المأساوية. في أفضل الأحوال, هي إعادة احياء لفصل تاريخي صغير من ذلك السجل الأسود الذي أهملته دراسات ومقالات العالم.

ISBN 00953-36-832-5

